التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تفسير سور

الحجر - النحل
الإسراء - الكهف

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

المجلد الثامن



دار المعارف

مراجعة

د. عبد الرحمن العدوى
الأستاذ بكلية الدعوة الإسلامية

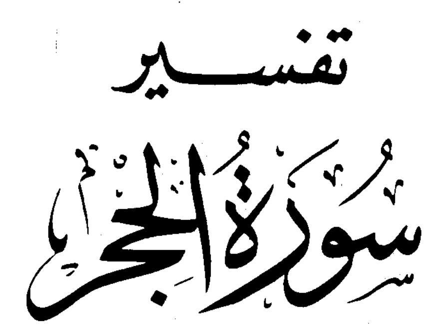
الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

صدق الله العظيم




تفسير
سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بسورة الحجر

١ - سورة الحجر ، هى السورة الرابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فقد ذكر الزركشى والسيوطى أنها نزلت بعد سورة يوسف[١] ..

وعدد آياتها تسع وتسعون آية .

٢ - وسميت بسورة الحجر ، لورود هذا اللفظ فيها دون أن يرد فى غيرها وأصحاب الحجر هم قوم صالح - عليه السلام - ، إذ كانوا ينزلون الحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو المكان المحجور ، أى الممنوع أن يسكنه أحد غيرهم لاختصاصهم به .

ويجوز أن يكون لفظ الحجر ، مأخوذ من الحجارة ، لأن قوم صالح - عليه السلام - كانوا ينحتون بيوتهم من أحجار الجبال وصخورها ، ويبنون بناء محكما جميلاً .

قال - تعالى - حكاية عما قاله نبيهم صالح لهم - ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾[٢] ومساكنهم ما زالت آثارها باقية ، وتعرف الآن بمدائن صالح ، وهى فى طريق القادم من المدينة المنورة إلى بلاد الشام أو العكس ، وتقع ما بين خيبر وتبوك ...

وقد مر النبى - ﷺ - على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك فى السنة التاسعة من الهجرة ...

٣ - وسورة الحجر كلها مكية .

قال الشوكانى : وهى مكية بالاتفاق . وأخرج النحاس فى ناسخه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحجر بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله »[٣] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه السورة أنها مكية ، دون أن يذكر فى ذلك خلافاً .

---

(١) راجع البرهان للإمام الزركشى ج ١ ص ١٩٣ والاتقان للامام السيوطى ج١ ص ٢٧ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٤٩

(٣) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ١٢٠

وقال الآلوسى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير - رضى الله عنهم - أنها نزلت بمكة . وروى ذلك عن قتادة ومجاهد .

وفى مجمع البيان عن الحسن أنها مكية إلا قوله - تعالى - ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ﴾ وقوله - تعالى - ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين ﴾[1] .

والحق أن السورة كلها مكية ، وسنبين - عند تفسيرنا للآيات التى قيل بأنها مدنية - أن هذا القول ليس له دليل يعتمد عليه .

٤ - (ا) وعندما نقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل ، نراها فى مطلعها تشير إلى سمو مكانة القرآن الكريم ، وإلى سوء عاقبة الكافرين الذين عموا وصموا عن دعوة الحق ..

قال - تعالى - ﴿ الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين . ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ .

(ب) ثم تخبرنا بعد ذلك بأن الله - تعالى - قد تكفل بحفظ كتابه ، وصيانته من أى تحريف أو تبديل ، وبأن المكذبين للرسول - ﷺ - إنما يكذبونه عن عناد وجحود ، لا عن نقص فى الأدلة الدالة على صدقه - ﷺ - .

قال - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون . ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ .

(جـ) ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، وعلى سابغ نعمه على عباده ...

قال - تعالى - ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجًا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾.

(د) ثم حكت السورة قصة خلق آدم - عليه السلام - ، وتكليف الملائكة بالسجود له ، وامتثالهم جميعًا لأمر الله - سبحانه - ، وامتناع إبليس وحده عن الطاعة ، وصدور حكمه - سبحانه - بطرده من الجنة ...

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢ .

قال - تعالى - ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾..

(هـ) ثم قصت علينا السورة الكريمة بأسلوب فيه الترغيب والترهيب ، وفيه العظة والعبرة ، جانبًا من قصة إبراهيم ، ثم من قصة لوط ، ثم من قصة شعيب ، ثم من قصة صالح - عليهم الصلاة والسلام - ...

قال تعالى - : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ .

(و) ثم ختمت سورة الحجر بتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من قومه ، وأمرته بالصفح والعفو حتى يأتى الله بأمره ، وبشرته بأنه - سبحانه - سيكفيه شر أعدائه ، وبأنه سينصره عليهم ...

قال - تعالى - : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ .

ومن هذا العرض الإجمالى للسورة الكريمة ، نراها قد اهتمت اهتمامًا واضحًا بتثبيت المؤمنين وتهديد الكافرين ، تارة عن طريق الترغيب والترهيب ، وتارة عن طريق قصص السابقين ، وتارة عن طريق التأمل فى هذا الكون وما اشتمل عليه من مخلوقات تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته وسابغ رحمته ....

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة - صباح الأربعاء

٩ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٢ هـ - ٣ من فبراير سنة ١٩٨٢ م

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

سورة الحجر من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ﴿ الر ﴾ .

وقد بينا - بشىء من التفصيل - عند تفسيرنا لسورة : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ...

آراء العلماء فى هذه الحروف التى افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم .

وقلنا ما خلاصته : من العلماء من يرى أن المعنى المقصود منها غير معروف لأنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ..

ومنهم من يرى أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه ، بل هى أسماء للسور التى افتتحت بها ... أو هى حروف مقطعة بعضها من أسماء الله ، وبعضها من صفاته ...

ثم قلنا : ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ؛ للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مَرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل .

وفضلاً عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة ، يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا حكمًا وهدايات قد تكون سببًا فى استجابتهم للحق ، كما استجاب صالحو الجن الذين حكى الله - تعالى - عنهم أنهم عندما استمعوا إلى القرآن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبًا . يهدى إلَى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا .... ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ تلك ﴾ يعود إلى الآيات التى تضمنتها هذه السورة ، أو إلى جميع الآيات القرآنية التى نزلت قبل ذلك .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، ولا يقدح فى هذا ، ذكر لفظ القرآن بعده ، لأنه - سبحانه - جمع له بين الاسمين تفخيمًا لشأنه ، وتعظيمًا لقدره .

و ﴿ مبين ﴾ اسم فاعل من أبان الذى هو بمعنى بان ، مبالغة فى الوضوح والظهور .

قال صاحب الصحاح : يقال : « بان الشىء يبين بيانا ، أى اتضح ، فهو بين وكذا أبان الشىء فهو مبين ... ».

والمعنى : تلك - أيها الناس - آيات بينات من الكتاب الكامل فى جنسه ، ومن القرآن العظيم الشأن ، الواضح فى حكمه وأحكامه ، المبين فى هدايته وإعجازه فأقبلوا عليها بالحفظ لها ، وبالعمل بتوجيهاتها ، لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .

قال الآلوسى : وفى جمع وصفى الكتابية والقرآنيه من تفخيم شأن القرآن ما فيه ، حيث أشير بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها ، وبالثانى إلى كونه ممتازًا عن غيره ، نسيجا وحده ، بديعًا فى بابه ، خارجًا عن دائرة البيان ، قرآنًا غير ذى عوج .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن الكافرين سيندمون بسبب كفرهم فى وقت لا ينفع فيه الندم ، فقال - تعالى - : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

قال الشوكانى ما ملخصه : قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من ﴿ ربما ﴾ ، وقرأ الباقون بتشديدها .. وأصلها أن تستعمل فى القليل وقد تستعمل فى الكثير .

قال الكوفيون : أى يود الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين .

وقيل : هى هنا للتقليل ، لأنهم ودوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها لشغلهم بالعذاب .... »[2] .

وقد حاول بعض المفسرين الجمع بين القولين فقال : من قال بأن ﴿ ربما ﴾ هنا للتكثير نظر إلى كثرة تمنيهم أن لو كانوا مؤمنين ، ومن قال بأنها للتقليل نظر إلى قلة زمان إفاقتهم من العذاب بالنسبة إلى زمان دهشتهم منه ، وهذا لا ينافى أن التمنى يقع كثيرًا منهم فى زمن إفاقتهم القليل ، فلا تخالف بين القولين[3] .

والمعنى : ود الذين كفروا عندما تنكشف لهم الحقائق . فيعرفون أنهم على الباطل ، وأن المؤمنين على الحق ، أن لو كانوا مسلمين ، حتى ينجوا من الخزى والعقاب .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٣ .

(٢)تفسير فتح القدير ج ٣ ص ١٢١ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين بتصرف قليل ج ٢ ص ٥٣٧ .

ودخلت ﴿ رب ﴾ هنا على الفعل المضارع ﴿ يود ﴾ مع اختصاصها بالدخول على الفعل الماضى ، للإشارة إلى أن أخبار الله - تعالى - بمنزلة الواقع المحقق سواء أكانت للمستقبل أم لغيره .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضى ؟ قلت : لأن المترقب فى أخبار الله - تعالى - بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه ، فكأنه قيل : « ربما ود الذين كفروا ... »[1] .

و ﴿ لو ﴾ فى قوله ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ يصح أن تكون امتناعية ، وجوابها محذوف ، والتقدير : لو كانوا مسلمين لسروا بذلك .

ويصح أن تكون مصدرية ، والتقدير : ود الذين كفروا كونهم مسلمين .

وعلى كلا المعنيين فهى مستعملة فى التمنى الذى هو طلب حصول الأمر الممتنع الحصول .

وقال - سبحانه - ﴿ لو كانوا ... ﴾ بفعل الكون الماضى ، للإشعار بأنهم يودون الدخول فى الإسلام ، بعد مضى وقت التمكن من الدخول فيه .

وعبر - سبحانه - عن متمناهم بالغيبة ﴿ كانوا ﴾ ، نظرًا لأن الكلام مسوق بصدد الإخبار عنهم ، وليس بصدد الصدور منهم ، ولو كان كذلك لقيل : لو كنا مسلمين .

هذا ، وللمفسرين أقوال فى الوقت الذى ود فيه الكافرون أن لو كانوا مسلمين ، فمنهم من يرى أن ودادتهم هذه تكون فى الدنيا ، ومنهم من يرى أنها تكون عند الموت ، ومنهم من يرى أنها تكون عند الحساب ، وعند عفو الله عن عصاة المؤمنين .

والحق أن هذه الودادة تكون فى كل موطن يعرف فيه الكافرون بطلان كفرهم ، وفى كل وقت ينكشف لهم فيه أن الإسلام هو الدين الحق .

فهم تمنوا أن لو كانوا مسلمين فى الدنيا ، عندما رأوا نصر الله لعباده المؤمنين ، فى غزوة بدر وفى غزوة الفتح وفى غيرهما ، فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - : « ود كفار قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر الله للمسلمين »[2] .

وهم تمنوا ذلك عند الموت كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى آيات كثيرة منها قوله

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٨٦ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٥ .

- تعالى - : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحًا فيما تركت ... ﴾[١] .

وهم يتمنون ذلك عندما يعرضون على النار يوم القيامة . قال - تعالى - ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾[٢] .

وهم يتمنون ذلك عندما يرون عصاة المؤمنين ، وقد أخرجهم الله - تعالى برحمته من النار .

وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الدالة على ذلك منها : ما أخرجه الطبرانى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن ناسًا من أهل « لا إله إلا الله » يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قولكم « لا إله إلا الله » وأنتم معنا فى النار ؟ قال فيغضب الله لهم ، فيخرجهم ، فيلقيهم فى نهر الحياة فيبرأون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، فيدخلون الجنة . ويسمون فيها الجهنميين .

فقال رجل : يا أنس ، أنت سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » نعم ، أنا سمعت النبى - ﷺ - يقول هذا[٣] .

قال بعض العلماء : وأقوال العلماء فى هذه الآية راجعة إلى شىء واحد ، لأن من يقول : إن الكافر إذا احتضر تمنى أن لو كان مسلمًا ، ومن يقول : إنه إذا عاين النار تمنى أن لو كان مسلمًا .. كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقية ندموا على الكفر وتمنوا أنهم لو كانوا مسلمين[٤] .

وفى هذه الآية ما فيها من تثبيت المؤمنين ، ومن تبشيرهم بأنهم على الحق ، ومن حض للكافرين على الدخول فى الإسلام قبل فوات الأوان ، ومن تحذير لهم من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

ثم أمر - سبحانه - الرسول - ﷺ - بأن يذرهم فى طغيانهم يعمهون ، بعد أن ثبت أنهم قوم لا ينفع فيهم إنذار فقال - تعالى - : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٧ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير . المجلد الرابع ص ٤٤٣ طبعة دار الشعب

(٤) تفسير أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن ج ٣ ص ١١٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وذر فعل أمر بمعنى اترك ، ومضارعه يذر ، ولا يستعمل له ماض إلا فى النادر ، ومن هذا النادر ما جاء فى الحديث الشريف : « ذروا الحبشة ما وذرتكم » .

و « يتمتعوا » من المتاع بمعنى الانتفاع بالشىء بتلذذ وعدم نظر إلى العواقب .

« ويلههم » : من الانشغال عن الشىء ونسيانه ، يقال : فلان ألهاه كذا عن أداء واجبه ، أى : شغله .

والأمل : الرغبة فى الحصول على الشىء ، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله .

والمعنى : اترك - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين ، وخلهم وشأنهم ، ليأكلوا كما تأكل الأنعام ، وليتمتعوا بدنياهم كما يشاءون ، وليشغلهم أملهم الكاذب عن اتباعك ، فسوف يعلمون سوء عاقبة صنيعهم فى العاجل أو الآجل .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ ذرهم ﴾ يعنى اقطع طمعك من ارعوائهم ، ودعهم من النهى عما هم عليه ، والصد عنه بالتذكرة والنصيحة ، واتركهم ﴿ يأكلوا ويتمتعوا ﴾ بدنياهم ، وتنفيذ شهواتهم ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال. وألا يلقوا فى العاقبة إلا خيرا فسوف يعلمون سوء صنيعهم[1] .

وإنما أمره - سبحانه - بذلك ، لعدم الرجاء فى صلاحهم ، بعد أن مكث فيهم الرسول - ﷺ - زمنًا طويلًا ، يدعوهم إلى الحق ، بأساليب حكيمة .

وفى تقديم الأكل على غيره ، إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب. قال - تعالى- : ﴿... والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[2] كما أن فيه تعييرا لهم بما تعارفوا عليه من أن الاقتصار فى الحياة على إشباع اللذات الجسدية ، دون التفات إلى غيرها من مكارم الأخلاق ، يدل على سقوط الهمة ، وبلادة الطبع . قال الحطيئة يهجو الزبرقان بن عمرو :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى : واقعد عن طلب المكارم والمعالى فإنك أنت المطعوم المكسو من جهة غيرك .

والفعل «يأكلوا» وما عطف عليه مجزوم فى جواب الأمر «ذرهم »، وبعضهم يجعله مجزوم بلام الأمر المحذوفة ، الدالة على التوعد والتهديد ، ولا يستحسن جعله مجزوما فى جواب

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٧ .
(٢) سورة محمد الآية ١٢ .

الأمر ، لأنهم يأكلون ويتمتعون سواء أترك الرسول - ﷺ - دعوتهم أم دعاهم .

والفاء فى قوله - سبحانه - ﴿ فسوف يعلمون ﴾ للتفريع الدال على الزجر والإنذار . والاستجابة للحق قبل فوات الأوان .

أى : ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية ، لا تفكر فيها ولا تدبر ، ومن آمال خادعة براقة شغلتهم عن حقائق الأمور ، فسوف يعلمون سوء عاقبة ذلك وسوف يرون ما يحزنهم ويشقيهم ويبكيهم طويلاً بعد أن ضحكوا قليلاً ...

وفى ذلك إشارة إلى أن لإمهالهم أجلا معينا ينقضى عنده ، ثم يأتيهم العذاب الأليم .

قال الآلوسى - رحمه الله - : وفى هذه الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعم ، وعدم الاستعداد للآخرة ، والتأهب لها ، ليس من أخلاق من يطلب النجاة .

وجاء عن الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل .

وأخرج أحمد فى الزهد ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - لا أعلمه إلا رفعه - قال : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل وطول الأمل » .

وفى بعض الآثار عن على - كرم الله وجهه - : إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق »[١] .

هذا ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾[٤] .

ثم قرر - سبحانه - أن هلاك الأمم الظالمة ، موقوت بوقت محدد فى علمه ، وأن سنته فى ذلك ماضية لا تتخلف ، فقال - تعالى - ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٩ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٨٣ .
(٣) سورة الطور الآية ٤٥ .
(٤) سورة ابراهيم الآية٣٠ .

و «من» فى قوله ﴿من قرية﴾ و ﴿من أمة﴾ للتأكيد . والمراد بالقرية أهلها .

والمراد بالكتاب المعلوم : الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - لهلاكها ، شبه بالكتاب لكونه لا يقبل الزيادة أو النقص . والأجل : مدة الشىء .

أى : وما أهلكنا من قرية من القرى الظالم أهلها ، إلا ولهلاكها وقت محدد فى علمنا المحيط بكل شىء ، ومحال أن تسبق أمة من الأمم أجلها المقدر لها أو تتأخر عنه .

قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه : يقول - تعالى - ذكره - ﴿وما أهلكنا﴾ يا محمد ﴿من﴾ أهل ﴿قرية﴾ من القرى التى أهلكنا أهلها فيما مضى : ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ أى : أجل مؤقت ومدة معروفة ، لا نهلكهم حتى يبلغوها ، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك .. دون أن يتقدم هلاكهم عن ذلك أو يتأخر »[1] .

وجملة ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ فى محل نصب على الحال من قرية ، وصح ذلك لأن كلمة قرية وإن كانت نكرة ، إلا أن وقوعها فى سياق النفى سوغ مجىء الحال منها .

أى : ما أهلكناها فى حال من الأحوال ، إلا فى حال بلوغها نهاية المدة المقدرة لبقائها دون تقديم أو تأخير .

قال - تعالى - ﴿ ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[2] وجملة « ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » بيان لجملة « إلا ولها كتاب معلوم » لتأكيد التحديد ، فى بدئه وفى نهايته .

وحذف متعلق « يستأخرون » للعلم به ، أى : وما يستأخرون عنه .

والآيتان الكريمتان تدلان بوضوح ، على أن إمهال الظالمين ليس معناه ترك عقابهم ، وإنما هو رحمة من الله بهم لعلهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويسلكوا الطريق القويم ...

فإذا ما لجوا فى طغيانهم ، حل بهم عقاب الله - تعالى - فى الوقت المحدد فى علمه - سبحانه - .

قال صاحب الظلال : ولقد يقال : إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهى مع ذلك قوية ثرية باقية ،وهذا وهم .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٣٤ .

فلا بد من بقية من خير فى هذه الأمم ، ولو كان هو خير العمارة للأرض،وخير العدل فى حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادى والإحسان المحدود بحدودها .

فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها ، فلا تبقى فيها من الخير بقية ثم تنتهى حتما إلى المصير المعلوم . إن سنة الله لا تتخلف . ولكل أمة أجل معلوم[1] .

ثم حكى - سبحانه - سوء أدب هؤلاء الكافرين مع رسولهم - ﷺ - فقال - تعالى - ﴿ وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ والقائلون هم بعض مشركى قريش . قال مقاتل : نزلت الآيتان فى عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم . قال - تعالى - ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾[2] .

و « مجنون » : اسم مفعول من الجنون ، وهو فساد العقل .

و « لوما » : حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمنى ، ومن ما الزائدة فأفاد المجموع الحث على الفعل .

والمعنى : وقال الكافرون لرسولهم - ﷺ - على سبيل الاستهزاء والتهكم : « يأيها » المدعى بأن الوحى ينزل عليك بهذا القرآن الذى تتلوه علينا ، « إنك لمجنون » بسبب هذه الدعوى التى تدعيها . وبسبب طلبك منا اتباعك وتركنا ما وجدنا عليه آباءنا ...

هلا إن كنت صادقًا فى دعواك ، أن تحضر معك الملائكة ، ليخبرونا بأنك على حق فيما تدعيه ، وبأنك من الصادقين فى تبليغك عن الله - تعالى - ما أمرك بتبليغه ؟

وأكدوا الحكم على الجنون بإن واللام ، لقصدهم تحقيق ذلك فى نفوس السامعين ممن هم على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، حتى ينصرفوا عن الاستماع إليه - ﷺ - .

قال الآلوسى : يعنون يا من يدعى مثل هذا الأمر العظيم ، الخارق للعادة إنك بسبب تلك

---

(١) تفسير فى ظلال القران ج ١٤ ص ٢١٦٦ للأستاذ سيد قطب .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥٠ .

الدعوى تحقق جنونك على أتم وجه . وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاما يستبعده ، أنت مجنون[١] .

فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا ألوانًا من سوء أدبهم، منها: مخاطبتهم له - ﷺ - بهذا الأسلوب الدال على التهكم والاستخفاف ، حيث قالوا : « يأيها الذى نزل عليه الذكر » ، مع أنهم لا يقرون بنزول شيء عليه .

ووصفهم له بالجنون ، وهو - ﷺ - أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم فكرًا ..

وشكهم فى صدقه ، حيث طلبوا منه - على سبيل التعنت - أن يحضر معه الملائكة ليعاضدوه فى دعواه كما قال تعالى فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ... ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ... لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرًا ﴾[٣] .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم فقال : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذا منظرين ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ ما تنزل ﴾ - بفتح التاء والزاى على أن أصله تتنزل - ورفع الملائكة على الفاعلية .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ ما تنزل ﴾ - بضم التاء وفتح الزاى على البناء للمجهول - ورفع الملائكة على أنه نائب فاعل .

وقرأ الكسائى وحفص عن عاصم ﴿ ما ننزل ﴾ - بنون فى أوله وكسر الزاى - ونصب الملائكة على المفعولية والباء فى قوله ﴿ إلا بالحق ﴾ للملابسة .

أى : ما ننزل الملائكة إلا تنزيلاً ملتبسًا بالحق ، أى : بالوجه الذى تقتضيه حكمتنا وجرت به سنتنا ، كأن ننزلهم لإهلاك الظالمين ، أو لتبليغ وحينا إلى رسلنا ، أو لغير ذلك من التكاليف التى نريدها ونقدرها ، والتى ليس منها ما اقترحه المشركون على رسولنا - ﷺ - من قولهم ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ ، ولذا اقتضت حكمتناورحمتنا عدم إجابة مقترحاتهم .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١١ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٢١ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٧ .

وقوله ﴿ وما كانوا إذا منظرين ﴾ بيان لما سيحل بهم فيما لو أجاب الله - تعالى - مقترحاتهم .

و « إذا » حرف جواب وجزاء .

و « منظرين » من الإنظار بمعنى التأخير والتأجيل .

وهذه الجملة جواب لجملة شرطية محذوفة، تفهم من سياق الكلام، والتقدير: ولو أنزل - سبحانه - الملائكة مع الرسول - ﷺ - ، وبقى هؤلاء المشركون على شركهم مع ذلك ، لعوجلوا بالعقوبة المدمرة لهم ، وما كانوا إذا ممهلين أو مؤخرين ، بل يأخذهم العذاب بغتة .

قال الإمام الشوكانى : قوله ﴿ وما كانوا إذا منظرين ﴾ فى الكلام حذف . والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين . فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة »[١] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - أنه قد تكفل بحفظ هذا القرآن الذى سبق للكافرين أن استهزءوا به ، وبمن نزل عليه فقال - تعالى - : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

أى : إنا نحن بقدرتنا وعظم شأننا نزلنا هذا القرآن الذى أنكرتموه ؛ على قلب نبينا محمد - ﷺ - ﴿ وإنا ﴾ لهذا القرآن ﴿ لحافظون ﴾ من كل ما يقدح فيه ، كالتحريف والتبديل، والزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف، ولحافظون له بالإعجاز، فلا يقدر أحد على معارضته أو على الإتيان بسورة من مثله ، ولحافظون له بقيام طائفة من أبناء هذه الأمة الإسلامية باستظهاره وحفظه والذب عنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ رد لانكارهم واستهزائهم فى قولهم ﴿ يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ ، ولذلك قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذى بعث به جبريل إلى محمد - ﷺ - ومن بين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظًا من الشياطين ، وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة ونقصان ... »[٣] .

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ١٢٢ للشوكانى .

(٢) سورة الأنعام الآية ٨ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨ .

وقال الآلوسى : ما ملخصه : « ولا يخفى ما فى سبك الجملتين - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة ، وعلى فخامة شأن التنزيل ، وقد اشتملتا على عدة من وجوه التأكيد . و ﴿ نحن ﴾ ليس ضمير فصل لأنه لم يقع بين اسمين ، وإنما هو إما مبتدأ أو توكيد لاسم إن . والضمير فى ﴿ له ﴾ للقرآن كما هو الظاهر ، وقيل هو للنبى - ﷺ - ... »[١] .

هذا ونحن ننظر فى هذه الآية الكريمة ، من وراء القرون الطويلة منذ نزولها فنرى أن الله - تعالى - قد حقق وعده فى حفظ كتابه ، ومن مظاهر ذلك :

١ - أن ما أصاب المسلمين من ضعف ومن فتن ، ومن هزائم ، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .. هذا الذى أصابهم فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، لم يكن له أى أثر على قداسة القرآن الكريم ، وعلى صيانته من أى تحريف .

ومن أسباب هذه الصيانة أن الله - تعالى - قيض له فى كل زمان ومكان ، من أبناء هذه الأمة ، من حفظه عن ظهر قلب ، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبى - ﷺ - ، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر فى كل مصر وفى كل عصر .

قال الفخر الرازى : فإن قيل : فلماذا اشتغل الصحابة بجمع القرآن فى المصحف ، وقد وعد الله بحفظه ، وما حفظه الله فلا خوف عليه ؟

فالجواب : أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله - تعالى - إياه ، فإنه - سبحانه - لما أن حفظه قيضهم لذلك .... »[٢] .

٢ - أن أعداء هذا الدين - سواء أكانوا من الفرق الضالة المنتسبة للإسلام أم من غيرهم - امتدت أيديهم الأثيمة إلى أحاديث النبى - ﷺ - فأدخلوا فيها ما ليس منها ... وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتنقية السنة النبوية مما فعله هؤلاء الأعداء ..

ولكن هؤلاء الأعداء ، لم يقدروا على شىء واحد ، وهو إحداث شىء فى هذا القرآن ، مع أنهم وأشباههم فى الضلال ، قد أحدثوا ما أحدثوا فى الكتب السماوية السابقة ..

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٦٠ .

قال بعض العلماء . سئل القاضى إسماعيل[١] البصرى عن السر فى تَطَرُّق التغيير للكتب السالفة ، وسلامة القرآن من ذلك فأجاب بقوله : إن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال : « بما استحفظوا من كتاب الله » وتولى - سبحانه - حفظ القرآن بذاته فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٢] .

وقد ذكر الإمام القرطبى ما يشبه ذلك نقلاً عن سفيان بن عيينه فى قصة طويلة[٣] .

والخلاصة ، أن سلامة القرآن من أى تحريف - رغم حرص الأعداء على تحريفه ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام ، ورغم تطاول القرون والدهور - دليل ساطع على أن هناك قوة خارقة - خارجة عن قوة البشر - قد تولت حفظ هذا القرآن ، وهذه القوة هى قوة الله - عز وجل - ولا يمارى فى ذلك إلا الجاحد الجهول ...

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تعزية وتسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه من سفهاء قومه ، فأخبره بأن ما أصابه منهم يشبه ما فعله المكذبون السابقون مع رسلهم ، فقال - تعالى - ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون .كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ﴾.

قال الجمل : « لما أساءوا فى الأدب، وخاطبوه - ﷺ - خطاب السفاهة، حيث قالوا له : « إنك لمجنون » ، سلّاه الله فقال له : إن عادة الجهال مع جميع الأنبياء كانت هكذا ، وكانوا يصبرون على أذى الجهال . ويستمرون على الدعوة والإنذار ، فاقتد أنت بهم فى ذلك ... »[٤] .

والشيع جمع شيعة وهى الطائفة من الناس المتفقة على طريقة ومذهب واحد ، من شاعه إذا تبعه ، وأصله - كما يقول القرطبى - مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار توقد به الكبار .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلاً كثيرين ، فى طوائف الأمم الأولين ، فدعا الرسل أقوامهم إلى ما دعوت إليه أنت قومك من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - ، فما كان من أولئك المدعوين السابقين إلا أن قابلت كل فرقة منهم رسولها بالسخرية والاستهزاء ، كما قابلك سفهاء قومك .

---

(١) هو القاضى اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد الأزدى البصرى ولد سنه ٢٠٠ هـ وتوفى سنة ٢٨٢ . كان من الأئمة الأعلام فى التفسير والحديث والفقه .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٢١ لسماحة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

(٣) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٥ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٢٩ .

وذلك لأن المكذبين فى كل زمان ومكان يتشابهون فى الطباع الذميمة ، وفى الأخلاق القبيحة : كما قال - تعالى - ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون ﴾[1] .

والجار والمجرور ﴿ مِن قبلك ﴾ متعلق بأرسلنا ، أو بمحذوف وقع نعتا لمفعوله المحذوف . أى : ولقد أرسلنا رسلًا كائنة من قبلك .

وإضافة الشيع إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند بعض النحاة ، أو من حذف الموصوف عند البعض الآخر ، أى شيع الأمم الأولين .

وعبر بقوله - سبحانه - ﴿ إلا كانوا به يستهزئون ﴾ للإشعار بأن الاستهزاء بالرسل كان طبيعة فيهم - كما يومىء إليه لفظ كان ، وأنه متكرر منهم - كما يفيده التعبير بالفعل المضارع - والكاف فى قوله ﴿كذلك نسلكه..﴾ للتشبيه. واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى السلك المأخوذ من نسلكه .

والسلك مصدر سلك - من باب نصر - وهو إدخال الشيء فى الشيء ، كإدخال الخيط فى المخيط .

والضمير المنصوب فى «نسلكه» يعود إلى القرآن الكريم الذى سبق الحديث عنه.

والمراد بالمجرمين فى قوله ﴿ فى قلوب المجرمين ﴾ مشركو قريش ومن لف لفهم .

والمعنى : كما سلكنا كتب الرسل السابقين فى قلوب أولئك المستهزئين نسلك القرآن فى قلوب هؤلاء المجرمين من قومك يامحمد ، بأن نجعلهم يسمعونه ويفهمونه ويدركون خصائصه دون أن يستقر فى قلوبهم استقرار تصديق وإذعان لاستيلاء الجحود والعناد والحسد عليهم .

وقوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ بيان للسلك المشبه به ، أو حال من المجرمين .

أى : أدخلنا القرآن فى قلوبهم ففهموه ، ولكنهم لا يؤمنون به عنادًا وجحودًا .

وعلى هذا التفسير يكون الضمير فى ﴿ نسلكه ﴾ وفى ﴿ به ﴾ يعودان إلى القرآن الكريم ، الذى سبق الحديث عنه فى قوله - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

ومن المفسرين الذين ذكروا هذا الوجه ولم يذكروا سواه صاحب الكشاف ، فقد قال : « والضمير فى قوله ﴿ نسلكه ﴾ ، للذكر : أى : مثل ذلك السلك ونحوه نسلك الذكر ﴿ فى

---

(١) سورة الذاريات الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

قلوب المجرمين ﴾ على معنى أن يلقيه فى قلوبهم مكذبًا مستهزئًا به غير مقبول ، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها : فقلت : كذلك أنزلها باللئام : تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية .

ومحل قوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ النصب على الحال ، أى : غير مؤمن به . أو هو بيان لقوله ﴿ كذلك نسلكه .. ﴾[1] .

وقد زكى هذا الوجه صاحب الانتصاف فقال : والمراد - والله أعلم - إقامة الحجة على المكذبين ، بأن الله - تعالى - سلك القرآن فى قلوبهم ، وأدخله فى سويدائها ، كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء ، وصدق به هؤلاء ، كل على علم وفهم ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ... ﴾ ، ولئلا يكون للكفار حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن ... »[2] .

ويرى بعض المفسرين - كالإمام ابن جرير - أن الضمير فى نسلكه يعود إلى الكفر الذى سلكه الله فى قلوب المكذبين السابقين ، أما الضمير فى ﴿ به ﴾ فيعود إلى القرآن الكريم ، فقد قال : قوله - تعالى - ﴿ كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به ... ﴾ يقول - تعالى - ذكره : كما سلكنا الكفر فى قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسل ، كذلك نفعل ذلك فى قلوب مشركى قومك الذين أجرموا بسبب الكفر بالله .

﴿ لا يؤمنون به ﴾ يقول : لا يصدقون بالذكر الذى أنزل إليك ...[3] .

ومع أن هذا التفسير الذى ارتضاه شيخ المفسرين ابن جرير له وجاهته ، إلا أننا نميل إلى التفسير الأول الذى ارتضاه صاحب الكشاف ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية ، ومن المفسرين الذين رجحوا ذلك الفخر الرازى ، فقد قال - رحمه الله - خلال كلام طويل ما ملخصه : « التأويل الصحيح أن الضمير فى قوله - تعالى - ﴿ كذلك نسلكه ﴾ عائد إلى الذكر ، الذى هو القرآن ، فإنه - تعالى - قال قبل هذه الآية ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ وقال بعده ﴿ كذلك نسلكه ﴾ أى : هكذا نسلك القرآن فى قلوب المجرمين .

والمراد من هذا السلك ، هو أنه - تعالى - يسمعهم هذا القرآن ، ويخلق فى قلوبهم حفظه والعلم بمعانيه . إلا أنهم مع هذه الأحوال لا يؤمنون به عنادًا وجهلاً ..

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨ .
(٢) حاشية الكشاف ج ٢ ص ٣٨٨ .
(٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٩ .

ويدل على صحة هذا التأويل ، أن الضمير فى قوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ عائد على القرآن بالإجماع ، فوجب أن يكون الضمير فى ﴿ نسلكه ﴾ عائدًا إليه - أيضًا - لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شىء واحد ... »[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ تهديد لهؤلاء المكذبين من كفار مكة ومن سار على شاكلتهم ، وتكملة للتسلية لرسول الله - ﷺ - .

أى : وقد مضت سنة الله التى لا تتخلف وطريقته المألوفة بأن ينزل عذابه بالمجرمين ، كما أنزله بالأمم الماضية ، بسبب تكذيبها لرسلها ، واستهزائها بهم فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما أصابك من سفهاء قومك فسننصرك عليهم .

وأضاف - سبحانه - السنة إلى الأولين ، باعتبار تعلقها بهم ، وإنما هى سنة الله فيهم لأنها المقصود هنا ، والإضافة لأدنى ملابسة .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة برسم صورة عجيبة لعناد هؤلاء المكذبين ولجحودهم للحق بعدما تبين فقال : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء .. ﴾ معطوف على قوله ﴿ لا يؤمنون به .. ﴾ لإبطال معاذيرهم ، ولبيان أن سبب عدم إيمانهم هو الجحود والعناد ، وليس نقصان الدليل والبرهان على صحة ما جاء به النبى - ﷺ - .

قال الإمام الرازى . وقوله - تعالى - ﴿ فظلوا فيه يعرجون ﴾ يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا ، إذا فعله بالنهار ، ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات يبيت إلا بالليل . والمصدر الظلول[2] .

ويعرجون : من العروج ، وهو الذهاب فى صعود . وفعله من باب دخل ، يقال عرج فلان إلى الجبل يعرج إذا صعد ، ومنه المعراج والمعارج أى المصاعد .

وقوله ﴿ سُكِّرت ﴾ من السَّكْر - بفتح السين المشددة وسكون الكاف - بمعنى السد والحبس والمنع ، يقال سكرت الباب أسْكرُه سَكْرًا ، إذا سددته ، والتشديد فى ﴿ سكرت ﴾ للمبالغة ، وهو قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير ﴿ سكرت ﴾ ، بكسر الكاف بدون تشديد .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٦٣ طبعة عبد الرحمن محمد .
(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٦٦ .

وقوله ﴿ مسحورون ﴾ اسم مفعول من السحر ، بمعنى الخداع والتخييل والصرف عن الشيء إلى غيره .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الغلو فى الكفر والعناد ، أننا لو فتحنا لهم بابا من أبواب السماء ، ومكناهم من الصعود إليه ، فظلوا فى ذلك الباب يصعدون ، ويطلعون على ملكوت السموات وما فيها من الملائكة والعجائب لقالوا بعد هذا التمكين والاطلاع - لفرط عنادهم وجحودهم - إنما أبصارنا منعت من الإبصار ، وما نراه ما هو إلا لون من الخداع والتخييل والصرف عن إدراك الحقائق بسبب سحر محمد - ﷺ - لنا وعلى هذا التفسير الذى سار عليه جمهور المفسرين ، يكون الضمير فى قوله ﴿ فظلوا ﴾ يعود إلى هؤلاء المشركين المعاندين .

وقيل الضمير للملائكة ، فيكون المعنى : فظل الملائكة فى هذا الباب يعرجون ، والكفار يشاهدونهم وينظرون إليهم ، فقالوا - أى الكفار - بعد كل ذلك ، « إنما سكرت أبصارنا .. » .

وعلى كلا الرأيين فالآية الكريمة تصور أكمل تصوير ، مكابرة الكافرين وعنادهم المزرى .

وعبر - سبحانه - بقوله ﴿ فظلوا .. ﴾ ليدل على أن عروجهم كان فى وضح النهار ، بحيث لا يخفى عليهم شيء مما يشاهدونه .

وجمعوا فى قولهم بين أداة الحصر ﴿ إنما ﴾ وبين أداة الإضراب ﴿ بل ﴾ للدلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له ، بل هو باطل ، وما يرونه ما هو إلا من تخيلات المسحور .

وقالوا « بل نحن قوم مسحورون » ولم يقولوا بل نحن مسحورون ، للإشعار بأن السحر قد تمكن منهم جميعًا ، ولم يخص بعضًا منهم دون بعض .

قال الشوكانى : وفى هذا البيان لعنادهم العظيم الذى لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائنا ما كان ، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقى لعارض الانسداد أو أن عقولهم قد سحرت فصار إدراكهم غير صحيح . ومن بلغ فى التعنت إلى هذا الحد ، فلا تنفع فيه موعظة ولا يهتدى بآية »[1] .

وبذلك نجد السورة الكريمة قد حدثتنا فى خمس عشرة آية من مطلعها إلى هنا ، عن سمو

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٣ ص ١٢٣ .

منزلة القرآن الكريم ، وعن حسرات الكافرين يوم تتجلى لهم الحقائق ، وعن استهزائهم بالرسول - ﷺ - ، وعن رد القرآن عليهم ؛ وعن تسلية الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - عما أصابه منهم ...

ثم انتقلت السورة بعد ذلك ، فساقت ألوانًا من النعم الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وشمول علمه ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : لما ذكر - سبحانه - كفر الكافرين ، وعجز أصنامهم ، ذكر كمال قدرته ليستدل بها على وحدانيته .

والبروج : القصور والمنازل . قال ابن عباس . أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر ، أى : منازلها . وأسماء هذه البروج : الحمل والثور والجوزاء والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب ...

وقال الحسن وقتادة : البروج : النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها ...

وقيل البروج : الكواكب العظام ...[1] .

قال بعض العلماء ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد ، لأن أصل البروج فى اللغة الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، بإظهار زينتها ، فالكواكب ظاهرة ، والقصور ظاهرة ، ومنازل الشمس والقمر كالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه ..[2] .

و ﴿ جعلنا ﴾ أى خلقنا وأبدعنا ، فيكون قوله ﴿ فى السماء ﴾ متعلقًا به ، ويجوز أن يكون بمعنى التصيير ، فيكون قوله . فى السماء . متعلقًا بمحذوف على أنه مفعول ثان له و ﴿ بروجًا ﴾ هو المفعول الأول .

أى : ولقد خلقنا وأبدعنا منازل وطرقا فى السماء ، تسير فيها الكواكب بقدراتنا ، وإرادتنا ، وحكمتنا ، دون خلل أو اضطراب .

وفى ذلك الخلق ما فيه من منافع لكم ، حيث تستعملون هذه البروج فى ضبط المواقيت وفى تحديد الجهات ، وفى غير ذلك من المنافع ، كما قال - تعالى - ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورًا وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[3] .

وافتتح - سبحانه - الآية الكريمة بلام القسم وقد ، تنزيلًا للمخاطبين الذاهلين عن الالتفات إلى مظاهر قدرة الله - تعالى - منزلة المنكرين ، فأكد لهم الكلام بمؤكدين لينتبهوا ويعتبروا .

والضمير فى قوله ﴿ وزيناها ... ﴾ يعود إلى السماء . أى : وزينا السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء ، لتكون جميلة فى عيون الناظرين إليها ، وآية للمتفكرين فى دلائل قدرة الله - تعالى - وبديع صنعه .

وهذه الجملة الكريمة ، تلفت الأنظار إلى أن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون ، كما

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٩ .

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٣ ص ١٢١ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٣) سورة يونس الآية ٥ .

تشعر المؤمنين بأن من الواجب عليهم أن يجعلوا حياتهم مبنية على الجمال فى الظاهر وفى الباطن ، تأسيا بسنة الله - تعالى - فى خلق هذا الكون .

ثم وضح - سبحانه - بأن هذا التزيين للسماء ، مقرون بالحفظ والصيانة والطهارة من كل رجس فقال - تعالى - ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ .

والمراد بالشيطان هنا : المتمرد من الجن ، مشتق من شطن بمعنى بعد ، إذ الشيطان بعيد بطبعه عن كل خير .

والرجيم ، أى المرجوم المحقر ، مأخوذ من الرجم ، لأن العرب كانوا إذا احتقروا أحدًا رجموه بالقطع من الحجارة ، وقد كان العرب يرجمون قبر أبى رغال الثقفى ، الذى أرشد جيش الحبشة إلى مكة لهدم الكعبة . قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبى رغال

والمعنى : ولقد جعلنا فى السماء منازل وطرقا للكواكب ، وزيناها - أى السماء - للناظرين إليها ، وحفظناها من كل شيطان محقر مطرود من رحمتنا بأن منعناه من الاستقرار فيها ، ومن أن ينفث فيها شروره ومفاسده ، لأنها موطن الأخيار الأطهار .

قال - تعالى - : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظًا من كل شيطان مارد ﴾[1] .

وقال - تعالى - : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين .... ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ فى محل نصب على الاستثناء واستراق السمع : اختلاسه وسرقته ، والمراد به : الاستماع إلى المتحدث خفية ، حتى لكأن المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذى يخفيه عنه ، فالسمع هنا بمعنى المسموع من الكلام .

والشهاب : هو الشعلة الساطعة من النار ، المنفصلة من الكواكب التى ترى فى السماء ليلًا ، كأنها كوكب ينقض بأقصى سرعة . وجمعه شهب ..أصله من الشهبة ، وهى بياض مختلط بسواد .

و ﴿ مبين ﴾ أى ظاهر واضح للمبصرين .

---

(١) سورة الصافات الآيتان ٦ ، ٧ .
(٢) سورة الملك الآية ٥ .

والاستثناء منقطع ، فيكون المعنى : وحفظنا السماء من كل شيطان رجيم لكن من اختلس السمع من الشياطين ، بأن حاول الاقتراب منها ، فإنه يتبعه شهاب واضح للناظرين فيحرقه ، أو يحول بينه وبين استراق السمع .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ أى . لكن من استرق السمع ، أى الخطفة اليسيرة ، فهو استثناء منقطع .

وقيل : هو متصل ، أى : إلا ممن استرق السمع . أى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئًا من الوحى وغيره ، إلا من لسترق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى ، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئًا لقوله - تعالى - ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ .

وإذا استمع الشياطين إلى شىء ليس بوحى ، فإنهم يقذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين ، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم ..[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظًا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾[2] .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والمقصود منع الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم اطلاعهم عليه .. وربما استدرج الله - تعالى - الشياطين وأولياءهم ، فلم يمنع الشياطين من استراق شىء قليل يلقونه إلى الكهان ؛ فلما أراد - سبحانه - عصمة الوحى منعهم من ذلك بتاتا ..

وفى سورة الجن دلالة على أن المنع الشديد من استراق السمع كان بعد البعثة النبوية ، وبعد نزول القرآن ، إحكامًا لحفظ الوحى من أن يلتبس على الناس بالكهانة ..

قال - تعالى - : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدا ﴾[3] .

وعلى ذلك يكون ما جاء فى بعض الأحاديث من استراق الجن السمع - وصفا للكهانة السابقة ، ويكون قوله - ﷺ - « ليسوا بشىء ... » وصفا لآخر أمرهم ..

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١١ .
(٢) سورة الصافات الآيات ٦ - ١٠ .
(٣) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩

ففى صحيح البخارى عن عائشة : أن ناسا سألوا رسول الله - ﷺ - عن الكهانة ، فقال : « ليسوا بشىء » . - أي لا وجود لما يزعمونه - فقيل - يارسول الله ، فإنهم يحدثون أحيانًا بالشىء فيكون حقًا . فقال رسول الله - ﷺ - : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيَقرُّها فى أذن وليه قَـرَّ الدجاجة - أى فيلقيها بصوت خافت كالدجاجة عندما تخفى صوتها - فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة »[١] .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض الدلائل السماوية الدالة على قدرته ووحدانيته ، أتبع ذلك ببيان بعض الدلائل الأرضية فقال - تعالى - : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾ . وقوله : ﴿ رواسى ﴾ من الرسو وهو ثبات الأجسام الثقيلة . يقال رسا الشىء يرسو أى ثبت .

أى : ومن الأدلة - أيضًا - على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا مددنا الأرض وفرشناها وبسطناها ، لتتيسر لكم الحياة عليها قال - تعالى - ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾[٢] .

وأننا - أيضًا وضعنا فيها جبالاً ثوابت راسخات تمسكها عن الاضطراب وعن أن تميد بكم . قال - تعالى - : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ... ﴾[٣] .

وأننا - أيضًا - أنبتنا فى الأرض من كل شىء ﴿ موزون ﴾ أى : مقدر بمقدار معين وموزون بميزان الحكمة ، بحيث تتوفر فيه كل معانى الجمال والتناسق .

قال - تعالى - : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[٤] .

وأننا - كذلك - ﴿ جعلنا لكم فيها معايش ... ﴾ والمعايش : جمع معيشة ، وهى فى الأصل مصدر عاش يعيش عَيْشا وعَيْشةً ومعاشًا ، ومعيشة ، إذا صار ذا حياة . ثم استعمل هذا اللفظ فيما يعاش به ، أو فيما يتوصل به إلى العيش .

أى : وجعلنا لكم فى الأرض ما تعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورات الحياة التى تحيونها .

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١٤ ص ٢٤ .
(٢) سورة الذاريات الآية ٤٨ .
(٣) سورة لقمان الآية ١٠ .
(٤) سورة القمر الآية ٤٩ .

وجملة ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ معطوفة على « معايش » .

والمراد بمن لستم له برازقين : ما يشمل الأطفال والعجزة والأنعام وغير ذلك من مخلوقات الله التى تحتاج إلى العون والمساعدة .

أى : وجعلنا لكم فى الأرض ما تعيشون به أو ما تتوصلون به إلى ذلك من المكاسب والتجارات ، وجعلنا لكم فيها - أيضًا - من لستم له برازقين من العيال والخدم والدواب ... وإنما الرازق لهم هو الله - تعالى - رب العالمين ، إذ ما من دابة فى الأرض إلا على الله وحده رزقها . وما يزعمه الجاهلون من أنهم هم الرازقون لغيرهم ، هو لون من الغرور والافتراء ، لأن الرازق للجميع هو الله رب العالمين .

وعبر بمن فى قوله ﴿ ومن لستم ﴾ تغليبًا للعقلاء على غيرهم .

قال الإمام ابن كثير : والمقصود - من هذه الجملة - أنه - تعالى - يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب ، وصنوف المعاشات وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والأنعام التى يأكلونها ، والعبيد والإماء التى يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله - تعالى - »[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن كل شىء فى هذا الكون ، خاضع لإرادته وقدرته ، وتصرفه .. فقال - تعالى - ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

و « إن » نافية بمعنى ما ، و « من » مزيدة للتأكيد . و « خزائنه » جمع خزانة ، وهى فى الأصل تطلق على المكان الذى توضع فيه نفائس الأموال للمحافظة عليها .

والمعنى : وما من شىء من الأشياء الموجودة فى هذا الكون ، والتى يتطلع الناس إلى الانتفاع بها . إلا ونحن قادرون على إيجادها وإيجاد أضعافها بلا تكلف أو إبطاء ، كما قال - تعالى - :﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾[2] .

فقد شبه - سبحانه - اقتداره على إيجاد كل شىء ، بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، والمعدة لإخراج ما يشاء إخراجه منها بدون كلفة أو إبطاء .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٧ .
(٢) سورة يس الآية ٨٢ .

والمراد بالإنزال فى قوله ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ . الإيجاد والإخراج إلى هذه الدنيا ، مع تمكين الناس من الحصول عليه .

أى : وما نخرج هذا الشيء إلى حيز الوجود بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به إلا ملتبسًا بمقدار معين ، وفى وقت محدد ، تقتضيه حكمتنا ، وتستدعيه مشيئتنا ، ويتناسب مع حاجات العباد وأحوالهم ، كما قال - تعالى - ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير ﴾[1] .

ثم انتقل - سبحانه - من الاستدلال على وحدانيته وقدرته بظواهر السماء وبظواهر الأرض ، إلى الاستدلال على ذلك بظواهر الرياح والأمطار فقال - تعالى - : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ والآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق ذكره من النعم .

والمراد بإرسال الرياح هنا : نقلها من مكان إلى آخر بقدرة الله - تعالى - وحكمته .

وقوله ﴿ لواقح ﴾ يصح أن يكون جمع لاقح . وأصل اللاقح : الناقة التى قبلت اللقاح فحملت الجنين فى بطنها ..

ووصف - سبحانه - الرياح بكونها لواقح . لأنها حوامل تحمل ما يكون سببا فى نزول الأمطار كما تحمل النوق الأجنة فى بطونها .

أى : وأرسلنا بقدرتنا ورحمتنا الرياح حاملة للسحاب وللأمطار ولغيرهما ، مما يعود على الناس بالنفع والخير والبركة .

ويصح أن يكون لفظ « لواقح » جمع ملقح - اسم فاعل - وهو الذى يلقح غيره ، فتكون الرياح ملقحة لغيرها كما يلقح الذكر الأنثى .

قال الإمام ابن كثير : قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ أى : تلقح السحب فتدر ماء ، وتلقح الأشجار فتتفتح عن أوراقها وأكمامها[2] .

وقال بعض العلماء : ومعنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين ، فينشأ عن ذلك البخار الذى يصير ماء فى الجو ، ثم ينزل مطرًا على

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٨ .

الأرض ، وأنها تلقح الشجر ذا الثمرة ، بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نوْر الشجر الذكر ، فتصلح ثمرته أو تثبت ..

وهذا هو الإبار . وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة . وبعضه يكتفى منه بغرس شجرة ذكر فى خلال شجر الثمر .

ومن بلاغة الآية الكريمة ، إيراد هذا الوصف – لواقح – لإفادة كلا العملين اللذين تعملهما الرياح – وهما الحمل للسحاب والمطر وغيرهما ، أو التلقيح لغيرها – . »[1] .

وقوله ﴿ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه .. ﴾ تفريع على ما تقدم .

أى : وأرسلنا الرياح بقدرتنا من مكان إلى آخر ، حالة كونها حاملة للسحاب وغيره ، فأنزلنا – بسبب هذا الحمل – من جهة السماء ، ماء كثيرًا هو المطر ، لتنتفعوا به فى شرابكم ، وفى معاشكم ، وفى غير ذلك من ضروروات حياتكم .

قال – تعالى – : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ... ﴾[2] .

وقوله ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ تتميم لنعمة إنزال الماء .

أى : أنزلنا المطر من السماء ، وليست خزائنه عندكم . وإنما نحن الخازنون له ، ونحن الذين ننزله متى شئنا ، ونحن الذين نمنعه متى شئنا ، كما قال – تعالى – قبل ذلك : ﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

ويصح أن يكون المعنى : أنزلنا المطر من السماء فجعلناه لسقياكم ، وأنتم لستم بقادرين على خزنه وحفظه فى الآبار والعيون وغيرها ، وإنما نحن القادرون على ذلك . قال – تعالى – ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾[3] .

ثم بين – سبحانه – أن الإحياء والإماتة بيده وحده ، فقال – تعالى – : ﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ .

أى : وإنا وحدنا القادرون على إيجاد الحياة فى المخلوقات ، والقادرون على سلبها عنها ، ونحن الوارثون لهذا الكون بعد فنائه ، الباقون بعد زواله .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٣٨ لسماحة الشيخ الامام محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) سورة النحل الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٨ .

قال - تعالى - ﴿ إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير ﴾[١] .

وقال - تعالى - ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[٢] .

وشبه - سبحانه - بقاءه بعد زوال كل شيء سواه يالوارث ، لأن الوارث هو الذى يرث غيره بعد موته .

وأكد - سبحانه - الآية الكريمة بإن واللام وضمير الفصل ﴿ نحن ﴾ تحقيقا للخبر الذى اشتملت عليه ، وردًا على المشركين الذين زعموا أنه لا حياة ولا ثواب ولا عقاب بعد الموت .

ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شيء بعد أن أكد شمول قدرته فقال - تعالى - : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ .

والمراد بالمستقدمين من تقدم على غيره ولادة وموتا ، كما أن المراد بالمستأخرين من تأخر عن غيره فى ذلك ، ولم يمت بعد ، أو لم يوجد بعد فى عالم الأحياء .

والسين والتاء فى اللفظين للتأكيد .

وقيل : المراد بها الأحياء والأموات ، وقيل المراد بالمستقدمين : من تقدم فى الوجود على الأمة الإسلامية ، وبالمستأخرين : الأمة الإسلامية .

وقيل : المراد بهما : من قتل فى الجهاد ومن لم يقتل ، وقيل المراد بهما من تقدم فى صفوف الصلاة ومن تأخر ...

قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق جملة من الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال عندى بالصحة ، قول من قال : ولقد علمنا الأموات منكم يا بنى آدم فتقدم موته ، ولقد علمنا المستأخرين الذين تأخر موتهم ممن هو حى ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد ... »[٣] .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع الخلق جميعًا إليه فقال : ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ، إنه حكيم عليم ﴾ .

أى : وإن ربك - وحده - أيها المخاطب - هو الذى يتولى حشر الأولين والآخرين ، وجمعهم يوم القيامة للحساب والثواب والعقاب ، إنه - سبحانه - ﴿ حكيم ﴾ فى كل

---

(١) سورة ق الآية ٤٣ .

(٢)سورة مريم الآية ٤٠ .

(٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٦ .

تصرفاته وأفعاله ﴿ عليم ﴾ بأحوال خلقه ما ظهر منها وما بطن .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد اشتملت على ألوان من الأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وبديع صنعه ، وشمول علمه ، مما يوجب الإيمان به - سبحانه - وإخلاص العبادة له ، ومقابلة نعمه بالشكران لا بالكفران ، وبالطاعة لا بالمعصية ...

وبعد أن ساق - سبحانه - ألوانًا من الأدلة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق خلقه للسماء وما فيها من بروج وشهب .. وللأرض وما عليها من جبال ونبات .. وللرياح وما تحمله من سحب وأمطار ...

أتبع ذلك بأدلة أخرى على كمال ذاته وصفاته عن طريق خلقه للإنسان وللجن وللملائكة .. فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ

مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه - ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال ﴾ آدم - عليه السلام - لأنه أصل النوع الإنسانى ، وأول فرد من أفراده .

والصلصال : الطين اليابس الذى يصلصل ، أى : يحدث صوتاً إذا حرك أو نقر عليه ، كما يحدث الفخار قال - تعالى - ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾[1] .

وقيل : الصلصال : الطين المنتن ، مأخوذ من قولهم : صَلَّ اللحم وأصلَّ ، إذا أنتن ..

قال الإمام ابن جرير : والذى هو أولى بتأويل الآية ، أن يكون الصلصال فى هذا الموضع ، الطين اليابس الذى لم تصبه النار ، فإذا نقرته صل فسمعت له صلصلة - وذلك أن الله - تعالى - وصفه فى موضع آخر فقال : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ فشبهه - تعالى ذكره - بأنه كالفخار فى يبسه ، ولو كان معناه فى ذلك المنتن لم يشبهه بالفخار ، لأن الفخار ليس بمنتن فيشبه به فى النتن غيره »[2] .

والحمأ : الطين إذا اشتد سواده وتغيرت رائحته .

والمسنون : المصور من سن الشىء إذا صوره .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ﴿ من حمأ ﴾ أى : من طين تغير واسود من مجاورة الماء ، ويقال للواحدة حمأة - بسكون الميم - ...

---

(١) سورة الرحمن الآية ١٤ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٨ .

وقوله ﴿ مسنون ﴾ أى : مصوَّر من سُنَّة الوجه وهى صورته . وأنشد لذلك ابن عباس قول عمه حمزة يمدح النبى - ﷺ - :

أغرُّ كأن البدرَ سنَّةُ وجهه جلا الغيم عنه ضوؤه فتبددا

وقيل مسنون : أى مصبوب ، من سنَّ الماء بمعنى صبه . ويقال شَنَّ - بالشين أيضًا - ؛ أى : مفرغ على هيئة الإنسان ... وقيل : المسنون : المنتن ... »[1] .

والذى يتدبر القرآن الكريم يرى أن الله - تعالى - قد وضح فى آيات متعددة أطوار خلق آدم - عليه السلام - ، فقد بين فى بعض الآيات أنه خلقه من تراب ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ... ﴾[2] .

وبين فى آيات أخرى أنه - سبحانه - خلقه من طين ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾[3] .

وبين هنا أنه - سبحانه - خلقه ﴿ من صلصال من حمأ مسنون ﴾ .

قال الجمل : وهذا الطور آخر أطوار آدم الطينية ، وأول ابتدائه أنه كان ترابا متفرق الأجزاء ، ثم بُلَّ - أى التراب - فصار طينا ، ثم ترك حتى أنتن وأسود فصار حمأ مسنونا . أى : متغيرا ، ثم يبس فصار صلصالاً ، وعلى هذه الأحوال والأطوار تتخرج الآيات الواردة فى أطواره الطينية ، كآية خلقه من تراب ، وآية ﴿ بشرا من طين ﴾[4] وهذه الآية التى نحن فيها »[5] .

والمقصود من هذه الآيات الكريمة ، التنبيه على عجيب صنع الله - تعالى - وعظيم قدرته ، حيث أخرج - سبحانه - من هذه المواد بشرا سويا ، فى أحسن تقويم .

وأكد - سبحانه - الجملة الكريمة بلام القسم وقد ، لزيادة التحقيق ، وللإرشاد إلى أهمية هذا الخلق ، وأنه بهذه الصفة .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من صلصال ﴾ لابتداء الغاية أو للتبعيض ، وفى قوله ﴿ من حمأ ﴾ ابتدائية .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٣١ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .
(٣) سورة السجدة الآية ٧ .
(٤) سورة ص الآية ٧١ .
(٥) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٤٣ .

والجار والمجرور صفة لصلصال أى : من صلصال كائن من حمأ ، ومسنون صفة لحمأ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك المادة التى خلق منها الجان فقال - سبحانه - : ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ .

والمراد بالجان هنا : أبو الجن عند جمهور المفسرين . وقيل هو إبليس . وقيل هو اسم لجنس الجن . وسمى جانا لتواريه عن الأعين ، واستتاره عن بنى آدم .

أى : والجان خلقناه ﴿ من قبل ﴾ أى : من قبل خلق آدم ﴿ من نار السموم ﴾ أى : من الريح الحارة التى تقتل . وسميت سمومًا ، لأنها لشدة حرارتها ، وقوة تأثيرها تنفذ فى مسام البدن .

قال ابن كثير : وقد ورد فى الحديث الصحيح : « خُلِقت الملائكة من نور ، وخُلِقت الجان من مارج من نار ، وخُلق بنو آدم مما وصف لكم »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما أمر به ملائكته عندما توجهت إرادته - سبحانه - لخلق آدم ، فقال - تعالى - : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين ﴾ .

أى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال ربك - سبحانه - للملائكة - الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - ﴿ إنى خالق ﴾ بقدرتى ﴿ بشرا ﴾ أى : إنسانا ، وعبر عنه بذلك اعتبارا بظهور بشرته وهى ظاهر الجلد ﴿ من صلصال من حمأ مسنون ﴾ .

﴿ فإذا سويته ﴾ أى : سويت خلق هذا البشر ، وكملت أجزاءه ، وجعلته فى أحسن تقويم ...

﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ أى : وضعت فيه ما به حياته وحركته وهو الروح ، الذى لا يعلم حقيقته أحد سواى .

قال القرطبى : قوله : ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ النفخ إجراء الريح فى الشىء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥١ .

إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه - سبحانه - إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا ، كقوله ، أرضى وسمائى وبيتى وناقة الله وشهر الله ...[١] .

وقوله ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ أمر منه - سبحانه - للملائكة بالسجود لآدم .

أى : فإذا سويت خلقه ، وأفضت عليه ما به حياته ، فاسقطوا وخروا له ساجدين ، سجود تحية وتكريم ، لا سجود عبادة ، فإن سجود العبادة لى وحدى .

وقال - سبحانه - ﴿ فقعوا .. ﴾ بفاء التعقيب ، للإشعار بأن سجودهم له واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير إبطاء أو تأخير .

وهذا نوع من تكريم الله - تعالى - لعبده آدم - عليه السلام - ، وله - سبحانه - أن يكرم بعض عباده بما يشاء ، وكيف شاء .. ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[٢].

ثم بين - سبحانه - ما كان من الملائكة بعد ذلك فقال : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ أى : امتثل الملائكة لأمر الله بعد أن خلق - سبحانه - آدم وسواه ونفخ فيه من روحه ، فسجدوا له كلهم أجمعون دون أن يتخلف منهم أحد .

وجمع - سبحانه - بين لفظى التوكيد ﴿ كلهم أجمعون ﴾ للمبالغة فى ذلك ، ولإزالة أى التباس بأن أحدًا شذ عن طاعة الله - تعالى - .

وقوله ﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ بيان لموقف إبليس من أمر الله - تعالى - . وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس ، وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمى ، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة . وهو كائن حى ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر فى النفوس ، لأنه ليس من المعقول أن يكون الأمر كذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه .

قال - تعالى - ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ... ﴾[٣] .

وقوله ﴿ أبى ﴾ من الإباء وهو الامتناع عن فعل الشىء مع القدرة على فعله ، بسبب الغرور والتكبر والتعاظم .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٢٥ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٣ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

أى : فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، امتثالاً وطاعة لله - تعالى - ، إلا إبليس فإنه امتنع عن أن يكون مع الساجدين . تكبرا وغرورا وعصياناً لأمر الله - تعالى - .

وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة، أم لا، قولان :

أحدهما : أنه كان منهم ، لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لما كان عاصيًا ، ولما استحق الطرد واللعنة ، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلاً تحت اسم المستثنى منه ، حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه . وعلى هذا الرأى الذى اختاره ابن عباس وابن مسعود وغيرهما يكون الاستثناء متصلاً .

والثانى : أنه لم يكن من الملائكة ، لقوله - تعالى - : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه .. ﴾[1] فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ، والملائكة لا ذرية لهم ..

وعلى هذا الرأى الذى اختاره الحسن وقتادة وغيرهما يكون الاستثناء منقطعًا .

قال الشيخ القاسمى : « وقد حاول الإمام ابن القيم - رحمه الله - أن يجمع بين الرأيين فقال : والصواب التفصيل فى هذه المسألة ، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد . فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله فإن أصله من نار وأصل الملائكة من نور ، فالنافى كونه من الملائكة والمثبت كونه منهم لم يتواردا على محل واحد »[2] .

والذى نميل إليه فى هذه المسألة أن إبليس لم يكن من الملائكة ، بدليل الحديث الصحيح الذى يقول فيه النبى - ﷺ - : « خلقت الملائكة من نور . وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق بنو آدم مما وصف لكم »[3] والآية الكريمة - وهى قوله - تعالى - ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ صريحة فى أنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة .

ومع هذا فإن الأمر بالسجود يشمله ، بدليل قوله - تعالى - ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٠ .

(٢) تفسير القاسمى ج ٢ص ١٠٤ .

(٣) صحيح مسلم « كتاب الزهد » باب فى أحاديث متفرقة ج ٨ ص ٢٢٧ .

أمرتك ... ﴾[١] .

فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الله - تعالى - قد أمر إبليس بالسجود لآدم ...

ووجود إبليس مع الملائكة لا يستلزم أن يكون منهم ، ومثل ذلك كمثل أن تقول : حضر بنو فلان إلا محمدا ، ومحمد ليس من بنى فلان هؤلاء ، وإنما هو معهم بالمجاورة أو المصاحبة أو غير ذلك .

هذا ما نختاره ونميل إليه ، إستنادًا إلى ظاهر الآيات وظاهر الأحاديث ، والله - تعالى - أعلم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ بيان لما وبخ الله - تعالى - به إبليس ، ولرد إبليس - لعنه الله - على خالقه - عز وجل - .

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التوبيخ والزجر : أى سبب حملك على مخالفة أمرى ، وجعلك تمتنع عن السجود لمن أمرتك بالسجود له ؟

فكان رد إبليس : ما كان ليليق بشأنى ومنزلتى أن أسجد مع الساجدين لبشر خلقته - أيها الخالق العظيم - من صلصال من حمأ مسنون .

ومقصود إبليس بهذا الرد إثبات أنه خير من آدم ، كما حكى عنه - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - ﴿ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾[٢] .

وهذا الرد منه يدل على عصيانه لأمر ربه ، وعدم الرضا بحكمه ، وسوء أدبه مع خالقه - سبحانه - .

قال الآلوسى : وقد أخطأ اللعين حيث ظن أن الفضل كله باعتبار المادة ، وما درى أنه يكون باعتبار الفاعل ، وباعتبار الصورة ، وباعتبار الغاية ، بل إن ملاك الفضل والكمال هو التخلى عن الملكات الردية ، والتحلى بالمعارف الربانية .

فشمال والكأس فيها يمين ... ويمين لا كأس فيها شمال[٣]

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴾ بيان للحكم العادل الذى أصدره الله - تعالى - على إبليس .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢ .

(٢) سورة ص الآية ٧٦ .

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٣ .

والضمير فى قوله : « منها » يعود إلى السماء لأنها مسكن الطائعين الأخيار ، أو إلى الجنة لأنها لا يسكنها إلا من أطاع الله - تعالى - ، أو إلى المنزلة التى كان فيها قبل طرده من رحمة الله .. أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل الزجر والتحقير : فاخرج من جنتى ومن سمائى فإنك ﴿ رجيم ﴾ مطرود من كل خير وكرامة ، وإن عليك اللعنة والإبعاد من رحمتى إلى يوم الدين ، وهو يوم الحساب والجزاء .

وليس المراد أن تنقطع عنه اللعنة يوم الدين ، بل المراد أن هذه اللعنة مستمرة عليه إلى يوم الدين ، فإذا ما جاء هذا اليوم استمرت هذه اللعنة ، وأضيف إليها العذاب الدائم المستمر الباقى ، بسبب عصيانه لأمر ربه ، فذكر يوم الدين ، إنما هو للمبالغة فى طول مدة هذه اللعنة ودوامها ما دامت الحياة الدنيا .

وعبر - سبحانه - بعلى فى قوله ﴿ وإن عليك اللعنة ﴾ للاشعار بتمكنها منه ، واستعلائها عليه ، حتى لكأن اللعنة فوقه يحملها دون أن تفارقه فى لحظة من اللحظات .

ثم حكى - سبحانه - ما طلبه إبليس من ربه ، ومارد الله به عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ .

والفاء فى قوله ﴿ فأنظرنى ﴾ للتفريع وهى متعلقة بمحذوف يدل عليه سياق الكلام .

والإنظار : التأخير والإمهال ومنه قوله - تعالى - ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ ..

أى : قال إبليس لربه . عز وجل : ما دمت قد أخرجتنى من جنتك ومن سمائك ، وجعلتنى مرجومًا ملعونًا إلى يوم الدين ، فأخر موتى إلى يوم يبعث آدم وذريته للحساب وخاطب الله - تعالى - بصفة الربوبية تخضعا وتذللا لكى يجاب طلبه .

وقد أجاب الله - تعالى - له طلبه فقال : ﴿ فإنك ﴾ يا إبليس من جملة ﴿ المنظرين ﴾ أى الذين أخرت موتهم ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ وهو يوم القيامة الذى استأثرت بعلم وقته ، والذى وصفت أحواله للناس . كى يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح .

ويصح أن يكون المراد بالوقت المعلوم : وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق ويموت هو معهم .

قال ابن كثير : أجابه الله - تعالى - إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف . ولا ممانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

وقال بعض العلماء : وهذا الإنظار رمز إلهى على أن ناموس الشر لا ينقضى من عالم الحياة الدنيا ، وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر ، وبين الأخيار والأشرار .

قال – تعالى –: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق...﴾[1].

ولذلك لم يستغن نظام العالم عن إقامة قوانين العدل والصلاح ، وإيداعها إلى الكفاة لتنفيذها والذود عنها »[2] .

ثم بين – سبحانه – الأسباب التى حملت إبليس على طلب تأخير موته إلى يوم القيامة ، والتى من أهمها الانتقام من آدم وذريته فقال – تعالى – : ﴿ قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

والباء فى قوله ﴿ بما أغويتنى لأزينن لهم .. ﴾ للسببية أو للقسم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : الباء ههنا بمعنى السبب ، أى : بسبب كونى غاويا لأزينن لهم كقول القائل : أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار ، وبطاعته ليدخلن الجنة .

أو للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم . والمعنى أقسم بإغوائك لى لأزينن لهم . ونظيره قوله – تعالى – ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾[3] .

وقوله ﴿ أغويتنى ﴾ من الإغواء ، وهو خلق الغى فى القلوب . وأصل الغى الفساد ، ومنه غوى الفصيل – كرضى – إذا بشم من اللبن ففسدت معدته . أو منع من الرضاع فهزل وكاد يهلك ، ثم استعمل فى الضلال . يقال : غوى فلان يغوى غيا وغواية فهو غاو إذا ضل عن الطريق المستقيم . وأغواه غيره وغواه : أضله .

وقوله ﴿ لأزينن لهم ﴾ من التزيين بمعنى التحسين والتجميل ، وهو تصيير الشى زينًا، أى : حسنًا حتى ترغب النفوس فيه وتقبل عليه .

والضمير فى ﴿ لهم ﴾ يعود على ذرية آدم ، وهو مفهوم من السياق وإن لم يجر لهم ذكر ، وقد جاء ذلك صريحًا فى قوله – تعالى – فى آية أخرى : ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾[4] .

وحذف مفعول ﴿ لأزينن ﴾ لدلالة المقام عليه .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٨ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٤٩ .
(٣) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٨٥ .
(٤) سورة الأسراء الآية ٦٣ .

أى : لأزينن لهم المعاصى والسيئات ، بأن أحسن لهم القبيح . وأزين لهم المنكر . وأحبب الشهوات إلى نفوسهم حتى يتبعوها ، وأبذل نهاية جهدى فى صرفهم عن طاعتك ... وقال - سبحانه - ﴿ فى الأرض ﴾ لتحديد مكان إغوائه ، إذ هى المكان الذى صار مستقرًا له ولآدم وذريته ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ - أى الجنة - فأخرجهما - أى آدم وحواء - مما كانا فيه ، ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[1] .

وقوله ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ مؤكدًا لما قبله .

أى : والله لأغوينهم جميعًا مادمت قادرًا على ذلك ، ولأعملن على إضلالهم بدون فتور أو يأس ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[2] .

قال القرطبى : وروى ابن لهيعة عبد الله عن دراج أبى السمح ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن إبليس قال يارب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

وقوله - سبحانه - ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ اعتراف من إبليس بأن من عباد الله - تعالى - قومًا لا يستطيع أن يغويهم ، ولا يقدر على إضلالهم .

وكلمة «المخلصين» قرأها نافع وحمزة وعاصم والكسائى- بفتح اللام- ، فيكون المعنى : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك الذين استخلصتهم لطاعتك ، وصنتهم عن اقتراف ما نهيتهم عنه .

وقرأها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو - بكسر اللام - ، فيكون المعنى : لأضلنهم جميعًا ، إلا عبادك الذين أخلصوا لك العمل ، وابتعدوا عن الرياء فى أقوالهم وأفعالهم .

وهذا الاستثناء الذى اعترف به إبليس بعد أن أدرك أنه لا محيص له عنه - هو سنة الله - تعالى - فى خلقه ، فقد جرت سنته التى لا تغيير ولا تبديل لها ، بأن يستخلص لذاته من يخلص له قلبه ، وأن يرعى من يرعى حدوده ، ويحفظ من يحفظ تكاليفه ، ولذا كان جوابه

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية١٧ .

- سبحانه - على إبليس ، هو قوله - تعالى - ﴿ قال هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ .

واسم الاشارة ﴿ هذا ﴾ يعود إلى الاستثناء السابق وهو قوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

وقد اختار هذا الرأى الإمام الآلوسى فقال : قال الله - تعالى - ﴿ هذا صراط على ﴾ أى : حق لابد أن أراعيه ﴿ مستقيم ﴾ لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره .

والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخليص المخلصين من إغوائه وكلمة على تستعمل فى الوجوب . والمعتزلة يقولون به حقيقة لقولهم بوجوب الأصلح عليه - تعالى - .

وقال أهل السنة ، إن ذلك وإن كان تفضلاً منه - سبحانه - إلا أنه شبه بالحق الواجب لتأكد ثبوته وتحقق وقوعه ، بمقتضى وعده - عز وجل - ، فجىء بعلىًّ لذلك » .

ثم قال : وقرأ الضحاك ومجاهد ويعقوب .. ﴿ وهذا صراط عَلِىٌّ ﴾ - بكسر اللام وضم الياء المشددة وتنوينها - أى : عال لارتفاع شأنه »[1] .

وقد اختار صاحب الكشاف عودة اسم الإشارة إلى ما بعده فقال : قال الله - تعالى - ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ أى هذا طريق حق على أن أراعيه ، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادى ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته[2] .

ويرى ابن جرير أن على هنا بمعنى إلى ، فقد قال - رحمه الله - قوله - تعالى - ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ بمعنى هذا طريق إلى مستقيم .

فكان معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلى ، فأجازى كلا بأعمالهم ، كما قال - تعالى - ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ وذلك نظير قول القائل لمن يتوعده ويتهدده : طريقك على وأنا على طريقك ، فكذلك قوله ﴿ هذا صراط ﴾ معناه : هذا طريق علىّ وهذا طريق إلى ... »[3] .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة مسوقة لبيان المنهاج القويم الذى كتبه الله - تعالى - على نفسه فضلاً منه وكرمًا ، والميزان العادل الذى وضعه - سبحانه - لتمييز الخبيث من الطيب .

فكأنه - سبحانه - يقول فى الرد على إبليس الذى اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٦ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩١ .
(٣) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٣٣ .

عباد الله : يا إبليس ، إن عدم قدرتك على إغواء عبادى المخلصين منهج قويم من مناهجى التى اقتضتها حكمتى وعدالتى ورحمتى ، وسنة من سننى التى آليت على نفسى أن ألتزم بها مع خلقى . إن عبادى المخلصين لا قوة ولا قدرة لك على إغوائهم ، لأنهم حتى إذا مسهم طائف منك . أسرعوا بالتوبة الصادقة إلى ، فقبلتها منهم . وغفرت لهم زلتهم ... ولكنك تستطيع إغواء أتباعك الذين استحوذت عليهم ؛ فانقادوا لك ...

وفى هاتين الآيتين ما فيهما من التنويه بشأن عباد الله المخلصين ، ومن المديح لهم بقوة الإيمان ، وعلو المنزلة ، وصدق العزيمة ؛ وضبط النفس ...

قال - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾[1] .

قال الآلوسى وقوله : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ... ﴾ أى تصرف وتسلط ، والمراد بالعباد ؛ المشار إليهم بالمخلصين ، فالإضافة للعهد والاستثناء على هذا فى قوله ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ منقطع .

واختار هذا غير واحد ... وجوز أن يكون بالعباد العموم والاستثناء متصل ، والكلام كالتقرير لقوله إلا عبادك منهم المخلصين ، ولذا لم يعطف على ما قبله ، وتغيير الوضع لتعظيم المخلصين ، بجعلهم هم الباقين بعد الاستثناء ... »[2] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المتبعين لإبليس فقال : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ لموعدهم ﴾ يعود إلى الغاوين ، أو إلى ﴿ من اتبعك ﴾ والموعد : مكان الوعد .

والمراد به هنا المكان الذى سينتهون إليه حتمًا بعد أن كانوا غافلين عنها فى الدنيا ، وهو جهنم أى وإن جهنم لمكان محتوم لهؤلاء الذين أغواهم إبليس دون أن يفلت أحد من سعيرها .

وجملة « لها سبعة أبواب » مستأنفة لوصف حال جهنم وأبوابها .

وجملة « لكل باب منهم جزء مقسوم » صفة لأبواب ، وضمير « منهم » يعود إلى الغاوين أتباع إبليس .

والمقسوم : من القَسْم وهو إفراز النصيب عن غيره تقول : قسمت كذا قسمًا وقسمة إذا ميزت كل قسم عن سواه .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٥ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٤٧ .

والمعنى : إن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منها ، فريق معين من الغاوين يدخلون منه ، على حسب تفاوتهم فى الغواية وفى متابعة إبليس ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالأبواب هنا الأطباق والدركات .

أى لجهنم سبعة أطباق أو دركات بعضها فوق بعض ، ينزلها الغاوون ، بحسب أصنافهم وتفاوت مراتبهم فى الغى والضلال .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أى : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس ، يدخلونه لا محيد لهم عنه - أجارنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر فى درك بقدر فعله .... ثم قال : وعن عمرة بن جندب - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - فى قوله ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال : « إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته[١] ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه ... »[٢] .

وبعد : فهذه قصة خلق الإنسان ، وقصة خلق الجان - كما بينتها هذه السورة الكريمة - ومن الدروس والعظات التى نأخذها منها :

١ - دلالتها على كمال قدرة الله - تعالى - ، وبديع خلقه ، وبليغ حكمته ، حيث خلق - سبحانه - الإنسان من مادة تختلف عن المادة التى خلق منها الجان ، وحيث كرم الإنسان بخاصية أخرى أشار إليها القرآن فى قوله - تعالى - ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى .. ﴾ .

وهذه الخاصية هى التى تجعل من هذا الإنسان ، إنسانًا ينفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى التى تشاركه فى هذه الحياة ..

٢ - أن خلق الجان سابق على خلق الإنسان ، بدليل قوله - تعالى - ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ .

٣ - أن الملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فهم بمجرد أن أمرهم الله - تعالى - بالسجود لآدم ، سجدوا جميعًا دون أن يشذ منهم أحد .

---

(١) الحجزة بضم الحاء وسكون الجيم معقد الازار .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٥ .

٤ - أن الإصرار على معصية الله - تعالى - يؤدى إلى الطرد من رحمته - سبحانه - ومن الخروج من رضوانه ومغفرته .

٥ - أن التكبر والغرور والحسد ، من أبرز الصفات الذميمة التى حملت إبليس على الامتناع عن السجود لآدم ، وعلى مخالفة أمر ربه - عز وجل - .

٦ - أن إجابته - سبحانه - لطلب إبليس فى تأخير موته ، لم يكن لكرامة له عنده - عز وجل - ، وإنما كان استدراجًا له وإمهالاً ، وابتلاء لبنى آدم ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

٧ - أن العدواة بين إبليس وقبيله ، وبين آدم وذريته ، باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن إبليس وجنوده لم ولن يتركوا بابا من أبواب الشر إلا وزينوه وجملوه لبنى آدم ، وحرضوهم على الدخول فيه ، ليكتسبوا السيئات التى نهاهم الله - تعالى - عنها .

قال - تعالى - ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[1].

٨ - أن عدالة الله - تعالى - ورحمته قد اقتضت أن يحمى عباده المخلصين من تسلط الشيطان عليهم ، لأنهم منه فى حمى ، ولأن مداخله إلى نفوسهم مغلقة ، إذ أنهم خافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ..

أما الذين يستطيع الشيطان التسلط عليهم ، والتأثير فيهم ، فهم أولئك الذين انقادوا لوساوسه ، واستجابوا لنزعاته ، وصاروا مطية له يسخرها كما يشاء ...

وهؤلاء هم الذين تنتظرهم جهنم بأبوابها السبعة ..

قال - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ .

هذه هى عاقبة الغاوين أتباع إبليس ، أما عاقبة المخلصين الذين أخلصوا نفوسهم لله - تعالى - وأطاعوه فى السر والعلن ، فقد بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله :

---

(١) سورة فاطر الآية ٦ .

إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ إن المتقين ... ﴾ كلام مستأنف لإظهار حسن عاقبة المتقين ، بعد بيان سوء عاقبة الغاوين .

والمتقون : جمع متق اسم فاعل من اتقى . وأصله اوتقى - بزنة افتعل - من وقى الشىء وقاية ، أى : صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه .

والجنات : جمع جنة ، وهى كل بستان ذى شجر متكاثف ، ملتف الأغصان ، يظلل ما تحته ويستره . من الجن وهو ستر الشىء عن الحاسة ..

والمراد بها هنا الدار التى أعدها الله - تعالى - لتكريم عباده المؤمنين فى الآخرة .

والعيون جمع عين . والمقصود بها هنا المياه المنتشرة فى الجنات .

والمعنى : « إن المتقين » الذين صانوا أنفسهم عن الشرك . وقالوا ربنا الله ثم استقاموا « فى جنات » عالية ، فيها ما تشتهيه الأنفس ، وفيها منابع للماء تلذ لها الأعين .

وجملة « ادخلوها بسلام آمنين » معمولة لقول محذوف . والباء فى قوله « بسلام » للمصاحبة .

أى : وتقول لهم الملائكة - على سبيل التكريم - والتحية - لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنات واستقرارهم فيها : ادخلوها - أيها المتقون - تصاحبكم السلامة من الآفات ، والنجاة من المخافات .

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه فى الجنة من صفاء نفسى ، ونقاء قلبى فقال : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ .

والنزع : القلع يقال : نزع فلان هذا الشىء من مكانه إذا قلعه منه ، وفعله من باب ضرب والغل : الحقد والضغينة ، وأصله من الغلالة ، وهى ما يلبس بين الثوبين : الشعار والدثار .

أو من الغلل وهو الماء المتخلل بين الأشجار . ويقال : غلّ صدر فلان يغل - بالكسر - غلا إذا كان ذا غش ، أو ضغن ، أو حقد .

والسرر : جمع سرير وهو المكان المهيأ لراحة الجالس عليه وإدخال السرور على قلبه .

أى : وقلعنا ما فى صدور هؤلاء المتقين من ضغائن وعداوات كانت موجودة فيها فى الدنيا ، وجعلناهم يدخلون الجنة إخوانًا متحابين متصافين ، ويجلسون متقابلين ، على سرر مهيأة لراحتهم ورفاهيتهم وإدخال السرور على نفوسهم .

وقوله : ﴿ إخوانًا على سرر متقابلين ﴾ حال عن فاعل ﴿ ادخلوها ﴾ .

وعبر بقوله ﴿ متقابلين ﴾ لأن مقابلة الوجه للوجه أدخل فى الإيناس ، وأجمع للقلوب .

والآية الكريمة تشعر بأنهم فى الجنة ينشئهم الله - تعالى - نشأة أخرى جديدة وتكون قلوبهم فيها خالية من كل ما كان يخالطهم فى الدنيا من ضغائن وعداوات وأحقاد وأطماع وغير ذلك من الصفات الذميمة ، ويصلون بسبب هذه النشأة الجديدة إلى منتهى الرقى البشرى ...

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث والآثار منها ما رواه القاسم عن أبى أمامة قال : يدخل أهل الجنة على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غل ، ثم قرأ : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل .. ﴾ .

ومنها : ما رواه أبو مالك الأشجعى عن أبى حبيبة - مولى لطلحة - قال : دخل عمران بن طلحة على الإمام على بن أبى طالب بعد ما فرغ من أصحاب الجمل ، فرحب على - رضى الله عنه - به ، وقال : إنى لأرجو أن يجعلنى الله وإياك من الذين قال الله فيهم : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ... ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - بيان جزائهم بقوله : ﴿ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ .

والنصب : التعب والإعياء . يقال : نصب الرجل نصبا - من باب طرب - إذا نزل به التعب والهم . ويقال فلان فى عيش ناصب ، أى فيه كد وجهد .

قال ابن كثير قوله - تعالى - : ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ يعنى مشقة وأذى كما جاء فى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٩ وابن جرير ج ١٤ ص ٣٦ .

الصحيحين ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

وقوله ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ - بل هم باقون فى الجنات بقاء سرمديا دائمًا لا ينقطع - كما جاء فى الحديث : «يقال- لأهل الجنة- يا أهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبدًا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدًا »[(١)] .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على بشارات للمؤمنين الصادقين ، هذه البشارات مقرونة بالتعظيم ، خالية من الشوائب والأضرار ، باقية لا انقطاع لها .

أما البشارات فتراها فى قوله - تعالى - ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ .

وأما اقترانها بالتعظيم والتكريم ، فتراه فى قوله - تعالى - : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ .

وأما خلوها من الشوائب والأضرار ، فتراه فى قوله - تعالى - : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا ... ﴾ .

وأما بقاؤها واستمرارها ، فتراه فى قوله - تعالى - : ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ .

هذا ، وشبيه بهذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ... ﴾[(٢)] .

وقوله - تعالى - ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ... ﴾[(٣)] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾[(٤)] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾[(٥)] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٢) سورة الذاريات الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٤٣ .

(٤) سورة فاطر الآيتان ٣٤ ٣٥ .

(٥) سورة الكهف الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

ثم بين - سبحانه - نماذج لمن شملتهم رحمته لإيمانهم وعملهم الصالح ، ولمن شملتهم نقمته لكفرهم وعملهم الطالح ، ومن هذه النماذج تبشيره لإبراهيم - وهو شيخ كبير - بغلام عليم ، وإنجاؤه لوطا ومن آمن معه من العذاب المهين ، وإهلاكه المجرمين من قومه .. قال - تعالى - :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ نبيء عبادى .. ﴾ للرسول - ﷺ - والنبأ : الخبر العظيم . والمراد « بعبادى » : المؤمنون منهم ، والإضافة للتشريف .

أى : أخبر - أيها الرسول الكريم - عبادى المؤمنين أنى أنا الله - تعالى - الكثير المغفرة لذنوبهم ، الواسع الرحمة لمسيئهم ، وأخبرهم - أيضا - أن عذابى هو العذاب الشديد

الإيلام ، فعليهم أن يقدموا القول الطيب ، والعمل الصالح ، لكى يظفروا بمغفرتى ورحمتى ، وينجو من عذابى ونقمتى .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد جمع فى هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته - سبحانه - فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ما كلفه - سبحانه - به .

وقدم - سبحانه - نبأ الغفران والرحمة ، على نبأ العذاب والانتقام ، جريا على الأصل الذى ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه .

والضمير « أنا » و « هو » فى الآيتين الكريمتين ، للفصل ؛ لإفادة تأكيد الخبر.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى الآيتين لطائف :

إحداها : أنه أضاف - سبحانه - العباد إلى نفسه بقوله ﴿ عبادى ﴾ وهذا تشريف عظيم لهم ...

وثانيها . أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة : أولها : قوله ﴿ أنى ﴾ وثانيها قوله ﴿ أنا ﴾ ، وثالثها . إدخال حرف الألف واللام على قوله ﴿ الغفور الرحيم ﴾ ، ولما ذكر العذاب لم يقل : إنى أنا المعذب ، بل قال ﴿ وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ .

وثالثها : أنه أمر رسوله - ﷺ - أن يبلغ إليهم هذا المعنى ، فكأنه أشهده على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة .

ورابعها : أنه لما قال ﴿ نبىء عبادى ﴾ كان معناه نبىء كل من كان معترفًا بعبوديتى ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع . فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصى ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله - تعالى - »[1] .

وقال الآلوسى : وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : إن الله - تعالى - خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله - تعالى - من العذاب ، لم يأمن من النار » .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤٩ ص ٥٥ .

وأخرج عبد بن حميد وجماعة عن قتادة أنه قال فى الآية : بلغنا أن رسول الله - ﷺ - قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله - تعالى - لما تورع من حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه »[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... ﴾ معطوف على قوله قبل ذلك ﴿ نبىء عبادى ... ﴾ .

قال الجمل : وأصل الضيف : الميل ، يقال أضفت إلى كذا إذا ملت إليه . والضيف من مال إليك نزولاً بك ، وصارت الضيافة متعارفة فى القرى وأصل الضيف مصدر ، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى غالب كلامهم . وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف ...[٢] .

والمراد بضيف إبراهيم هنا : الملائكة الذين نزلوا عنده ضيوفًا فى صورة بشرية ، وبشروه بغلام عليم ، ثم أخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط لإهلاكهم ...

ثم فصل - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وضيوفه فقال : ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا .. ﴾ .

والظرف « إذ » منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر .

أى : ونبئهم - أيضًا - أيها الرسول الكريم - عن ضيف إبراهيم ، وقت أن دخلوا عليه ، فقالوا له على سبيل الدعاء أو التحية ﴿ سلاما ﴾ أى : سلمت سلاما . أو سلمنا سلاما .

فلفظ « سلاما » منصوب بفعل محذوف .

وقوله - سبحانه - ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ بيان لما رد به إبراهيم - عليه السلام - على الملائكة .

و « وجلون » جمع وجل ، والوجل : اضطراب يعترى النفس لتوقع حدوث مكروه .

يقال : وجل الرجل وجلا فهو وجل إذا خاف .

أى : قال لهم إبراهيم بعد أن دخلوا عليه وبادروه بالتحية إنا منكم خائفون .

وقال « إنا منكم ... » بصيغة الجمع ، لأنه قصد أن الخوف منهم قد اعتراه هو ، واعترى أهله معه .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٥٥ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٤٨ .

وكان من أسباب خوفه منهم ، أنهم دخلوا عليه بدون إذن ، وفى غير وقت الزيارة وبدون معرفة سابقة لهم ، وأنهم لم يأكلوا من الطعام الذى قدمه إليهم ..

هذا ، وقد ذكر - سبحانه - فى سورة الذاريات أنه رد عليهم السلام فقال - تعالى - ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ﴾[1] .

كما بين - سبحانه - فى سورة هود أن من أسباب خوفه منهم ، عدم أكلهم من طعامه . قال - تعالى - : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ... ﴾[2]. أى خاف إبراهيم لما رأى أيدى الضيف لا تصل إلى طعامه .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم فقال - تعالى - : ﴿ قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم على سبيل البشارة وإدخال السرور على قلبه : لا تخف منا يا إبراهيم ، إنا جئنا إليك لنبشرك بغلام ذى علم كثير بشريعة الله - تعالى - وبأوامره ونواهيه ، وهو إسحق - عليه السلام - .

وجملة « إنا نبشرك .. » مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل .

وقد حكى - سبحانه - هنا أن البشارة كانت له ، وفى سورة هود أن البشارة كانت لامرأته ، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معًا ، إما فى وقت واحد ، وإما فى وقتين متقاربين بأن بشروه هو أولاً ، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها أيضًا ، ويشهد لذلك قوله - تعالى - ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ... ﴾[3] .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن بشروه بهذا الغلام العليم ، فقال - تعالى - ﴿ قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ﴾.

والاستفهام للتعجب . كأنه عجب من أن يرزقه الله - تعالى - بغلام عليم بعد أن مسه الكبر ، وبلغ سن الشيخوخة .

و « على » بمعنى مع ، والمس : اتصال شىء بآخر على وجه الإحساس والإصابة .

---

(١) الآيتان ، ٢٤، ٢٥ .

(٢) الآية ٧٠ .

(٣) سورة هود الآية ٧١ .

أى : قال إبراهيم للملائكة ، بعد أن بشروه بالولد ، أبشرتمونى بذلك مع أن الكبر قد أصابنى ، والشيخوخة قد اعترتنى فبأى شىء عجيب قد بشرتمونى .

وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله - تعالى - ونفاذ أمره ، حيث وهبه هذا الغلام فى تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتى جرت العادة أن لا يكون معها إنجاب الأولاد .

وقد حكى القرآن هذا التعجب على لسان امرأة إبراهيم فى قوله - تعالى - ﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ، إن هذا لشىء عجيب .. ﴾[1] .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والسبب فى هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة ...

وهناك جواب آخر ، وهو أن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة فى شىء ، وفاته الوقت الذى يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه ، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله ازداد فرحه وسروره ، ويصير ذلك الفرح القوى كالمدهش له وربما يجعله هذا الفرح يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ، طلبا للالتذاذ بسماعها ... »[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ .

أى : قال الملائكة لإبراهيم لزيادة اطمئنانه ، ولتأكيد بشارته بالغلام العليم :

يا إبراهيم إنا بشرناك بالأمر المحقق الوقوع ، وباليقين الذى لا خلف معه ، وهو أن الله - تعالى - سيهبك الولد مع تقدم سنك وسن زوجك ، فلا تكن من الآيسين من رحمة الله - تعالى - فإن قدرته - عز وجل - لا يعجزها شىء .

وهنا دفع إبراهيم - عليه السلام - عن نفسه رذيلة اليأس من رحمة الله . فقال على سبيل الإنكار والنفى ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ أى : أنا ليس بى قنوط أو يأس من رحمة الله ، لأنه لا ييأس من رحمة الله - تعالى - إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب ، الذين لا يعرفون سعة رحمته - تعالى - ونفاذ قدرته ، ولكن هذه البشارة العظيمة - مع تقدم سنى وسن زوجى - هى التى جعلتنى - من شدة الفرح والسرور - أعجب من كمال قدرة الله - تعالى - ، ومن جزيل عطائه ، ومن سابغ منه ، حيث رزقنى الولد فى هذه السن التى جرت العادة بأن لا يكون معها إنجاب أو ولادة .

---

(١) سورة هود الآية ٧٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ١٩٧ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله إبراهيم للملائكة ، بعد أن اطمأن إليهم ، فقال : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ .

والخطب : مصدر خطب يخطب ، ومنه قولهم : هذا خطب يسير ، وخطب جلل ، وجمعه خطوب ، وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور . وأصله الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب ويخطب له .

أى : قال إبراهيم - عليه السلام - للملائكة على سبيل الاستيضاح بالتفصيل عن سبب مجيئهم : فما شأنكم الخطير الذى من أجله جئتم إلينا سوى هذه البشارة . وكأنه قد فهم أن مجيئهم إليه ليس لمجرد البشارة ، بل من وراء البشارة أمر آخر جاءوا من أجله .

وهنا بادره الملائكة بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ . أى : قالوا له إنا أرسلنا - بأمر الله - تعالى - إلى قوم شأنهم الإجرام ، ودأبهم الفجور ، والمراد بهم قوم لوط - عليه السلام - وكانوا يسكنون مدينة « سدوم » بمنطقة وادى الأردن وقوله ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ استثناء من القوم المجرمين الذين أرسل الملائكة لإهلاكهم .

والمراد بآل لوط : أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه . ولم يشاركوا قومهم فى كفرهم وشذوذهم .

أى : إنا أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم ، إلا من آمن منهم فإنا لمنجوهم أجمعين .

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : فإن قلت : قوله - تعالى - ﴿ إلا آل لوط ﴾ استثناء متصل أم منقطع ؟

قلت : لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعًا ، لأن القوم موصوفون بالإجرام فاختلف لذلك الجنسان ، وأن يكون استثناء من الضمير فى ﴿ مجرمين ﴾ فيكون متصلًا ، كأنه قيل : قد أرسلنا إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال : ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ .

فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين ؟ قلت : نعم ، وذلك أن آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلًا ... كأنه قيل : إنا أهلكنا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم .

وأما فى المتصل ، فهم داخلون فى حكم الإرسال ، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعًا ليهلكوا هؤلاء ، وينجوا هؤلاء ، فلا يكون الإرسال مخلصًا بمعنى الإهلاك والتعذيب كما فى الوجه الأول »[١] ...

وقوله - سبحانه - ﴿ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ استثناء من الضمير فى ﴿ لمنجوهم ﴾ ، إخراجا لها من التنجية . أى : إلا امرأة لوط - عليه السلام - فليست ممن سننجيه ، بل هى ممن سنهلكه مع القوم المجرمين .

ومعنى (قدرنا) : قضينا وحكمنا .

والغابر : الباقى . يقال غبر الشىء غبورًا إذا بقى وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع . وقد يستعمل فى الماضى فيكون هذا اللفظ من الأضداد .

ونسب الملائكة التقدير إليهم فقالوا ﴿ إلا امرأته قدرنا ... ﴾ مع أنه فعل الله - تعالى - ، لما لهم من الزلفى عنده - سبحانه - ، ولأنهم ما أرسلوا لإهلاك المجرمين وإنجاء المؤمنين إلا بأمره .

قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن قوله - تعالى - ﴿ إلا امرأته قدرنا ... ﴾ من كلام الملائكة ، وأسندوا التقدير إلى أنفسهم - وهو فعل الله - سبحانه - لما لهم من القرب والاختصاص ، وهذا كما يقول أحد حاشية السلطان: أمرنا بكذا.. والآمر فى الحقيقة هو السلطان . وقيل - ولا يخفى بعده - : هو من كلام الله - تعالى - فلا يحتاج إلى تأويل ، وكذا لا يحتاج إلى تأويل إذا أريد بالتقدير العلم .

قال بعض العلماء : وفى هذه الآية الكريمة دليل واضح لما حققه علماء الأصول من جواز الاستثناء من الاستثناء ، لأنه - تعالى - استثنى آل لوط من إهلاك المجرمين بقوله ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ ثم استثنى من هذا الاستثناء امرأة لوط بقوله ﴿ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾[٢] .

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوب بليغ حكيم ، ما دار بين إبراهيم وبين

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٣ .
(٢) تفسير (أضواء البيان) ج ٣ ص ١٥٥ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

الملائكة الذين جاءوا لتبشيره بغلام عليم ، وإخباره بإهلاك القوم المجرمين ، وهم قوم لوط - عليه السلام - ..

ثم حكت السورة بعد ذلك ما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام - بعد أن جاءوا إليه ، وما دار بين لوط - عليه السلام - وبين قومه المجرمين من مجادلات ومحاورات ، وما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب جعل أعلى مدينتهم أسفلها .. فقال - تعالى - :

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط . ووضع الظاهر موضع الضمير ، للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق

ما أرسلوا به من ذلك ﴾[١] .

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق، والتقدير : وخرج الملائكة من عند إبراهيم - بعد أن بشروه بغلامه، وبعد أن أخبروه بوجهتهم - فاتجهوا إلى المدينة التى يسكنها لوط - عليه السلام - وقومه . فلما دخلوا عليه قال لهم : « إنكم قوم منكرون » .

أى : إنكم قوم غير معروفين لى ، لأنى لم يسبق لى أن رأيتكم ، ولا أدرى من أى الأقوام أنتم ، ولا أعرف الغرض الذى من أجله أتيتم ، وإن نفسى ليساورها الخوف والقلق من وجودكم عندى ...

ويبدو أن لوطًا - عليه السلام - قد قال لهم هذا الكلام بضيق نفس ، لأنه يعرف شذوذ المجرمين من قومه ، ويخشى أن يعلموا بوجود هؤلاء الضيوف أصحاب الوجوه الجميلة عنده ، فيعتدوا عليهم دون أن يملك الدفاع عنهم ...

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الضيق النفسى ، الذى اعترى لوطا بسبب وجود هؤلاء الضيوف عنده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعًا ، وقال هذا يوم عصيب ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ مع أن المجىء كان للوط - عليه السلام - والخطاب كان معه ، تشريفًا وتكريمًا للمؤمنين من قوم لوط ، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم ، ولما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ .

حكاية لما رد به الملائكة على لوط ، لكى يزيلوا ضيقه بهم ، وكراهيته لوجودهم عنده .

وقوله ﴿ يمترون ﴾ من الامتراء ، وهو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

وهو - كما يقول الإمام الفخر الرازى - مأخوذ من قول العرب : مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها ، فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء ، كاللبن الذى يجتذب عند الحلب . يقال : قد مارى فلان فلانا ، إذا جادله كأنه يستخرج غضبه »[٣] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٦٢ .
(٢) سورة هود الآية ٧٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٨٠ .

أى : قال الملائكة للوط لإدخال الطمأنينة على نفسه : يا لوط نحن ما جئنا لإزعاجك أو إساءتك ، وإنما جئناك بأمر كان المجرمون من قومك ، يشكون فى وقوعه ، وهو العذاب الذى كنت تحذرهم منه إذا ما استمروا فى كفرهم وفجورهم ...

وإنا ما أتيناك إلا بالأمر الثابت المحقق الذى لا مرية فيه ولا تردد ، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قومك ، وإنا لصادقون فى كل ما قلناه لك ، وأخبرناك به ، فكن آمنًا مطمئنًا .

فالاضراب فى قوله ﴿ قالوا بل جئناك ... ﴾ إنما هو لإزالة ما وقر فى قلب لوط - عليه السلام - تجاه الملائكة من وساوس وهواجس .

فكأنهم قالوا له : نحن ما جئناك بشىء تكرهه أو تخافه .. وإنما جئناك بما يسرك ويشفى غليلك من هؤلاء القوم المنكوسين .

وعبر عن العذاب بقوله ﴿ بما كانوا فيه يمترون ﴾ زيادة فى إدخال الأنس على نفسه وتحقيقًا لوقوع العذاب بهم .

وقوله ﴿ وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ تأكيد على تأكيد .

وهذه التأكيدات المتعددة والمتنوعة تشعر بأن لوطا - عليه السلام - كان فى غاية الهم والكرب لمجىء الملائكة إليه بهذه الصورة التى تغرى المجرمين بهم دون أن يملك حمايتهم أو الدفاع عنهم .

لذا كانت هذه التأكيدات من الملائكة له فى أسمى درجات البلاغة ، حتى يزول خوفه ، ويزداد اطمئنانه إليهم ، قبل أن يخبروه بما أمرهم الله - تعالى - بإخباره به ، وهو قوله - تعالى - ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل . واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون ﴾ .

قال القرطبى : قوله ﴿ فأسر .. ﴾ قرىء فاسر وقرىء فأسر ، بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان . قال - تعالى - ﴿ والليل إذا يسر .. ﴾ وقال : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا .. ﴾ . وقيل : فأسر تقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار فى آخره ، ولا يقال فى النهار إلا سار »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٧٩ .

وقوله ﴿ بقطع من الليل .. ﴾ أى : بجزء من الليل . والمراد به الجزء الأخير منه .

أى : قال الملائكة للوط - عليه السلام - بعد أن أزالوا خوفه منه : يا لوط إنا نأمرك - بإذن الله تعالى - أن تخرج من هذه المدينة التى تسكنها مع قومك وأن يخرج معك أتباعك المؤمنون ، وليكن خروجكم فى الجزء الأخير من الليل .

وقوله ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ أى : وكن وراءهم لتطلع عليهم وعلى أحوالهم .

قال الإمام ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن الملائكة أنهم أمروا لوطا أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل ، وأن يكون لوط - عليه السلام - يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم .

وهكذا كان رسول الله - ﷺ - يمشى فى الغزاة يزجى الضعيف ، ويحمل المنقطع[1] .

وقوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أى : ولا يلتفت منكم أحد أيها المؤمنون - خلفه ، حتى لا يرى العذاب المروع النازل بالمجرمين .

وإنما أمرهم - سبحانه - بعدم الالتفات إلى الخلف ، لأن من عادة التارك لوطنه ، أن يلتفت إليه عند مغادرته ، كأنه يودعه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى أمره باتباع أدبارهم ونهيهم عن الالتفات ؟

قلت : قد بعث الله الهلاك على قوم لوط ، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم وخرج مهاجرا فلم يكن له بد من الاجتهاد فى شكر الله ، وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك ، فأمر بأن يقدِّمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعًا عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاما منه ولا غيرها من الهفوات فى تلك الحال المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب ، وليكون مسيره مسير الهارب الذى يقدم سربه ويفوت به . ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا له ، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ، ويمضوا قدمًا غير ملتفتين إلى ما وراءهم ، كالذى يتحسر على مفارقة وطنه ...

أو جعل النهى عن الالتفات ، كناية عن مواصلة السير ، وترك التوانى والتوقف ، لأن من يتلفت لابد له فى ذلك من أدنى وقفة »[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٥٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٥ .

وقوله ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ إرشاد من الملائكة للوط - عليه السلام - إلى الجهة التى أمره الله - تعالى - بالتوجه إليها .

أى : وامضوا فى سيركم إلى الجهة التى أمركم الله - تعالى - بالسير إليها ، مبتعدين عن ديار القوم المجرمين ، تصحبكم رعاية الله وحمايته .

قيل : أمروا بالتوجه إلى بلاد الشام ، وقيل إلى الأردن ، وقيل إلى مصر .

ولم يرد حديث صحيح يحدد الجهة التى أمروا بالتوجه إليها ، ولكن الذى نعتقده أنهم ذهبوا بأمر الله - تعالى - إلى مكان آخر ، أهله لم يعملوا ما كان يعمله العادون من قوم لوط - عليه السلام - .

وقوله - سبحانه - ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ بيان لجانب آخر من جوانب الرعاية والتكريم للوط - عليه السلام - .

وعدى « قضينا » بإلى ، لتضمنه معنى أوحينا .

والمراد بذلك الأمر : إهلاك الكافرين من قوم لوط - عليه السلام - .

وجملة ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ مفسرة ومبينة لذلك الأمر .

وعبر عن عذابهم وإهلاكهم بالإبهام أولاً . ثم بالتفسير والتوضيح ثانيًا ، للإشعار بأنه عذاب هائل شديد .

ودابرهم : أى آخرهم الذى يدبرهم . يقال : فلان دبر القوم يدبرهم دبورا إذا كان آخرهم فى المجىء . والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب استئصالا .

وقوله ﴿ مصبحين ﴾ أى : داخلين فى الصباح ، مأخوذ من أصبح التامة ، وصيغة أفعل تأتى للدخول فى الشىء ، نحو أنجد وأتهم ، أى دخل فى بلاد نجد وفى بلاد تهامة ، وهو حال من اسم الإشارة هؤلاء ، والعامل فيه معنى الإضافة .

والمعنى : وقضينا الأمر بإبادتهم ، وأوحينا إلى نبينا لوط - عليه السلام - أن آخر هؤلاء المجرمين مقطوع ومستأصل ومهلك مع دخول وقت الصباح .

وفى هذا التعبير ما فيه من الدلالة على أن العذاب سيمحقهم جميعًا ، بحيث لا يبقى منهم أحدًا ، لا من كبيرهم ولا من صغيرهم ، ولا من أولهم ولا من آخرهم .

ثم حكى - سبحانه - ما حدث من القوم المجرمين ، بعد أن تسامعوا بأن فى بيت لوط

- عليه السلام - شبانًا فيهم جمال ووضاءة فقال - تعالى - ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ .

والمراد بأهل المدينة : أهل مدينة سدوم التى كان يسكنها لوط وقومه .

ويستبشرون : أى يبشر بعضهم بعضًا بأن هناك شبانًا فى بيت لوط - عليه السلام - ، من الاستبشار وهو إظهار الفرح والسرور .

وهذا التعبير الذى صورته الآية الكريمة ، يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء ...

إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فردًا أو أفرادا ، وإنما يأتون جميعًا - أهل المدينة - وفى فرح وسرور ، وفى الجهر والعلانية ، لا فى السر والخفاء ...

ولأى غرض يأتون ؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس ، تصل فى مجاهرتها بإتيان الفواحش ، إلى ما لم تصل إليه بعض الحيوانات ...

ويقف لوط - عليه السلام - أمام شذوذ قومه مغيظا مكروبًا ، يحاول أن يدفع عن ضيفه شرورهم ، كما يحاول أن يحرك فيهم ذرة من الآدمية فيقول لهم : ﴿ إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ﴾ .

وتفضحون : من الفضح والفضيحة . يقال فضح فلان فلانا فضحا وفضيحة ، إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه .

أى : قال لوط - عليه السلام - لمن جاءوا يهرعون إليه من قومه لارتكاب الفاحشة مع ضيوفه : ياقوم إن هؤلاء الموجودين عندى ضيوفى الذين يلزمنى حمايتهم ، فابتعدوا عن دارى وعودوا إلى دياركم ، ولا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فأهون فى نظرهم ، لعجزى عن حمايتهم ، وأنتم تعلمون أن كرامة الضيف جزء من كرامة مضيفه ...

وعبر لوط - عليه السلام - عن الملائكة بالضيف لأنه لم يكن قد علم أنهم ملائكة ولأنهم قد جاؤا إليه فى هيئة الآدميين .

ثم أضاف لوط - عليه السلام - إلى رجاء قومه رجاء آخر ، حيث ذكرهم بتقوى الله فقال : ﴿ واتقوا الله ولا تخزون ﴾ .

أى : واتقوا الله وصونوا أنفسكم عن عذابه وغضبه ، ولا تخزون مع ضيفى ، وتذلونى وتهينونى أمامهم .

يقال : خَزِىَ الرجل يخزَى خزيا وخَزى ، إذا وقع فى مصيبة فذل لذلك .

ولكن هذه النصائح الحكيمة من لوط - عليه السلام - لقومه ، لم تجد أذنا صاغية ، بل قابلوها بسوء الأدب معه ، وبالتطاول عليه ، شأن الطغاة الفجرة ﴿ قالوا أو لم ننهك عن العالمين ﴾ .

والاستفهام للإنكار . والواو للعطف على محذوف ، والعالمين : جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله - تعالى - والمراد بالعالمين هنا : الرجال الذين كانوا يأتون معهم الفاحشة من دون النساء .

أى : قال قوم لوط له بوقاحة وسوء أدب . أو لم يسبق لنا يالوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد ارتكاب الفاحشة معه من الرجال ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لك بعد هذا النهى أن تمنعنا عما نريده من ضيوفك وأنت تعلم ما نريده منهم ؟

ولكن لوطا - عليه السلام - مع شناعة قولهم هذا ، لم ييأس من محاولة منعهم عما يريدونه من ضيوفه ، فأخذ يرشدهم إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة فقال : ﴿ هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ﴾ .

والمراد بناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج . وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبى أب لأمته من حيث الشفقة والرعاية وحسن التربية .

قال ابن كثير ما ملخصه : يرشد لوطا - عليه السلام - قومه إلى نسائهم فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾[1] .

وقيل المراد ببناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن .

ويضعف هذا الرأى أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة كما جاء فى بعض الروايات ، وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرًا ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة للزواج بهن ؟

قال الإمام الرازى فى ترجيح الرأى الأول ما ملخصه : « وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه منها : أنه قال هؤلاء بناتى .. وبناته اللاتى من صلبه لا تكفى هذا الجمع العظيم، أما نساء أمته ففيهم كفاية للكل، ومنها: أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما:

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٨ .

« زنتا وزاعورا » وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة »[١] .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - لما رأى هيجان قومه ، وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة مع ضيوفه ، قال لهم على سبيل الإرشاد إلى ما يشبع الفطرة السليمة : يا قوم هؤلاء نساؤكم اللائى هن بمنزلة بناتى ، فاقضوا معهن شهوتكم إن كنتم فاعلين لما أرشدكم إليه من توجيهات وآداب .

وعبر بإن فى قوله ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ لشكه فى استجابتهم لما يدعوهم إليه فكأنه يقول لهم : إن كنتم فاعلين لما أطلبه منكم ، وما أظنكم تفعلونه لانتكاس فطرتكم ، وانقلاب أمزجتكم ..

وجواب الشرط محذوف ، أى : إن كنتم فاعلين ما أرشدكم إليه فهو خير لكم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ يرى جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، لبيان أن الموعظة لا تجدى مع القوم الغاوين ، ولتسلية الرسول - ﷺ - عما أصابه من سفهاء قومه .

فالخطاب فيه للنبى - ﷺ - واللام فى « لعمرك » لام القسم ، والمقسم به حياته - ﷺ - والعمر - بفتح العين - لغة فى العمر - بضمها ، ومعناهما : مدة حياة الإنسان وبقائه فى هذه الدنيا ، إلا أنهم ألزموا مفتوح العين فى القسم ، وهو مبتدأ وخبره محذوف وجوبا والتقدير لعمرك قسمى أو يمينى .

والسكرة : ذهاب العقل ، مأخوذة من السكر - بفتح السين وإسكان الكاف - وهو السد والإغلاق . وأطلقت هنا على الغواية والضلالة لإزالتها الرشد والهداية عن عقل الإنسان و ﴿ يعمهون ﴾ من العمه بمعنى التحير والتردد فى الأمر . وهو للبصيرة بمنزلة العمى للبصر .

يقال : عمه فلان - كفرح - عمها ، إذا تردد وتحير ، فهو عمه وعامه ، وهم عمهون وعمه - كركع -

والمعنى : بحق حياتك - أيها الرسول الكريم - إن هؤلاء المكذبين لك ، لفى غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيرون ، شأنهم فى ذلك شأن الضالين من قبلهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح ، وغيرهم من المتكبرين فى الأرض بغير الحق ..

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٨ ص ٣٢ .

قال الآلوسى : وقوله ﴿ لعمرك ﴾ قسم من الله – تعالى – بعمر نبينا – ﷺ – على ما عليه جمهور المفسرين . وأخرج البيهقى فى الدلائل ، وأبو نعيم وابن مردويه وغيرهم عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : ما خلق الله – تعالى – وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد – ﷺ – وما سمعت الله – تعالى – أقسم بحياة أحد غيره ، قال – تعالى – : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ وقيل هو قسم من الملائكة بعمر لوط – عليه السلام – ، وهو مع مخالفته للمأثور محتاج لتقدير القول ، أى . قالت الملائكة للوط – عليه السلام – لعمرك .. وهو خلاف الأصل وإن كان سياق القصة شاهدًا له وقرينة عليه .. »[1] .

ثم ختم – سبحانه – القصة ببيان النهاية الأليمة لهؤلاء المفسدين من قوم لوط فقال – تعالى – ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ .

والصيحة : من الصياح وهو الصوت الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بشدة . وأصل ذلك تشقيق الصوت من قولهم : انصاح الخشب أو الثوب ، إذا انشق فسمع منه صوت . قالوا : وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة .

﴿ مشرقين ﴾ : اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا فى وقت شروق الشمس ، أى : أن الله – تعالى – بعد أن أخبر لوطا – عليه السلام – بإهلاك قومه ، وأمره عن طريق الملائكة – بالخروج ومعه المؤمنون من هذه المدينة .. جاءت الصيحة الهائلة من السماء فأهلكتهم جميعًا وهم داخلون فى وقت شروق الشمس .

وقال – سبحانه – قبل ذلك : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ وقال هنا ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ للإشارة إلى أن ابتداء عذابهم كان عند الصباح وانتهاءه باستئصال شأفتهم كان مع وقت الشروق .

والضمير فى قوله ﴿ عاليها سافلها ﴾ يعود إلى المدينة التى كان يسكنها المجرمون من قوم لوط .

أى : فجعلنا بقدرتنا عالى هذه المدينة سافلها ، بأن قلبناها قلبًا كاملاً ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ أى على هؤلاء المجرمين من قوم لوط ﴿ حجارة ﴾ كائنة ﴿ من سجيل ﴾ أى من طين متحجر . فهلكوا جميعًا .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٦٦ .

وهكذا أخذ الله - تعالى - هؤلاء المجرمين أخذ عزيز مقتدر ، حيث أهلكهم بهذه العقوبة التى تتناسب مع جريمتهم ، فهم قلبوا الأوضاع ، فأتوا بفاحشة لم يسبقوا إليها ، فانتقم الله - تعالى - منهم بهذه العقوبة التى جعلت أعلى مساكنهم أسفلها .

ثم ساقت السورة الكريمة بعض العبر والعظات التى يهتدى بها العقلاء من قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - كما ساقت بعد ذلك جانبًا من قصتى شعيب وصالح - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

فاسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ يعود إلى ما تضمنته القصة السابقة من عبر وعظات .

والآيات جمع آية ، والمراد بها هنا الأدلة والعلامات الدالة على ما يوصل إلى الحق والهداية .

والمتوسمون : جمع المتوسم ، وهو المتأمل فى الأسباب وعواقبها ، وفى المقدمات ونتائجها ..

قال القرطبى ما ملخصه : التوسم تفعل من الوسم ، وهى العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيره . يقال : توسمت فى فلان الخير ، إذا رأيت ميسم ذلك فيه ، ومنه قول عبد الله بن رواحة للنبى - ﷺ - .

إنى توسمت فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أنى ثابت البصر

وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير وغيره .. وذلك يكون بجودة القريحة ، وحدة الخاطر ، وصفاء الفكر ، وتطهير القلب من أدناس المعاصى .

والمراد بالمتوسمين : المتفرسين ، أو المتفكرين ، أو المعتبرين ، أو المتبصرين .. والمعنى متقارب ..»[١] .

والمعنى : إن فى ذلك الذى سقناه فى قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - لأدلة واضحة على حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الغاوين ، لمن كان ذا فكر سليم ، وبصيرة نافذة تتأمل فى حقائق الأشياء ، وتتعرف على ما يوصلها إلى الهداية والطريق القويم .

قال بعض العلماء عند تفسيره لهذه الآية : هذه الآية أصل فى الفراسة . أخرج الترمذى من حديث أبى سعيد مرفوعًا : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ - ﷺ - هذه الآية ...

وقد أجاد الكلام فى الفراسة ، الراغب الأصفهانى فى كتابه « الذريعة » حيث قال فى الباب السابع : وأما الفراسة فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله ...

وقد نبه - سبحانه - على صدقها بقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وبقوله ﴿ تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا ﴾[٢] . وبقوله ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾[٣] .

ولفظها مأخوذ من قولهم « فرس السبع الشاه » فكأن الفراسة اختلاس المعارف[٤] .

وفى هذه الآية الكريمة تعريض لمن تمر عليهم العبر والعظات . والأدلة الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وكمال قدرته ... فلا يعتبرون ولا يتعظون ولا يتفكرون فيها ، لانطماس بصيرتهم ، واستيلاء الأهواء والشهوات على نفوسهم ، كما قال - تعالى - ﴿ وكأين من آية

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٤٢ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٣ .
(٣) سورة محمد الآية ٣٠ .
(٤) راجع تفسير القاسمى ج ١٤ ص ٣٧٦٤ .

فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله ، إلا وهم مشركون ﴾[١] .

والضمير فى قوله - سبحانه - ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ يعود إلى المدينة أو القرى التى كان يسكنها قوم لوط - عليه السلام - .

أى : وإن هذه المساكن التى كان يسكنها هؤلاء المجرمون ، لبطريق ثابت واضح يسلكه الناس ، ويراه كل مجتاز له وهو فى سفره من الحجاز إلى الشام ، كما قال - تعالى - ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٢] .

والمقصود تذكير كفار قريش وغيرهم بعاقبة الظالمين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وجحودهم ، وحتى يعتبروا ويتعظوا ، ويدخلوا مع الداخلين فى دين الإسلام .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ تذييل قصد به التعميم بعد التخصيص ، لأن اسم الإشارة هنا يعود إلى جميع ما تقدم من قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - وإلى ما انضم إليهما من التذكير بآثار الأقوام المهلكين .

أى : إن فيما ذكرناه فيما سبق من أدلة واضحة على حسن عاقبة المتقين ، وسوء نهاية الظالمين ، لعبرة واضحة ، وحكمة بالغة ، للمؤمنين الصادقين .

وخصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالأدلة والعظات ، وللتنبيه على أن التفرس فى الأمور لمعرفة أسبابها ونتائجها من صفاتهم وحدهم .

وجمع الآيات قبل ذلك فى قوله ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وأفردها هنا فقال : ﴿ إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ للأشعار بأن المؤمنين الصادقين تكفى لهدايتهم ، ولزيادة إيمانهم ، آية واحدة من الآيات . الدالة على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وفى ذلك ما فيه من الثناء عليهم ، والمدح لهم ، بصدق الإيمان ، وسلامة اليقين ...

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من قصة أصحاب الأيكة لزيادة العظات والعبر ، فقال - تعالى - : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾ و ﴿ إن ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف .

وأصحاب الأيكة ، هم قوم شعيب - عليه السلام - ، والأيك الشجر الكثير الملتف واحدته أيكة - كتمر وتمره - .

---

(١) سورة يوسف الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار التى كانت فيها مساكنهم ، قرب مدين قرية شعيب - عليه السلام - .

وجمهور العلماء على أن أهل مدين وأصحاب الأيكة قبيلة واحدة ، وأرسل الله - تعالى - إليهم جميعًا شعيبًا - عليه السلام - لأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونهيهم عن تطفيف الكيل والميزان ، وعن قطع الطريق ...

وكانوا جميعًا يسكنون فى المنطقة التى تسمى بمعّان ، على حدود الحجاز والشام ، أو أن بعضهم كان يسكن الحاضرة وهم أهل مدين ، والبعض الآخر كان يسكن فى البوادى المجاورة لها والمليئة بالأشجار .

وقيل : إن شعيبًا - عليه السلام - أرسل إلى أمتين : أهل مدين ، وأصحاب الأيكة ، وهذه خصوصية له - عليه السلام - .

وعلى أية حال فالعلماء متفقون على أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب - عليه السلام - .

والإمام : الطريق الواضح المعالم . وسمى الطريق إماما لأن المسافر يأتم به ، ويهتدى بمسالكه ، حتى يصل إلى الموضع الذى يريده .

والمعنى : وإن الشأن والحال أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين متجاوزين لكل حد ، فاقتضت عدالتنا أن ننتقم منهم ، بسبب كفرهم وفجورهم .

﴿ وإنهما ﴾ أى مساكن قوم لوط ، ومساكن قوم شعيب ﴿ لبإمام مبين ﴾ أى : لبطريق واضح يأتم به أهل مكة فى سفرهم من بلادهم إلى بلاد الشام .

قال ابن كثير : وقد كانوا - أى أصحاب الأيكة - قريبًا من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ، ومسامتين لهم فى المكان ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى إنذاره لهم ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[1] .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم بجانب من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه . فقال - تعالى - ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ ...

وأصحاب الحجر : هم ثمود قوم صالح - عليه السلام - .

والحجر : واد بين الشام والمدينة المنورة ، كان قوم صالح يسكنونه . والحجر فى الأصل :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٩٢ .

كل مكان أحاطت به الحجارة ، أو كل مكان محجور أى ممنوع من الناس بسبب اختصاص بعضهم به .

وما زال هذا المكان يعرف إلى الآن باسم مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك ، كما أشرنا إلى ذلك عند التعريف بالسورة الكريمة .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولهم - عليه السلام - ، لأن تكذيب رسول واحد ، تكذيب لجميع الرسل ،حيث إن رسالتهم واحدة ، وهى الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والنهى عن الرذائل والمفاسد .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا التكذيب لرسولهم - عليه السلام - فقال : ﴿ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ .

أى : وأعطينا قوم صالح - عليه السلام - آياتنا الدالة على صدقه وعلى أنه رسول من عندنا ، والتى من بينها الناقة التى أخرجها الله - تعالى - لهم ببركة دعاء نبيهم ﴿ فكانوا عنها ﴾ أى عن هذه الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ معرضين ﴾ لا يلتفتون إليها ، ولا يفكرون فيها ، ولهذا عقروا الناقة ﴿ وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم فى بيوتهم المنحوتة فى الجبال فقال - تعالى - ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ .

وينحتون : من النحت وهو برى الحجر من وسطه أو جوانبه ، لإعداده للبناء أو للسكن أى : وكانوا لقوتهم وغناهم يتخذون لأنفسهم بيوتا فى بطون الجبال وهم آمنون مطمئنون ، أو يقطعون الصخر منها ليتخذوه بيوتًا لهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين ﴾[1] ، أى : حاذقين فى نحتها . وقوله - تعالى - ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ﴾[2] .

قال ابن كثير : ذكر - تعالى - أنهم ﴿ كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين ﴾ أى : من

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٤٩ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٤ .

غير خوف ولا احتياج إليها ، بل بطرا وعبثا ، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر ، الذى مر به رسول الله - ﷺ - وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه - أى غطاها بثوبه - وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : « لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشيةأن يصيبكم ما أصابهم »[1] .

ولكن ماذا كانت نتيجة هذه القوة الغاشمة ، والثراء الذى ليس معه شكر لله - تعالى - والإصرار على الكفر والتكذيب لرسل الله - تعالى - ، والإعراض عن الحق ...؟

لقد بين القرآن عاقبة ذلك فقال : ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

أى : فكانت نتيجة تكذيب أصحاب الحجر لرسولهم صالح - عليه السلام - أن أهلكهم الله - تعالى - وهم داخلون فى وقت الصباح ، عن طريق الصيحة الهائلة ، التى جعلتهم فى ديارهم جاثمين ، دون أن يغنى عنهم شيئًا ما كانوا يكسبونه من جمع الأموال ، وما كانوا يصنعونه من نحت البيوت فى الجبال .

وهكذا نرى أن كل وقاية ضائعة ، وكل أمان ذاهب ، وكل تحصن زائل أمام عذاب الله المسلط على أعدائه المجرمين .

وهكذا تنتهى تلك الحلقات المتصلة من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم والتى تتفق جميعها فى بيان سنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وهى أن النجاة والسعادة والنصر للمؤمنين ، والهلاك والشقاء والهزيمة للمكذبين .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان كمال قدرة الله - تعالى - ، وببيان جانب من النعم التى منحها - سبحانه - لنبيه - ﷺ - ، وبتهديد المشركين الذين جعلوا القرآن عضين ، والذين جعلوا مع الله إلهًا آخر ، وبتسليته - ﷺ - عما لحقه منهم من أذى ، فقال - تعالى - :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٦٣ .

ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ توجيه للناس إلى التأمل فى مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وإلى الحق الأكبر الذى قام عليه هذا الوجود ، بعد أن بين - سبحانه - قبل ذلك ، سنته التى لا تتخلف ، وهى أن حسن العاقبة للمتقين ، وسوء المصير للمكذبين .

والحق : هو الأمر الثابت الذى تقتضيه عدالة الله - تعالى - وحكمته .
والباء فيه للملابسة .

أى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات لا يعلمها إلا الله ، إلا خلقًا ملتبسًا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبالعدل الذى لا يخالطه جور وبالحكمة التى تتنزه عن العبث ، وتأبى استمرار الفساد ، واستبقاء ضعف الحق أمام الباطل .

والمراد بالساعة فى قوله - تعالى - : ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ ساعة البعث والحساب والثواب والعقاب فى الآخرة .

أى : وإن ساعة إعطاء كل ذى حق حقه ، ومعاقبة كل ذى باطل على باطله ، لآتية لا ريب فيها ، فمن فاته أخذ حقه فى الدنيا فسيأخذه وافيا غير منقوص فى الآخرة ، ومن أفلت من عقوبة الدنيا فسينال ما هو أشد وأخزى منها فى يوم الحساب .

فالجملة الكريمة انتقال من تهديد المجرمين بعذاب الدنيا ، إلى تهديدهم بعذاب الآخرة ، والمقصود من ذلك تسليته - ﷺ - عما أصابه من المكذبين من أذى .

وأكد - سبحانه - هذه الجملة بإن وبلام التوكيد ، ليدل على أن الساعة آتية لا محالة ، وليخرس ألسنة الذين ينكرون وقوعها وحدوثها ...

وجملة ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ تفريع على ما قبلها .

والصفح الجميل : ترك المؤاخذة على الذنب ، وإغضاء الطرف عن مرتكبه بدون معاتبة .

أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك أيها الرسول الكريم - من أن هذا الكون قد خلقناه بالحق ، ومن أن الساعة آتية لا ريب فيها ... فاصفح عن هؤلاء المكذبين لك صفحًا جميلاً ، لا عتاب معه ولا حزن ولا غضب ... حتى يحكم الله بينك وبينهم .

وهذا التعبير فيه ما فيه من تسليته - ﷺ - وتكريمه ، لأنه - سبحانه - أمره بالصفح الجميل عن أعدائه ، ومن شأن الذى يصفح عن غيره ، أن يكون أقوى وأعز من هذا الغير - فكأنه - سبحانه - يقول له : اصفح عنهم فعما قريب ستكون لك الكلمة العليا عليهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ... فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ تعليل للأمر بالصفح الجميل عنهم .

والخلاق والعليم : صيغتا مبالغة من الخلق والعلم ، للدلالة على كثرة خلقه ، وشمول علمه .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٨٩ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٠٩ .

أى : ﴿ إن ربك ﴾ أيها الرسول الكريم ، الذى رباك برعايته وعنايته ، واختارك لحمل رسالته ﴿ هو ﴾ - سبحانه - ﴿ الخلاق ﴾ لك ولهم ولكل شىء فى هذا الوجود .

﴿ العليم ﴾ بأحوالك وبأحوالهم ، وبما يصلح لك ولهم ولكل الكائنات .

وقد علم - سبحانه - أن الصفح عنهم فى هذا الوقت فيه المنفعة لك ولهم ، فحقيق بك - أيها الرسول الكريم - أن تطيعه - سبحانه - ، وأن تكل الأمور إليه .

ولقد تحقق الخير من وراء هذا التوجيه السديد من الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - فقد نرتب على هذا الصفح : النصر للنبى - ﷺ - وللمؤمنين ، والهداية لبعض الكافرين وهم الذين دخلوا فى الإسلام بعد نزول هذه الآية ، وصاروا قوة للدعوة الإسلامية بعد أن كانوا حربًا عليها ، وتحقق - أيضًا - قوله - ﷺ - : « لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله - عز وجل - » .

ثم أتبع - سبحانه - هذه التسلية والبشارة للرسول - ﷺ - ، بمنة ونعمة أجل وأعظم من كل ما سواها ، ليزيده اطمئنانًا وثقة بوعد الله - تعالى - فقال : ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ﴾ .

والمراد بالسبع المثانى : صورة الفاتحة . وسميت بذلك ، لأنها سبع آيات ، ولأنها تثنى أى تكرر فى كل ركعة من ركعات الصلاة .

قال صاحب الكشاف : والمثانى من التثنية وهى التكرير للشىء ، لأن الفاتحة تكرر قراءتها فى الصلاة . أو من الثناء ، لاشتمالها على ما هو ثناء على الله - تعالى - ... »[1] .

والمعنى : ولقد أعطيناك - أيها الرسول الكريم - سورة الفاتحة التى هى سبع آيات ، والتى تعاد قراءتها فى كل ركعة من ركعات الصلاة ، وأعطيناك - أيضًا - القرآن العظيم الذى يهدى للطريق التى هى أقوم .

وأوثر فعل ﴿ آتيناك ﴾ بمعنى أعطيناك على أوحينا إليك ، أو أنزلنا عليك ؛ لأن الإعطاء أظهر فى الإكرام والإنعام .

وقوله ﴿ والقرآن العظيم ﴾ معطوف على ﴿ سبعًا ﴾ من باب عطف الكل على الجزء ، اعتناء بهذا الجزء .

ووصف - سبحانه - القرآن بأنه عظيم ، تنويهًا بشأنه ، وإعلاء لقدره .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٩٧ .

ومما يدل على أن المراد بالسبع المثانى سورة الفاتحة ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد بن المعلى قال : مر بى النبى - ﷺ - وأنا أصلى ، فدعانى فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : ما منعك أن تأتينى ؟ فقلت : كنت أصلى .

فقال : ألم يقل الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ .

ثم قال : ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ ثم ذهب النبى - ﷺ - ليخرج ، فذكرته فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته .

وروى البخارى - أيضًا - عن أبى هريرة قال : قال النبى - ﷺ - : أم القرآن هى : السبع المثانى والقرآن العظيم » .

هذا ، وهناك أقوال أخرى فى المقصود بالسبع المثانى ، ذكرها بعض المفسرين فقال : اختلف العلماء فى السبع المثانى : فقيل الفاتحة . قاله على بن أبى طالب ، وأبو هريرة ، والربيع بن أنس ، وأبو العالية ، والحسن وغيرهم . وروى عن النبى - ﷺ - من وجوه ثابتة من حديث أبى بن كعب وأبى سعيد بن المعلى ...

وقال ابن عباس : هى السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معًا ...

وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من السبع الطوال شىء إذ ذاك .

وقيل : المثانى القرآن كله ، قال الله - تعالى - ﴿ كتابًا متشابهًا مثانى ﴾ . هذا قول الضحاك وطاووس ، وقاله ابن عباس . وقيل له : مثانى ، لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه ..

وقيل : المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار ..

ثم قال : والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ، إلا أنه إذا ورد عن النبى - ﷺ - وثبت عنه نص فى شىء لا يحتمل التأويل ، كان الوقوف عنده[1] .

والذى نراه ، أن المقصود بالسبع المثانى هنا : سورة الفاتحة ، لثبوت النص الصحيح بذلك عن رسول الله - ﷺ - ، ومتى ثبت النص الصحيح عنه - ﷺ - فى شىء فلا كلام لأحد معه أو بعده - ﷺ - .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٥٥ .

ثم نهى الله - تعالى - المسلمين فى شخص نبيهم - ﷺ - عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا ، فقال - تعالى - : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم ﴾ ...

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟

قلت : يقول الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - : قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وإن عظمت فهى إليها حقيرة ضئيلة ، وهى القرآن العظيم ، فعليك أن تستغنى به ، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا ...

قال أبو بكر الصديق ؛ من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدًا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيمًا ، وعظم صغيرًا »[1] .

وقال ابن كثير : وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن وكيع بن الجراح ، قال : حدثنا موسى بن عبيدة ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبى رافع صاحب النبى - ﷺ - قال : أضاف النبى - ﷺ - ضيف ، ولم يكن عنده - ﷺ - شىء يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود : يقول لك محمد رسول الله: أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب. قال اليهودى: لا إلا برهن. فأتيت النبى - ﷺ - فأخبرته ، فقال : أما والله إنى لأمين من فى السماء ، وأمين من فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية . « لا تمدن عينيك » كأنه - سبحانه - يعزيه عن الدنيا »[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ تمدن ﴾ من المد ، وأصله الزيادة . واستعير هنا للتطلع إلى ما عند الغير برغبة وتمن وإعجاب . يقال : مد فلان عينه إلى مال فلان ، إذا اشتهاه وتمناه وأراده .

والمراد بالأزواج : الأصناف من الكفار الذين متعهم الله بالكثير من زخارف الدنيا .

والمعنى : لا تحفل - أيها الرسول الكريم - ولا تطمح ببصرك طموح الراغب فى ذلك المتاع الزائل ، الذى متع الله - تعالى - به أصنافًا من المشركين فإن ما بين أيديهم منه شىء سينتهى عما قريب ، وقد آتاهم الله - تعالى - إياه على سبيل الاستدراج والإملاء ، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى ، وهو القرآن العظيم .

قال صاحب الظلال : والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أى : يتوجه . ولكن التعبير التصويرى يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهى صورة طريفة حين يتخيلها المتخيل ..

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٣٩٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٦٦ .

والمعنى وراء ذلك ، ألا يحفل الرسول - ﷺ - بذلك المتاع الذى آتاه الله - تعالى - لبعض الناس ... ولا يلقى إليه نظرة اهتمام ، أو نظرة استجمال ، أو نظرة تمن »[١] .

وقال - سبحانه - هنا ﴿ لا تمدن ... ﴾ بدون واو العطف ، وقال فى سورة طه ﴿ ولا تمدن ... ﴾ بواو العطف ، لأن الجملة هنا مستأنفة استئنافًا بيانيًا ، جوابًا لما يختلج فى نفوس بعض المؤمنين من تساؤل عن أسباب الإملاء والعطاء الدنيوى لبعض الكافرين . ولأن الجملة السابقة عليها وهى قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى ... ﴾ كانت بمنزلة التمهيد لها ، والإجمال لمضمونها .

أما فى سورة طه ، فجملة ﴿ ولا تمدن ... ﴾ معطوفة على ما سبقها من طلب وهو قوله - تعالى - ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى. ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا ... ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ نهى له - ﷺ - عن الاهتمام بالمصير السيئ الذى ينتظر أعداءه .

أى : ولا تحزن - أيها الرسول الكريم - لكفر من كفر من قومك ، أو لموتهم على ذلك ، أو لأعراضهم عن الحق الذى جئتهم به ، فإن القلوب بأيدينا نصرفها كيف نشاء ، أما أنت فعليك البلاغ .

وقوله - سبحانه - ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ بيان لما يجب عليه نحو أتباعه ، بعد بيان ما يجب عليه نحو أعدائه .

وخفض الجناح كناية عن اللين والمودة والعطف .

أى : وكن متواضعًا مع أتباعك المؤمنين ، رءوفًا بهم ، عطوفًا عليهم .

قال الشوكانى : وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ... وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إليه بسط جناحه ثم قبض على الفرخ ، فجعل ذلك وصفا لتواضع الإنسان لأتباعه ... والجناحان من ابن آدم : جانباه[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ معطوف على ما قبله .

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ١٤ ص ٣١٥٤ .
(٢) سورة طه الآيتان ١٣٠ ، ١٣١ .
(٣) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ١٤٢ .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - على مصير الكافرين ، وتواضع لأتباعك المؤمنين ، وقل للناس جميعًا ما قاله كل نبى قبلك لقومه : إنى أنا المنذر لكم من عذاب الله إذا ما بقيتم على كفركم ، الموضح لكم كل ما يخفى عليكم .

فالنذير هنا بمعنى المنذر ، والمبين بمعنى الكاشف والموضح .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى - ﷺ - قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : ياقوم ، إنى رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلهم فنجوا . وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق »[١] .

ثم هدد - سبحانه - الذين يحاربون دعوة الحق ، ويصفون القرآن بأوصاف لا تليق به فقال - تعالى - : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ ..

والكاف فى قوله ﴿ كما ﴾ للتشبيه ، و﴿ ما ﴾ موصوله أو مصدرية وهى المشبه به أما المشبه فهو الإيتاء المأخوذ من قوله - تعالى - ﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى ﴾ .

ولفظ « المقتسمين » افتعال من القسم بمعنى تجزئة الشىء وجعله أقسامًا ..

والمراد بهم بعض طوائف أهل الكتاب ، الذين آمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر .

أو المراد بهم - كما قال ابن كثير : « المقتسمين » أى المتحالفين ، أى الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ... »[٢] .

ولفظ « عضين » جمع عضة - بزنة عزة - ، وهى الجزء والقطعة من الشىء . تقول : عضيت الشىء تعضية ، أى : فرقته وجعلته أجزاء كل فرقة عضة .

قال القرطبى ما ملخصه : وواحد العضين عضة ، من عضيت الشىء تعضية أى فرقته ، وكل فرقة عضة . قال الشاعر : وليس دين الله بالمعضى . أى : بالمفرق .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم - ج ٩ ص ١١٥ وصحيح مسلم كتاب الفضائل ج ٧ ص ٦٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٦ .

والعضة والعضين فى لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر عاضه ، وللساحرة عاضهة ...

وفى الحديث : لعن رسول الله - ﷺ - العاضهة والمستعضهة أى الساحرة والمستسحرة .. وقيل : هو من العضة ، وهى التميمة . والعضيهة:البهتان .. يقال : أعضهت يا فلان أى : جئت بالبهتان »[1] .

والمعنى : ولقد آتيناك - أيها الرسول الكريم - السبع المثانى والقرآن العظيم ، مثل ما أنزلنا على طوائف أهل الكتاب المقتسمين ، أى الذين قسموا كتابهم أقسامًا ، فأظهروا قسمًا وأخفوا آخر ، والذين جعلوا - أيضًا - القرآن أقسامًا ، فآمنوا ببعضه ، وكفروابالبعض الآخر .. فجعله ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ بيان وتوضيح للمقتسمين .

ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ... ﴾ متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك ، ﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ ، فيكون المشبه الإنذار بالعقاب المفهوم من الآية الكريمة . وأن المراد بالمقتسمين : جماعة من مشركى قريش ، قسموا أنفسهم أقسامًا لصرف الناس عن الإيمان بالنبى - ﷺ - .

والمعنى : وقل - أيها الرسول الكريم - إنى أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين ...

وقد فصل الإمام الآلوسى القول عند تفسيره لهاتين الآيتين فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ... ﴾ متعلق بقوله - تعالى - ﴿ ولقد آتيناك سبعا ... ﴾ على أن يكون فى موضع نصب نعتا لمصدر من آتينا محذوف أى : آتيناك سبعا من المثانى إيتاء كما أنزلنا ، وهو فى معنى : أنزلنا عليك ذلك إنزالاً كإنزالنا على أهل الكتاب ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أى قسموه إلى حق وباطل ..

وقيل : هو متعلق بقوله - تعالى - : ﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ .. وجوز أن يراد بالمقتسمين جماعة من قريش ... أرسلهم الوليد بن المغيرة ، أيام موسم الحج ، ليقفوا على مداخل طرق مكة ، لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله - ﷺ - فانقسموا على هاتيك المداخل ، يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج فإنه ساحر ..

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ٥٩ .

أى : وقل إنى أنا النذير عذابا مثل العذاب الذى أنزلناه على المقتسمين .

وقيل المراد بالمقتسمين ، الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحًا - أى يقتلوه ليلًا - فأهلكهم الله ...

ثم قال - رحمه الله - : والأقرب من الأقوال المذكورة أن قوله ﴿ كما أنزلنا .. ﴾ متعلق بقوله - تعالى - ﴿ ولقد آتيناك سبعًا ... ﴾ وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين ، وأن الموصول مع صلته ، صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ...

والمعنى : لقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ، إيتاء مماثلًا لإنزال الكتابين على أهلها ...[١] .

ويبدو لنا أن من الأفضل أن يكون المراد بالمقتسمين ، ما يشمل أهل الكتابين وغيرهم من المشركين المتحالفين على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم - كما قال ابن كثير - وقد ذهب إلى ذلك الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه الله - بعد سرده للأقوال فى ذلك ما ملخصه : « والصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال : إن الله - تعالى - أمر نبيه - ﷺ - أن يعلم قومه الذين عضوا القرآن ففرقوه ، أنه نذير لهم من سخط الله وعقوبته ، أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين من قبلهم ومنهم ...

وجائز أن يكون عنى بالمقتسمين : أهل الكتابين .. وجائز أن يكون عنى بذلك : المشركون من قريش ، لأنهم اقتسموا القرآن ، فسماه بعضهم شعرا ، وسماه بعضهم كهانة ...

وجائز أن يكون عنى به الفريقان ... وممكن أن يكون عنى به المقتسمون على صالح من قومه. لأنه ليس فى التنزيل ولا فى سنة رسول الله -ﷺ- ولا فى فطرةالعقل، ما يدل على أنه عنى به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين ، وإذا فكل من اقتسم كتابًا لله بتكذيب بعض وتصديق بعض ، كان داخلًا فى هذا التهديد والوعيد ...[٢] .

ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والوعيد فقال : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٧٤ ومابعدها .
(٢) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٢٣ .

والفاء هنا متفرعة على ما سبق تأكيده فى قوله ﴿ وإن الساعة لآتية ... ﴾ إذ فى هذا اليوم يكون سؤالهم .

والواو للقسم ، أى : فوحق ربك - أيها الرسول الكريم - الذى خلقك فسواك فعدلك ، لنسألن هؤلاء المكذبين جميعًا ، سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت ، عما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال قبيحة : وعما كانوا يقولونه من أقوال فاسدة ، ثم لننزلن بهم جميعًا العقوبة المناسبة لهم .

فالمقصود من هذه الآية الكريمة زيادة التسلية للرسول - ﷺ - وتأكيد التهديد للمشركين .

ثم أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - بأن يمضى فى طريقه ، وأن يجهر بدعوته وأن يعرض عن المشركين ، فقد كفاه - سبحانه - شرهم فقال - تعالى - : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون ﴾.

وقوله ﴿ فاصدع .. ﴾ من الصدع بمعنى الإظهار والإعلان . ومنه قولهم : انصدع الصبح ، إذا ظهر بعد ظلام الليل والصديع الفجر لانصداعه أى ظهوره . ويقال : صدع فلان بحجته ، إذا تكلم بها جهارًا .

أى : فاجهر - أيها الرسول الكريم - بدعوتك ، وبلغ ما أمرناك بتبليغه علانية ، وأعرض عن سفاهات المشركين وسوء أدبهم .

قال عبد الله بن مسعود : ما زال النبى - ﷺ - مستخفيا بدعوته حتى نزلت هذه الآية . فخرج هو وأصحابه،وقوله ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ تعليل للأمر بالجهر بالدعوة ، بعد أن مكث - ﷺ - يدعو الناس إلى الاسلام سرًا ثلاث سنين أو أكثر .

وقوله ﴿ كفيناك .. ﴾ من الكفاية . تقول : كفيت فلانًا المؤنة إذا توليتها عنه ، ولم تحوجه إليها . وتقول : كفيتك عدوك أى : كفيتك بأسه وشره .

والمراد بالمستهزئين : أكابر المشركين فى الكفر والعداوة والاستهزاء بالرسول - ﷺ -

أى : إنا كفيناك الانتقام من المستهزئين بك وبدعوتك ، وأرحناك منهم ، بإهلاكهم . وذكر بعضهم أن المراد بهم خمسة من كبرائهم ، وهم : الوليد ابن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عيطل ، والعاص بن وائل : وقد أهلكهم الله جميعًا بمكة ، وكان هلاكهم العجيب من أهم الصوارف لأتباعهم عن الاستهزاء بالنبى - ﷺ - .

قال الإمام الرازى : واعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين ، وفى أسمائهم ، وفى كيفية طريق استهزائهم ، ولا حاجة إلى شىء منها .

والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة ، لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة ، مع مثل رسول الله - ﷺ - فى علو قدره ، وعظم منصبه ، ودل القرآن على أن الله - تعالى - أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم »[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المستهزئين قد أضافوا إلى ذلك الشرك والكفر فقال : ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر ﴾ فى عباداتهم وفى عقيدتهم .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ ما يترتب على ذلك فى الآخرة من عذاب شديد لهم ، بعد أن أهلكناهم فى الدنيا وقطعنا دابرهم .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتسلية أخرى له - ﷺ - ، وبإرشاده إلى ما يزيل همه . ويشرح صدره ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون.فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين.واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

وضيق الصدر : كناية عن كدر النفس ، وتعرضها للهموم والأحزان .

أى : ولقد نعلم - أيها الرسول الكريم - أن أقوال المشركين الباطلة فيك وفيما جئت به من عندنا ، تحزن نفسك ، وتكدر خاطرك .

وقال - سبحانه - ﴿ ولقد نعلم .. ﴾ بلام القسم وحرف التحقيق ، لتأكيد الخبر ، وإظهار مزيد الاهتمام والعناية بالمخبر عنه - ﷺ - فى الحال والاستقبال .

والفاء فى قوله ﴿ فسبح بحمد ربك ... ﴾ واقعة فى جواب شرط .

والتسبيح لله - تعالى - معناه : تنزيهه - عز وجل - عن كل ما لا يليق به .

والتحميد له - تعالى - معناه : الثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال .

أى : إن ضاق صدرك - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوال المشركين القبيحة ، فافزع إلينا بالتسبيح والتحميد ، بأن تكثر من قول سبحان الله ، والحمد لله .

قال بعض العلماء : فهذه الجملة الكريمة قد اشتملت على الثناء على الله بكل كمال ؛ لأن الكمال يكون بأمرين :

أحدهما : التخلى عن الرذائل ، والتنزه عما لا يليق ، هذا معنى التسبيح .

والثانى : التحلى بالفضائل ، والاتصاف بصفات الكمال ، وهذا معنى الحمد .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٩ ص ٢١٥ .

فتم الثناء بكل كمال . ولأجل هذا المعنى ثبت فى الصحيح عنه - ﷺ - أنه قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ... »[1] .

والمراد بالسجود فى قوله - تعالى - ﴿ وكن من الساجدين ﴾ الصلاة . وعبر عنها بذلك من باب التعبير بالجزء عن الكل ، لأهمية هذا الجزء وفضله ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن ترتيب الأمر بالتسبيح والتحميد والصلاة على ضيق الصدر ؛ دليل على أن هذه العبادات ، بسببها يزول المكروه بإذنه - تعالى - ، وتنقشع الهموم ... ولذا كان - ﷺ - إذاحزبه أمر لجأ إلى الصلاة .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى من حديث نعيم بن عمار - رضى الله عنه - أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : قال الله - تعالى - : « يا بن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار ، أكفك آخره » .

فينبغى للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله - تعالى - بأنواع الطاعات من صلاة وتسبيح وتحميد وغير ذلك من ألوان العبادات .

والمراد بالأمر بالعبادة فى قوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ المداومة عليها وعدم التقصير فيها .

والمراد باليقين : الموت ، سمى بذلك لأنه أمر متيقن لحوقه بكل مخلوق .

أى : ودم - أيها الرسول الكريم - على عبادة ربك وطاعته ما دمت حيا ، حتى يأتيك الموت الذى لا مفر من مجيئه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - .

ومما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت قوله - تعالى - حكاية عن المجرمين : ﴿ قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين ﴾ أى : الموت .

ويدل على ذلك أيضًا ما رواه البخارى عن أم العلاء أن رسول الله - ﷺ - لما دخل على

---

(١) تفسير أضواء البيان الشيخ الأمين الشنقيطى ج ٢ ص ٢٠٣ .

عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت : قلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فقال رسول الله - ﷺ - : « وما يدريك أن الله قد أكرمه ... أما هو فقد جاءه اليقين - أى الموت - وإنى لأرجو له الخير »[1] .

قال الإمام ابن كثير : ويستدل بهذه الآية الكريمة ، على أن العبادة كالصلاة ونحوها ، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا ، فيصلى بحسب حاله ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله - ﷺ - قال « صل قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

ويستدل بها أيضًا على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة ، سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل ... »[2] .

وبعد : فهذه سورة الحجر ، وهذا تفسير لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد طنطاوى

المدينة المنورة فى ٦ من جمادى الثانية سنة ١٤٠٢

---

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ٩١ : كتاب الجنائز « باب الدخول على الميت .. »

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٧٢ .

تفسير

سُورَةُ النَّحْلِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

أما بعد : فقد سبق لى - بحمد الله وتوفيقه - أن قمت بتفسير سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر .

وهأنذا أقدم للقارئ الكريم تفسير سورة « النحل » ، وقد حاولت فيه أن أكشف عما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، وإرشادات حكيمة ، ومجادلات بالتى هى أحسن .

وقد مهدت لتفسيرها بكلمة ، بينت فيها زمان نزولها ، وعدد آياتها . وسبب تسميتها بهذا الاسم ، والمقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، ونافعا لعباده ، وشفيعا لنا يوم نلقاه - سبحانه - .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة فى : غرة المحرم سنة ١٤٠٤ هـ ٧ / ١٠ / ١٩٨٣ م .

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة النحل

١ - سورة النحل هى السورة السادسة عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سورة : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر .

أما فى ترتيب النزول ، فكان ترتيبها التاسعة والستين ، وكان نزولها بعد سورة الكهف [١] .

٢ - وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة آية .

٣ - وسميت بسورة النحل ، لقوله - تعالى - فيها ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ... ﴾[٢] .

وتسمى - أيضا - بسورة النعم ، لأن الله - تعالى - عدد فيها أنواعا من النعم التى أنعم بها على عباده .

٤ - وسورة النحل من السور المكية : أى التى كان نزولها قبل الهجرة النبوية الشريفة .

قال القرطبى : « وهى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هى مكية إلا قوله - تعالى - ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به .. ﴾ الآية . نزلت بالمدينة فى شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد .. » [٣] .

وقال الآلوسى : وأطلق جمع القول بأنها مكية ، وأخرج ذلك ابن مرد ويه عن ابن عباس ، وابن الزبير - رضى الله عنهم - وأخرجه النحاس من طريق مجاهد عن الحبر أنها نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها ، فإنهن نزلن بين مكة والمدينة فى منصرف النبى - صلى الله عليه وسلم - من غزوة أحد[٤] .

والذى تطمئن إليه النفس ، أن سورة النحل كلها مكية ، وذلك لأن الروايات التى ذكروها

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ طبعة المشهد الحسينى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
(٢) الآية رقم ٦٨ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٦٥ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٤ - ٨٩ .

فى سبب نزول قوله - تعالى - ، ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به .. ﴾ إلخ السورة ، فيها مقال . فقد ذكر الإمام ابن كثير عند سردها ، أن بعضها مرسل وفيه مبهم ، وبعضها فى إسناده ضعف ..[1] .

٥ - (أ) وإذا ما قرأنا سورة النحل بتدبر وتفكر ، نراها فى مطلعها تؤكد أن يوم القيامة حق ، وأنه آت لا ريب فيه ، وأن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله الخالق لكل شىء .

قال - تعالى - : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾.

(ب) ثم تسوق ألوانا من الأدلة على وحدانية الله وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والحيوان ، وعن طريق إنزال الماء من السماء ، وتسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم .. وغير ذلك من النعم التى لا تحصى .

استمع إلى بعض هذه الآيات التى تحكى جانبا من هذه النعم فتقول : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾.

ثم تقول : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم ﴾.

(جـ) وبعد أن توبخ السورة المشركين لتسويتهم بين من يخلق ومن لا يخلق تحكى جانبا من أقاويلهم الباطلة التى وصفوا بها القرآن الكريم ، وتصور استسلامهم لقضاء الله العادل فيهم يوم الحساب ، فتقول : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا : أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون ﴾.

إلى أن تقول : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ، بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون . فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٦ .

(د) وكعادة القرآن الكريم فى قرنه الترهيب بالترغيب ، وفى عقده المقارنات بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، جاءت الآيات بعد ذلك لتبشر المتقين بحسن العاقبة .

جاء قوله - تعالى - : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾.

(هـ) ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى حكاية أقوال المشركين حول مسألتين من أخطر المسائل ، وهما مسألة الهداية والإضلال ، ومسألة البعث بعد الموت بعد أن حكت ما قالوه فى شأن القرآن الكريم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى أقوالهم ثم يرد عليها بما يبطلها فيقول : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين . ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين ، وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾.

(و) ثم تهدد السورة الكريمة أولئك الجاحدين لنعم الله ، الماكرين للسيئات ، بأسلوب يستثير النفوس ويبعث الرعب فى القلوب ، وتدعوهم إلى التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكر يكون سببا فى هدايتهم ، وتخبرهم بأن الله - تعالى - هو الذى نهاهم عن الشرك ، وهو الذى أمرهم بإخلاص العبادة له .

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البديع فيقول : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم . أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون . وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون ﴾.

(ز) ثم انتقلت السورة إلى سرد أنواع من جهالات المشركين ، ومن سوء تفكيرهم ،

حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويشكروا الله - تعالى - على توفيقه إياهم إلى الدخول فى الإسلام .

لقد ذكرت السورة الكريمة ألوانا متعددة من جهالات الكافرين ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ، تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾.

﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ، وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾.

(ح) هكذا تصور سورة النحل ما كان عليه المشركون من غباء وغفلة وسوء تفكير ، ثم تعود - سورة النعم - مرة أخرى إلى الحديث عن نعم الله - تعالى - على عباده ، فتتحدث عن نعمة الكتاب ، وعن نعمة الماء ، وعن نعمة الأنعام ، وعن نعمة الثمار والفواكه ، وعن نعمة العسل المتخذ من بطون النحل وعن نعمة التفاضل فى الأرزاق ، وعن نعمة الأزواج والبنين والحفدة .

قال - تعالى - : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾.

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾.

(ط) ثم تسوق السورة الكريمة مثلين مشتملين على الفرق الشاسع ، بين المؤمن والكافر ، وبين الإله الحق والآلهة الباطلة ، فتقول : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ، هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾.

(ى) وبعد إيراد هذين المثلين البليغين ، تعود سورة النعم إلى الحديث عن أنواع أخرى من نعم الله على خلقه ، لكى يشكروه عليها ، ويستعملوها فيما خلقت له فتتحدث عن نعمة إخراج الإنسان من بطن أمه ، وعن نعمة البيوت التى هى محل سكن الإنسان ، وعن نعمة الظلال ، وعن نعمة الجبال ، وعن نعمة الثياب .

قال - تعالى - : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾. ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها ، أثاثاً ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾.

(ك) ثم بعد أن تصور السورة الكريمة أحوال المشركين يوم القيامة عندما يرون العذاب ، وتحكى ما يقولون عندما يرون شركاءهم ، وتقرر أن الله يبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سيكون شهيدا على من بعث إليهم .

بعد كل ذلك تسوق السورة الكريمة عددا من الآيات الآمرة بمكارم الأخلاق والناهية عن منكراتها فتقول : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

(ل) وبعد هذه التوجيهات السامية المشتملة على الترغيب والترهيب ، وعلى الأوامر والنواهى . تتحدث آيات السورة عن آداب تلاوة القرآن وعن الشبهات التى أثارها المشركون حوله مع الرد عليها بما يدحضها ، وعن حكم من تلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، فتقول : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾.

ثم تقول : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾.

ثم تقول : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ .

(م) ثم تعود السورة الكريمة لضرب الأمثال ، فتسوق مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بالنعم فلم يقابلوها بالشكر ، فانتقم الله - تعالى - منهم . كما تسوق جانبا من حياة سيدنا إبراهيم كمثال للشاكرين الذين استعملوا نعم الله فيما خلقت له .

استمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾.

ثم إلى قوله - تعالى - : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين .

شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

(ن) وأخيرا تختتم السورة الكريمة بتلك الآيات الجامعة لأحكم الأساليب وأكملها وأجملها وأنجعها فى الدعوة إلى الله - تعالى - وفى معاملة الناس فتقول : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

٦ - وبعد ، فهذا عرض إجمالى لأهم المقاصد التى اشتملت عليها السورة الكريمة ، ومنه نرى :

(أ) عنايتها الفائقة بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق رسوله محمد - ﷺ - فى دعوته ، وعلى أن يوم القيامة حق ، وعلى أن القرآن من عند الله - عز وجل .

(ب) كما نرى تفصيلها القول فى بيان آلاء الله - تعالى - على خلقه ، وقد سبحت السورة فى هذا الجانب سبحا عظيما ، فذكّرت الإنسان بنعمة خلقه ، وبنعمة تسخير الأنعام والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والماء ، والجبال ، والأشجار .. كل ذلك وغيره لمنفعته ومصلحته .

(جـ) كما نلمس اهتمامها بضرب الأمثال للمؤمن والكافر ، والشاكر والجاحد والإله الحق والآلهة الباطلة .. وذلك لأن فى ضرب الأمثال تقريب للبعيد وتوضيح للخفى ، بأسلوب من شأنه أن يكون أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس وأدعى إلى التدبر والتفكر .

(د) كما ندرك حرصها على إيراد أقوال المشركين وشبههم ! ثم الرد عليها بطريقة تقنع العقول ، وترضى العواطف ، بأن الإسلام هو الدين الحق ، وبذلك يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم .

(هـ) كما نحس - عند قراءتها - بعنايتها بتوجيه المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وأمهات الفضائل ، كالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، والوفاء ، والصبر،والشكر ... وبنهيهم عن الرذائل كالغدر والجحود ، ونقض العهود ، والاستكبار ، والظلم .

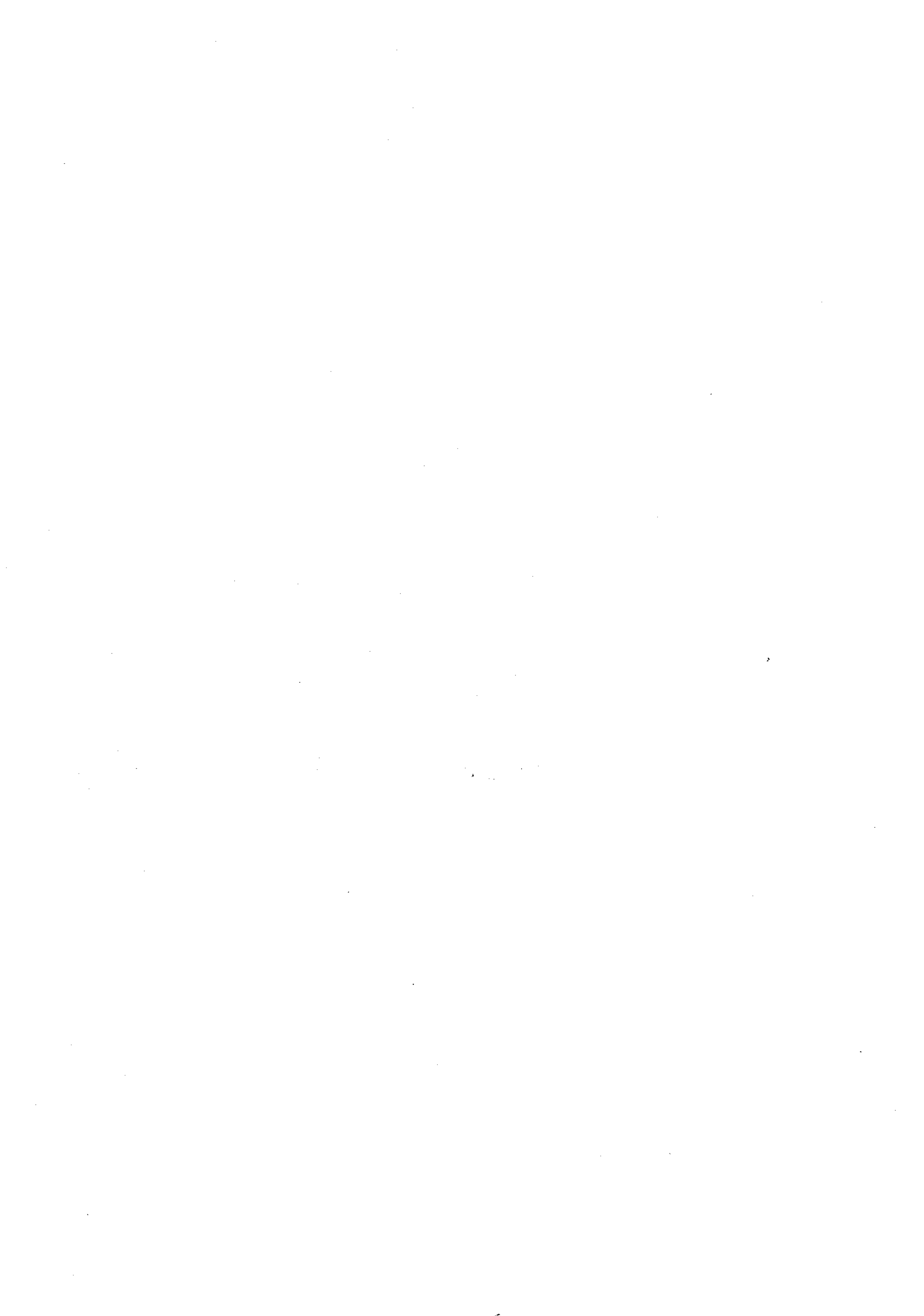
وأخيرا فإن المتأمل فى هذه السورة - أيضا - يراها حافلة بأسلوب الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار ، والوعد والوعيد .

الوعيد للكافرين بسوء المصير إذا ما لجوا فى ضلالهم وطغيانهم كما فى قوله - تعالى - : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

والوعد للمؤمنين بالحياة الطيبة فى الدارين ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

والآن فلنبدأ فى التفسير التحليلى لسورة النعم ، ونسأل الله - تعالى - أن يرزقنا التوفيق والسداد .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(التفسير)

قال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

افتتحت السورة الكريمة ، بتهديد الكافرين الذين كانوا ينكرون البعث ، وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، ويستبعدون نصر الله - تعالى - لأوليائه ، فقال - تعالى - : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ والفعل « أتى » هنا ، بمعنى قرب ودنا بدليل « فلا تستعجلوه » ، لأن المنهى عن الاستعجال يقتضى أن الأمر الذى استعجل حصوله لم يحدث بعد .

والمراد بأمر الله : ما اقتضته سنته وحكمته - سبحانه - من إثابة المؤمنين ونصرهم ، وتعذيب الكافرين ودحرهم .

والفاء فى قوله « فلا تستعجلوه » للتفريع . والاستعجال : طلب حصول الشيء قبل وقته . والضمير المنصوب فى « تستعجلوه » يعود على « أمر الله »، لأنه هو المتحدث عنه ، أو على « الله » - تعالى - ، فلا تستعجلوا الله فيما قضاه وقدره .

والمعنى : قرب ودنا مجيء أمر الله - تعالى - وهو إكرام المؤمنين بالنصر والثواب ، وإهانة الكافرين بالخسران والعقاب ، فلا تستعجلوا - أيها المشركون - هذا الأمر ، فإنه آت لاريب فيه ، ولكن فى الوقت الذى يحدده الله تعالى - ويشاؤه .

وعبر عن قرب إتيان أمر الله - تعالى - بالفعل الماضى « أتى » للإشعار بتحقق هذا الإتيان ، وللتنويه بصدق المخبر به ، حتى لكأن ما هو واقع عن قريب ، قد صار فى حكم الواقع فعلا . وفى إبهام أمر الله ، إشارة إلى تهويله وتعظيمه ، لإضافته إلى من لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

قوله « فلا تستعجلوه » زيادة فى الإنذار والتهديد ، أى : فلا جدوى من استعجالكم ، فإنه نازل بكم سواء استعجلتم أم لم تستعجلوا .

والظاهر أن الخطاب هنا للمشركين، لأنهم هم الذين كانوا يستعجلون قيام الساعة، ويستعجلون نزول العذاب بهم ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات :

منها قوله - تعالى - : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾ [١] .

ومنها قوله - سبحانه - : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[٢] .

---

(١) سورة الشورى . الآية ١٨ .
(٢) سورة الحج . الآية ٤٧ .

وقال بعض العلماء : و« يجوز أن يكون الخطاب هنا شاملا للمؤمنين ، لأن عذاب الله - تعالى - وإن كان الكافرون يستعجلونه ، تهكما به ، لظنهم أنه غير آت ، فإن المؤمنين يضمرون فى نفوسهم استبطاءه ، ويحبون تعجيله للكافرين »[١] .

وقوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » جملة مستأنفة ، قصد بها إبطال إشراكهم ، وزيادة توبيخهم وتهديدهم .

أى : تنزه الله - تعالى - وتعاظم بذاته وصفاته ، عن إشراك المشركين ، المؤدى بهم إلى الأقوال الفاسدة ، والأفعال السيئة ، والعاقبة الوخيمة، والعذاب المهين . وقوله : « يشركون » : قراءة الجمهور ، وفيها التفات من الخطاب فى قوله « فلا تستعجلوه » إلى الغيبة ، تحقيرا لشأن المشركين ، وحطا من درجتهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية لشنائعهم التى يتبرأ منها العقلاء .

وقرأ حمزة والكسائى « تشركون » تبعا لقوله - تعالى - ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ وعلى قراءتها لا التفات فى الآية .

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان قدرته ، ورحمته بعباده ، حيث أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فقال تعالى - : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ... ﴾

والمراد بالملائكة هنا : جبريل - عليه السلام - ومن معه من حفظة الوحى . أو المراد بهم جبريل خاصة ، ولا مانع من ذلك ، لأن الواحد قد يسمى باسم الجمع إذا كان رئيسا عظيما .

والمراد بالروح : كلام الله - تعالى - ووحيه الذى ينزل به جبريل ، ليبلغه إلى من أمره الله بتبليغه إياه .

وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحى فى آيات منها قوله - تعالى - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ... ﴾[٢] .

والمعنى : ينزل - سبحانه - الملائكة بكلامه ووحيه ، على من يشاء إنزالهم إليه من عباده المصطفين الأخيار .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، لفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ١٤ ص ٩٧ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

وأطلق - سبحانه - على وحيه اسم الروح ، على سبيل التشبيه ، ووجه الشبه : أن بسببهما تكون الحياة الحقة .

فكما أن بالروح تحيا الأبدان والأجساد ، فكذلك بالوحى تحيا القلوب والنفوس وتؤدى رسالتها فى هذه الحياة .

وفى قوله - سبحانه - : « من أمره » إشارة إلى أن نزول الملائكة بالوحى ، لا يكون إلا بسبب أمر الله لهم بذلك ، كما قال - تعالى - حكاية عنهم : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا ﴾[١] .

وقوله : « على من يشاء من عباده » رد على مطالب المشركين المتعنتة ، والتى من بينها ما حكاه الله تعالى - عنهم فى قوله : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ... ﴾[٢] .

فالآية الكريمة تبين أن نزول الملائكة بالوحى ، إنما هو على من يختاره الله - تعالى - لنزول الوحى عليه ، لا على من يختارونه هم ، وأن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن يصطفيه من عباده . قال - تعالى - : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[٣] .

وقوله : « أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » بيان للمقصود من نزول الملائكة بالوحى على الأنبياء .

أى : أنزل - سبحانه - ملائكته بوحيه على أنبيائه ، لكى ينذر هؤلاء الأنبياء الناس ، ويخوفوهم من سوء عاقبة الإشراك بالله ، ويدعوهم إلى أن يخلصوا العبادة لله - تعالى - وحده ، ويبينوا لهم أن الألوهية لا يصح أن تكون لغيره - سبحانه - .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ أن أنذروا ﴾ بدل من « الروح » على أن « أن » هى التى من شأنها أن تنصب المضارع ، وصلت بالأمر كما وصلت به فى قولهم : كتبت إليه بأن قم .

وجوز بعضهم كون «أن» هنا مفسرة، فلا موضع لها من الإعراب، وذلك لما فى « ينزل

---

(١) سورة مريم : الآية ٦٤ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٣١ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

الملائكة بالوحى ، من معنى القول ، كأنه قيل : يقول - سبحانه - بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أن أنذروا ... »[1] .

واقتصر هنا على الإنذار الذى هو بمعنى التخويف ، لأن الحديث مع المشركين ، الذين استعجلوا العذاب ، واتخذوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى .

والفاء فى قوله « فاتقون » فصيحة : أى ، إذا كان الأمر كذلك ، من أن الألوهية لا تكون لغير الله ، فعليكم أن تتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى ، وعبد غيرى .

قال الجمل : « وفى قوله « فاتقون » تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على الأحكام العلمية بقوله ، « أنه لا إله إلا أنا » ، فقد جمعت الآية بين الأحكام الأصلية والفرعية »[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه منزه عن أن يكون له شريك ، وأنه قد أنزل الملائكة بوحيه على من يشاء من عباده ، وأنه لا إله يستحق العبادة سواه .

بعد كل ذلك ، بين الأدلة الدالة على قدرته ووحدانيته ، بأسلوب بديع ، جمع فيه بين دلالة المخلوق على الخالق ، ودلالة النعمة على منعمها ، ووبخ المشركين على شركهم ، تارة عن طريق خلقه وحده - سبحانه - للسموات والأرض ، وتارة عن طريق خلقه للإنسان ، وتارة عن طريق خلقه للحيوان وللنبات ، ولغير ذلك من المخلوقات التى لا تحصى .

قال - تعالى - : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون ﴾ .

والباء فى قوله « بالحق » للملابسة . والحق : ضد الباطل ، وهو هنا بمعنى الحكمة والجد الذى لا هزل فيه ولا عبث معه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق ... ﴾[3] .

أى : خلق - سبحانه - بقدرته النافذة السموات وما أظلت ، والأرض وما أقلت ، خلقا ملتبسا بالحكمة الحكيمة ، وبالجدية التى لا يحوم حولها لهو أو عبث .

وقوله : « تعالى عما يشركون » تنزيه وتقدير لذاته وصفاته ، عما قاله المشركون فى شأنه - عز وجل - من أن له ولدا أو شريكا .

قال - تعالى - : ﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ٩٤ .
(٢) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٥٥٧ .
(٣) سورة الدخان الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾[1] .

وقد صدر - سبحانه - هذه الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته ، بخلق السموات والأرض ، لأن خلقهما أعظم من خلق غيرهما ، ولأنهما حاويتان لما لا يحصى من مخلوقاته - سبحانه - .

قال - تعالى - : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[2] .

ثم ساق - سبحانه - دليلا آخر على انفراده بالألوهية عن طريق خلق الإنسان فقال : ﴿ خلق الإنسان من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

والمراد بالإنسان هنا جنس الإنسان .

وأصل النطفة : الماء الصافى . أو الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا قطرت ، أى سال منها الماء وتقاطر .

والمراد بالنطفة هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة .

والخصيم : الكثير الخصام لغيره ، فهو صيغة مبالغة . يقال : خصم الرجل يخصم - من باب تعب - إذا أحكم الخصومة ، فهو خصم وخصيم .

والمبين . المظهر للحجة ، المفصح عما يريده بألوان من طريق البيان .

أى : خلق - سبحانه - الإنسان . من مَنِىٍّ يُمنى ، أو من ماء مهين خلقا عجيبا فى أطوار مختلفة ، لا يجهلها عاقل ، ثم أخرجه بقدرته من بطن أمه إلى ضياء الدنيا ، ثم رعاه برعايته ولطفه إلى أن استقل وعقل .

حتى إذا ما وصل هذا الإنسان إلى تلك المرحلة التى يجب معها الشكر لله - تعالى - الذى رباه ورعاه ، إذا به ينسى خالقه ، ويجحد نعمه ، وينكر شريعته ، ويكذب رسله ويخاصم ويجادل بلسان فصيح من بعثه الله - تعالى - لهدايته وإرشاده ، ويقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم .. ﴾ .

وإذا فى قوله - سبحانه - ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾. هى التى تسمى بإذا الفجائية التى يؤتى بها لمعنى ترتب الشىء ، على غير ما يظن أن يترتب عليه .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٩١ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٥٧ .

وجىء بها هنا لزيادة التعجيب من حال الإنسان ، لأنه كان المنتظر منه بعد أن خلقه الله - تعالى - بقدرته ، ورباه برحمته ورعايته ، أن يشكر خالقه على ذلك ، وأن يخلص العبادة له ، لكنه لم يفعل ما كان منتظرا منه ، بل فعل ما يناقض ذلك من الإشراك والمجادلة فى أمر البعث وغيره .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ﴾ [١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾ [٢] .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يدل على وحدانيته وقدرته عن طريق خلقه للسموات وللأرض وللإنسان ، أتبع ذلك ببيان أدلة وحدانيته وقدرته عن طريق خلق الحيوان فقال - تعالى - : ﴿ والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ، ومنافع ، ومنها تأكلون ﴾ .

والأنعام : جمع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم ، وقد تطلق على الإبل خاصة ، .

وانتصب الأنعام عطفا على الانسان فى قوله : ﴿ خلق الانسان من نطفة ﴾ ، أو هو منصوب بفعل مقدر يفسره المذكور بعده . أى : وخلق الأنعام خلقها .

والدفء : السخونة . ويقابله شدة البرد ، يقال : دَفِئَ الرجل - من باب طرب - فهو دَفَأً - كتعب - ودفآن ، إذا لبس ما يدفئه ، ويبعد عنه البرد .

والمراد بالدفء هنا : ما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها لهذا الغرض .

وعطف « منافع » على « دفء » من باب عطف العام على الخاص ، إذ المنافع تشمل ما يستدفأ به منها وغيره .

وخص الدفء بالذكر من عموم المنافع ، للعناية به وللتنويه بأهميته فى حياة الناس .

أى : ومن مظاهر نعم الله - تعالى - عليكم - أيها الناس - ، أن الله - تعالى - خلق الأنعام ، وجعل لكم فيها ماتستدفئون به ، من الثياب المأخوذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، فتقيكم برودة الجو وجعل لكم فيها منافع متعددة ، حيث تتخذون من ألبانها شرابا سائغا للشاربين ، ومن لحومها أكلا نافعا للآكلين .

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٤ .

(٢) سورة غافر الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ بيان لنوع آخر من أنواع منافع الحيوان للانسان .

قال أبو حيان فى البحر : والجمال مصدر جمل - بضم الميم - ، يقال رجل جميل وامرأة جميلة وجملاء ، قال الشاعر :

فهى جملاء كبدر طالع بذت الخلق جميعا بالجمال

والجمال يكون فى الصورة بحسن التركيب ، بحيث يدركه البصر فتتعلق به النفس .

ويكون فى الأخلاق ، باشتمالها على الصفات المحمودة ، كالعلم والعفة والحلم .

ويكون فى الأفعال ، بوجودها ملائمة لمصالح الخلق . وجلب المنفعة لهم وصرف الشر عنهم .. »[٢] .

وجمال الأنعام من النوع الأول ، ومن جمالها - أيضا - كثرتها ودلالتها على أن صاحبها من أهل السعة واليسار .

وقوله « تريحون » من الإراحة ، يقال : أراح فلان ماشيته إراحة ، إذا ردها إلى المراح ، وهو منزلها الذى تأوى إليه ، وتبيت فيه .

و « تسرحون » من السروح ، وهو الخروج بها غدوة من حظائرها إلى مسارحها ومراعيها .

يقال : سَرَحْت الماشية أسرحها سرحا وسروحا ، إذا أخرجتها إلى المرعى .

ومفعول الفعلين « تريحون وتسرحون » محذوف للعلم به .

والمعنى : ولكم - أيها الناس - فى هذه الأنعام جمال وزينة ، حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى معاطنها التى تأوى إليها ، وحين تخرجونها بالغداة من معاطنها إلى مسارحها ومراعيها .

وخص - سبحانه - هذين الوقتين بالذكر ، لأنهما الوقتان اللذان تتراءى الأنعام فيهما ، وتتجاوب أصواتها ذهابا وجيئة ، ويعظم أصحابها فى أعين الناظرين إليها .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢١ .

(٢) تفسير البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٧٥ - بتصرف وتلخيص .

وقدم - سبحانه - الإراحة على التسريح ، لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج ، حيث تقبل من مسارحها وقد امتلأت بطونها ، وحفلت ضروعها ، وازدانت مشيتها .

وقال - سبحانه - : ﴿ حين تريحون وحين تسرحون ﴾. بالفعل المضارع ، لإفادة التجديد والتكرار ، وفى ذلك ما يزيد السرور بها ، ويحمل على شكر الله - تعالى - على وافر نعمه .

قال صاحب الكشاف : « منَّ الله بالتجمل بها ، كما منّ بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشى . بل هو من معاظمها ؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى ، وسرحوها بالغداة فزينت إراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، آنست أهلها ، وفرحت أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح - مع تأخر الإراحة فى الوجود ؟ .

قلت : لأن الجمال فى الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها » [1] .

ثم بين - سبحانه - منفعة ثالثة من منافع الأنعام ، التى سخرها الله - تعالى - للإنسان فقال : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾ .

والضمير فى قوله « وتحمل » يعود إلى الإبل خاصة ، لأنها هى التى يحمل عليها .

والأثقال : جمع ثقل . وهو ما يُثقل الإنسانَ حملُهُ من متاع وغيره .

والمراد بالبلد جنسه ولأن الارتحال قد يكون إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى غيرهما .

والشق - بالكسر - المشقة : ومن كل شيء نصفه ، والباء للملابسة . أى : إلا بمشقة شديدة ، كأن نفوسكم قد ذهب نصفها خلال تلك الرحلة الطويلة الشاقة التى لم تستخدموا فيها الأنعام .

قال القرطبى : وشق الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين .

قال المهدوى : وكسر الشين وفتحها فى « شق » متقاربان . وهما بمعنى المشقة .

وقرأ أبو جعفر « إلا بشق الأنفس » - بفتح الشين - وهما لغتان مثل رق ورق .

والشق - أيضاً - بالكسر - النصف . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى . أى : لم

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٩٧ .

تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شق منها ... »[١] .

والمعنى : ومن فوائد هذه الأنعام - أيضا - انها تحمل أمتعتكم وأثقالكم من بلد إلى بلد آخر بعيد ، هذا البلد الآخر البعيد . لم تكونوا واصلين إليه بدونها ، إلا بعد تعب شديد ، وجهد مضن ، وكلفة يذهب معها نصف قوتكم .

والتنكير فى « بلد » لإفادة معنى البعد ، لأن بلوغ المسافر إليه بمشقة ، هو من شأن البلد البعيد ، الذى يصعب الوصول إليه بدون راحلة .

وجملة « لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » التى هى صفة لبلد ، تشير إلى هذا المعنى .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى - : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم ، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾[٣] .

وجملة « إن ربكم لرءوف رحيم » تعليل لخلقه - سبحانه - الأنعام لخدمة الإنسان .

أى : خلق لكم هذه الأنعام ؛ لأنه رءوف رحيم بكم ، حيث لم يترككم تحملون أثقالكم بأنفسكم ، وتقطعون المسافات الطويلة على أرجلكم ، بل أوجد هذه الأنعام لمنافعكم ومصالحكم . ثم ذكر - سبحانه - أنواعا أخرى من الحيوان المنتفع به ، فقال - تعالى - : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون ﴾ .

قال الجمل : « الخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه ، بل من معناه وهو فرس . وسميت خيلا لاختيالها فى مشيها . والبغال جمع بغل : وهو المتولد بين الخيل والحمير .. »[٤] .

واللام فى قوله « لتركبوها » للتعليل .

ولفظ « وزينة » مفعول لأجله ، معطوف على محل « لتركبوها » .

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان .

قال القرطبى : « هذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا ، إلا أن الله تعالى - أذن به

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٧١ .
(٢) سورة غافر الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) سورة يس . الآيتان ٧١ ، ٧٢ .
(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٥٩ .

لعباده ، ففى الحديث الشريف : « الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخيل فى نواصيها الخير » خرجه البرقانى وابن ماجة فى السنن ،.. » [١] .

والمعنى : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه خلق لمنفعتكم - أيضا - الخيل والبغال والحمير ، لتركبوها فى غزوكم وتنقلاتكم ، ولتكون زينة لكم فى أفراحكم ومسراتكم .

وأتى - سبحانه - باللام فى « لتركبوها » دون ما بعدها ، للإشارة إلى أن الركوب هو المقصود الأصلى بالنسبة لهذه الدواب ، أما التزين بها فهو أمر تابع للركوب ومتفرع منه .

قال صاحب الظلال : وفى الخيل والبغال والحمير ، تلبية للضرورة فى الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة .

وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة ، فالجمال - المتمثل فى الزينة - عنصر له قيمة فى هذه النظرة ، وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة عن الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الانسانى المرتفع على ميل الحيوان ، وحاجة الحيوان »[٢] .

وقال بعض العلماء : وقد استدل بهذه الآية ، القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب والزينة يدل على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها .

وأجاب المجوزن لأكلها ، بأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها - وهو الركوب والزينة - لا ينافى غيره .

وقد ورد فى حل أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما فى الصحيحين وغيرهما ، من حديث أسماء قالت نحرنا على عهد رسول الله - ﷺ - فرسا فأكلناه .

وثبت - أيضا - فى الصحيحين من حديث جابر قال : نهى رسول الله - ﷺ - عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن فى الخيل[٣] .

وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة ، ورجح حل أكل لحوم الخيل ، وساق الأدلة والأحاديث فى ذلك ثم قال : « وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص ، فإنما هو دعوى ، لا يلتفت إليه ، ولا يعرج عليه »[٤] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٧٩ .
(٢) تفسير فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٦١ للأستاذ سيد قطب .
(٣) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٧٠ .
(٤) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٧٦ ، وتفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٧٦ طبعة دار الشعب .

ويعجبنى فى هذا المقام قول الإمام البغوى : ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم ، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه ، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته ، والدليل الصحيح المعتمد عليه فى إباحة لحوم الخيل أن السنة مبينة للكتاب .

ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة ، وكان الأكل مسكوتا عنه ، ودار الأمر فيه على الإباحة والتحريم ، وردت السنة النبوية بإباحة لحوم الخيل ، وبتحريم لحوم البغال والحمير فوجب الأخذ بما جاء فى السنة التى هى بيان للكتاب[1] .

هذا وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على عظيم قدرته ، وسعة علمه ، فقال : ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ .

أى : ويخلق - سبحانه - فى الحال والاستقبال ، مالا تعلمونه - أيها الناس - من أنواع المخلوقات المختلفة سوى هذه الدواب ، كالسفن التى تمخر عباب الماء ، والطائرات التى تشق أجواز ا لفضاء ، والسيارات التى تنهب الأرض نهبا لسرعتها ، وغير ذلك من أنواع المخلوقات التى لا يعلمها سواه - سبحانه - والتى أوجدها لمنفعتكم ومصلحتكم .

وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن من عند الله - تعالى - فقد أوجد - سبحانه - العقول البشرية ، التى ألهمها صنع الكثير من المخترعات النافعة فى البر وفى البحر وفى الجو ، والتى لم يكن للناس معرفة بها عند نزول القرآن الكريم .

وتشير - أيضا - إلى مزيد فضل الله - تعالى - على الناس ، حيث أخبرهم بأنه سيخلق لهم فى مستقبل الأيام من وسائل الركوب وغيرها ، ما فيه منفعة لهم ، سوى هذه الدواب التى ذكرها .

فعليهم أن يستعملوا هذه الوسائل فى طاعة الله - تعالى - لا فى معصيته وعليهم أن يتقبلوا هذه الوسائل ، وأن يفتحوا عقولهم لكل ما هو نافع .

ورحم الله صاحب الظلال ، فقد قال عند تفسيره الآية ما ملخصه : يعقب الله - تعالى - على خلق الأنعام والخيل والبغال والحمير بقوله ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ ليظل المجال مفتوحا فى التصور البشرى ، لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والركوب والزينة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٠ .

وحتى لا يقول بعض الناس : إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير ، فلا نستخدم سواها ، وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ماعداها .

ولقد جدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة ، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان ، وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان : والقرآن يهيئ لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجر ، « ويخلق مالا تعلمون »[1] .

وبعد أن بين – سبحانه – دلائل وحدانيته وقدرته ، عن طريق خلق السموات والأرض والإنسان والدواب .. أتبع ذلك ببيان أنه – عز وجل – كفيل بالإرشاد إلى الطريق المستقيم لمن يتجه إليه فقال – تعالى – : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

والقصد : الاستقامة . والسبيل : الطريق والقصد منه : هو المستقيم الذى لا اعوجاج فيه . يقال : سبيل قصد وقاصد ، أى : مستقيم . قال الشاعر :

ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيل ، ومنه ذو دخل

قال الجمل ما ملخصه : « وعلى الله » أى : تفضلا « قصد السبيل » على تقدير مضاف ، أى : وعلى الله بيان قصد السبيل . وهو بيان طريق الهدى من الضلالة ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والقصد مصدر يوصف به . يقال : سبيل قصد وقاصد أى : مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه . والمراد بالسبيل : جنسه .. »[2] .

والضمير فى قوله « ومنها جائر » يعود إلى السبيل . والجائر : المائل عن الاستقامة ، المنحرف عن الجادة وهو صفة لموصوف محذوف . أى : ومنها سبيل جائر .

أى : وعلى الله – تعالى – وحده ، تفضلا منه وكرما ، بيان الطريق المستقيم وهو طريق الحق ، الذى يوصل من سلكه إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الطريق الحق : هو الذى جاء به محمد – ﷺ – .

ومن الطريق ما هو حائد عن الاستقامة ، وهو كل طريق يخالف ما جاء به خاتم الرسل ، – ﷺ – من عقائد وشرائع وآداب .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٦١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦١ .

قال - تعالى - : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .. ﴾[١] .

فالمراد بالطريق القصد : الطريق الموصل إلى الإسلام ، والمراد بالطريق الجائر : الطريق الموصل إلى غيره من ملل الكفر والضلال .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ، ببيان أن الهداية والإضلال بقدرته ومشيئته ، فقال - تعالى - : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

أى : ولو شاء - سبحانه - هدايتكم - أيها الناس - إلى الطريق المستقيم ، لهداكم جميعا ، ولكنه - عز وجل - لم يشأ ذلك ، بل اقتضت حكمته أن يخلق الناس ، مستعدين للهدى والضلال ، وأن يترك لهم اختيار أحد الطريقين فكان منهم من استحب العمى على الهدى ، وكان منهم من سلك الطريق المستقيم . وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

قال تعالى - : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾[٢] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا .. ﴾[٣] .

وبعد أن بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده عن طريق خلق الأنعام وغيرها من البهائم ، التى لهم فيها منافع ، أتبع ذلك ببيان نعمه عليهم فى إنزال المطر ، فقال - تعالى - :

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .
(٢) سورة الإنسان الآيتان ٢ ، ٣ .
(٣) سورة يونس الآية ٩٩ .

والمراد بالسماء : السحاب المرتفع فى طبقات الجو ، حيث ينزل منه الماء بقدرة الله - تعالى - والشراب : اسم للمشروب الذى يشربه الإنسان والحيوان وغيرهما .

والشجر : يطلق على النبات ذى الساق الصلبة على سبيل الحقيقة ، ويطلق على العشب والكلأ على سبيل المجاز ، وهو المراد هنا ، لأنه هو الذى ترعاه الأنعام .

والضمير فى قوله - سبحانه - ﴿ ومنه شجر ﴾ يعود على الماء ، باعتباره السبب فى وجود الشجر .

قال الآلوسى: قوله -سبحانه- «ومنه شجر» أى: نبات مطلقا سواء أكان له ساق أم لا ، كما نقل عن الزجاج ، وهو حقيقة فى الأول ، ومن استعماله فى الثانى قول الراجز :

نعلفهـا اللحم إذا عـز الشجـر والخيل فى إطعامهـا اللحم ضرر

فإنه قيل : الشجر فيه بمعنى الكلأ ، لأنه الذى يعلف .. »[1] .

وقوله : « تسيمون » من الإسامة ، بمعنى إطلاق الإبل وغيرها للسوم ، أى الرعى . يقال : أسام فلان إبله للرعى إسامة ، إذا أخرجها إلى المرعى . وسامت هى تسوم سوما ، إذا رعت حيث شاءت وأصل السوم : الابعاد فى المرعى .

والمعنى : هو - سبحانه - وحده وليس غيره : الذى غمركم بنعمه ، حيث أنزل لكم من السحاب ماء كثيرا ، هذا الماء الكثير المنزل بقدر معلوم ، منه تأخذون ماتشربونه وما تنتفعون فى حوائجكم الأخرى ، وبسببه تخرج المراعى التى ترعون فيها دوابكم .

فالآية الكريمة دليل آخر من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبديع خلقه ، حيث أنزل - سبحانه - المطر من السماء ، ولو شاء لأمسكه ، أو لأنزله غير صالح للشراب .

قال - تعالى - : ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لونشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾[2] .

وأتى - سبحانه - بلفظ « فى » المفيدة للظرفية ، فى قوله - تعالى - ﴿ فيه تسيمون ﴾ ؛ للإشارة إلى أن الرعى فى هذا الشجر ، قد يكون عن طريق أكل الدواب منه ، وقد يكون عن طريق أكل ما تحته من الأعشاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات .. ﴾ تفصيل لأهم منافع الماء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٠٥ .

(٢) سورة الواقعة الآيات ٦٨ - ٧٠ .

أى : يخرج لكم من الأرض ، بسبب الماء الذى أنزله عليها من السماء « الزرع » الذى هو أصل أغذيتكم ، وعماد معاشكم ، كالقمح والشعير وغيرهما « والزيتون » الذى تستعملونه إداما فى أغذيتكم « والنخيل والأعناب » اللذين فيهما الكثير من الفوائد ، ومن التلذذ عند أكل ثمارهما .

وأخرج لكم - أيضا - بسبب هذا الماء « من كل الثمرات » التى تشتهونها وتنتفعون بها ، والتى تختلف فى أنواعها ، وفى مذاقها ، وفى روائحها ، وفى ألوانها ، مع أن الماء الذى سقيت به واحد ، والأرض التى نبتت فيها متجاورة .

ولا شك أن فى هذا الانبات بتلك الطريقة ، أكبر دليل على قدرة الله - تعالى - . لأنه لا يقدر على ذلك سواه - سبحانه - .

وأسند - سبحانه - الإنبات إليه فقال : « ينبت لكم به ... » ؛ لأنه الفاعل الحقيقى لهذا الإنبات والإخراج للزروع من الأرض : أما غيره - سبحانه - فيلقى الحب فى الأرض ، ويرجو الثمار والإنبات منه - عز وجل - .

قال - تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون ﴾ [1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[2] .

وقال - عز وجل - : ﴿ أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ﴾ [3] .

وختم - سبحانه - الآية بقوله ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ للحض على التفكر والتأمل فى عظيم قدرته - سبحانه - حتى يصل المتأمل إلى إخلاص العبادة له - عز وجل .

أى : إن فى ذلك المذكور ، من إنزال الماء من السماء ، وإنبات الزروع والثمار بسببه ، لآية

(١) سورة الواقعة الآيات ٦٣ - ٧٠ .

(٢) سورة الرعد الآية ٤ .

(٣) سورة النمل الآية ٦٠ .

باهرة ، ودلالة عظيمة ، على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، لقوم يحسنون التفكير ، ويجيدون التأمل فى خلقه ، أما الذين لا يحسنون التفكير والتأمل ، فهم كالأنعام بل هم أضل .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقال - سبحانه - : ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ لأن من تفكر فى أن الحبة والنواة ، تقع فى الأرض ، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أسفلها ، فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض ، وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة فى الوقوع ...

من تفكر فى ذلك علم أن من هذه آثاره وأفعاله ، لا يمكن أن يشبهه غيره فى صفة من صفات الكمال ، فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته التى هى الألوهية واستحقاق العبادة .

وحيث كان الاستدلال بما ذكر ، مشتملا على أمر خفى محتاج إلى التفكر والتدبر لمن له نظر سديد ، ختم - سبحانه - الآية بالتفكر [1] .

ثم ساق - سبحانه - دلائل أخرى مما خلق لنفع الإنسان ، تدل على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى - :

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

وقوله « سخر » من التسخير بمعنى التذليل والتكليف ، يقال . سخر فلان فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة ، والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به أى : ومن آياته سبحانه الدالة على وحدانيته وقدرته ، أنه « سخر لكم الليل والنهار » يتعاقبان فيكم لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا الرزق بالنهار .

وأنه - سبحانه - سخر لكم « الشمس والقمر » يدأبان فى سيرهما بدون كلل أو

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٠٨ .

اضطراب ، بل يسيران من أجل منفعتكم ومصلحتكم بنظام ثابت ، كما قال - تعالى -: ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ (١) .

وأنه - سبحانه - أوجد النجوم مسخرات بأمره وإذنه ، لكى تهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر .

هذا وقد قرأ جمهور القراء هذه الأسماء : الليل والنهار ... إلخ بالنصب على المفعوليه لفعل « سخر » كما قرأ الجمهور . أيضاً . « مسخرات » بالنصب على الحالية .

وقرأ ابن عامر : « والشمس والقمر والنجوم » بالرفع على الابتداء ، وقرأ - أيضا قوله - « مسخرات ، بالرفع على أنه خبر عنها .

وقرأ حفص برفع النجوم ومسخرات ، على أنها مبتدأ وخبر : أما بقية الأسماء السابقة فقرأها بالنصب .

وقوله « بأمره » متعلق بمسخرات . والمراد بأمره : إرادته ومشيئته وتدبيره ، الجارى على هذا الكون وفق حكمته وإذنه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

أى : إن فى ذلك المذكور من تسخير الليل والنهار وغيرهما لمنفعتكم ومصلحتكم - يا بنى آدم - لآيات بينات ، ودلائل واضحات ، على وجوب العبادة لله - تعالى - وحده ، لقوم يعقلون نعم الله - تعالى - ، ويستدلون بها على وحدانيته - سبحانه - وقدرته .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾(٢) .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ﴾.. معطوف على ما قبله من النعم وأصل الذرأ : الخلق بالتناسل والتوالد عن طريق الحمل والتفريخ .

قال القرطبى : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا ، أى خلقهم ، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين ، والجمع الذرارى ، ويقال : أنمى الله ذرأك وذروك أى : ذريتك .

---

(١) سورة يس الآية ٤٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٤ .

والمعنى : وسخر لكم - أيضاً - ما أوجده فى الأرض من أجل منفعتكم من عجائب الأمور ، ومختلف الأشياء ، من حيوان ونبات ، ومعادن مختلفة الألوان والأجناس والخواص .

و لاشك أن فى اختلاف الألوان والمناظر والهيئات وغير ذلك ، فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه الخالق لكل شىء .

قال - تعالى - ﴿ ومن آيـاته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ... ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ أى : إن فى ذلك الذى بيناه لكم ، لآية واضحة على قدرة الله - تعالى - لقوم يعتبرون ، ويتذكرون آلاء الله ونعمه ، فيشكرونه عليها ، ويخلصون له العبادة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - جملة من نعمه التى أوجدها لعباده فى البر ، أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه عليهم عن طريق خلقه للبحر ، فقال - تعالى - :

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

ففى هذه الآية الكريمة بين - سبحانه - أربع نعم على عباده فى تسخير البحر لهم .

أما النعمة الأولى فتتجلى فى قوله - تعالى - ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ﴾ .

والطرى : ضد اليابس ، والمصدر الطراوة ، وفعله طَرُوَ بوزن خشن وقرب .

أى : وهو - سبحانه - وحده الذى ذلل لكم البحر ، بحيث مكنكم من الانتفاع به ، وأقدركم على الركوب عليه ، وعلى الغوص فيه ، وعلى الصيد منه ، لتأكلوا من أسماكه لحما طريا غضا شهيا .

---

(١) سورة الروم الآية ٢٢ .

ووصف - سبحانه - لحم أسماكه بالطراوة ، لأن أكله فى هذه الحالة أكثر فائدة ، وألذ مذاقا ، فالمنة بأكله على هذه الحالة أتم وأكمل .

وقال بعض العلماء : وفى وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ، فسبحان الخبير بخلقه ، ومعرفته ما يضر استعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - فى خلقه الحلو الطرى فى الماء المر الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء ، وهو الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - : « ما نضب عنه الماء فكلوا ، وما لفظه فكلوا ، وما طفا فلا تأكلوا » .

فالمراد من ميتة البحر فى الحديث : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » مالفظه البحر لا مامات فيه من غير آفة[1] .

وقوله « وتستخرجوا منه حليه تلبسونها » نعمة ثانية من نعم الله - تعالى - للإنسان فى تسخير البحر له .

والحلية - بالكسر - اسم لما يتحلى به الناس . وجمعها حِلى وحُلى - بضم الحاء وكسرها - يقال : تحلت المرأة إذا لبست الحلى ، أى : ومن فوائد تسخير البحر لكم أنه سبحانه أقدركم على الغوص فيه ، لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما .

قال - تعالى - ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾[2] .

والتعبير بقوله - سبحانه - تستخرجوا .. » يشير إلى كثرة الإخراج فالسين والتاء للتأكيد ، مثل استجاب بمعنى أجاب . كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما فى البحر من كنوز وألا يتركوا ذلك لأعدائهم .

وأسند - سبحانه - لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور فقال : « تلبسونها » على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء فى معظم الأحيان .

---

(١) تفسير المراغى جـ ١٤ ص ٦١ .
(٢) سورة الرحمن الآيات ١٩ ، ٢٢ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله « تلبسونها » أى : تلبسها نساؤكم ، وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهم ، وكونهم متبوعين ، أو لأنهم سبب لتزينهن ، فإنهن يتزين ليحسن فى أعين الرجال ، فكأن ذلك زينتهم ولباسهم .

قال القرطبى : « امتن ، الله - تعالى - على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شىء منه ، وإنما حرم الله - تعالى - على الرجال الذهب والحرير ، ففى الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول - ﷺ - : « لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » .

وروى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - اتخذ خاتما من ذهب .. ، فاتخذ الناس مثله ، فرمى به وقال : « لا ألبسه أبدا » . ثم اتخذ خاتما من فضة فاتخذ الناس خواتم الفضة ... »[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ نعمة ثالثة من نعمه - تعالى - فى تسخير البحر للناس وأصل المخر : الشق . يقال : مخر الماء الأرض إذا شقها . ويقال مخرت السفينة تمخَر ، وتمخُر ، مخرا ، ومخورا ، إذا جرت فى الماء وأخذت تشقه بمقدمتها .

أى : وترى - أيها العاقل - بعينيك السفن وهى تشق البحر بسرعة ، متجهة من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى آخر ، لا تحرسها إلا رعاية الله تعالى وقدرته ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون. إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين ﴾[٢] .

والتعبير بقوله : « وترى .. » لا ستحضار الحالة العجيبة عن طريق الرؤية البصرية ، وهى حالة تدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده . حيث سخر لهم السفن لتجرى فى البحر بأمره .

ثم بين - سبحانه - النعمة الرابعة من نعم تسخير البحر للناس فقال تعالى : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ والابتغاء : الطلب للشىء عن رغبة ومحبة .

أى : وسخر لكم البحر - أيضا - لتستخرجوا منه الحلية ، ولتطلبوا فضل الله تعالى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٨٧ .
(٢) سورة يس الآيات ٤١ - ٤٤ .

ورزقه ، عن طريق التجارات والأسفار على ظهر البحر من مكان إلى آخر . سعيا وراء الربح .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بحض الناس على شكره على نعمه فقال ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ .

أى : ولعلكم تشكرون الله - تعالى - على آلائه ، حيث سخر لكم البحر ، وجعله وسيلة من وسائل منفعتكم ومعاشكم .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن فوائد الجبال والأنهار والسبل والنجوم ، فقال - تعالى - :

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

ولفظ : « رواسى » جمع راس من الرسو - بفتح الراء وسكون السين - بمعنى الثبات والتمكن فى المكان ، يقال رسا الشىء يرسو إذا ثبت . وهو صفة لموصوف محذوف . أى : جبالا رواسى .

و « تميد » أى تضطرب وتميل . يقال : ماد الشىء يميد ميدا ، إذا تحرك ، ومادت الأغصان إذا تمايلت أى : وألقى - سبحانه - فى الأرض جبالا ثوابت لكى تقر وتثبت ولا تضطرب .

فقوله « أن تميد بكم » تعليل لإلقاء الجبال فى الأرض .

قال القرطبى : وروى الترمذى بسنده عن أنس بن مالك عن النبى - ﷺ - قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتضطرب ، فخلق الجبال عليها فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال . قالوا يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد . قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار . قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال نعم الماء ، قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال نعم الريح . قالوا يارب : فهل من خلقك شىء أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم إذا تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٩٠ .

هذا ، ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم .. ﴾[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - نعما أخرى لما ألقاه فى الأرض فقال : ﴿ وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ﴾ . أى : وجعل فى الأرض « أنهارا » تجرى من مكان إلى آخر ، فهى تنبع فى مواضع . وتصب فى مواضع أخرى ، وفيها نفع عظيم للجميع ، إذ منها يشرب الناس والدواب والأنعام والنبات .

وجعل فيها كذلك طرقا ممهدة ، يسير فيها السائرون من مكان إلى آخر . « لعلكم تهتدون » بتلك السبل إلى المكان الذى تريدون الوصول إليه . بدون تحير أو ضلال .

وقد كرر القرآن الكريم هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى - : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾[٣] .

والمراد بالعلامات فى قوله - تعالى - : ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ الامارات والمعالم التى يضعها الناس على الطرق بإلهام من الله - تعالى - للاهتداء بها عند السفر .

والمراد بالنجم : الجنس ، فيشمل كل نجم يهتدى به المسافر .

أى ومن مظاهر نعمه - أيضا - ، أنه - سبحانه - جعل فى الأرض معالم وأمارات من جبال كبار ، وآكام صغار ، وغير ذلك ، ليهتدى بها المسافرون فى سفرهم ، وتكون عونا لهم على الوصول إلى غايتهم ، وبمواقع النجوم هم يهتدون فى ظلمات البر والبحر ، إلى الأماكن التى يبغون الوصول إليها .

والضمير « هم » فى قوله ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ يشمل كل سالك فى ظلمات البر والبحر ، ويدخل فيه دخولا أوليا أهل مكة ، لأنهم كانوا كثيرى الأسفار للتجارة ، كما كانوا معروفين بالاهتداء فى سيرهم بمواقع النجوم .

---

(١) سورة لقمان الآية ١٠ .
(٢) سورة النبأ الآيتان ٦ ، ٧ .
(٣) سورة نوح الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

وقدم - سبحانه - المتعلق وهو « وبالنجم » للاهتمام به ، إذ أن الاهتداء بالنجوم ، أمر هام فى حياة المسافرين ولا سيما الذين يسافرون فى البحر .

وعدل - - سبحانه - عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله « هم يهتدون » على سبيل الالتفات ، ليزداد الكلام طلاوة وانتباها إلى ما اشتمل عليه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾[1] .

وإلى هنا نرى السورة الكريمة ، التى هى سورة النعم ، قد حدثتنا فى بضع عشرة آية . عن ألوان متنوعة من نعم الله - تعالى - على عباده .

حدثتنا عن نعمة الروح الذى يحيى القلوب الميتة وينقذها من الكفر والضلال .

وحدثتنا عن نعمة خلق الإنسان ، وخلق السموات والأرض .

وحدثتنا عن نعمة خلق الأنعام ، والخيل والبغال والحمير .

وحدثتنا عن نعمة إنزال الماء من السماء ، وما يترتب على هذه النعمة من فوائد ومنافع .

وحدثتنا عن نعمة تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم لمصلحة الإنسان .

وحدثتنا عن نعمة تسخير البحر وتذليله للانتفاع بخيراته .

وحدثتنا عن كل ذلك وغيره . لكى يخلص الإنسان عبادته لخالقه ، ولكى يطيعه حق الطاعة ، ويشكره عليها ، ويستعملها فيما خلقت له .

وبعد أن حدثتنا السورة عن كل ذلك ، ساقت لنا جملة من صفات الله - تعالى - ووبخت المشركين على شركهم ، وأبطلته بأبلغ أسلوب ، ودعتهم إلى الدخول فى الدين الحق ، فقال - تعالى - :

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٧ .

مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق .. ﴾ للإنكار والتوبيخ لأولئك المشركين الذين عبدوا غير الله - تعالى -

أى : أفمن يخلق هذه الأشياء العجيبة ، والمخلوقات البديعة ، التى بينا لكم بعضها ، وهو الله - عز وجل - كمن لا يخلق شيئا على سبيل الإطلاق ، بل هو مخلوق ، كتلك الأصنام والأوثان وغيرها ، التى أشركتموها فى العبادة مع الله - تعالى - ؟

إن فعلكم هذا لدليل واضح على جهلكم - أيها المشركون - وعلى انطماس بصيرتكم ، وقبح تفكيركم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام ، فلماذا جىء بمن الذى هو لأولى العلم ؟ .

قلت : فيه أوجه : أحدها أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم .

الثانى : المشاكلة بينه وبين من يخلق .

الثالث : أن يكون المعنى : أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده . كقوله - تعالى - ﴿ ألهم أرجل يمشون بها .. ﴾ يعنى أن الآلهة - التى عبدوها - حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب لأن هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة ، لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا .

فإن قلت الآية إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله - تعالى - : فكان من حق الإلزام أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟

قلت حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له ، وسووا بينه ، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ زيادة فى توبيخهم وفى التهكم بهم .

أى : أبلغ بكم السفه والجهل أنكم سويتم فى العبادة بين من يخلق ومن لا يخلق ، والحال أن هذه التسوية لا يقول بها عاقل ، لأن من تفكر أدنى تفكر ، وتأمل أقل تأمل ، عرف وتيقن أنه لا يصح التسوية فى العبادة بين الخالق والمخلوق ، فهلا فكرتم قليلا فى أمركم ، لكى تفيئوا إلى رشدكم ، فتخلصوا العبادة لله الخلاق العليم .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمه على سبيل الإجمال ، بعد أن فصل جانباً منها فى الآيات السابقة فقال - تعالى - ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾.

والمراد بالنعمة هنا جنسها ، الذى يشمل كل نعمه ، لأن لفظ العدد والإحصاء قرينة على ذلك ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع اعتمادا على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية .

أى : وإن تعدوا نعمة الله - تعالى - التى أنعمها عليكم ، فى أنفسكم ، وفيما سخره لكم لا تستطيعون حصر هذه النعم لكثرتها ولتنوعها .

وما دام الأمر كذلك فاشكروه عليها ما استطعتم ، وأخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ استئناف قصد به فتح باب الأمل أمامهم لكى يتداركوا ما فرط منهم من جحود وتقصير فى حقه - سبحانه - .

أى : إن الله - تعالى - لغفور لعباده على ما فرط منهم متى تابوا إليه توبة نصوحا ، رحيم بهم ، حيث لم يؤاخذهم بذنوبهم . بل منحهم نعمه مع تقصيرهم فى شكره - تعالى .

قال ابن كثير - رحمه الله - قوله : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ أى يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجز تم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازى على اليسير »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٠٥ - بتصرف يسير .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٨٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ بيان لكمال علمه - تعالى - وتحذير من الوقوع فيما نهى عنه ، لأنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية .

أى : والله - تعالى - وحده ، يعلم ما تسرونه من أقوال وأفعال ، وما تظهرونه منها ، وهو محص عليكم ذلك ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

ثم وصف - سبحانه - الأوثان التى يعبدها المشركون من دونه ، بثلاثة أوصاف . تجعلها بمعزل عن النفع ، فضلا عن استحقاقها للعبادة ، فقال - تعالى - ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون ﴾.

فوصفها - أولا - بالعجز التام ، فقال - تعالى - : ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا .. ﴾ .

أى : وهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله - تعالى - لا تخلق شيئا من المخلوقات مهما صغرت ، بل هم يخلقون بأيديكم ، فأنتم الذين تنحتون الأصنام . كما قال - سبحانه - حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - الذى قال لقومه على سبيل التهكم بهم : ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون ﴾[1] .

وإذا كان الأمر كذلك فكيف تعبدون شيئا أنتم تصنعونه بأيديكم ، أو هو مفتقر إلى من يوجده ؟!

وهذه الآية الكريمة أصرح فى إثبات العجز للمعبودات الباطلة من سابقتها التى تقول : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق .. ﴾لأن الآية السابقة نفت عن المعبودات الباطلة أنها تخلق شيئا، أما هذه الآية التى معنا فنفت عنهم ذلك ، وأثبتت أنهم مخلوقون لغيرهم وهو الله - عز وجل - ، أو أن الناس يصنعونهم عن طريق النحت والتصوير ، فهم أعجز من عبدتهم ، وعليه فلا تكرار بين الآيتين .

وأما الصفة الثانية لتلك الأصنام فهى قوله - تعالى - ﴿ أموات غير أحياء ﴾ .

أى : هؤلاء المعبودون من دون الله - تعالى - ، هم أموات لا أثر للحياة فيهم ، فهم لا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يغنون عن عابديهم شيئا ، فقد دلت هذه الصفة على فقدانهم للحياة فقدانا تاما .

وجملة « غير أحياء » جىء بها لتأكيد موتهم ، وللدلالة على عراقة وصفهم بالموت ، حيث

---

(١) سورة الصافات الآيتان ٩٥ ، ٩٦ .

إنه لا توجد شائبة للحياة فيهم ، ولم يكونوا أحياء - كعابديهم - ثم ماتوا ، بل هم أموات أصلا . أو جيء بها على سبيل التأسيس ، لأن بعض مالا حياة فيه من المخلوقات ، قد تدركه الحياة فيما بعد ، كالنطفة التى يخلق الله - تعالى - منها حياة ، أما هذه الأصنام فلا يعقب موتها حياة ، وهذا أتم فى نقصها ، وفى جهالة عابديها .

وأما الصفة الثالثة لتلك الأصنام فهى قوله - تعالى - : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ .

ولفظ « أيان » ظرف زمان متضمن معنى متى .

وهذه الصفة تدل على جهلهم المطبق ، وعدم إحساسهم بشىء .

أى : أن من صفات هذه المعبودات الباطلة ، أنها لا تدرى متى يبعثها الله - تعالى - لتكون وقودا للنار .

وبعضهم يجعل الضمير فى « يشعرون » يعود على الأصنام ، وفى « يبعثون » يعود على العابدين لها ، فيكون المعنى : وما تدرى هذه الأصنام التى تعبد من دون الله - تعالى - متى تبعث عبدتها للحساب يوم القيامة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله : « وما يشعرون أيان يبعثون » الضمير فى « يشعرون » للآلهة وفى « يبعثون » للكفار الذين يعبدون الأصنام .

والمعنى : وما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة . فضلا عن الأمور التى لا يعلمها إلا الله - سبحانه - .

ويجوز أن يكون الضمير فى الفعلين للآلهة . أى : وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث . ويدل على ذلك قوله تعالى - : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .. ﴾ [1] .

وبعد أن أبطل - سبحانه - عبادة غيره بهذا الأسلوب المنطقى الحكيم ، صرح بأنه لا معبود بحق سواه ، فقال : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ .

أى إلهكم المستحق للعبادة والطاعة هو إله واحد لا شريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته : فأخلصوا له العبادة ، ولا تجعلوا له شركاء .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ١٥٦ .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت المشركين يصرون على كفرهم ويستحبون العمى على الهدى ، فقال - تعالى - : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ .

أى : فالكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب قلوبهم منكرة للحق ، جاحدة لنعم الله ، منصرفة عن وحدانية الله - تعالى - وعن الأدلة الدالة عليها ، وحالهم فوق ذلك أنهم مستكبرون مغرورون ، لا يستمعون إلى موعظة واعظ ، ولا إلى إرشاد مرشد . ومتى استولت على إنسان هاتان الصفتان - الجحود والاستكبار - ، حالفه البوار والخسران ، وآثر سبيل الغى على سبيل الرشد .

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته « فالذين لا يؤمنون بالآخرة .. » دون التصريح بذواتهم ، لاشتهارهم بتلك الصفات القبيحة ، وللإيمان بأن عدم إيمانهم بالآخرة ، هو أساس خيبتهم ، وخسرانهم وجحودهم .. .

وعبر بالجملة الاسمية فى قوله « قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » للدلالة على تأصل صفتى الجحود والاستكبار فى قلوبهم ، وعلى أن الإنكار للحق سمة من سماتهم التى لا يتحولون عنها مهما وضحت لهم الأدلة على بطلانها ، وعلى أن التعالى والغرور لا ينفك عنهم ، وأنهم ممن قال - سبحانه - فيهم : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[1] . أى : صاغرين أذلاء .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم ، فقال : ﴿ لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه لا يحب المستكبرين ﴾ .

وكلمة « لاجرم » وردت فى القرآن فى خمسة مواضع ، وفى كل موضع كانت متلوة بأن واسمها ، وليس بعدها فعل .

وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر ومعناها بعد التركيب معنى الفعل : حق وثبت ، والجملة بعدها فاعل .

قال الخليل : لا جرم ، كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا ، يقال : فعلوا ذلك ، فيقال : لا جرم سيندمون .

---

(١) سورة غافرة . الآية ٦٠ .

وقال الفراء : « لا جرم » كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد ولا محالة ، فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزله حقا فلذلك يجاب عنها باللام ، كما يجاب بها عن القسم ألا تراهم يقولون لا جرم لآتينك .

والمعنى : حق وثبت أن الله - تعالى - يعلم ما يسره هؤلاء المشركون وما يعلنونه من أقوال وأفعال ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقوبات ، لأنه - سبحانه - لا يحب المستكبرين عن الاستجابة للحق ، المغرورين بأموالهم وأولادهم ، الجاحدين لنعم الله وآلائه .

قال القرطبى : قال العلماء : وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه ، إلا الكبر ، فإنه فسق يلزمه الإعلان ، وهو أصل العصيان كله .

وفى الحديث الصحيح : « إن المتكبرين يحشرون أمثال الذَّرِّ يوم القيامة ، يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم » أو كما قال - ﷺ - : « تصغر لهم أجسامهم فى المحشر حتى يضرهم صغرها ، وتعظم لهم فى النار حتى يضرهم عظمها »[1] .

وبعد أن أقامت السورة الكريمة الأدلة الساطعة ، على وحدانية الله ، وقدرته ، وعلى بطلان عبادة غيره .. أتبعت ذلك بحكاية بعض أقاويل المشركين ، وردت عليها بما يدحضها ، وببيان سوء عاقبتهم ، وعاقبة أشباههم من قبلهم ، فقال - تعالى - :

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٩٥ .

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

وقوله - سبحانه : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا أساطير الأولين ﴾ حكاية لبعض ما كان يدور بين أولئك المستكبرين ، وبين غيرهم من أسئلة واستفسارات حول القرآن الكريم .

والأساطير : جمع أسطورة ، كأعاجيب وأعجوبة ، وأحاديث وأحدوثة .

والمراد بها : الأكاذيب والترهات التى لا أصل لها ، والتى كانت مبثوثة فى كتب الأولين .

والمعنى : وإذا قال قائل لهؤلاء الكافرين المستكبرين ، أى شىء أنزل ربكم على نبيه محمد - ﷺ - .

قالوا له على سبيل الجحود للحق : لم ينزل عليه شىء ، وإنما هذا القرآن الذين يتلوه محمد - ﷺ - على أتباعه ، هو من أساطير الكهنة الأولين ، نقله من كتبهم ثم قرأه على من يستمع إليه .

روى ابن أبى حاتم عن السدى قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمدا - ﷺ - رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظرو أناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاءه يريده ردوه عنه .

فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد - ﷺ - ووصل إليهم ، قال أحدهم : أنا فلان بن فلان ، فيعرفه نسبه ، ثم يقول للوافد : أنا أخبرك عن محمد - ﷺ - إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد

ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد . فذلك قوله - تعالى - ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا : أساطير الأولين ﴾ .

فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك قال : بئس الوافد لقومى أنا ، إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم - من مكه - رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، وأنظر ما يقول ، وآتى قومى ببيان أمره . فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين فيسألهم : ماذا يقول محمد - ﷺ - ؟ فيقولون : خيرا .. »[1] .

وعبر - سبحانه - بالفعل « قيل » المبنى للمجهول ، للإشارة إلى أن هذا القول الذى تفوه به عتاة الكافرين ، كانوا يقولونه لكل من يسألهم عن القرآن الكريم ، لكى يصدوه عن الدخول فى الإسلام . وجملة « ماذا أنزل ربكم » نائب فاعل لقيل .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « أساطير الأولين » خبر لمبتدأ محذوف .

أى : قالوا هو أساطير الأولين أو المسئول عنه : أساطير الأولين .

ولقد حكى القرآن قولهم الباطل هذا ، ورد عليه بما يدحضه فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - عاقبة كفرهم ، ونطقهم بالباطل ، فقال - تعالى - : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ... ﴾ .

واللام فى قوله - « ليحملوا » هى التى تسمى بلام العاقبة ، وذلك لأنهم لما وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، كانت عاقبتهم تلك العاقبة السيئة .

والأوزار جمع وزر - بكسر الواو وسكون الزاى - بمعنى الشىء الثقيل .

المراد بها الذنوب والآثام التى يثقل حملها على صاحبها يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ؛ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[3] .

والمعنى : قالوا ذلك فى القرآن الكريم ، لتكون عاقبتهم أن يحملوا أوزارهم كاملة غير منقوصة يوم القيامة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٣١ .

(٢) سورة الفرقان . الآيتان ٥ ، ٦ .

(٣) سورة العنكبوت .الآية ١٣ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله « ليحملوا » متعلق - بقالوا - كما هو الظاهر .. واللام للعاقبة ، لأن الحمل مترتب على قولهم وليس باعثا ولا غرضا لهم .

وعن ابن عطية : أنها تحتمل أن تكون لام التعليل ومتعلقة بفعل مقدر لا بقالوا ، أى : قدر صدور ذلك منهم ليحملوا ...[١] .

وقال - سبحانه - ﴿ كاملة ﴾ لتأكيد أنه لا يرفع عنهم شىء من ذنوبهم ، بل سيعاقبون عليها جميعها دون أن ينقص منها شىء .

قال الفخر الرازى : وهذا يدل على أن الله - تعالى - قد يسقط بعض العقاب على المؤمنين ، إذ لو كان هذا المعنى حاصلا فى حق الكل ، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى ..[٢] .

وقال بعض العلماء : « ويصور التعبير هذه الذنوب بكونها أحمالا ذات ثقل - وساءت أحمالا وأثقالا - ، فهى توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور ، وهى تثقل القلوب ، كما تثقل الأحمال العواتق ، وهى تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال حاملها ، بل هى أدهى وأنكى »[٣] .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم أنه بلغه أنه يتمثل للكافر عمله فى صورة أقبح ما خلق الله وجها ، وأنتنه ريحا ، فيجلس إلى جنبه كلما أفزعه شىء زاده فزعا ، وكلما تخوف من شىء زاده خوفا . فيقول له بئس الصاحب أنت ومن أنت ؟ فيقول له وما تعرفنى ؟ فيقول : لا . فيقول : أنا عملك كان قبيحا فلذلك ترانى قبيحا ، وكان منتنا فلذلك ترانى منتنا . طأطئ إلى أركبك ، فطالما ركبتنى فى الدنيا ، فيركبه ، وهو قوله - تعالى - ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة .. ﴾[٤] .

وقوله : « ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » بيان لأثقال أخرى يحملونها فوق أثقالهم .

أى : أن أولئك المستكبرين ، قالوا فى القرآن إنه أساطير الأولين ، فكانت عاقبة قولهم الباطل أن حملوا آثامهم الخاصة ، وأن حملوا فوقها جانبا من آثام من كانوا سببا فى ضلالهم .

قال ابن كثير : أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم ،

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٢٤ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٨ .

(٣) فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٦٧ للأستاذ سيد قطب .

(٤) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٦٦ .

واقتداء أولئك بهم ، كما جاء فى الحديث : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

كما قال - تعالى - : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ [١] .

فهذه الآية وأمثالها ، لا تعارض بينها وبين قوله - تعالى - ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[٢] .

لأن هؤلاء المستكبرين لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل تسببوا فى إضلال غيرهم ، فعوقبوا على هذا التسبب السيء ، الذى هو فعل من أفعالهم القبيحة .

وقوله « بغير علم » فى موضع الحال من الضمير المنصوب فى قوله « يضلونهم » .

أى : يضلون ناسا لا علم عندهم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، وفى ذلك ما فيه من مدح أهل العلم والتفكير ، لأن الآية الكريمة قد بينت أن أئمة الكفر ، يستطيعون إضلال من لا علم عنده ، أما أصحاب العقول السليمة فلن يستطيعوا إضلالهم .

قالوا : واستدل بالآية على أن المقلد يجب عليه أن يبحث ، وأن يميز بين الحق والباطل ، ولا يعذر بسبب جهله .

وقيل: إن قوله «بغير علم» فى موضع الحال من الضمير المرفوع فى قوله «يضلونهم».

أى : هم يضلون غيرهم حالة كونهم غير عالمين بما يترتب على ذلك من آثام وعقاب ، إذ لو علموا ذلك لما أقدموا على هذا الإضلال لغيرهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ . قال الجمل : و « ساء » فعل ماض لإنشاء الذم بمعنى بئس ، و « ما » تمييز بمعنى شيئا ، أو فاعل بساء ، و « يزرون » صفة لما والعائد محذوف ، أو « ما » اسم موصول ، وقوله « يزرون » صلة الموصول ، والعائد محذوف أى : يزرونه ، والمخصوص بالذم محذوف »[٣] .

والتقدير : بئس شيئا يزرونه ويحملونه نتيجة كفرهم وكذبهم وإضلالهم لغيرهم ؛ وافتتحت

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٨٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٦ .

الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح « ألا » للاهتمام بما تضمنه التحذير ، حتى يقلعوا عن كفرهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويحترسوا عن الوقوع فى الباطل من القول .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه والمؤمنين ، فبين لهم أن هؤلاء المستكبرين الذين قالوا فى القرآن : إنه أساطير الأولين ، سيحيق بهم مكرهم السيئ ، كما حاق بالذين من قبلهم . فقال - تعالى : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

وقوله - سبحانه - « مكر » من المكر ، وهو التدبير المحكم ، أو صرف الغير عما يريده بحيلته ، وهو مذموم إن تحرى به الماكر الشر والباطل ، ومحمود إن تحرى به الخير والحق .

والمراد به هنا النوع الأول .

والمراد بالذين من قبلهم : الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة ، كقوم نوح وهود وصالح .

وقوله : « فأتى الله بنيانهم .. » أى : أهلكهم ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ ... فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا .. ﴾[1] .

ويقال : أتى فلان من مأمنه أى : نزل به الهلاك من جهة أمنه . وأتى عليه الدهر . أى : أهلكه وأفناه . ومنه الأتوّ . وهو الموت والبلاء .

يقال : أتى على فلان أُتوّ ، أى موت أو بلاء يصيبه .

والقواعد : جمع قاعدة . وهى أساس البناء ، وبها يكون ثباته واستقراره .

والمعنى : لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بما يقوله المستكبرون من قومك فى شأن القرآن الكريم لكى يصرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، فقد مكر الذين من قبلهم بأنبيائهم ، فكانت عاقبة مكرهم أن أتى الله بنيانهم من القواعد ، بأن اجتث هذا البنيان من أصله ؛ واقتلعه من أساسه « فخر عليهم السقف من فوقهم » أى : فسقط عليهم سقف بنيانهم فأهلكهم « وأتاهم العذاب » المبير المدمر « من حيث لا يشعرون » ولا يحتسبون بأنه سيأتيهم من هذه الجهة ، بل كانوا يتوقعون أن ما شيدوه سيحميهم من المهالك .

فالآية الكريمة تصور بأسلوب بديع معجز ، كيف أن هؤلاء الماكرين ، قد حصنوا أنفسهم بالبناء المحكم المتين ، ليتقوا ما يؤذيهم ، إلا أن جميع هذه التحصينات قد هوت وتساقطت على

---

(١) سورة الحشر . الآية ٢ .

رءوسهم ، أمام قوة الله – تعالى – التى لا ترد ، فإذا بالبناء الذى بنوه ليحتموا به ، قد صار مقبرة لهم .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ ومكروا مكرا ، ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾[١] .

وقال – سبحانه – : ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ مع أن السقف لا يكون إلا من فوق ، لتأكيد الكلام وتقويته .

وقال القرطبى: قال ابن الأعرابى: وكد ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته، والعرب تقول: خر علينا سقف ، ووقع علينا حائط ، إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : « من فوقهم » ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب ، فقال : « من فوقهم » أى : عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا .. »[٢] .

هذا ومن المفسرين الذين رجحوا أن الآية مسوقة على سبيل التمثيل ، الفخر الرازى . فقد قال : وفى قوله – سبحانه – ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ قولان :

الأول : أن هذا محض التمثيل .

والمعنى أنهم رتبوا حيلا ليمكروا بها على أنبياء الله ، فجعل الله – تعالى – حالهم فى تلك الحيل ، مثل حال قوم بنوا بنيانا وعموده بالأساطين ، فانهدم ذلك البناء ، وضعفت تلك الأساطين ، فسقط السقف عليهم ، ونظيره قولهم : من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيه .

– ووجه الشبه أن ما عدوه سبب بقائهم ، صار سبب استئصالهم وفنائهم .

الثانى : أن المراد منه مادل عليه الظاهر ، وهو أن الله – تعالى – أسقط عليهم السقف وأماتهم تحته .

والأول أقرب إلى المعنى[٣] .

ومن المفسرين الذين رجحوا أن الكلام على حقيقته ، الإمام ابن جرير فقد قال – بعد أن سرد بعض الأقوال – : وأولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : معنى ذلك ، تساقطت

---

(١) سورة النمل الآيات ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٩٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ٢٠ .

عليهم سقوف بيوتهم ، إذ أتى على أصولها وقواعدها أمر الله ، فانكفأت بهم منازلهم ، لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان وخرّ السقف .

وتوجيه معانى كلام الله إلى الأشهر الأعرف منها ، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما وجد إليه سبيل » (١) .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - رحمه الله - أولى بالقبول ، لأنه مادام اللفظ صالحا للحمل على الحقيقة ، فلا داعى لصرفه عن ذلك .

وقد حكى لنا القرآن الكريم صنوفا من العذاب الذى أنزله الله - تعالى - بالظالمين ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا . ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٢) .

ثم بين - سبحانه - مصيرهم فى الآخرة ، بعد أن بين عاقبة مكرهم فى الدنيا فقال - تعالى - : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم .. ﴾ .

أى : هذا هو مصير هؤلاء المستكبرين فى الدنيا ، أما مصيرهم فى الآخرة فإن الله - تعالى - يذلهم ويهينهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : أين شركائى فى العبادة والطاعة ، الذين كنتم تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم ، قائلين لهم : إنكم لا بد لكم من إشراكهم معى فى العبادة .

وجىء بثم المفيدة للترتيب النسبى ، للإشارة إلى ما بين الجزاءين من تفاوت فإن خزى الآخرة أشد وأعظم مما نزل بهم من دمار فى الدنيا .

والاستفهام فى قوله « أين شركائى .. » للتهكم بهم وبمعبوداتهم الباطلة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، فانهم كانوا يقولون للمؤمنين إن صح ما تقولونه من العذاب فى الآخرة ، فان الأصنام ستشفع لنا .

أى : أين هؤلاء الشركاء ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من خزى وذلة وعذاب مهين ؟! وأضاف - سبحانه - الشركاء إليه ، لزيادة توبيخهم ، لأنهم فى هذا اليوم العظيم ، يعلمون

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٦٨ .
(٢) سورة العنكبوت . الآية ٤٠ .

علم اليقين أنه لا شركاء له - سبحانه - وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾[1] .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : « تشاقون » من ا لمشاقة وهى عبارة عن كون كل واحد من الخصمين فى شق غير شق صاحبه .

وقرأ نافع « تشاقون » بكسر النون خفيفه ، وقرأ الباقون بفتح النون ، ومفعوله محذوف . أى : تشاقون المؤمنين ، أو تشاقون الله ، بدليل القراءة الأولى ... »[2] .

ثم حكى - سبحانه - ما يقوله أولو العلم فى هذا الموقف الهائل الشديد فقال - تعالى - : ﴿ قال الذين أوتوا العلم ، إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين ﴾ .

والمراد بالذين أوتوا العلم ، كل من اهتدى إلى الحق فى الدنيا ؛ وأخلص لله - تعالى - العبادة والطاعة .

أى : قال الذين هداهم الله - تعالى - إلى صراطه المستقيم ، فى هذا اليوم العصيب ، إن الخزى الكامل ، فى هذا اليوم ، والسوء الذى ليس بعده سوء ، على هؤلاء الكافرين ، أصحاب القلوب المنكرة للحق ، والنفوس الجاحدة لليوم الآخر وما فيه من حساب .

وجىء بجمله « قال الذين أوتوا العلم .. » غير معطوفة على ما قبلها ، لأنها واقعة موقع الجواب لقوله - سبحانه - « أين شركائى ... » وللتنبيه على أن الذين أوتوا العلم سارعوا بالجواب بعد أن وجم المستكبرون ، وعجزوا عن الإجابة .

وقولهم هذا يدل على شماتتهم بأعداء الله - تعالى - ، وتوبيخهم لهم على كفرهم ، واستكبارهم عن الإستماع إلى كلمة الحق .

وقال - سبحانه - : ﴿ قال الذين أوتوا العلم ... ﴾ بلفظ الماضى ، مع أن هذا القول سيكون فى الآخرة ، للاشارة إلى تحقق وقوعه ، وأنه كائن لا محالة .

ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ساعة انتزاع أرواحهم من أجسادهم وساعة وقوفهم للحساب ، فقال - تعالى - : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ...... ﴾ .

قال الآلوسى : وفى الموصول أوجه الإعراب الثلاثة : الجر على أنه صفة للكافرين ،

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٤ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٧ .

أو بدل منه ، أو بيان له ، والنصب والرفع على القطع للذم . وجوز بعضهم كونه مرتفعا بالابتداء ، وجملة « فألقوا » خبره .. »[١] .

والمراد بالملائكة : عزرائيل ومن معه من الملائكة .

والمراد بظلمهم لأنفسهم : إشراكهم مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة .

أى : إن أشد أنواع الخزى والعذاب يوم القيامة على الكافرين ، الذين تنتزع الملائكة أرواحهم من أجسادهم وهم ما زالوا باقين على الكفر والشرك دون أن يتوبوا منهما ، أو يقلعوا عنهما . وقوله : « ظالمى أنفسهم » حال من مفعول تتوفاهم .

وفى وصف هؤلاء الكافرين بكونهم « ظالمى أنفسهم » إشعار إلى أن الملائكة تنتزع أرواحهم من جنوبهم بغلظة وقسوة ، ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ... ﴾[٢] .

وقوله « فألقوا السلم » بيان لما صار إليه هؤلاء المستكبرون من ذل وخضوع فى الآخرة ، بعد أن كانوا مغترين متجبرين فى الدنيا .

وأصل الإلقاء يكون فى الأجسام والمحسات فاستعير هنا لإظهار كمال الخضوع والطاعة ، حيث شبهوا بمن ألقى سلاحه أمام الأقوى منه ، بدون أية مقاومة أو حركة .

والمراد بالسلم : الاستسلام والاستكانة . أى : أنهم عندما عاينوا الموت ، وتجلت لهم الحقائق يوم القيامة ، خضعوا واستكانوا واستسلموا وانقادوا ، وقالوا : ما كنا فى الدنيا نعمل عملا سيئا ، توهما منهم أن هذا القول ينفعهم .

وقد حكى الله - تعالى - عنهم فى آيات أخرى ما يشبه هذا القول ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا ، والله ربنا ماكنا مشركين ﴾ .

وقوله - سبحانه - ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ تكذيب لهم فى دعواهم أنهم ما كانوا يعملون السوء لأن لفظ « بلى » لإبطال مانفوه .

أى : بلى كنتم تعملون السوء ، لأن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٢٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٠ .

وسيجازيكم عنها بما تستحقون وهذا التكذيب لهم قد يكون من الملائكة بأمر الله - تعالى - وقد يكون من قبله - سبحانه - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ... ﴾ بيان لما انتهى إليه أمرهم من عذاب مهين .

وأبواب جهنم قد ذكر - سبحانه - عددها فى قوله - تعالى - : ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾[1] .

أى : فادخلوا - أيها الكافرون - من أبواب جهنم ، حالة كونكم خالدين فيها خلوداً أبدياً « فلبئس مثوى المتكبرين » أى فلبئس مقام المتعاظمين عن الإيمان بالله جهنم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة . قد بينت بأسلوب مؤثر ، مصير المستكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، والذين جادلوا المؤمنين بالباطل ليدحضوا به الحق .

وبعد أن بين - سبحانه - أقوال المستكبرين ، وأحوالهم ، وسوء عاقبتهم أتبع ذلك ببيان أحوال المتقين ، وببيان ما أعده لهم من خيرات فقال - تعالى -:

۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

(١) سورة الحجر الآية ٤٤ .

فقوله - سبحانه - : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً .. ﴾ بيان لما رد به المؤمنون الصادقون ، على من سألهم عما أنزله الله - تعالى - على نبيه محمد - ﷺ -

وهو معطوف على ما قبله ، للمقابلة بين ما قاله المتقون ، وما قاله المستكبرون .

ووصفهم بالتقوى ، للاشعار بأن صيانتهم لأنفسهم عن ارتكاب ما نهى الله - تعالى - عنه ، وخوفهم منه - سبحانه - ومراقبتهم له ، كل ذلك حملهم على أن يقولوا هذا القول السديد . وكلمة « خيرا » مفعول لفعل محذوف أى : أنزل خيرا . أى : رحمة وبركة ونورا وهداية ، إذ لفظ « خيرا » من الألفاظ الجامعة لكل فضيلة .

قال صاحب الكشاف : فان قلت لم نصب هذا ورفع الأول ؟ .

قلت : فَصْلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال ، فقالوا خيرا . أى أنزل خيرا . وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأولين وليس من الإنزال فى شىء [١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ جملة مستأنفة لبيان ماوعدهم به - تعالى - على أعمالهم الصالحة من أجر وثواب .

أى : هذه سنتنا فى خلقنا أننا نجازى الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن الكريم ، دون أن نضيع من أعمالهم شيئا .

وقوله « حسنة » صفة لموصوف محذوف أى : مجازاة حسنة بسبب أعمالهم الصالحة .

كما قال - تعالى - فى آية اخرى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٢] .

ثم بين - سبحانه - جزاءهم فى الآخرة فقال : ﴿ ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين ﴾ . والمراد بدار الآخرة : الجنة ونعيمها .

و « خير » صيغة تفضيل ، حذفت همزتها لكثرة الاستعمال على سبيل التخفيف ، كما قال ابن مالك :

وغالبا أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٠٧ .

(٢) سورة النحل الآية ٩٧ .

ونعم : فعل ماض لإنشاء المدح ، وهو ضد بئس .

والمعنى : ولدار الآخرة ومافيها من عطاء غير مقطوع ، خير لهؤلاء المتقين مما أعطيناهم فى الدنيا ، ولنعم دارهم هذه الدار . قال - تعالى - : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى ﴾[1] .

ووصفها - سبحانه - بالآخرة ، لأنها آخر المنازل ، فلا انتقال عنها إلى دار أخرى ، كما قال - تعالى - : ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾ .

والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ما يدل عليهم ، والتقدير : ولنعم دار المتقين ، دار الآخرة .

ثم وصف - سبحانه - ما أعده لهم من نعيم فقال : ﴿ جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

والعدن : الإقامة الدائمة : يقال : عدن فلان ببلد كذا ، إذا توطن فيه وأقام دون أن يبرحه أى : لهؤلاء المتقين : جنات دائمة باقية ، يدخلونها بسرور وحبور ، تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار .

« لهم فيها ما يشاءون » مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين « كذلك يجزى الله المتقين » أى : مثل هذا الجزاء الحسن ، يجزى الله - تعالى - عباده المتقين ، الذين جنبوا أنفسهم ملا يرضيه .

ثم حكى - سبحانه - ما تحييهم به الملائكة فقال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم .. ﴾ .

أى : هذا الجزاء الحسن لهؤلاء المتقين ، الذين تتوفاهم الملائكة ، أى : تقبض أرواحهم ، حال كونهم « طيبين » أى : مطهرين من دنس الشرك والفسوق والعصيان .

« يقولون » أى الملائكة لهؤلاء المتقين عند قبض أرواحهم ، « سلام عليكم » أى : أمان عليكم من كل شر ومكروه .

« ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » أى : بسبب ما قدمتموه من أعمال صالحة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم

---

(١) سورة الأعلى الآيتان ١٦ ، ١٧ .

الملائكة ، أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ [١] .

هذا ، ولا تعارض بين قوله تعالى - ﴿ تتوفاهم الملائكة ﴾ وبين قوله فى آية أخرى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ وبين قوله فى آية ثالثة ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ .

لأن إسناد التوفى إلى ذاته - تعالى - ، باعتبار أن أحدا لا يموت إلا بمشيئته - تعالى - ، واسناده إلى ملك الموت باعتباره هو المأمور بقبض الأرواح ، وإسناده إلى الملائكة باعتبارهم أعوانا له،ولا تعارض - أيضا - بين قوله - تعالى - ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ وبين ما جاء فى الحديث الصحيح : « لن يدخل أحدا عمله الجنة .. » .

لأن الأعمال الصالحة إنما هى أسباب عادية لدخول الجنة ، أما السبب الحقيقى فهو فضل الله - تعالى - ورحمته ، حيث قبل هذه الأعمال ، وكافأ أصحابها عليها .

وبعد أن بينت السورة الكريمة جانبا من أقوال المتقين ، وبشرتهم بما يسرهم ويشرح صدورهم ، عادت مرة أخرى لتهديد الكافرين ، لعلهم يزدجرون أو يتذكرون ، فقال - تعالى - :

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

والاستفهام فى قوله - سبحانه - ﴿ هل ينظرون .. ﴾ إنكارى فى معنى النفى .

«ينظرون» هنا بمعنى ينتظرون، من الإنظار بمعنى الإمهال، والضمير المرفوع يعود إلى أولئك المتكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، والذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، كما جاء فى الآيات السابقة .

أى : ما ينتظر أولئك المتكبرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، إلا أن تأتيهم الملائكة لنزع

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٠ .

أرواحهم من أجسادهم ، أو يأتى أمر ربك - أيها الرسول الكريم - بإهلاكهم ، أو بإنزال العذاب بهم من حيث لا يشعرون .

وليس المراد من الجملة الكريمة، أنهم ينتظرون ذلك على سبيل الحقيقة، لأن إصرارهم على الكفر جعلهم يستهينون بهذا التهديد وإنما المراد أنهم حين أصروا على الكفر مع ظهور البراهين على بطلانه ، صار حالهم كحال المترقب لنزول أحد الأمرين : قبض الملائكة لأرواحهم ، أو نزول العذاب بهم .

فالجملة الكريمة تهديد لهم فى تماديهم فى الكفر ، وتحريض لهم على الإيمان قبل فوات الأوان .

قال الجمل : و « أو » فى قوله « أو يأتى أمر ربك » ما نعة خلو ، فإن كلا من الموت والعذاب يأتيهم وإن اختلف الوقت ، وإنما عبر بأو دون الواو ، للاشارة إلى كفاية كل واحد من الأمرين فى تعذيبهم ... » [1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾. تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى .

أى : مثل هذا الفعل الشنيع الذى صدر عن الكافرين من قومك - يا محمد - فعل الذين من قبلهم من أقوام الرسل السابقين ، كقوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، فإنهم قد آذوا رسلهم . كما آذاك قومك .

وقد أنزلنا بهم ما يستحقون من عقاب دنيوى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾. بيان لعدالة الله - تعالى - وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئا .

أى : وما ظلمهم الله حين أنزل بهم عقابه : ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بترديهم فى الكفر ، وإصرارهم عليه ، ومحاربتهم لمن جاء لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ معطوف على قوله ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ وما بينهما اعتراض .

وحاق : بمعنى أحاط ، من الحيق بمعنى الإحاطة ، وبابه باع ، يقال : حاق يحيق ، وخص فى الاستعمال بإحاطة الشر ، ومنه قوله -تعالى- : ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٦٩ .

أى : هكذا تمادى أسلافهم فى الكفر والجحود ، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، بسبب كفرهم وسخريتهم بالرسل وبما أخبروهم به من حساب وثواب وعقاب فى الآخرة، وسيقال لهؤلاء المجرمين يوم القيامة وهم يردون النار : ﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾[1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين ، قد هددتا الكافرين ودعتهما إلى الدخول فى الحق ، وحذرتاهم من انتهاج نهج الظالمين من قبلهم .

ثم حكى - سبحانه - بعض أقاويلهم الباطلة ، ومعاذيرهم الفاسدة ، ورد عليهم بما يدحضها ويدمغها ، فقال - تعالى - :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

إن هذه الآيات الكريمة ، تعالج شبهة من الشبهات القديمة الحديثة .

قديمة ، لأن كثيرا من مجادلى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - جادلوا بها .

وحديثة ، لأنها كثيرا ما تراود الذين يتمسكون بالأوهام ، إرضاء لنزواتهم وشهواتهم .

إنهم جميعا يقولون عند ارتكابهم للقبائح والمنكرات : هذا أمر الله وهذا قضاؤه ، وتلك

---

(١) سورة الطور الآية ١٤ .

مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها ومادام الله - تعالى - قد قضى علينا بها فما ذنبنا ؟ ولماذا يعاقبنا عليها مادام قد شاءها لنا ؟

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى هذه الشبهة بأسلوبه الخاص فيقول : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء ... ﴾ .

أى : وقال الذين أشركوا ، مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، لنبيهم - ﷺ - : لو شاء الله - تعالى - لنا عبادته وحده لعبدناه نحن وآباؤنا الذين هم قدوتنا .

ولو شاء لنا ولآبائنا - أيضاً - ألا نحرم شيئا مما حرمناه من البحائر والسوائب وغيرهما ، لتمت مشيئته ، ولما حرمنا شيئا لم يأذن به - سبحانه - .

ولكنه - عز وجل - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ، وأن نحرم بعض الأنعام ، وقد رضى لنا ذلك ، فلماذا تطالبنا يا محمد - ﷺ - بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا إلى الدخول فى دين الإسلام والذى لم يشأ لنا الله - تعالى - الدخول فيه ؟

هذه حجتهم ، ولاشك أنها حجة داحضة ، لأنهم يحيلون شركهم وفسوقهم على مشيئة الله - تعالى - مع أن مشيئته - تعالى - لم يطلع عليها أحد من خلقه حتى يقولوا ما قالوا .

وإنما الذى أطلعنا عليه - سبحانه - أنه أرسل رسوله - ﷺ - لهدايتنا ، ومنحنا العقول التى نميز بها بين الحق والباطل ، فمن أطاع الرسول - ﷺ - سعد وفاز ، ومن أعرض عن هدايته خسر وخاب،قال - تعالى - : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل ، إما شاكرا وإما كفورا ﴾[١] .

وقال-سبحانه: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..﴾[٢].

ولقد حكى - سبحانه - شبهة المشركين هذه فى آيات أخرى ورد عليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم

---

(١) سورة الانسان الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .

(٣) سورة الزخرف الآية ١٩ .

فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإنه أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين .. ﴾[١] .

هذا ، وقد قلنا عند تفسيرنا لهذه الآيات ما ملخصه : ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا ، فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله :

نقول لهم : نحن معكم فى أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه . فالطائع تحت المشيئة ، والعاصى تحت المشيئة ، ولكن هذه المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية ، وقضاء الله هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون وليس العلم صفة تأثير وجبر .

ولقد شاء - سبحانه - أن يجعل فى طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر ، ووهبهم العقل ليهتدوا به ، وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم ، وسن لهم شريعة لتكون مقياسا ثابتا لما يأخذون وما يدعون ، كى لا يتركهم لعقولهم وحدها .

وإذاً فمشيئة الله متحققة حسب سنته التى ارتضاها ، سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال ، وهو مؤاخذ إن ضل ، ومأجور إذا اهتدى، غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينيه يبصر النور ، ومن يغمضها لا يراه .

كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى ، ومن يحجب قلبه عنها يضل . سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا .

وإذًا فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا ، على معنى أنه أجبرهم عليه ، فهم لا يستطيعون عنه فكاكا ، إنما هو زعم باطل لاسند له من العلم والتفكير الصحيح .. »[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ تسلية لرسول الله - ﷺ - عما قاله هؤلاء المشركون من كذب ، وما نطقوا به من باطل .

واسم الإشارة « كذلك » يعود إلى إشراكهم وتحريمهم لما أحله الله - تعالى - أى : مثل ذلك الفعل الشنيع الذى فعله قومك معك يا محمد ، فعل أشباههم السابقون مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله - تعالى - لهدايتهم ، فلا تبتئس - أيها الرسول الكريم - مما فعله معك مشركو قومك . فإننا لولا وجودك فيهم ، لأنزلنا بهم ما أنزلنا على سابقيهم من عذاب .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام من ص ٢٠٥ إلى ص ٢١١ .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾. إنكارى فى معنى النفى . والبلاغ : اسم مصدر بمعنى الإبلاغ . والمبين : الواضح الصريح .

أى : ما على الرسل الكرام الذين أرسلهم الله - تعالى - لإرشاد أقوامهم إلى الصراط المستقيم إلا الابلاغ الواضح ، المظهر لأحكام الله ، المميز بين الحق والباطل ، أما إجبار الناس على الدخول فى الحق فليس من وظيفتهم .

قال - تعالى - : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[1] .

وقال - تعالى - : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء .. ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - أن من رحمته بعباده ، أن أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت .. ﴾ .

والطاغوت : اسم لكل معبود من دون الله - تعالى - ، كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة ، مأخوذ من طغا يطغى طغوا .. إذا جاوز الحد فى الضلال .

أى : ولقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نبعث فى كل أمة ، من الأمم السالفة « رسولا » من رسلنا الكرام ، ليرشدوا الناس إلى الحق والخير ، وليقولوا « أن اعبدوا الله » - تعالى - وحده ، « واجتنبوا » عبادة « الطاغوت » الذى يضل ولا يهدى .

وأكد - سبحانه - الجملة باللام وقد ، للرد على ما زعمه المشركون من أن الله - تعالى - لم ينكر عليهم عبادتهم لغيره ، وأنه - سبحانه - راض لتحريمهم لما أحله . حيث بين لهم - عز وجل - أنه قد أرسل الرسل للدعوة إلى عبادته وحده ، ولتجنب عبادة أحد سواه . و « أن » فى قوله « أن اعبدوا .. » تفسيرية ، لأن البعث يتضمن معنى القول ، إذ هو بعث للتبليغ .

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم فقال - تعالى - : ﴿ فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة .. ﴾ .

---

(١) سورة الرعد الآية ٤٠ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٢ .

أى : بعثنا فى كل أمة من الأمم السابقة رسولا لهداية أبنائها فمن هؤلاء الأبناء من هداهم الله - تعالى - إلى الحق وإلى الصراط المستقيم . بأن وفقهم إليه ، لانشراح صدورهم له ، ومنهم من ثبتت وحقت عليه الضلالة ، لاستحبابه العمى على الهدى .

وأسند - سبحانه - هداية بعض افراد هذه الأمم اليه ، مع أنه أمر جميعهم - على ألسنة رسله - بالدخول فى طريق الهدى ، للرد على المشركين الذين أحالوا شركهم وفسوقهم على مشيئة الله ، إذ أن الله - تعالى - قد بين للناس جميعا طرق الخير وطرق الشر ، فمنهم من استجاب للأولى ، ومنهم من انحدر إلى الثانية ، وكلاهما لم يقسره الله - تعالى - قسرا على الهدى أو الضلال .

فاهتداء المهتدين إنما هو بسبب اختيارهم لذلك ، واتباعهم الرسل ، وضلال الضالين إنما هو بسبب استحواذ الشيطان عليهم .

وعبر - سبحانه - فى جانب الضالين بقوله : ﴿ ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ للإشارة إلى أنهم لم يستجيبوا لما أرشدهم - سبحانه - إليه ، بل ظلوا ثابتين مصممين على البقاء فى طريق الضلالة ، ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾. تحريض لهم على التأمل فى آثار المكذبين ، لعلهم عن طريق هذا التأمل والتدبر يثوبون إلى رشدهم ، ويغودون إلى صوابهم ، ويدركون سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن العاقبة الطيبة للمتقين ، والعاقبة السيئة للكافرين .

والفاء فى قوله « فسيروا ... » للتفريع ، وقد جىء بها للإشعار بوجوب المبادرة إلى التأمل والاعتبار .

أى : إن كنتم فى شك مما أخبرناكم به ، فسارعوا إلى السير فى الأرض ، لتروا بأعينكم آثار المجرمين ، الذين كذبوا الرسل وأسندوا شركهم إلى مشيئةالله . لقد نزل بهؤلاء المكذبين عذاب الله ، فدمرهم تدميرا ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين.وبالليل أفلا تعقلون ﴾[2] .

ثم أخبر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بأن حرصه على هداية المصرين على ضلالهم ، لن يغير من واقع أمرهم شيئا ، فقال - تعالى - ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل .. ﴾ .

---

(١) سورة الصف الآية ٥ .

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

والفعل المضارع « تحرص » بكسر الراء، ماضيه « حرص » بفتحها كضرب يضرب .
والحرص : شدة الرغبة فى الحصول على الشىء ، والاستئثار به .
وقوله : ﴿ فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ تعليل لجواب الشرط المحذوف ، والتقدير :
إن تحرص - أيها الرسول الكريم - على هداية هؤلاء المصرين على كفرهم لن ينفعهم حرصك . فإن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن لا يهدى من يخلق فيه الضلالة بسبب سوء اختياره ، وفساد استعداده .

وفى الجملة الكريمة إشارة إلى ما جبل عليه النبى - ﷺ - من مكارم الأخلاق ، فإنه مع ما لقيه من مشركى قومه من أذى وعناد وتكذيب ... كان حريصا على ما ينفعهم ويسعدهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ﴿ فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ جواب الشرط على معنى فاعلم ذلك ، أو علة للجواب المحذوف ، أى : إن تحرص على هداهم لن ينفع حرصك شيئا ، فإن الله لا يهدى من يضل .

والمراد بالموصول: كفار قريش المعبر عنهم قبل ذلك بالذين أشركوا ، ووضع الموصول موضع ضميرهم؛ للتنصيص على أنهم ممن حقت عليهم الضلالة وللإشعار بعلة الحكم .

ومعنى الآية : أنه - سبحانه - لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره . و « من » على هذا . مفعول « يهدى » وضمير الفاعل فى « يضل » لله - تعالى - والعائد محذوف ، أى من يضله .

وقرأ غير واحد من السبعة « فإن الله لا يهدى .. » بضم الياء وفتح الدال - على البناء للمفعول .

و « من » على هذا نائب فاعل ، والعائد وضمير الفاعل كما مر .. »[1] .

والمعنى على هذه القراءة : إن تحرص على هداهم - يا محمد - لن ينفعهم حرصك ، فإن من أضله الله - تعالى - لا يهديه أحد .

وقوله : ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ تذييل مؤكد لما قبله .
أى : وليس لهؤلاء الضالين من ناصر يدفع عنهم عذاب الله - تعالى - إن نزل بهم ،

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ٣٩ .

أو يصرفهم عن سبيل الغى الذى آثروه على سبيل الرشد .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا .. ﴾[١] وقوله - تعالى - : ﴿ من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾[٢] .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مقولة أخرى من مقولاتهم الباطلة ، التى أكدوها بالأيمان المغلظة ، ورد عليها بما يدمغها ، فقال - تعالى - :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)

قوله - سبحانه - : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ... ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ﴾.. للإيذان بأنهم قد جمعوا بين إنكار التوحيد وإنكار البعث بعد الموت .

والقسم : الحلف : وسمى الحلف قسما ، لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب

والجهد - بفتح الجيم - المشقة . يقال جهد فلان دابته وأجهدها ، إذا حمل عليها فوق طاقتها . وجهد الرجل فى كذا ، إذا جد فيه وبالغ ، وبابه قطع .

والمراد بقوله : ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أنهم أكدوا الأيمان ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق ،

---

(١) سورة المائدة الآية ٤١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٦ .

على أنه لا بعث ولاحساب بعد الموت ، لأنهم يزعمون أن إعادة الميت إلى الحياة بعد أن صار ترابا وعظاما نخرة ، أمر مستحيل .

وقد أكدوا زعمهم هذا بالقسم ، للتدليل على أنهم متثبتين مما يقولونه . ومتيقنين من صحة ما يدعونه ، من أنه لا يبعث الله من يموت .

قال القرطبى . قوله - تعالى - ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم .. ﴾ هذا تعجيب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت .

ووجه العجب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات .

وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه ، وكان فى بعض كلامه: والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت، فنزلت الآية .

وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - « قال الله - تعالى - كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ تكذيب لهم فيما زعموه من أن الله - تعالى - لا يبعث من يموت ، ورد عليهم فيما قالوه بغير علم . و « بلى » حرف يؤتى به لإبطال النفى فى الخبر والاستفهام .

أى : بلى سيبعث الله - تعالى - الأموات يوم القيامة ، وقد وعد بذلك وعدا صدقا لا خلف فيه ولا تبديل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة لجهلهم بكمال قدرة الله - تعالى - وعموم علمه ، ونفاذ إرادته ، وسمو حكمته .

قال الجمل : وقوله : ﴿ وعدا عليه حقا ﴾ هذان المصدران منصوبان على المصدر المؤكد ، أى : وعد ذلك وعدا ، وحق حقا . وقيل : حقا نعتا لوعدا ، والتقدير ، بلى يبعثهم وعد بذلك وعدا حقا »[2] .

وجىء بقوله « عليه » لتأكيد هذا الوعد ، تفضلا منه - سبحانه - وكرما .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٠٥ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٧١ .

والمراد بالحق هنا : الصدق الذى لا يتخلف ، والثابت الذى لا يتبدل .

أى : وعدا صادقا ثابتا لا يقبل الخلف ، لأن البعث من مقتضيات حكمته - سبحانه - .

والمراد بأكثر الناس : المشركون ومن كان على شاكلتهم فى إنكار البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة .

وفى التنصيص على أكثر الناس ، مدح للأقلية منهم ، الذين آمنوا بالبعث وبالآخرة وما فيها من حساب ، وهم المؤمنون الصادقون .

هذا ، وقد حكى - سبحانه - مزاعم المشركين ورد عليها فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة .. ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من بعث الناس يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ .

واللام فى قوله « ليبين لهم .. » وفى قوله « وليعلم .. » متعلقة بما دل عليه حرف « بلى » وهو يبعثهم . أى : بلى يبعث الله - تعالى - الموتى ، ليظهر لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره ، وليعلم الذين كفروا علم مشاهدة ومعاينة ، أنهم كانوا كاذبين فى قسمهم أن الله - تعالى - لا يبعث من يموت ، وفى غير ذلك من أقوالهم الباطلة .

وفى إظهار الحق ، وفى بيان كذبهم يوم البعث ، حسرة وندامة لهم ، حيث ظهر لهم ما أنكروه فى الدنيا ، وما كانوا يستهزئون به ، عندما كان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يدعونهم إلى نبذ الشرك ، وإلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

فالآية الكريمة قد بينت حكمتين لبعث الناس للحساب يوم القيامة ، الأولى إظهار ما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره مما جاءتهم به الرسل . والثانية : إظهار كذب الكافرين الذين أنكروا البعث واستهزأوا بمن دعاهم إلى الإيمان به .

---

(١) سورة التغابن الآية ٧ .

(٢) سورة يس الآية ٧٨ ، ٧٩ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ استئناف لتأكيد قدرة الله - تعالى - النافذة ، وشمولها لكل شىء من بعث وغيره ، وذلك لأن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم بأنه - سبحانه - لا يبعث الموتى ، ورد عليهم بما يبطل مزاعمهم ، أتبع ذلك ببيان أن قدرته - تعالى - لا يتعاصى عليها شىء ، ولا يحول دون نفاذها حائل .

قال الإمام ابن كثير : « أخبر - سبحانه - عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له « كن فيكون » . والمراد من ذلك إذا أراد كونه ، فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء ، قال - تعالى - : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[1] وقال - سبحانه - ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾[2].

وقال - سبحانه - فى هذه الآية ﴿ إنما أمرنا إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ أى : يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما ... يقول له « كن » قولة فيكون

أى : أنه - تعالى - لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه - سبحانه - لا يمانع ولا يخالف ، لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء .. » [3] .

وقال بعض العلماء : وعبر - تعالى - عن المراد قبل وقوعه باسم الشىء ، لأن تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل ، فلا تنافى الآية إطلاق الشىء - على خصوص الموجود دون المعدوم ، لأنه لما سبق فى علم الله أنه يوجد ذلك الشىء - وأنه يقول كن فيكون - ، كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه .

أو لأنه أطلق عليه اسم الشىء باعتبار وجوده المتوقع كتسمية العصير خمرا فى قوله ﴿ إنى أرانى أعصر خمرا .. ﴾ نظرا لما يؤول إليه .. » [4] .

وقوله « فيكون » قرأه الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : فهو يكون .
وقرأ ابن عامر والكسائى « فيكون » بالنصب عطفا على قوله « أن نقول له .. » .

---

(١) سورة القمر الآية ٥٠ .
(٢) سورة لقمان الآية ٢٨ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩١ .
(٤) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٢٧٢ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت جانبا من أقوال المشركين ، وردت عليها بما يبطلها ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم .

وبعد أن عرضت السورة الكريمة لأقاويل المشركين وردت عليها .. أتبعت ذلك بذكر جانب من الثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى - للمؤمنين الصادقين ، الذين فارقوا الدار والأهل والخلان ، من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ، فقال - سبحانه - :

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قوله - تعالى - : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا .. ﴾ هؤلاء أصحاب محمد - ﷺ - . ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ، ثم بوأهم الله - تعالى - المدينة فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . وعن ابن عباس : هم قوم هاجروا إلى رسول الله - ﷺ - من أهل مكة ، بعد أن ظلمهم المشركون »[1] .

والذى نراه أن الآية الكريمة تشمل هؤلاء ، وتشمل غيرهم ممن هاجر من بلده إلى غيرها ، رجاء ثواب الله ، وخدمة لدينه .

والمهاجرة فى الأصل تطلق على المفارقة والمتاركة للديار وغيرها ، واستعملت شرعا فى المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، أو من دار الكفر إلى غيرها لنشر دعوة الإسلام .

وقوله « لنبوئنهم » من التبوؤ بمعنى الإحلال والإسكان والإنزال يقال بوأ فلان فلانا منزلا ، إذا أسكنه فيه ، وهيأه له .

« وحسنة » صفة لموصوف محذوف أى : لنبوئنهم تبوئة حسنة ، أو دارا حسنة .

والمراد بهذه الحسنة ما يشمل نزولهم فى المدينة ، ونصرهم على أعدائهم ، وإبدال خوفهم أمنا .

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٧٣ .

قال القرطبى فى المراد بالحسنة هنا ستة أقوال : نزول المدينة ؛ قاله ابن عباس والحسن .. الثانى : الرزق الحسن . قاله مجاهد . الثالث : النصر على عدوهم ، قاله الضحاك ، الرابع : لسان صدق ، حكاه ابن جريج . الخامس : ما استولوا عليه من البلاد .. السادس : ما بقى لهم فى الدنيا من ثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف .

ثم قال : وكل ذلك قد اجتمع لهم بفضل الله - تعالى - »[1] .

والمعنى : والذين هاجروا فى سبيل الله ، وفارقوا قومهم وأوطانهم وأموالهم وأولادهم .. من أجل إعلاء كلمته ، بعد أن تحملوا الكثير من أذى المشركين وظلمهم وطغيانهم .

هؤلاء الذين فعلوا ذلك من أجل نصرة ديننا ، لنسكننهم فى الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، ولنعطينهم عطاء حسنا يسعدهم ، ولننصرنهم على أعدائهم نصرا مؤزرا .

وقوله « فى الله » أى : فى سبيله ، ومن أجل نصرة دينه . فحرف « فى » مستعمل للتعليل ، كما فى قوله - ﷺ - : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ... » .

والمقصود أن هذا الأجر الجزيل إنما هو للمهاجرين من أجل إعلاء كلمة الله ، ومن أجل نصرة الحق ، وليس لمن هاجر لنشر الظلم أو الفساد فى الأرض .

وأسند فعل « ظلموا » إلى المجهول ، لظهور الفاعل من السياق وهو المشركون .

وفى ذلك إشارة إلى أن هؤلاء المهاجرين لم يفارقوا ديارهم ، إلا بعد أن أصابهم ظلم أعدائهم لهم ، كتعذيبهم إياهم ، وتضييقهم عليهم ، إلى غير ذلك من صنوف الأذى .

وأكد - سبحانه - الجزاء الحسن الذى وعدهم به باللام وبنون التوكيد « لنبوئنهم .. » ، زيادة فى إدخال السرور والطمأنينة على قلوبهم ، وجبرا لكل ما اشتملت عليه الهجرة من مصاعب وآلام وأضرار .

إذ الحسنة - كما قلنا - تشمل كل حسن أعطاه الله - تعالى - للمهاجرين فى هذه الدنيا .

أما فى الآخرة فأجرهم أعظم ، وثوابهم أجزل ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

والضمير فى قوله « لو كانوا يعلمون » يعود على أعدائهم الظالمين .

أى : ولثواب الله - تعالى - لهم فى الآخرة على هجرتهم من أجل إعلاء كلمته ، أكبر

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٠٧ .

وأعظم ، ولو كان أعداؤهم الظالمون يعلمون ذلك لدخلوا فى دين الإسلام ، ولأقلعوا عن ظلمهم لهؤلاء المهاجرين .

وكأن جملة « لو كانوا يعلمون » جوابا عن سؤال تقديره : كيف لم يقتد بهم من بقى على الكفر مع هذا الثواب الذى أعده الله لهؤلاء المهاجرين ؟

فكان الجواب : لو كان هؤلاء الكافرون يعلمون ذلك لأقلعوا عن كفرهم .

ويصح أن يكون الضمير يعود على المهاجرين ، فيكون المعنى : لو كانوا يعلمون علم مشاهدة ومعاينة ما أعده الله لهم ، لما حزنوا على مفارقة الأوطان والأولاد والأموال ، ولا زدادوا حبا وشوقا واجتهادا فى المهاجرة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب ، أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له « خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وماذخره لك فى الآخرة أفضل ، ثم تلا هذه الآية [1] .

وجوز بعضهم أن يكون الضمير يعود للمتخلفين عن الهجرة أى : لو علم هؤلاء المتخلفون عن الهجرة ، ما أعده - سبحانه - من أجر للمهاجرين ، لما تخلفوا عن ذلك .

وعلى أية حال فلا مانع من أن يكون الضمير يعود على كل من يتأتى له العلم ، بهذا الثواب الجزيل لهؤلاء المهاجرين فى سبيل الله - تعالى - .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المهاجرين بوصفين كريمين فقال: ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أى: هذا الأجر العظيم لهؤلاء المهاجرين الذين صبروا على ما أصابهم من عدوان وظلم ، وفوضوا أمرهم إلى خالقهم ، فاعتمدوا عليه وحده ، ولم يعتمدوا على أحد سواه .

وصفتا الصبر والتوكل على الله . إذا دخلا فى قلب ، حملاه على اعتناق كل فضيلة ، واجتناب كل رذيلة .

وعبر عن صفة الصبر بصيغة الماضى للدلالة على أن صبرهم قد آذن بالانتهاء لانقضاء أسبابه وهو ظلم أعدائهم لهم ، لأن الله - تعالى - قد جعل لهم مخرجا بالهجرة ، وذلك بشارة لهم .

وعبر عن صفة التوكل بصيغة المضارع للإشارة إلى أن هذه الصفة ديدنهم فى كل وقت ،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ٧٤ .

فهم متوكلون عليه - سبحانه - وحده فى السراء والضراء ، وفى العسر واليسر ، وفى المنشط والمكره .

والمتأمل فى هاتين الآيتين الكريمتين ، يراهما قد غرستا فى النفوس محبة هذا الدين ، والاستهانة بكل ألم أو ضر أو مصيبة فى سبيل إعلاء كلمته ، والرغبة فيما عند الله - تعالى - من أجر وثواب .

ثم رد - سبحانه - على المشركين الذين أنكروا أن يكون الرسول - ﷺ - من البشر ، فبين - سبحانه - أن الرسل السابقين الذين لا ينكر المشركون نبوتهم كانوا من البشر ، فقال - تعالى - .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قال الإمام ابن كثير : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : لما بعث الله - تعالى - محمدا - ﷺ - رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فأنزل الله : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم .. ﴾[1] وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم .. ﴾[2] .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق إلا رجالا مثلك ، وقد أوحينا إليهم بما يبلغونه إلى أقوامهم ، من نصائح وتوجيهات وعبادات وتشريعات ، وقد لقى هؤلاء الرسل من أقوامهم ، مثل مالقيت من قومك من أذى وتكذيب وتعنت فى الأسئلة .

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية النبى - ﷺ - والرد على المشركين فيما أثاروه حوله - ﷺ - من شبهات .

---

(١) سورة يونس الآية ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٢ .

وقد حكى القرآن فى مواطن عدة إنكار المشركين لبشرية الرسل ورد عليهم بما يخرسهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى .. ﴾ [(١)] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ، أبعث الله بشرا رسولا ﴾ [(٢)] .

وقوله - تعالى - ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾ [(٣)] .

والمراد بأهل الذكر فى قوله « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » علماء أهل الكتاب أى : لقد اقتضت حكمتنا أن يكون الرسول من البشر فى كل زمان ومكان ، فإن كنتم فى شك من ذلك - أيها المكذبون - فاسألوا علماء أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى ، فسيبينون لكم أن الرسل جميعا كانوا من البشر ولم يكونوا من الملائكة .

وهذه الجملة الكريمة معترضة بين قوله - تعالى - ﴿ وما أرسلنا .. ﴾ وبين قوله بعد ذلك : ﴿ بالبينات والزبر .. ﴾ للمبادرة إلى توبيخ المشركين وإبطال شبهتهم ، لأنه قد احتج عليهم ، بمن كانوا يذهبون إليهم لسؤالهم عن الرسول - ﷺ - .

وفى قوله - تعالى - ﴿ إن كنتم لا تعلمون ﴾ إيماء إلى أنهم كانوا يعلمون أن الرسل لا يكونون إلا من البشر ، ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة ، والتمويه لتضليل الجهلاء ، ولذا جىء فى الشرط بحرف « إن » المفيد للشك .

وجواب الشرط لهذه الجملة محذوف ، دل عليه ما قبله . أى : إن كنتم لا تعلمون ، فأسألوا أهل الذكر . وقيل المراد بأهل الذكر هنا : المسلمون مطلقا ، لأن الذكر هو القرآن ، وأهله هم المسلمون .

ونحن لا ننكر أن الذكر يطلق على القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ إلا أن المراد بأهل الذكر هنا : علماء أهل الكتاب ، لأن المشركين كانوا يستفسرون منهم عن أحوال النبى - ﷺ - ، أكثر من استفسارهم من المسلمين .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٩ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٤ .
(٣) سورة التغابن الآية ٦ .

قال الآلوسى ماملخصه قوله - تعالى - : ﴿ فاسألوا أهل الذكر .. ﴾ أى : أهل الكتاب من اليهود والنصارى . قاله : ابن عباس والحسن والسدى وغيرهم .

وقال أبو حيان فى البحر : والمراد من لم يسلم من أهل الكتاب ، لأنهم الذين لا يتهمون عند المشركين فى إخبارهم بأن الرسل كانوا رجالا ، فإخبارهم بذلك حجة عليهم . والمراد كسر حجتهم وإلزامهم ، وإلا فالحق واضح فى نفسه لا يحتاج إلى إخبار هؤلاء .. »[1] .

قالوا : وفى الآية دليل على وجوب الرجوع إلى أهل العلم فيما لا يعلم ، وعلى أن الرسل جميعا كانوا من الرجال ولم يكن من بينهم امرأة قط .

والجار والمجرور فى قوله : « بالبينات والزبر » .... متعلق بقوله « وما أرسلنا .. » وداخل تحت حكم الاستثناء مع « رجالا » .

والمراد بالبينات : الحجج والمعجزات الدالة على صدق الرسل .

والزبر : جمع زبور بمعنى مزبور أى مكتوب . يقال : زبرت الكتاب .. من باب نصر وضرب - أى : كتبته كتابة عظيمة .

أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - إلا رجالا مؤيدين بالمعجزات الواضحات ، وبالكتب العظيمة المشتملة على التشريعات الحكيمة والآداب الحميدة ، والعقائد السليمة ، التى تسعد الناس فى دينهم وفى دنياهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ . بيان للحكم التى من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن على النبى - ﷺ - .

أى : وأنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم - القرآن ، لتعرف الناس بحقائق وأسرار ما أنزل لهدايتهم فى هذا القرآن من تشريعات وآداب وأحكام ومواعظ ولعلهم بهذا التعريف والتبيين يتفكرون فيما أرشدتهم إليه ، ويعملون بهديك ويقتدون بك فى أقوالك وأفعالك ، وبذلك يفوزون ويسعدون .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على حكمتين من الحكم التى أنزل الله - تعالى - من أجلها القرآن على النبى - ﷺ - .

أما الحكمة الأولى : فهى تفسير ما اشتمل عليه هذا القرآن من آيات خفى معناها على

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٤٧ .

أتباعه ، بأن يوضح لهم - ﷺ - ما أجمله القرآن الكريم من أحكام أو يؤكد لهم - ﷺ - هذه الأحكام .

ففى الحديث الشريف عن المقدام بن معد يكرب ، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ... » .

وأما الحكمة الثانية : فهى التفكر فى آيات هذا القرآن ، والاتعاظ بها ، والعمل بمقتضاها ، قال - تعالى - : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . وليتذكر أولو الألباب ﴾ .

والمراد بالناس فى قوله - تعالى - ﴿ لتبين للناس ﴾ العموم ، ويدخل فيهم المعاصرون لنزول القرآن الكريم دخولا أوليا .

وأسند - سبحانه - التبيين إلى النبى - ﷺ - لأنه هو المبلغ عن الله - تعالى - ما أمره بتبليغه .

قال الجمل : قوله - تعالى - ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم .. ﴾ .

يعنى : أنزلنا إليك - يا محمد - الذكر الذى هو القرآن ، وإنما سماه ذكرا ، لأن فيه مواعظ وتنبيها للغافلين ، « لتبين للناس ما نزل إليهم » يعنى ما أجمل إليك من أحكام القرآن ، وبيان الكتاب يطلب من السنة ، والمبين لذلك المجمل هو رسول الله - ﷺ - ، ولهذا قال بعضهم : متى وقع تعارض بين القرآن والحديث ، وجب تقديم الحديث ، لأن القرآن مجمل والحديث مبين ، بدلالة هذه الآية ، والمبين مقدم على المجمل »[1] .

وبعد أن ردت السورة الكريمة على ما أثاره المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية ، أتبعت ذلك بتهديدهم من سوء عاقبة ما هم فيه من كفر وعصيان وعناد ، فقال - تعالى - :

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٧٢ .

﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ﴾ هم عند أكثر المفسرين ، مشركو مكة ، الذين مكروا برسول الله - ﷺ - ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان .

وقيل : هم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء ... والمعول عليه ما عليه أكثر المفسرين ، [1] .

والاستفهام فى الآية الكريمة للتعجيب والتوبيخ .

والفاء للعطف على مقدر دل عليه المقام .

قال بعضهم ما ملخصه : كل ما جاء فى القرآن الكريم ، من همزة استفهام بعدها واو العطف أو فاؤه . فالأظهر فيه ، أن الفاء والواو كلتاهما عاطفة ما بعدها على محذوف دل عليه المقام . والتقدير هنا : أجهل الذين مكروا السيئات وعيد الله لهم بالعقاب ، فأمنوا مكره »[2] .

والمراد بمكرهم هنا : سعيهم بالفساد بين المؤمنين ، على سبيل الإخفاء والخداع .

والسيئات : صفة لمصدر محذوف ، أى : مكروا المكرات السيئات . والمكرات - بفتح الكاف - جمع مكرة - بسكونها - وهى المرة من المكر .

ويجوز أن تكون كلمة السيئات مفعولا به بتضمين « مكروا » معنى : فعلوا .

والخسف : التغييب فى الأرض ، بحيث يصير المخسوف به فى باطنها .

يقال : خسف الله بفلان الأرض ، إذا أهلكه بتغييبه فيها .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض .... ﴾[3] .

والمعنى : أجهل الذين اجترحوا السيئات وعيدنا ، فأمنوا عقابنا وتوهموا أنهم لن يصيبهم شىء من عذابنا ، الذى من مظاهره خسف الأرض بهم كما خسفناها بقارون من قبلهم ؟!! .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٥٠ .

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى جـ ٣ ص ٢٧٦ .

(٣) سورة القصص الآية ٨١ .

إن جهلهم هذا لدليل على انطماس بصيرتهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .

وقوله « أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون » بيان للون آخر من ألوان تهديدهم .

أى : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وفى قدرتنا أيضا أن نرسل عليهم العذاب فجأة فيأتيهم من جهة لا يتوقعون مجيئه منها ، ولا يترقبون الشر من ناحيتها .

وفى الجملة الكريمة إشارة إى أن هذا العذاب الذى يأتيهم من حيث لا يشعرون . عذاب لا يمكن دفعه أو الهروب منه ، لأنه أتاهم بغتة ، ومن جهة لا يترقبون الشر منها .

وشبيه بهذا قوله - سبحانه - ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ... ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ؛ ﴿ أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين ﴾ بيان لنوع ثالث من أنواع التهديدات التى هددهم الله - تعالى - بها .

والأخذ فى الأصل : حوز الشىء وتحصيله ، والمراد به هنا : القهر والإهلاك والتدمير ومنه قوله - تعالى - ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ .

والتقلب : الحركة السريعة إقبالا وإدبارا ، من أجل السعى فى شئون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر وغير ذلك .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ﴾ .

أى : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وأن نرسل عليهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وفى قدرتنا كذلك أن نهلكهم وهم يتحركون فى مناكب الأرض خلال سفرهم أو إقامتهم ، فإنهم فى جميع الأحوال لا يعجزنا أخذهم ، ولامهرب لهم مما نريده بهم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ .

قال بعض العلماء : والتخوف فى اللغة يأتى مصدر تخوف القاصر ، بمعنى خاف ، ويأتى مصدر

---

(١) سورة الحشر آية ٢ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ٩٧ - ٩٩ .

تخوف المتعدى بمعنى تنقص . وهذا الثانى لغة هذيل ، وهى من اللغات الفصيحة التى جاء بها القرآن »[1] .

والمعنى على الأول : أو يأخذهم وهم فى حالة خوف وتوقع لنزول العذاب بهم ، كما نزل بالذين من قبلهم .

وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله : وقوله : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾. أى : أو يأخذهم الله - تعالى - فى حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد حالات الأخذ ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ... »[2] .

والمعنى على الثانى : أو يأخذهم وهم فى حالة تنقص فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، حتى يهلكوا ، فيكون هلاكهم قد سبقه الفقر والقحط والمرض ، وفى ذلك ما فيه من عذاب لهم ، وحسرة عليهم .

قال القرطبى : وقال سعيد بن المسيب : بينما عمر بن الخطاب - رضى الله عنه على المنبر قال : أيها الناس ما تقولون فى قول الله - عز وجل - : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾. فسكت الناس .

فقال شيخ من بنى هذيل : هى لغتنا يا أمير المؤمنين . التخوف : التنقص .

فقال عمر : أتعرف العرب ذلك فى أشعارهم ؟ قال نعم ؛ قال شاعرنا أبو كبير الهذلى يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد اكتنازه :

تخوَّف الرحْلُ منها تامِكا قِردا ... كما تخوَّف عودُ النبْعةِ السَّفِنُ

فقال عمر : أيها الناس : عليكم بديوانكم شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم »[3] .

وختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ لبيان فضله - سبحانه - على عباده ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل أمهلهم لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير . للشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٤ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١١٠ . وتخوف فى البيت بمعنى تنقص ، والرحل : السفر . والتامك : المرتفع . والقرد المتراكم لحمه بعضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسى . والسفن : كما يتنقص المنشار أو ما يشبهه أعواد الأشجار .

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد حذرت الكافرين من التمادى فى كفرهم ، وهددتهم : بخسف الأرض بهم . أو بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون ، أو بإهلاكهم وهم فى الأرض يكدحون ، أو بأخذهم وهم للأخذ متوقعون .

وبعد أن خوف - سبحانه - الماكرين بما خوف ، أتبع ذلك بما يدل على كمال قدرته وعظمته وجلاله ، حيث خضعت جميع المخلوقات لذاته - سبحانه - فقال - تعالى -:

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

قرأ جمهور القراء « أو لم يروا .. » وقرأ حمزة والكسائى : « أو لم تروا » بالتاء ، على الخطاب ، على طريقة الالتفات .

وقوله « من شىء » بيان للإبهام الذى فى « ما » الموصولة فى قوله « إلى ماخلق الله » .

وقوله « يتفيؤ » من التفيؤ ، بمعنى الرجوع . يقال : فاء فلان يفىء إذا رجع وفاء الظل فيئا ، إذا عاد بعد إزالة ضوء الشمس له . وتفيؤ الظلال : تنقلها من جهة إلى أخرى بعد شروق الشمس ، وبعد زوالها .

والظلال : جمع ظل ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .

و « داخرون » من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع ، يقال : دخر فلان يدخر دخورا ، ودخر - بزنة فرح - يدخر دخرا ، إذا انقاد لغيره وذل له .

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون الذين مكروا السيئات ، ولم يروا ما خلق الله - تعالى - من الأشياء ذوات الظلال - كالجبال والأشجار وغيرها - وهى تتنقل ظلالها . من جانب إلى جانب ، ومن جهة إلى جهة ، باختلاف الأوقات وهى فى كل الأحوال والأوقات منقادة لأمر الله - تعالى - جارية على ما أراده لها من امتداد وتقلص وغير ذلك ، خاضعة كل الخضوع لما سخرت له .

قال ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عن عظمته وجلاله ، الذى خضع له كل شىء ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها ، جمادها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال - أى بكرة وعشيا - ، فإنه ساجد بظله لله - تعالى - [1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - ﴿ أو لم يروا .. ﴾ للانكار والتوبيخ ، والرؤية بصرية .

أى : قد رأوا كل ذلك ، ولكنهم لم ينتفعوا بما رأوا ، ولم يتعظوا بما شاهدوا .

والمراد بقوله : ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ جهتهما ، وليس المراد التقييد بذلك ، إذ أن الظل أحيانا يكون أمام الإنسان وأحيانا يكون خلفه . وإنما ذكر اليمين والشمائل اختصارا للكلام .

وأفرد اليمين ، لأن المراد به جنس الجهة ، كما يقال : المشرق ، أى جهة المشرق ، وجمع « الشمائل » - مفرده شمال - ، لأن المقصود تعدد هذه الجهة باعتبار تعدد أصحابها .

قال الشوكانى : قال الفراء : وحد اليمين ، لأنه أراد واحدا من ذوات الأظلال ، وجمع الشمائل ، لأنه أراد كلها .

وقال الواحدى : وحد اليمين والمراد به الجميع إيجازا فى اللفظ ، كقوله : « ويولون الدبر » ، ودلت الشمائل على أن المراد به الجمع . وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتى جمع عبرت عن إحداهما بلفظ الواحد ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وجعل الظلمات والنور ... ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ سجدا لله وهم داخرون ﴾. حال من « ظلاله » أى : حال كون هذه الأشياء وظلالها سجدا لله - تعالى - ، وحال كون الجميع لا يمتنع عن أمر الله - تعالى - ، بل الكل خاضع له - سبحانه - كل الخضوع .

وجاء قوله - تعالى - : ﴿ وهم داخرون ﴾ . بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء ، تغليبا لهم على غيرهم ثم أتبع - سبحانه - هذه الآية الكريمة ، بآيات أخرى مؤكدة لها ، ومبينة أن كل المخلوقات لن تمتنع عن السجود لله - تعالى - ، سواء أكانت لها ظلال أم لا ، فقال - سبحانه - : ﴿ ولله يسجد مافى السموات ومافى الأرض من دابة ، والملائكة وهم لا يستكبرون .. ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٤ طبعة دار الشعب .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٦٦ .

والدابة : كل ما يدب على وجه الأرض ، مشتقة من الدب بمعنى الحركة .

قال الجمل : قال العلماء ، السجود على نوعين : سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله - عز وجل - وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله : ﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض ﴾. يحتمل النوعين ، لأن سجود كل شىء بحسبه ، فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة ، وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد .. »[1] .

وأوثرت « ما » الموصولة على من ، تغليبا لغير العقلاء ، لكثرتهم ولإرادة العموم .

وقوله : « من دابة » بيان لما فى الأرض ، إذ الدابة ما يدب على الأرض أو - كما يقول الآلوسى - بيان لما فيهما ، بناء على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية ، سواء أكانت فى أرض أو سماء .. »[2] .

وقوله « والملائكة » معطوف على « ما» فى قوله « ما فى السموات وما فى الأرض » من باب عطف الخاص على العام .

وخصهم - سبحانه - بالذكر تشريفا لهم . ورفعا لمنزلتهم ، وتعريضا بالمشركين الذين عبدوا الملائكة . أو قالوا هم بنات الله .

قوله « وهم لا يستكبرون » أى : والملائكة لا يستكبرون عن إخلاص العبادة له ، وعن السجود لذاته - سبحانه - بل هم « عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

ثم وصفهم - سبحانه - بالخشية منه ، وبالخوف من عقابه فقال : « يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

أى : أن من صفات الملائكة ، أنهم يخافون ربهم الذى هو من فوقهم بجلاله وقهره وعلوه - بلا تشبيه ولا تمثيل - ، ويفعلون ما يؤمرون به من الطاعات ، ومن كل ما يكلفهم به - سبحانه - دون أن تصدر منهم مخالفة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد وصفت الله - تعالى - بما هو أهل له - سبحانه - من صفات القدرة والجلال والكبرياء ، حتى يفىء الضالون إلى رشدهم ، ويخلصوا العبادة لخالقهم - عز وجل - .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٧٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٥٧ .

وبعد أن بين - سبحانه - أن كل شىء فى هذا الكون خاضع لقدرته ، أتبع ذلك بالنهى عن الشرك ، وبوجوب إخلاص العبادة له ، فقال - تعالى - .

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - سبحانه - لما بين فى الآيات الأولى ، أن ما سوى الله - تعالى - سواء أكان من عالم الأرواح أم من عالم الأجسام ، منقاد وخاضع لجلاله - تعالى - وكبريائه - أتبعه فى هذه الآية بالنهى عن الشرك ، وببيان أن كل ما سواه واقع فى ملكه وتحت تصرفه ، وأنه غنى عن الكل ، فقال - تعالى - : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ... ﴾[1] .

أى : وقال الله - تعالى - لعباده عن طريق رسله - عليهم الصلاة والسلام - لا تتخذوا شركاء معى فى العبادة والطاعة ، بل اجعلوهما لى وحدى ، فأنا الخالق لكل شىء والقادر على كل شىء .

قال الآلوسى : وقوله ﴿ وقال الله .. ﴾ معطوف على قوله - سبحانه - ﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض .. ﴾.

وإظهار الفاعل ، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر ، للإيذان بأنه - تعالى - متعين الألوهية .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٢٠ ص ٤٧ .

والمنهى عنه هو الاشراك به ، لا أن المنهى عنه هو مطلق اتخاذ إلهين .. »[١] .

« اثنين » صفة للفظ إلهين أو مؤكد له . وخص هذا العدد بالذكر ، لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه بالطريق الأولى .

وقوله - سبحانه - ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ بيان وتوكيد لما قبله ، وهو مقول لقوله - سبحانه - ﴿ وقال الله ﴾ .

أى : وقال الله لا تتخذوا معى فى العبادة إلها آخر ، وقال - أيضا - إنما المستحق للعبادة إله واحد ، والقصر فى الجملة الكريمة من قصر الموصوف على الصفة ، أى : الله وحده هو المختص بصفة الوحدانية .

وقد نهى - سبحانه - عن الشرك فى آيات كثيرة ، وأقام الأدلة على بطلانه ومن ذلك قوله -تعالى- ﴿... ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ﴾[٢] وقوله - سبحانه - ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[٣] .

والفاء فى قوله « فإياى فارهبون » واقعة فى جواب شرط مقدر و « إياى » مفعول به لفعل محذوف يقدر مؤخرا ، يدل عليه قوله « فارهبون » .

والرهبة : الخوف المصحوب بالتحرز ، وفعله رهب بزنة طرب .

والمعنى : إن رهبتم شيئا فإياى فارهبوا دون غيرى ، لأنى أنا الذى لا يعجزنى شىء .

وفى الجملة الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب ، للمبالغة فى التخويف ، إذ تخويف الحاضر أبلغ من تخويف الغائب ، لاسيما بعد أن وصف - سبحانه - ذاته بما وصف من صفات القهر والغلبة والكبرياء .

وقدم المفعول وهو إياى لإفادة الحصر ، وحذف متعلق الرهبة ، للعموم .

أى : ارهبونى فى جميع ما تأتون وما تذرون .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على ألوان من المؤكدات للنهى عن الشرك ، والأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، تارة عن طريق التقرير « وقال الله .. » وتارة عن طريق النهى الصريح،وتارة عن طريق القصر وتارة عن طريق التخصيص .

وذلك لكى يقلع الناس عن هذه الرذيلة النكراء ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٦١ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٩ .

(٣) سورة الانبياء الآية ٢٢ .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ إرادته ، فقال - تعالى - : ﴿ وله ما فى السموات والأرض ، وله الدين واصبا .. ﴾ .

والمراد بالدين هنا : الطاعة والخضوع بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وقد أتى الدين بمعنى الطاعة فى كثير من كلام العرب ، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

وأيـامـا لـنـا غـرا كـرامـا عصينا الملك فيها أن ندينا

أى : عصيناه وامتنعنا عن طاعته وعن الخضوع له .

قوله « واصبا » من الوصوب بمعنى الدوام والثبات ، يقال : وصب الشىء يصب - بكسر الصاد - وصوبا ، إذا دام وثبت . ومنه قوله - تعالى - ﴿ دحورا ولهم عذاب واصب ﴾[1] أى : دائم .

أى : ولله - تعالى - وحده ما فى السموات وما فى الأرض ملكا وخلقا ، لاشريك له فى ذلك ، ولا منازع له فى أمره أو نهيه .. وله - أيضا - الطاعة الدائمة ، والخضوع الباقى الثابت الذى لا يحول ولا يزول .

والآية الكريمة معطوفة على قوله « إنما هو إله واحد » .

والاستفهام فى قوله « أفغير الله تتقون » للإنكار والتعجيب ، والفاء للتعقيب ، وهى معطوفة على محذوف ، والتقدير ، أفبعد أن علمتم أن الله - تعالى - له ما فى السموات والأرض ، وله الطاعة الدائمة .. تتقون غيره ، أو ترهبون سواه ؟

إن من يفعل ذلك لا يكون من جملة العقلاء ، وإنما يكون من الضالين الجاهلين .

ثم بين - سبحانه - أن كل نعمة فى هذا الكون ، هو - سبحانه - مصدرها وموجدها ، فقال : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله .. ﴾ .

أى : وكل نعمة عندكم كعافية فى أبدانكم ، وغناء فى مالكم ، وكثرة فى أولادكم ، وصلاح فى بالكم .. فهى من الله - تعالى - وحده .

فالمراد بالنعمة هنا النعم الكثيرة التى أنعم بها - سبحانه - على الناس ، لأنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معينة ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتمادا على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية ، و « ما » موصولة مبتدأ ، متضمنة معنى الشرط . وقوله « فمن الله » خبرها .

---

(١) سورة الصافات الآية ٩ .

وقوله « من نعمة » بيان لما اشتملت عليه « ما » من إبهام .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم ، إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ بيان لطبيعة الإنسان ، ولموقفه من خالقه - عز وجل - والضر : يشمل المرض والبلاء والفقر وكل ما يتضرر منه الإنسان .

وقوله « تجأرون » من الجؤار بمعنى - رفع الصوت بالاستغاثة وطلب العون ، يقال : جأر فلان يجأر جأرا وجؤارا ، إذا رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث وأصله : صياح الوحش . ثم استعمل فى رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

أى : كل ما يصاحبكم من نعمة فهو من الله - تعالى - فكان من الواجب عليكم أن تشكروه على ذلك ، ولكنكم لم تفعلوا ، فإنكم إذا نزل بكم الضر ، صحتم بالدعاء ، ورفعتم أصواتكم بالتضرع ، ليكشف عنكم ما حل بكم ، فإذا ما كشف - سبحانه - عنكم الضر ، سرعان ما يقع فريق منكم فى الشرك الذى نهى الله - تعالى - عنه .

و « ثم » فى هاتين الآيتين للتراخى الرتبى ، لبيان الفرق الشاسع بين حالتهم الأولى وحالتهم الثانية .

والتعبير بالمس فى قوله « ثم إذا مسكم الضر .. » للإيماء بأنهم بمجرد أن ينزل بهم الضر ولو نزولا يسيرا ، جأروا إلى الله - تعالى - بالدعاء لكشفه .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله « فإليه تجأرون » لإفادة القصر ، أى إليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء ليرفع عنكم ما نزل بكم من بلاء ، لا إلى غيره ؛ لأنكم تعلمون أنه لا كاشف للضر إلا هو - سبحانه - .

و « إذا » الأولى فى قوله « ثم إذا كشف .. » شرطية والثانية وهى قوله « إذا فريق منكم .. » فجائية ، وهى جواب الأولى .

وهذا التعبير يشير إلى مسارعة فريق من الناس ، إلى جحود نعم الله - تعالى - بمجرد أن يكشف عنهم الضر بدون تريث أو تمهل .

وقال - سبحانه - ﴿ فريق منكم بربهم يشركون ﴾ لتسجيل الشرك على هذا الفريق ولإنصاف غيره من المؤمنين الصادقين ، الذين يشكرون الله - تعالى - فى جميع الأحوال ، ويواظبون على أداء ما كلفهم به فى السراء والضراء .

وهذا المعنى الذى تضمنته هاتان الآيتان ، قد جاء ما يشبهه فى آيات كثيرة منها

قوله - تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ [١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره ، مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه .. ﴾ [٢] .

فهذه الآيات الكريمة تصور الطبائع البشرية أكمل تصوير وأصدقه ، إذ الناس - إلا من عصم الله - يجأرون إلى الله - تعالى - بالدعاء عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والرخاء .

واللام فى قوله « ليكفروا بما آتيناهم .. » يصح أن تكون للتعليل ، وأن تكون هى التى تسمى بلام العاقبة أو الصيرورة .

قال الشوكانى : « واللام فى « ليكفروا بما آتيناهم .. » لام كى . أى : لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر ، حتى لكأن هذا الكفر منهم الواقع فى موقع الشكر الواجب عليهم ، غرض لهم ومقصد من مقاصدهم . وهذا غاية فى العتو والعناد ليس وراءها غاية .

وقيل : اللام للعاقبة : يعنى ما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا الكفر .. » [٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ تهديد ووعيد لهم على جحودهم لنعم الله - تعالى - والجملة الكريمة معمولة لقول محذوف .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - اعملوا ما شئتم وانتفعوا من متاع الدنيا كما أردتم فسوف تعلمون سوء عاقبتكم يوم القيامة .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من عقائدهم الباطلة ، وأفعالهم القبيحة التى تمجها العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، فقال - تعالى - :

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾

---

(١) سورة فصلت الآية ٥١ .

(٢) سورة يونس الآية ١٢ .

(٣) تفسير الشوكانى جـ ٣ ص ١٦٩ .

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

وقوله – سبحانه – : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ... ﴾. معطوف على ما سبقه بحسب المعنى ، لتسجيل رذائلهم ، وتعداد جناياتهم .

وضمير الجمع فى قوله « لما لا يعلمون » يصح أن يعود إلى الكفار ، كالذى قبله فى « ويجعلون » .

فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين يفعلون ما يفعلون من إشراكهم بالله – تعالى – ومن التضرع إليه عند الضر ونسيانه عند الرخاء .. ولا يكتفون بذلك ، بل ويجعلون للأصنام التى لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا ، نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما .

ويصح أن يعود ضمير الجمع فى قوله « لما لا يعلمون » للأصنام ، فيكون المعنى : ويجعلون للأصنام التى لا تعلم شيئا لأنها جماد لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر .. يجعلون لها نصيبا مما رزقناهم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ لما لا يعلمون ﴾ أى لآلهتهم التى لا يعلمون أحوالها وأنها لا تضر ولا تنفع ، على أن « ما » موصولة ، والعائد محذوف ؛ وضمير الجمع للكفار ، أو لآلهتهم التى لا علم لها بشىء لأنها جماد . على أن « ما » موصوله – أيضا – عبارة عن الآلهة ، وضمير « يعلمون » عائد عليها ومفعول « يعلمون » متروك لقصد العموم ، وصيغة جمع العقلاء لوصفهم الآلهة بصفاتهم .. »[1] .

وقال – سبحانه – « نصيبا » بالتنكير ، للايماء بأنه نصيب كبير وضعوه فى غير موضعه ووصفه بأنه مما رزقهم – سبحانه – لتهويل جهلهم وظلمهم ، حيث تركوا التقرب إلى الرازق

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٦٧ .

الحقيقى - جل وعلا - ، وتقربوا بجانب كبير مما رزقهم به - سبحانه - إلى جمادات لا تغنى عنهم شيئا .

وما أجملته هذه الآية الكريمة عن جهالتهم ، فصلته آيات أخرى منها قوله - تعالى - فى سورة الأنعام : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ تهديد ووعيد لهم على سوء أفعالهم . أى : أقسم بذاتى لتسألن - أيها المشركون - سؤال توبيخ وتأنيب فى الآخرة ، عما كنتم تفترونه من أكاذيب فى الدنيا ، ولأعاقبنكم العقاب الذى تستحقونه بسبب افترائكم وكفركم . وصدرت الجملة الكريمة بالقسم ، لتأكيد الوعيد ، ولبيان أن العقاب أمر محقق بالنسبة لهم وجاءت الجملة الكريمة بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، لأن توبيخ الحاضر أشد من توبيخ الغائب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة ، وهو معطوف على ماقبله .

وسؤالهم يوم القيامة عما اجترحوه - مع أنه سؤال تقريع وتأنيب - إلا أنه يدل على عدل الله - تعالى - مع هؤلاء الظالمين ، لأنه لم يعاقبهم إلا بعد أن سألهم ، وبعد أن ثبت إجرامهم وفى ذلك ما فيه من تعليم العباد أن يكونوا منصفين فى أحكامهم .

وهذه الآية الكريمة تحكى ما كان شائعا فى بعض قبائل العرب ، من أنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله . قالوا : وكانت قبيلة خزاعة ، وقبيلة كنانة تقولان بذلك فى الجاهلية .

أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بجعل نصيب مما رزقناهم لآلهتهم ، بل أضافوا إلى ذلك رذيلة أخرى ، وهى أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله - تعالى - ، وأشركوها معه فى العبادة .

قوله « سبحانه » مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة ، وهو فى محل جملة معترضة ، وقعت جوابا عن مقالتهم السيئة ، التى حكاها الله - تعالى - عنهم ، وهى « ويجعلون لله البنات » .

---

(١) راجع تفسيرنا لهذه الآية فى كتابنا (تفسير سورة الأنعام) من ص ١٨٥ إلى ص ١٨٨ .

أى : تنزه وتقدس الله - عز وجل - عن أن يكون له بنات أو بنين ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

والمراد بما يشتهونه فى قوله - عز وجل - : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ الذكور من الأولاد .

أى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لأصنامهم نصيبا مما رزقناهم ، ويجعلون لله - تعالى - البنات ، أما هم فيجعلون لأنفسهم الذكور ، ويختارونهم ليكونوا خلفاء لهم .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، مالهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون ﴾[1] .

ثم صور - سبحانه - حالتهم عندما يبشرون بولادة الأنثى ، وحكى عاداتهم الجاهلية المنكرة فقال - تعالى - : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به .. ﴾ .

قال الآلوسى : قوله « وإذا بشر أحدهم بالأنثى .. » أى : أخبر بولادتها . وأصل البشارة الإخبار بما يسر . لكن لما كانت ولادة الأنثى تسوءهم حملت على مطلق الإخبار . وجوز أن يكون ذلك بشارة باعتبار الولادة ، بقطع النظر عن كونها أنثى .. »[2] .

وقوله « كظيم » من الكظم بمعنى الحبس . يقال : كظم فلان غيظه ، إذا حبسه وهو ممتلىء به وفعله من باب ضرب .

والمعنى : وإذا أخبر أحد هؤلاء الذين يجعلون لله البنات ، بولادة الأنثى دون الذكر ، صار وجهه مسودا كئيبا كأن عليه غبرة ، ترهقه قترة - أى تعلوه ظلمه وسواد - ، وصار جسده ممتلئا بالحزن المكتوم ، والغيظ المحبوس ، وأصبح يتوارى ويتخفى عن أعين الناس خجلا وحياء ، من أجل أن زوجته ولدت له أنثى ولم تلد له ذكرا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ﴾ تصوير بليغ لموقف ذلك المشرك مما بشر به وهو ولادة الأنثى .

فالضمير المنصوب فى قوله « أيمسكه، ويدسه » يعود على المبشر به وهو الأنثى .

والهون بمعنى الهوان والذل .

---

(١) سورة الزخرف الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٦٩ .

ويدسه من الدس بمعنى الإخفاء للشىء فى غيره . والمراد به . دفن الأنثى حية فى التراب حتى تموت، وهو المشار إليه فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا الموءودة سئلت.بأى ذنب قتلت ﴾.

أى : أن هذا المشرك بعد أن يبشر بولادة الأنثى ، يدور بذهنه أحد أمرين : إما أن يمسكها ويبقيها على هوان وذل ، وإما أن يدسها ويخفيها فى التراب ، بأن يدفنها فيه وهى حية حتى تموت .

والجار والمجرور فى قوله « على هون » يصح أن يكون حالا من الفاعل وهو المشرك : أى أيمسك المبشر به مع رضاه - أى المشرك - بهوان نفسه وذلتها بسبب هذا الإمساك .

ويصح أن يكون حالا من المفعول وهو الضمير المنصوب . أى أيمسك هذه الأنثى ويبقيها بقاء ذلة وهوان لها ، بحيث لا يورثها شيئا من ماله ، ولا يعاملها معاملة حسنة .

ومن بلاغة القرآن أنه عبر بقوله « أيمسكه على هون » ليشمل حالة المشرك وحالة المبشر به وهو الأنثى .

وقوله - تعالى -: ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾. ذم لهم على صنيعهم السيئ ، وعلى جهلهم الفاضح .

أى : بئس الحكم حكمهم ، وبئس الفعل فعلهم ، حيث نسبوا البنات إلى الله - تعالى - ، وظلموهن ظلما شنيعا ، حيث كرهوا وجودهن ، وأقدموا على قتلهن بدون ذنب أو ما يشبه الذنب .

وصدر - سبحانه - هذا الحكم العادل عليهم بحرف « ألا » الاستفتاحية : لتأكيد هذا الحكم ، ولتحقيق أن ما أقدموا عليه ، إنما هو جور عظيم ، قد تمالئوا عليه بسبب جهلهم الفاضح ، وتفكيرهم السيئ .

أسند - سبحانه - الحكم إلى جميعهم ، مع أن من فعل ذلك كان بعضا منهم ، لأن ترك هذا البعض يفعل ذلك الفعل القبيح ، هذا الترك هو فى ذاته جريمة يستحق عليها الجميع العقوبة ، لأن سكوتهم على هذا الفعل مع قدرتهم على منعه يعتبر رضا به .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الذم لهم بذم آخر على سبيل التأكيد فقال - تعالى - : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾ .

والمثل : الحال والصفة العجيبة فى الحسن والقبح .

والسوء : مصدر ساءه يسوءه سوءا ، إذا عمل معه ما يكره ، وإضافة المثل إلى السوء للبيان .

والمراد بمثل السوء : أفعال المشركين القبيحة التى سبق الحديث عنها .

والمعنى للذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب .. صفة السوء ، التى هى كالمثل فى القبح ، وهى وأدهم البنات ، وجعلهم لآلهتهم . نصيبا مما رزقناهم ، وقولهم : الملائكة بنات الله ، وفرحهم بولادة الذكور للاستظهار بهم .

فهذه الصفات تدل على غبائهم وجهلهم وقبح تفكيرهم .

أما الله - عز وجل - فله المثل الأعلى ؛ أى الصفة العليا ، وهى أنه الواحد الأحد ، المنزه عن الوالد والولد : والمبرأ من مشابهة الحوادث ،والمستحق لكل صفات الكمال والجلال فى الوحدانية ، والقدرة والعلم .. وغير ذلك مما يليق به - سبحانه - .

وهو - عز وجل - « العزيز » فى ملكه بحيث لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أفعاله وأقواله .

وبعد أن ساق - سبحانه - ما يدل على جهالات المشركين ، وانطماس بصائرهم ، وسوء تفكيرهم ، أتبع ذلك بالحديث عن مظاهر رحمته بخلقه وعن جانب من جرائم المشركين ، وعن وظيفة القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

و « لو » فى قوله - تعالى - : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم .. ﴾ حرف امتناع

لامتناع . أى : حرف شرط يدل على امتناع وقوع جوابه ، لأجل امتناع وقوع شرطه ، وقد امتنع هنا إهلاك الناس ، لامتناع إرادة الله - تعالى - ذلك .

وقوله « يؤاخذ » مفاعلة من المؤاخذة بمعنى العقوبة ، فالمفاعلة فيه بمعنى الفعل المجرد . فمعنى آخذ الله - تعالى - الناس يؤاخذهم : أخذهم وعاقبهم بسبب ذنوبهم .

والأخذ بمعنى العقاب قد جاء فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة : ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[1] .

والباء فى « بظلمهم » للسببية ، والظلم : مجاوزة الحدود التى شرعها الله - تعالى - وأعظمه الإشراك بالله - تعالى - كما قال - تعالى - ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

والمراد من المؤاخذة بسبب ظلمهم : تعجيل العقوبة لهم فى الدنيا .

والضمير فى قوله - سبحانه - « عليها » يعود على الأرض . وصح عود الضمير عليها مع أنه لم يسبق ذكر لها ، لأن قوله « من دابة » يدل على ذلك لأنه من المعلوم ، أن الدواب تدب على الأرض .

ونظيره قوله - تعالى - فى آية أخرى ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ وقوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ أى : الشمس . فإنه وإن كان لم يجر لها ذكر إلا أن المقام يدل عليها .

ورجوع الضمير إلى غير مذكور فى الكلام إلا أن المقام يدل عليه كثير فى كلام العرب ، ومنه قول حاتم الطائى :

أماوىّ ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقوله : حشرجت وضاق بها ، المقصود به الروح أو النفس ، ولم يجر لها ذكر ، إلا أن قوله : وضاق بها الصدر ، يعين أن المراد بها النفس .

والمراد بالساعة فى « لا يستأخرون عنه ساعة » مطلق الوقت الذى هو غاية فى القلة .

والمعنى : ولو عاجل الله - تعالى - الناس بالعقوبة ، بسبب ما اجترحوه من ظلم وآثام ، لأهلكهم جميعا ، وما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب عليها ، ولكنه - سبحانه - فضلا منه وكرما ، لا يعاجلهم بالعقوبة التى تستأصلهم بل يؤخرهم « إلى أجل مسمى » أى : إلى وقت معين محدد تنتهى عنده حياتهم ، وهذا الوقت المحدد لا يعلمه إلا هو - سبحانه - « فإذا

---

(١) سورة هود الآية ١٠٢ .

جاء أجلهم » . أى : فإذا حان الوقت المحدد لهلاكهم ، فارقوا هذه الدنيا بدون أدنى تقديم أو تأخير عن هذا الوقت .

هذا ، ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالناس هنا : الكفار خاصة ، لأنهم هم الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

ويبدو لنا أن المراد بالناس هنا : العموم ، لأن قوله « من دابة » يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة ، ولأن النكرة فى سياق النفى إذا زيدت قبلها لفظة « من » تكون نصا صريحا فى العموم .

وإلى العموم أشار ابن كثير عند تفسيره للآية بقوله : يخبر الله - تعالى - عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أى : لأهلك جميع دواب الأرض تبعا لإهلاك بنى آدم . ولكن الرب - جل وعلا - يحلم ويستر ويُنظر .. »[1] .

وقال القرطبى : فإن قيل : فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم ؟

فالجواب : يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن معوضا بثواب الآخرة ، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إذا أراد الله - تعالى - بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم - وأعمالهم - ،[2] .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[4] .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾[5] .

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل المشركين فقال - تعالى - ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ... ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٩٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢٠ .
(٣) سورة الكهف الآية ٥٨ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٤٢ .
(٥) سورة نوح الآية ٤ .

أى : أن هؤلاء المشركين لايكتفون بإنكارهم البعث وبجحود نعم الله - تعالى - : بل أضافوا إلى ذلك أنهم يثبتون له - سبحانه وينسبون إليه كذبا وزورا - ما يكرهونه لأنفسهم ، فهم يكرهون أن يشاركهم أحد فى أموالهم أو فى مناصبهم ؛ ومع ذلك يشركون مع الله - تعالى - فى العبادة آلهة أخرى ، ويكرهون أراذل الأموال ، ومع ذلك يجعلون لله - تعالى - أراذل أموالهم . ويجعلون لأصنامهم أكرمها ، ويكرهون البنات ، ومع ذلك ينسبونهن إليه - سبحانه - . فالجملة الكريمة تنعى عليهم أنانيتهم ، وسوء أدبهم مع خالقهم - عز وجل - وقوله - سبحانه - ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ... ﴾ تصوير بليغ لما جبلوا عليه من كذب صريح ، وبهتان واضح .

ومعنى : « تصف » تقول وتذكر بشرح وبيان وتفصيل ، حتى لكأنها تذكر أوصاف الشىء ، وجملة « أن لهم الحسنى » بدل من « الكذب » .

والحسنى : تأنيث الأحسن ، والمراد بها زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب وأعظمه ، كما كان لهم فى الدنيا ذلك ، فقد روى أنهم قالوا : إن كان محمد ﷺ صادقا فيما يخبر عنه من أمر البعث ، فلنا الجنة ...

والمعنى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لله - تعالى - ما يكرهونه من الأولاد والأموال والشركاء ، وتنطق ألسنتهم بالكذب نطقا واضحا صريحا إذ زعموا أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب ..

وهذا الزعم قد حكاه القرآن عنهم فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادًا وما نحن بمعذبين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ...﴾[2] .

قال صاحب الكشاف: فإن قلت ما معنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح الكلام وبليغه . جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه ، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته . كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر[3] .

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٥ .

(٢) سورة مريم الآية ٧٧ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٢ .

وقال بعض العلماء : والتعبير القرآنى فى قوله ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ﴾ يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها ، كما تقول : فلان قوامه يصف الرشاقة .. لأن ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقة ، مفصح عنها .

كذلك قال - سبحانه - ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب ... ﴾ فهى بذاتها تعبير عن الكذب ، لطول ما قالت الكذب ، ولكثرة ما عبرت عنه ، حتى صارت رمزا عليه ، ودلالة له[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾ تكذيب لهم فيما زعموه من أن لهم الحسنى ، ووعيد لهم بإلقائهم فى النار .

وكلمة «لا جرم» وردت فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع، متلوة بأن واسمها وليس بعدها فعل . وجمهور النحاة على أنها مركبة من « لا » و« جرم » تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد التركيب معنى حق وثبت . والجملة بعدها فاعل ، أى : حق وثبت كونهم لهم النار وأنهم مفرطون فيها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مفرطون ﴾ قرأها الجمهور - بسكون الفاء وفتح الراء - بصيغة إسم المفعول من أفرطه بمعنى قدمه . يقال : أفرطته إلى كذا . أى : قدمته إليه .

قال القرطبى : والفارط الذى يتقدم غيره الى الماء . ومنه قول النبى - ﷺ - : « أنا فرطكم على الحوض » أى : متقدمكم ...[2] .

أو من أفرط إذا نسيه وتركه . تقول : أفرطت فلانا خلفى ، إذا تركته ونسيته .

والمعنى : أن هؤلاء الذين يزعمون أن لهم الحسنى فى الآخرة كذبوا فى زعمهم ، وفجروا فى إفكهم ، فإنهم ليس لهم شىء من ذلك ، وإنما الأمر الثابت الذى لاشك فيه ، أن لهم فى الآخرة النار ، وأنهم مفرطون فيها ، مقدمون اليها بدون إمهال ، ومتروكون فيها بدون اكتراث بهم ، كما يترك الشىء الذى لا قيمة له . قال - تعالى - : ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾[3] .

وقرأ نافع « وأنهم مفرطون » - بسكون الفاء وكسر الراء - بصيغة إسم الفاعل . من أفرط اللازم بمعنى أسرف وتجاوز الحد . يقال : أفرط فلان فى كذا ، إذا تجاوز الحدود المشروعة .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ٢١٧٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢١ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٥١ .

فيكون المعنى : لا جرم أن لهم النار ، وأنهم مفرطون ومسرفون في الأقوال والأعمال التى جعلتهم حطبا لها ، ووقودا لنيرانها كما قال - تعالى - : ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾[1] .

ثم وجه - سبحانه - خطابا لنبيه - ﷺ - على سبيل التسلية والتثبيت ، حيث بين له أن ما أصابه من مشركى قومه ، قد فعل ما يشبهه المشركون السابقون مع أنبيائهم ، فقال - تعالى - : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم ﴾ .

وقوله ﴿ فزين ﴾ من التزيين وهو تصيير الشىء زينا ، أى : حسنا والزينة : هى ما فى الشىء من محاسن ترغب الناس فيه .

والمعنى : أقسم لك - أيها الرسول الكريم - بذاتى ، لقد أرسلنا رسلا كثيرين إلى أمم كثيرة من قبلك ، فكانت النتيجة أن استحوذ الشيطان على نفوس عامة هؤلاء المرسل اليهم ، حيث زين لهم الأفعال القبيحة ، وقبح لهم الأعمال الحسنة ، وجعلهم يقفون من رسلهم موقف المكذب لأقوالهم ، المعرض عن إرشاداتهم ، المحارب لدعوتهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم ﴾ بيان لسوء عاقبة هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : والمراد باليوم فى قوله - تعالى - : ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زمان الدنيا - أى مدة أيام الدنيا - فيكون المعنى : فهو قرينهم فى الدنيا . ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده . فيكون للحال الآتيه . ويكون الولى بمعنى الناصر . والمراد نفى الناصر عنهم بأبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلا فى الآخرة .

ويحتمل أن يكون المراد باليوم بعض زمان الدنيا ، وهو على وجهين: الأول أن يراد البعض الذى مضى ، وهو الذى وقع فيه التزيين للأمم الماضية من الشيطان ، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية .. الثانى : أن يراد البعض الحاضر ، وهو وقت نزول الآية . والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش أعمالهم ، فيكون الضمير فى « وليهم » لكفار قريش . فيكون المعنى : فهو ولى هؤلاء المشركين اليوم أى : معينهم على الكفر والمعاصى ولهم ولأمثالهم عذاب أليم فى الآخرة»[2] .

---

(١) سورة غافر الآية ٤٣ .

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ ٣ ص ١٧٣ .

ثم بين - سبحانه - أهم الوظائف التى من أجلها أنزل كتابه على نبيه محمد - ﷺ - فقال : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

أى : وما أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - هذا القرآن ، إلا من أجل أن تبين لمن أرسلت اليهم وجه الصواب فيما اختلفوا فيه من أمور العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام ... وبذلك يعرفون الحق من الباطل ، والخير من الشر .

وسيقت هذه المعانى بأسلوب القصر ، لقصد الإحاطة بأهم الغايات التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه على نبيه الكريم ، ولترغيب السامعين فى تقبل إرشادات هذا الكتاب بنفس منشرحة ، وقلب متفتح .

وقوله ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ثناء آخر على هذا الكتاب الكريم .

أى : أنزلنا هذا الكتاب يامحمد ، لتبين للناس عن طريقه وجه الحق فيما اختلفوا فيه من أمور الدين ، وليكون هذا الكتاب هداية إلى الطريق القويم ، ورحمة لقوم يؤمنون به ، ويسيرون فى كل أمورهم على هدى تعاليمه وإرشاداته وتشريعاته .

وقال - سبحانه - : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ للإشارة الى أن الظفر بما اشتمل عليه القرآن من خيرات ، إنما هو لقوم قد توجهت نفوسهم إلى الإيمان به ، وتفتحت قلوبهم لاستقبال هداياته .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت لنا جانبا من مظاهر فضل الله - تعالى - على عباده ، وردت على المشركين فيما زعموه من أن لهم فى الآخرة العاقبة الحسنى ، وسلت النبى - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى ، وبينت أهم الوظائف التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه .

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا من نعم الله - تعالى - على خلقه ، ومن ذلك : نعمة إنزال الماء من السماء ، ونعمة خلق الأنعام ، ونعمة إيجاد النخيل والأعناب ، فقال - تعالى - :

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

والمراد بالسماء فى قوله – تعالى – : ﴿ والله أنزل من السماء ماء ﴾ : جهة العلو أو السحاب المنتشر فى طبقات الجو العليا والذى تنزل منه الأمطار .

والمراد بإحياء الأرض: تحرك القوى النامية فيها ، وإظهار ما أودعه الله – تعالى – فيها من نبات وأزهار ، وثمرات ، وغير ذلك مما تنبته الأرض .

والمراد بموتها : خلوها من ذلك ، بسبب استيلاء القحط والجدب عليها .

، قال – تعالى – : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

أى : وكما أنزل الله – تعالى – كتابه ليكون هداية ورحمة لقوم يؤمنون ، أنزل – سبحانه – أيضا الماء من السماء على الأرض ، فتحولت بسبب نزول هذا الماء المبارك الكثير عليها ، من أرض جدباء خامدة ، إلى أرض خضراء رابية .

ثم حرض – سبحانه – عباده على التدبر والشكر فقال – تعالى – : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى فعلناه بقدرتنا وحدها ، من إنزل الماء من السماء ، وإحياء الأرض به من بعد موتها ، لآية عظيمة ، وعبرة جليلة ، ودلالة واضحة تدل على وحدانيتنا وقدرتنا وحكمتنا ، « لقوم يسمعون » ما يتلى عليهم من كلام الله – تعالى – سماع تدبر واعتبار ، فيعملون بما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة وإرشادات سديدة .

فالمراد بالسمع : سمع القلوب والعقول ، لا سمع الآذان فقط ، إذ سمع الآذان بدون وعى واستجابة للحق ، لاقيمة له ، ولا فائدة ترجى من ورائه .

ثم أرشد – سبحانه – إلى مظهر آخر من مظاهر وحدانيته ، وعظيم قدرته وعجيب صنعه ، وسعة رحمته ، حيث خلق للناس الأنعام ، وسقاهم من ألبانها ، فقال – تعالى – : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ... ﴾ .

والأنعام : تطلق على الإبل والبقر والغنم من الحيوان ، ويدخل فى الغنم المعز .

والعبرة : مصدر بمعنى العبور ، أى : التجاوز من محل إلى آخر ، والمراد بها هنا : العظة والاعتبار والانتقال من الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى اليقظة .

أى : وإن لكم - أيها الناس - فى خلق الأنعام ، وفيما يخرج منها من ألبان لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، ومنفعة جليلة توجب عليكم إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ومداومة الشكر له على نعمه . فالتنكير فى قوله ﴿ لعبرة ﴾ للتفخيم والتهويل .

وقوله - تعالى - : ﴿ نسقيكم مما فى بطونه ﴾ استئناف بيانى ، كأنه قيل : وما وجه العبرة فى الأنعام ؟ فكان الجواب : نسقيكم مما فى بطونه .

قال الآلوسى : والضمير فى «بطونه» يعود للأنعام، وهو اسم جمع، واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده باعتبار لفظه ، ويجوز تأنيثه وجمعه باعتبار معناه ...»[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ بيان لموطن العبرة ومحل النعمة ، ومظهر الدلالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ورحمته . .

والفرث : الطعام المتبقى فى أمعاء الحيوان بعد هضمه . وأصل الفرث : التفتيت . يقال فرثت كبده . أى : فتتتها .

قال الجمل ما ملخصه : والفرث : الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام فى الكرش - بفتح الكاف وكسر الراء - فإذا خرجت من الكرش لا تسمى فرثا بل تسمى روثا . وقوله ﴿ لبنا ﴾ مفعول ثان لنسقيكم ، والأول هو الكاف»[2] .

والخالص : النقى الصافى الخالى من الشوائب والأكدار . يقال خلص الشىء من التلف خلوصا - من باب قعد - إذا سلم منه .

والسائغ : اللذيذ الطعم ، السهل المدخل الى الحلق . يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا ه من باب قال - إذا سهل مدخله فى الحلق .

أى : نسقيكم من بين الفرث والدم الذى اشتملت عليه بطون الأنعام ، « لبنا » نافعا لأبدانكم « خالصا » من رائحة الفرث ، ومن لون الدم ، مع أنه موجود بينهما « سائغا للشاربين » بحيث يمر فى الحلوق بسهولة ويسر ، ويشعر شاربه بلذة وارتياح .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٧٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٨٠ .

وقدم - سبحانه - قوله : ﴿ من بين فرث ودم ﴾ على قوله ﴿ لبنا ﴾ ، لأن خروج اللبن من بينهما هو موطن العبرة ، وموضع الدليل الأسمى على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ من بين فرث ودم ﴾ أى : يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله - تعالى - ، بحيث لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله ... فسبحان الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته ، لمن تفكر وتأمل . وسئل « شقيق » عن الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم .

ثم قال - رحمه الله - : فإن قلت : أى فرق بين « من » الأولى والثانية ؟ .

قلت : الأولى للتبعيض ، لأن اللبن بعض ما فى بطونها ... والثانية لابتداء الغاية ، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذى منه يبتدأ .. .

وإنما قدم قوله : ﴿ من بين فرث ودم ﴾ لأنه موضع العبرة ، فهو قمن بالتقديم»[1] .

وقال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : « ومن تدبر فى بدائع صنع الله - تعالى - فيما ذكر من الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها ، والأسباب المولدة لها ، وتسخير القوى المتصرفة فيها ... اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه - سبحانه - وقدرته ، وحكمته ، وتناهى رأفته ورحمته :

حكم حارت البرية فيها وحقيق بأنها تحتار[2]

والحق ، أن هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة على وحدانية الله تعالى ونفاذ قدرته ، وعجيب صنعته ، حيث استخرج - سبحانه - من بين فرث ودم فى بطون الأنعام ، لبنا خالصا سائغا للشاربين .

وهذا الاستخراج قد تكلم العلماء المتخصصون عن كيفيته وعن مراحله .. كلاما يقوى إيمان المؤمنين ، ويدفع باطل الملحدين .

هذا ، وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن اللبن نعمة جزيلة من نعم الله - تعالى - على خلقه .

قال القرطبى ما ملخصه : « روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله - ﷺ - بلبن فشرب ، ثم قال : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل ، اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦١٦ .

(٢) تفسير الألوسى جـ ١٤ ص ١٧٨ .

خيرا منه ، وإذا سقى لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شىء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن » .

ثم قال الإمام القرطبى : قال علماؤنا : فكيف لا يكون كذلك ، وهو أول ما يغتذى به الإنسان ، وتنمو به الأبدان ، فهو قوت به قوام الأجسام ، وقد جعله الله - تعالى - علامة لجبريل على هداية هذه الأمة ، ففى الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن . فقال لى جبريل : اخترت الفطرة ...»[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة الى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله التى لا تحصى ، وهى نعمة ثمرات النخيل والأعناب ، فقال - تعالى - : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا... ﴾ .

قال الجمل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب.. ﴾ خبر مقدم ، ومن تبعيضية ، والمبتدأ محذوف تقديره ثمر ، وقوله ﴿ تتخذون ﴾ نعت لهذا المبتدأ المحذوف ، أى : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا .

ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقا بمحذوف ، والتقدير : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ، أى : من عصيرهما ، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه ، وقوله ﴿ تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾ بيان وكشف عن كيفية الإسقاء .

والضمير فى قوله ﴿ منه ﴾ يعود على المضاف المحذوف الذى هو العصير ، أو على المبتدأ المحذوف وهو الثمر[2] .

والسكر - بفتح السين والكاف - اسم من أسماء الخمر ، يقال : سكر فلان - بوزن فرح - يسكر سكرا ، إذا غاب عقله وإدراكه فهو سكران وسكر - بفتح السين وكسر الكاف - .

وأما الرزق الحسن ، فالمراد به ما كان حلالا من ثمرات النخيل والأعناب كالتمر والزبيب وغير ذلك مما أحله الله - تعالى - من ثمارهما .

وعلى هذا المعنى سار جمهور العلماء من السلف والخلف .

قال الآلوسى ما ملخصه : والسكر : الخمر . قال الأخطل : .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٨٠ .

بئس الصُّحاة وبئس الشَّرب شَربُهم إذا جرى فيهم المـزَّاءُ والسَّكَـر

والمزاء : نوع من الأشربة . والسكر ما يسكر وهو الخمر.

وفسروا الرزق الحسن . بالخل والتمر والزبيب وغير ذلك .

ثم قال : وتفسير « السَّكَر » بالخمر ، هو المروى عن ابن مسعود ، وابن عمر ، وأبى رزين ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبى .. والنخعى .. مع خلق آخرين ..[1] .

وعلى هذا التفسير الذى قاله جمهور العلماء يكون السكر غير الرزق الحسن ، ويكون العطف للتغاير .

ومن العلماء من فسر السكر بأنه اسم للخل ، أو للعصير غير المسكر ، أو لما لا يسكر من الأنبذة ، وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ سكرا ﴾ السكر ما يسكر ، هذا هو المشهور فى اللغة . قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر .

والمراد بالسكر : الخمر . وبالرزق الحسن : جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقد قيل إن السكر : الخل بلغة الحبشة . والرزق الحسن : الطعام . وقيل السكر : العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرا ، لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى ، فإذا بلغ الإسكار حرم .. .

وقال الحنفيون . المراد بقوله « سكرا » مالا يسكر من الأنبذة . والدليل عليه أن الله - سبحانه - امتن على عباده بما خلق لهم من ذلك ، ولا يقع الامتنان إلا بمحلل لا بمحرم ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز . وعضدوا هذا من السنة بما روى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « حرم الله الخمر بعينها والسُّكْر من غيرها »[2] .

وأصحاب هذا الرأى كأنهم يرون أن عطف الرزق الحسن على السكر من باب عطف الشىء على مرادفه ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ وليس من باب العطف المقتضى للمغايرة ، فالسكر عندهم ليس هو الخمر ، وإنما هو الخل أو العصير أو النبيذ غير المسكر .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه الجمهور من أن السكر هو الخمر أولى بالقبول ، لأن هذا التفسير

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ١٨٠ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢٨ .

هو المروى عن جمع من الصحابة ومن التابعين ، ولأن الأصل فى العطف أنه يقتضى المغايرة .

قال ابن العربى : أسد هذه الاقوال قول ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ، والمراد بالسكر الخمر ، فتكون هذه الآية منسوخة لأنها مكية باتفاق العلماء ، وتحريم الخمر مدنى[١] .

وقال صاحب تفسير آيات الأحكام بعد أن ذكر أدلة الاحناف ورد عليها : والحاصل أننا نرى أن الآية ليس فيها ما يشهد بالحل ، إذ الكلام فى الامتنان بخلق الأشياء لمنافع الانسان ، ولم تنحصر المنافع فى حل التناول ، فقد قال الله - تعالى - : فى شأن الخمر : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس .. ﴾ فهل انحصرت منافع السكر - على فرض أنه النبيذ - فى الشرب؟[٢] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ أى : فى ذلك الذى ذكرناه لكم من إخراج اللبن من بين فرث ودم ، ومن اتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، «لآية» باهرة ، ودلالة واضحة ، على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، « لقوم يعقلون » هذه التوجيهات الحكيمة ، فيدركون أن من يفعل كل ذلك وغيره ، هو المستحق للعبادة والطاعة «ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل - أيضا - على وحدانيته وقدرته ، عن طريق إخراج العسل الذى فيه شفاء للناس بواسطة حشرة ضعيفة وهى النحلة ، فقال - تعالى - :

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٢٨ .

(٢) راجع تفسير ايات الأحكام جـ ٣ ص ٥٢ لفضيلة الشيخ محمد على السايس - رحمه الله .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأوحى ﴾ من الوحى ، وهو هنا بمعنى الإلهام ، وهو - كما يقول القرطبى - ما يخلقه الله - تعالى - فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها ، وترك ما يضرها ، وتدبير معاشها..[١] .

وقال صاحب الكشاف : والإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف فى قلوبها على وجه هو أعلم به ، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه ، وإلا فتأنقها فى صنعتها ولطفها فى تدبير أمرها ، وإصابتها فيما يصلحها دلائل شاهدة على أن الله - تعالى - أودعها علما بذلك وفطنها ، كما أودع أولى العقول عقولهم..[٢] .

والخطاب للرسول - ﷺ - ويشمل كل من يصلح للخطاب من الأمة الإسلامية .

والنحل : اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، ويطلق على الذكر والأنثى ، وسمى بذلك لأن الله - تعالى - نحله أى منحه العسل الذى يخرج منه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ بيان لما ألهمه الله النحل من أوامر . ولما كلفها به من أعمال .

و« أن » مفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه وما بعدها لا محل له من الإعراب ، ويجوز بأن تكون مصدرية فيكون ما بعدها فى محل نصب على تقدير الجار . أى : بأن اتخذى .

والمعنى : وألهم ربك النحل وأرشدها وهداها إلى أن تتخذ من فجوات الجبال بيوتا تسكن فيها ، وكذلك من تجاويف الأشجار ومما يرفعه الناس ويعرشونه من السقوف وغيرها .

يقال : عرش الشىء يعرشه - بكسر الراء وضمها - إذا رفعه عن الأرض ، ومنه العريش الذى صنع لرسول الله - ﷺ - يوم بدر لمشاهدة سير المعركة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى « من » فى قوله ﴿ أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ ؟ وهلا قيل فى الجبال وفى الشجر ؟ .

قلت : أريد معنى البعضية ، وأن لاتبنى بيوتها فى كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش ، ولا فى كل مكان منها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٣٣ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦١٨ .

وقد علق الشيخ ابن المنير على هذا الكلام بقوله : « ويتزين هذا المعنى الذى نبه عليه الزمخشرى فى تبعيض « من » المتعلقة باتخاذ البيوت بإطلاق الأكل ، كأنه - تعالى - وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجر عليها فيه ، وإن حجر عليها فى البيوت ، وأمرت باتخاذها فى بعض المواضع دون بعض لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه ، وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت ثم فى قوله ﴿ ثم كلى... ﴾ لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها فى تناول الثمرات ، كما تقول : راع الحلال فيما تأكله ثم كل أى شىء شئت . فتوسط ثم لتفاوت . الحجر والإطلاق فسبحان اللطيف الخبير»[1] .

وقوله : ﴿ ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا .. ﴾ بيان للون آخر من الإلهامات التى ألهمها الله - تعالى - إياها .

والسبل : جمع سبيل . والمراد بها الطرق التى تسلكها النحلة فى خروجها من بيتها وفى رجوعها إليه وأضاف - سبحانه - السبل إليه ، لأنه هو خالقها وموجدها .

وذللا : جمع ذلول وهو الشىء الممهد المنقاد ، وهو حال من السبل ، أى : فاسلكى سبل ربك حال كونها ممهدة لك ، لا عسر فى سلوكها عليك ، وإن كانت صعبة بالنسبة لغيرك .

قالوا : ربما أجدب عليها ما حولها ، فتنتجع الأماكن البعيدة للمرعى ، ثم تعود إلى بيوتها دون أن تضل عنها .

وقيل إن « ذللا » حال من النحلة أى : ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ، حالة كونك منقادة لما يراد منك ، مطيعة لما سخرك الله له من أمور تدل على قدرته وحكمته - سبحانه - .

وقوله - تعالى - : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ كلام مستأنف ، عدل به من خطاب النحلة الى خطاب الناس ، تعديدا للنعم ، وتعجيبا لكل سامع ، وتنبيها على مواطن العظات والعبر الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وعجيب صنعه فى خلقه .

أى : يخرج من بطون النحل - بعد أكلها من كل الثمرات وبعد اتخاذها بيوتها - شراب هو العسل ، مختلف ألوانه ما بين أبيض وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل ، على حسب اختلاف مراعيها ومآكلها وسنها ، وغير ذلك بما اقتضته حكمته - سبحانه - .

---

(١) الكشاف وحاشيته جـ ٢ ص ٦١٨ .

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ يعود على الشراب المستخرج من بطونها وهو العسل .

أى : فى العسل شفاء عظيم للناس من أمراض كثيرة تعرض لهم .

وقيل : الضمير يعود إلى القرآن الكريم ، والتقدير : فيما قصصنا عليكم فى هذا القرآن الشفاء للناس .

وهذا القيل وإن كان صحيحا فى ذاته ، إلا أن السياق لا يدل عليه ، لأن الآية تتحدث عما يخرج من بطون النحل وهو العسل ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ، ومخالفة المرجع الواضح .

قال الإمام ابن كثير : والدليل على أن المراد بقوله ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ هو العسل ، الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - ، أن رجلا جاء إلى رسول الله - ﷺ - فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال : « اسقه عسلا » ، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال : يارسول الله ، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا . قال : « اذهب فاسقه عسلا » . فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله ، سقيته عسلا فمازاده إلا استطلاقا . فقال رسول الله - ﷺ - « صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فبرىء .

ثم ساق الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه البخارى عن ابن عباس قال : الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة محجم أو شربة عسل أوكية بنار ، وأنهى أمتى عن الكى » .

وروى البخارى - أيضا - عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن كان فى شىء من أدويتكم - أو يكون فى شىء من أدويتكم - خير : ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار ، توافق الداء ، وما أحب أن أكتوى »[1] .

وقال صاحب فتح البيان : وقد اختلف أهل العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى العسل عام لكل داء ، أو خاص ببعض الأمراض .

فقال طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد .

وقالت طائفة : أخرى : إن ذلك خاص ببعض الأمراض ، ولا يقتضى العموم فى كل علة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٧٥ .

وفى كل إنسان ، وليس هذا بأول لفظ خصص فى القرآن فالقرآن مملوء منه ، ولغة العربى يأتى فيها العام كثيرا بمعنى الخاص ، والخاص بمعنى العام .

ومما يدل على هذا ، أن العسل نكرة فى سياق الإثبات فلا يكون عاما باتفاق أهل اللسان . ومحققى أهل الأصول . وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض ، أو أمراض ، لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم .

ثم قال : قلت : وحديث البخارى : أن أخى استطلق بطنه .. أوضح دليل على ما ذهبت إليه طائفة من تعميم الشفاء ، لأن قوله - ﷺ - « صدق الله » أى : أنه شفاء فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر الأمر بالسقيا »[1] .

والذى نراه ، أن من الواجب علينا أن نؤمن إيمانا جازما بأن العسل المذكور فيه شفاء للناس ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، وكما أرشد إلى ذلك النبى - ﷺ - .

وعلينا بعد ذلك أن نفوض أمر هذا الشفاء وعموميته وخصوصيته لعلم الله - تعالى - وقدرته وحكمته ويكفينا يقينا فى هذا المجال ، إصرار النبى - ﷺ - على أن يقول للرجل الذى استطلق بطن أخيه أكثر من مرة ، « اذهب فاسقه عسلا » .

وقد تولى كثير من الأطباء شرح هذه الآية الكريمة شرحا علميا وافيا ، وبينوا ما اشتمل عليه عسل النحل من فوائد[2] .

ثم ختم - سبحانه - : الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أمر النحل ؛ من إلهامها اتخاذ البيوت العجيبة ، ومن إدارتها لشئون حياتها بدقة متناهية ، ومن سلوكها الطرق التى جعلها الله مذللة فى ذهابها وإيابها للحصول على قوام حياتها ، ومن خروج العسل من بطونها ... إن فى ذلك وغيره ، لآية باهرة ، وعبرة ظاهرة ، ودلالة جلية ، على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وحكمته ، لقوم يحسنون التفكير فيما أخبرهم الله - تعالى - عنه ، ويوقنون بأن لهذا الكون ربا واحدا لا إله الا هو ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا ألوانا من عجائب صنع الله فى خلقه ، كاستخراج اللبن من بين فرث ودم ، وكاتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، وكاستخراج العسل الذى فيه شفاء للناس من بطون النحل .

---

(١) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٢٦٧ للشيخ صديق خان .

(٢) راجع على سبيل المثال كتاب : الإسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز إسماعيل .

فهذه الأشربة قد أخرجها الله - تعالى - من أجساد مخالفة لها فى شكلها ، وقد ساقها - سبحانه - فى آيات جمع بينها التناسق الباهر فى عرض هذه النعم ، مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله، ﴿..ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[1].

وبعد هذا الحديث المتنوع عن عجائب خلق الله - تعالى - فى الأنعام والأشجار والنحل .. ساقت السورة الكريمة ألوانا أخرى من مظاهر قدرته - تعالى - فى خلق الإنسان ، وفى التفاضل فى الأرزاق ، ومن نعمه على عباده فى إيجاد الأزواج والبنين والحفدة .. فقال - تعالى - :

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

قال الإمام الرازى - رحمه الله - : لما ذكر - سبحانه - بعض عجائب أحوال الحيوانات ، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس ، ومنها ما هو مذكور فى هذه الآية : ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ - وهو إشارة إلى مراتب عمر الإنسان . والعقلاء ضبطوها فى أربع مراتب : أولها : سن النشوء والنماء ، وثانيها : سن الوقوف وهو سن الشباب ، من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة - ، وثالثها :سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة - وهو من الأربعين إلى الستين - ورابعها : سن الانحطاط الكبير - وهو سن الشيخوخة - وهو من الستين إلى نهاية العمر -»[2] .

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٣٣٢ .

والمعنى : « والله » – تعالى – هو الذى « خلقكم » بقدرته ، ولم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا .

« ثم » هو وحده الذى « يتوفاكم » وينهى حياتكم من هذه الدنيا عند انقضاء آجالكم .

وقوله ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر.. ﴾ معطوف على مقدر . أى : والله – تعالى – هو الذى خلقكم ، فمنكم من يبقى محتفظا بقوة جسده وعقله حتى يموت ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر . .

والمراد بأرذل العمر : أضعفه وأوهاه وهو وقت الهرم والشيخوخة ، الذى تنقص فيه القوى ، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها .

يقال : رَذُلَ الشىء يَرْذُل– بضم الذال فيهما – رذالة.. إذا ذهب جيده وبقى رديئه .

وقوله : ﴿ لكى لا يعلم بعد علم شيئا ﴾ تعليل للرد إلى أرذل العمر .

أى : فعلنا ما فعلنا من إبقاء بعض الناس فى هذه الحياة إلى سن الشيخوخة لكى يصير إلى حالة شبيهة بحالة طفولته فى عدم إدراك الأمور إدراكا تاما وسليما .

ويجوز أن تكون اللام للصيرورة والعاقبة . أى : ليصير أمره بعد العلم بالأشياء ، إلى أن لايعلم شيئا منها علما كاملا .

ولقد استعاذ النبى – ﷺ – من أن يصل عمره إلى هذه السن ، لأنها سن تتكاثر فيها الآلام والمتاعب . وقد يصير الإنسان فيها عالة على غيره . وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[1] .

قال الإمام ابن كثير : روى البخارى عند تفسير هذه الآية ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله – ﷺ – كان يدعو فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، والكسل ، والهرم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات » .

وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولا لا أبا لك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ، ومن تخطىء يعمر فيهرم[2]

(١) سورة الروم . الآية ٥٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٧ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على كمال علمه ، وتمام قدرته ، فقال - تعالى - : ﴿ إن الله عليم قدير ﴾ أى : إن الله - تعالى - عليم بأحوال مخلوقاته ، لايخفى عليه شيء من تصرفاتهم « قدير » على تبديل الأمور كما تقتضى حكمته وإرادته .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة إمكان البعث وأنه حق ، لأن الله - تعالى - القادر على خلق الانسان وعلى نقله من حال إلى حال .. قادر - أيضا - على إحيائه بعد موته .

ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن خلق الإنسان ، وتقلبه فى أطوار عمره ، إلى الحديث عن التفاوت بين الناس فى أرزاقهم ، فقال - تعالى - : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق... ﴾ فجعل منكم الغنى والفقير ، والمالك والمملوك ، والقوى والضعيف ، وغير ذلك من ألوان التفاوت بين الناس ، لحكمة هو يعلمها - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - موقف المفضلين فى الرزق من غيرهم فقال : ﴿ فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء .. ﴾ .

أى : فليس الذين فضلهم الله - تعالى - فى الرزق على غيرهم « برادى » أى : بمانحى وباذلى « رزقهم » الذى رزقهم الله إياه على مماليكهم أو خدمهم الذين هم إخوة لهم فى الانسانية « فهم » أى الأغنياء الذين فضلوا فى الرزق ومماليكهم وخدمهم « فيه » أى : فى هذا الرزق « سواء » من حيث إنى أنا الرازق للجميع .

فالجملة الكريمة يجوز أن تكون دعوة من الله - تعالى - للذين فضلوا على غيرهم فى الرزق ، بأن ينفقوا على مماليكهم وخدمهم ، لأن ما ينفقونه عليهم هو رزق أجراه الله للفقراء على أيدى الأغنياء .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله عند تفسير الآية : أى : جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم ، وإخوانكم ، فكان ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تتساووا فى الملبس والمطعم . كما يحكى عن أبى ذر أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : « إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم مما تلبسون ، وأطعموهم مما تطعمون » فما رؤى عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه ، وإزاره إزاره من غير تفاوت[١] .

ويجوز أن تكون الآية الكريمة توبيخ للذين يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة . فيكون المعنى : لقد فضل الله - تعالى - بعضكم على بعض فى الرزق - أيها

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٢٠ .

الناس - ، ومع ذلك فالمشاهد الغالب بينهم ، أن الاغنياء لا يردون أموالهم على خدمهم وعبيدهم بحيث يتساوون معهم فى الرزق ، وإذا ردوا عليهم شيئا ، فإنما هو شىء قليل يسير يدل على بخلهم وحرصهم .. مع أنى أنا الرازق للجميع .

وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله عند تفسيره للآية : « يبين - تعالى - للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من شركاء وهم يعترفون بأنهم عبيد له ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فقال - تعالى - منكرا عليهم : أنتم لاترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى - بمساواة عبيد له فى الإلهية والتعظيم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ... ﴾[1].

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية يقول : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون معى عبيدى فى سلطانى..[2] » .

وهذا المعنى الثانى هو الأقرب إلى سياق آيات السورة الكريمة ، لأن السورة الكريمة مكية ، ومن أهدافها الأساسية دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل - ، ونبذ الإشراك والمشركين ، وإقامة الأدلة المتنوعة على بطلان كل عبادة لغير الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ .

والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ، والفاء معطوفة على مقدر أى : أيشركون به - سبحانه - فيجحدون نعمه ، وينكرونها ، ويغمطونها حقها ، مع أنه - تعالى - هو الذى وهبهم هذه النعم ، وهو الذى منحهم ما منحهم من أرزاق؟!! .

ثم ذكرت السورة الكريمة بعد ذلك نعمة أخرى من نعم الله - تعالى - على الناس ، فقال - تعالى - : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ .

أى : والله - تعالى - هو وحده الذى جعل لكم ﴿ من أنفسكم ﴾ أى : من جنسكم ونوعكم ﴿ أزواجا ﴾ لتسكنوا إليها ، وتستأنسوا بها ، فإن الجنس إلى الجنس آنس وأسكن .

قال - تعالى - : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة... ﴾[3] .

---

(١) سورةالروم الآية ٢٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٧٧ .
(٣) سورة الروم الآية ٢١ .

قال الإمام ابن كثير : يذكر - تعالى - نعمه على عبيده ، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا ، أى : من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته أنه خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا ، وجعل الإناث أزواجا للذكور.. »[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى - والحفدة ، جمع حافد يقال ، حفد فلان يحفد حفدا من باب ضرب إذا أسرع فى خدمة غيره وطاعته . ومن دعاء القنوت : « وإليك نسعى ونحفد » أى : نسرع فى طاعتك ياربنا . والمراد بالحفدة : أبناء الأبناء . روى عن ابن عباس إنه قال : الحفيد ولد الابن والبنت ، ذكرا كان أو أنثى . وقيل المراد بهم : الخدم والأعوان ، وقيل المراد بهم: الأختان والأصهار أى : أزواج البنات وأقارب الزوجة . .

قال الجمل بعد أن نقل جملة من أقوال المفسرين فى ذلك : وكل هذه الأقوال متقاربة ، لأن اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك . وبالجملة فالحفدة غير البنين ، لأن الأصل فى العطف المغايرة[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ بيان لنعمة ثالثة من النعم المذكورة فى هذه الآية . أى : ورزقكم - سبحانه - من الطيبات التى تستلذونها وتشتهونها ، وقد أحل لكم التمتع بها فضلا منه وكرما .

ثم ختم - تعالى - الآية الكريمة بتأنيب الذين يؤثرون الغى على الرشد فقال - تعالى - : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ .

والباطل يشمل كل اعتقاد أو قول أو فعل يخالف الحق والرشاد والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والفاء معطوفة على مقدر . والمعنى : أيجحدون نعم الله - تعالى - فيؤمنون بالباطل ، ويكفرون بكل ما سواه من الحق والهدى والرشاد .

وفى تقديم الباطل على الفعل « يؤمنون » إشارة إلى أنهم قد اختلط الباطل بدمائهم فأصبحوا لا يؤمنون إلا به ، ولا ينقادون إلا له .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٨٦ .

والمراد بنعمة الله عموم النعم التى أنعم الله بها عليهم ، والتى لا تعد ولا تحصى .

وفى تقديم النعمة وتوسيط ضمير الفصل ، إشعار بأن كفرهم بالنعم مستمر وإنكارهم لها لا ينقطع ، لأنهم « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله » .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ذكرت الناس بعجائب خلقهم وبأطوار حياتهم ، وبتفاوت أرزاقهم ، وببعض نعم الله - تعالى - عليهم لعلهم عن طريق هذا التذكير يفيئون إلى رشدهم ، ويخلصون العبادة لخالقهم - سبحانه - ، ويستعملون نعمه فيما خلقت له .

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك لونا من ألوان العقول المنحرفة عن الطريق الحق ، كما ساقت مثلين للرب الخالق العظيم ، وللمملوك العاجز الضعيف ، لعل فى ذلك عبرة لمن يعتبر ، وهداية لمن يريد الصراط المستقيم ، فقال - تعالى - :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

والمراد بقوله سبحانه : ﴿ ويعبدون من دون الله ..... ﴾ كل معبود سوى الله - تعالى - من صنم أو وثن أو غير ذلك من المعبودات الباطلة .

والجملة الكريمة داخلة تحت مضمون الاستفهام الانكارى ، ومعطوفة عليه : وهو قوله

- تعالى - : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ .

أى أن هؤلاء الجاحدين لنعم الله - تعالى - ، بلغ من جهالتهم وسفاهاتهم أنهم يؤمنون بالباطل ، ويكفرون بالحق ، ويعبدون من دون الله - تعالى - أصناما وأوثانا لا تملك لعابدها أى شيء من الرزق فهى لا تنزل مطرا من السماء ولا تخرج نباتا من الأرض ، ولا تستطيع أن تنفع أو تضر . .

و « ما » فى قوله - تعالى - ﴿ مالا يملك .. ﴾ كناية عن معبوداتهم الباطلة فهى مفردة لفظا ، مجموعة معنى .

والتنكير فى قوله - سبحانه - ﴿ رزقا ﴾ للاشعار بقلته وتفاهته ، وأن معبوداتهم لا تملك لهم أى شيء من الرزق ، حتى ولو كان تافها حقيرا .

وقوله : ﴿ شيئا ﴾ منصوب على المصدر ، أى : ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم ملكا ، أى : شيئا من الملك .

والضمير فى قوله ﴿ ولا يستطيعون ﴾ يعود إلى ﴿ ما ﴾ وجمع بصيغة العقلاء بناء على زعمهم الفاسد ، من أن هذه الأصنام فى إمكانها النفع والضر .

وجاءت جملة ﴿ ولا يستطيعون ﴾ بعد قوله - تعالى - ﴿ ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض ..﴾ لتأكيد عجز هذه المعبودات عن فعل أى شيء فهى لا تملك شيئا ، وليس فى استطاعتها أن تملك لأنها ليست أهلا لذلك .

وقوله - سبحانه - ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال .. ﴾ نهى منه - سبحانه - عن أن يشبه فى ذاته أو صفاته بغيره ، وقد جاء هذا النهى فى صورة الالتفات من الغائب إلى المخاطب للاهتمام بشأن هذا النهى ، والفاء لترتيب النهى على ما عدد من النعم التى وردت فى هذه السورة والتى لم ينته الحديث عنها بعد .

والأمثال : جمع مثل،وهو النظير والشبيه لغيره ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - ، لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا .

وتضرب الأمثال : لتوضيح الشيء الغريب ، وتقريب المعنى المعقول من المعنى المحسوس ، وعرض ما هو غائب فى صورة ما هو مشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

وقوله - تعالى - ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ تعليل لهذا النهى عن ضرب الأمثال لله - عز وجل - .

أى : فلا تتجاسروا ، وتتطاولوا ، وتضربوا لله - تعالى - الأمثال ، كما يضرب بعضكم لبعض ، فإن الله - تعالى - هو الذى يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك .

قال الزجاج : ورد أن المشركين كانوا يقولون: إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا ، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك ، فنهوا عن ذلك[1] .

ثم وضح لهم - سبحانه - كيف تضرب الأمثال ، فساق مثلين حكيمين يدلان على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . .

أما المثل الأول فيتجلى فى قوله - عز وجل - : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء .. ﴾ . أى : ذكر الله - تعالى - وبين ووضح لكم مثلا تستدلون به على وحدانيته - سبحانه - وهو أن هناك عبدا رقيقا مملوكا لغيره ، وهذا العبد لا يقدر على شىء من التصرفات حتى ولو كانت قليلة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ عبدا ﴾ بدل من ﴿ مثلا ﴾ و « مملوكا » صفة للعبد . ووصف - سبحانه - العبد بأنه مملوك ، ليحصل الامتياز بينه وبين الحر ، لأن كليهما يشترك فى كونه عبدا لله - تعالى - .

ووصفه أيضا - بأنه لا يقدر على شىء للتمييز بينه وبين المكاتب والعبد المأذون له فى التصرف ، لأنهما يقدران على بعض التصرفات .

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا... ﴾ .

قال الآلوسى : و« من » فى قوله ﴿ ومن رزقناه ﴾ نكرة موصوفه ، ليطابق عبدا فإنه نكرة موصوفة - أيضا- ، وقيل: إنها موصولة ، والأول اختيار الأكثرين أى : حرا رزقناه بطريق الملك ، والالتفات إلى التكلم - فى « رزقناه » - للإشعار باختلاف حال ضرب المثل والرزق ...»[2] .

أى : ذكر الله - تعالى - لكم لتتعظوا وتتفكروا ، حال رجلين : أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شىء . والثانى حر مالك رزقه الله - تعالى - رزقا واسعا حلالا حسنا ، « فهو » أى هذا

---

(١) تفسير فتح القدير للشيخ صديق حسن خان ج ٥ ص ٢٧٣ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٩٥ .

الحر ينفق على غيره من هذا الرزق الحسن « سرا وجهرا » واختار - سبحانه - ضمير العظمة فى قوله ﴿ رزقناه ﴾ للإشعار بكثره هذا الرزق وعظمته ، ويزيده كثرة وعظمة قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ مِنَّا ﴾ أى : من عندنا وحدنا وليس من عند غيرنا .

ووصف - سبحانه - الرزق بالحسن ، للإشارة إلى أنه مع كثرته فهو حلال طيب مستحسن فى الشرع وفى نظر الناس .

وقال - سبحانه - ﴿ فهو ينفق ﴾ بصيغة الجملة الاسمية ، للدلالة على ثبوت هذا الإنفاق ودوامه .

وقوله ﴿ سرا وجهرا ﴾ منصوبان على المصدر ، أى إنفاق سر وجهر ، أو على الحالية ، أى فهو ينفق منه فى حالتى السر والجهر .

والمراد أنه إنسان كريم ، لا يبخل بشىء مما رزقه الله ، بل ينفق منه فى عموم الأحوال ، وعلى من تحسن معه النفقة سرا ، وعلى من تحسن معه النفقة جهرا .

هذان هما الجانبان المتقابلان فى هذا المثل ، والفرق بينهما واضح وعظيم عند كل ذى قلب سليم ، ولذا جاء بعدهما بالاستفهام الإنكارى التوبيخى فقال :

﴿ هل يستوون ﴾ ؟ أى : هل يستوى فى عرفكم أو فى عرف أى عاقل ، هذا العبد المملوك العاجز الذى لا يقدر على شىء .. مع هذا الانسان الحر . المالك الذى رزقه الله - سبحانه - رزقا واسعا حلالا ، فشكر الله عليه ، واستعمله فى وجوه الخير .

إن مما لا شك فيه أنهما لا يستويان حتى فى نظر من عنده أدنى شىء من عقل .

ومادام الأمر كذلك ، فكيف سويتم - أيها المشركون الجهلاء - فى العبادة ، بين الخالق الرازق الذى يملك كل شىء ، وبين غيره من المعبودات الباطلة التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تعقل ، ولا تملك شيئا .

وقال - سبحانه - ﴿ هل يستوون ﴾ مع أن المتقدم اثنان ، لأن المراد جنس العبيد والأحرار ، المدلول عليهما بقوله ﴿ عبدا ﴾ وبقوله ﴿ ومن رزقناه ﴾ .

فالمقصود بالمثل كل من اتصف بهذه الأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لافردان معينان .

وقوله : ﴿ الحمد لله ﴾ ثناء منه - سبحانه - على ذاته ، حيث ساق - سبحانه - هذه الأمثال الواضحة للتمييز بين الحق والباطل .

أى : قل - أيها الانسان المؤمن العاقل - « الحمد » كله « لله » - تعالى - على إرشاده

لعباده المؤمنين ، وتعليمهم كيف يقذفون بحقهم على باطل أعدائهم فإذا هو زاهق .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : بل أكثر هؤلاء الكافرين الضالين ، لا يعلمون كيف يميزون بين الحق والباطل لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الجحود والحسد والعناد على قلوبهم .

وقال - سبحانه - ﴿ بل أكثرهم .. ﴾ للإشعار بأن من هؤلاء الكافرين من يعلم الحق ويعرفه كما يعرف أبناءه ، ولكن الهوى والغرور والتقليد الباطل .. حال بينه وبين اتباع الحق .

هذا هو المثال الأول الذى ذكره الله - تعالى - للاستدلال على بطلان التسوية بين عبادة الله - تعالى - الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء .. وبين عبادة غيره من الأصنام والجمادات التى لا تخلق شيئا ، ولا تملك شيئا ، ولا تضر ولا تنفع .

أما المثال الثانى فهو أشد وضوحا من سابقه على وحدانية الله - تعالى - ورحمته بعباده ، وعلى الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، ويتجلى هذا المثال فى قوله - عز وجل - : ﴿ وضرب الله مثلا ، رجلين أحدهما أبكم ، لا يقدر على شيء ، وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير .. ﴾ .

أى : وذكر الله - تعالى - مثلا آخر لرجلين ، ﴿ أحدهما أبكم ﴾ أى : لا يستطيع النطق أو الكلام ، ضعيف الفهم والتفهيم لغيره .

﴿ لايقدر على شيء ﴾ أى : لا يقدر على فعل شيء من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره .

﴿ وهو ﴾ أى هذا الرجل ﴿ كل على مولاه ﴾ أى : حمل ثقيل ، وهم كبير على مولاه الذى يتولى شئونه من طعام وشراب وكساء وغير ذلك . وهذا بيان لعدم قدرته على القيام بمصالح نفسه ، بعد بيان عدم قدرته على القيام بفعل أى شيء على الإطلاق .

قال القرطبى : قوله ﴿ وهو كل على مولاه ﴾ أى ثقل على وليه وقرابته ، ووبال على صاحبه وابن عمه ، وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله ، ومنه قول الشاعر :

أكول لمال الكَلِّ قبل شبابه ... إذا كان عظم الكلِّ غير شديد[1]

فالكل هو الإنسان العاجز الضعيف الذى يكون محتاجا إلى من يرعى شئونه .

وقوله ﴿ أينما يوجهه لا يأت بخير ﴾ أى : أن هذا الرجل حيثما يوجهه مولاه وكافله لقضاء أمر من الأمور يعود خائبا ، لعجزه ، وضعف حيلته ، وقلة إدراكه . .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٤٩ .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا الرجل بأربع صفات ، تدل على سوء فهمه ، وقلة حيلته ، وثقله على ولى أمره ، وانسداد طرق الخير فى وجهه . .

هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .. ﴾

أى : « هل يستوى هو » أى هذا الرجل الأبكم العاجز .. مع رجل آخر « يأمر » غيره بالعدل « وهو » أى هذا الرجل الآخر فى نفسه « على صراط مستقيم » أى : على دين قويم ، وخلق كريم فقد جمع بذلك بين فضيلتين جليلتين : نفعه لغيره ، وصلاحه فى ذاته .

لاشك أن هذين الرجلين لا يستويان فى عقل أى عاقل ، إذ أن أولهما أبكم عاجز خائب .. وثانيهما منطيق ، ناصح لغيره ، جامع لخصال الخير فى نفسه .

ومادام الامر كذلك فكيف سويتم - أيها المشركون الضالون المكذبون - فى العبادة بين الله - تعالى - وهو الخالق لكل شىء ، وبين تلك الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عن عابديها شيئا .

أو كيف سويتم بين المؤمن الجامع لكل مكرمة ، وبين الكافر الغبى الأبله الذى آثر الغى على الرشد ، فتكون الآية الكريمة مسوقة لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر .

وقد قابل - سبحانه - الأوصاف الأربعة للرجل الأول ، بهذين الوصفين للرجل الثانى ، لأن حاصل أوصاف الأول أنه غير مستحق لشىء ، وحاصل وصفى الثانى أنه مستحق لكل فضل وخير .

وقوله ﴿ ومن يأمر بالعدل ... ﴾ معطوف على الضمير المستتر فى قوله ﴿ هل يستوى ... ﴾ .

وجملة « وهو على صراط مستقيم» فى محل نصب على الحال .

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا مثلين واضحين ، لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله - تعالى - الخلاق العليم ، الرزاق الكريم .. وبين تلك المعبودات الباطلة التى أشركها الضالون فى العبادة مع الله - عز وجل - .

أو بين المؤمن الذى هو على بصيرة من أمره ، وبين الكافر الذى استحب العمى على الهدى .. أو بين الحق فى وضوحه وجماله وجلاله ، وبين الباطل فى ظلامه وقبحه وخسته .

هذا ، وما ذكره بعضهم من أن المثلين فى الآيتين الكريمتين ، قد وردا فى أشخاص معينين من

المؤمنين أو الكافرين ، لا يعول عليه ، لضعف الروايات التى وردت فى ذلك ، ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال الآلوسى ما ملخصه : وما روى من أن الأبكم أبو جهل والآمر بالعدل عمار ، أو بالأبكم أبى بن خلف ، والآمر بالعدل عثمان بن مظعون لا يصح إسناده ..»[1] .

وبهذين المثلين تكون السورة الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأسطعها على صحة قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ... ﴾ .

ثم ساقت السورة بعد ذلك ما يدل على إحاطة علمه - سبحانه - بكل شىء ، وعلى شمول قدرته ، وعلى سابغ نعمته ، فقال - تعالى - :

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ١٩٧ .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

والمراد بالغيب فى قوله - سبحانه - ﴿ ولله غيب السموات والأرض ... ﴾ ما لا تدركه الحواس ، ولا تحيط بكنهه العقول لأنه غائب عن مدارك الخلائق .

والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : لله - تعالى - وحده ، علم جميع الأمور الغائبة عن مدارك المخلوقين ، والتى لا سبيل لهم إلى معرفتها لا عن طريق الحس ، ولا عن طريق العقل .

ومن كانت هذه صفته ، كان مستحقا للعبادة والطاعة ، لا تلك المعبودات الباطلة التى لا تعلم من أمرها أو من أمر غيرها شيئا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ بيان لسرعة نفاذ أمره بدون مهلة .

والساعة فى الأصل : اسم لمقدار قليل من الزمان غير معين . والمراد بها هنا يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوال .

وسمى يوم القيامة بالساعة : لوقوعه بغتة ، أو لسرعة ما يقع فيه من حساب أو لأنه على طوله زمنه يسير عند الله - تعالى - .

واللمح: النظر الذى هو فى غاية السرعة. يقال لمحه لمحا ولمحانا إذا رآه بسرعة فائقة. ولمح البصر : التحرك السريع لطرف العين من جهة الى جهة ، أو من أعلى إلى أسفل .

و« أو » هنا للتخيير بالنسبة لقدرة الله - تعالى - أو للإضراب .

أى : ولله - سبحانه - وحده علم جميع ما غاب فى السموات والأرض من أشياء ، وما أمر قيام الساعة فى سرعته وسهولته ، وما يترتب عليه من إماتة وإحياء ، وحساب ، وثواب وعقاب ... ما أمر ذلك كله إلا كتحرك طرف العين من جهة إلى جهة ، أو هو - أى أمر قيامها - أقرب من ذلك وأسرع ، بحيث يكون فى نصف هذا الزمان أو أقل من ذلك ، لأن قدرته لا يعجزها شىء ، قال - تعالى - : ﴿ إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ . والمقصود من هذه الجملة الكريمة : بيان سرعة تأثير قدرة الله - عز وجل - متى توجهت إلى شىء من الأشياء .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يؤكد شمول قدرته فقال - تعالى - : ﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ أى : إن الله - تعالى - لا يعجز قدرته شىء سواء أكان هذا الشىء يتعلق بأمر قيام الساعة فى أسرع من لمح البصر .. أو بغير ذلك من الأشياء .

ثم ساق - تعالى - بعد ذلك أنواعا من نعمه على عباده فقال : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ﴾ . أى : والله - تعالى - وحده هو الذى أخرجكم - أيها الناس - من بطون أمهاتكم إلى هذه الحياة ، وأنتم لا تعلمون شيئا لا من العلم الدنيوى ولا من العلم الدينى، ولا تعرفون ما يضركم أو ينفعكم، والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا .. ﴾ .

وجملة « لا تعلمون شيئا » حال من الكاف فى « أخرجكم » .

وقوله - سبحانه - ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ نعمة ثانية من نعمة الله - سبحانه - التى لا تحصى .

أى :أن من نعمة الله - تعالى - أنه أخرجكم من بطون أمهاتكم - بعد أن مكثتم فيها شهورا تحت كلاءته ورعايته - وأنتم لا تعرفون شيئا ، وركب فيكم بقدرته النافذة ، وحكمته البالغة ، « السمع » الذى تسمعون به ، والبصر الذى بواسطته تبصرون ، « والأفئدة » التى عن طريقها تعقلون وتفقهون ، لعلكم بسبب كل هذه النعم التى أنعمها عليكم ، تشكرونه حق الشكر ، بأن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتستعملوا نعمه فى مواضعها التى وجدت من أجلها .

قال الجمل : وجملة : « وجعل لكم السمع والأبصار...» ابتدائية ، أو معطوفة على ماقبلها ، والواو لا تقتضى ترتيبا ، فلا ينافى أن هذا الجعل قبل الإخراج من البطون. ونكتة تأخيره - أى الجعل - أن السمع ونحوه من آلات الادراك ، إنما يعتد به إذا أحس الإنسان

وأدرك وذلك لا يكون الا بعد الإخراج . وقدم السمع على البصر ، لأنه طريق تلقى الوحى ، أو لأن إدراكه أقدم ، من إدراك البصر . وإفراده - أى السمع - باعتبار كونه مصدرا فى الأصل ..."[1] .

وقال الإمام ابن كثير : « وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا حتى يبلغ أشده . وإنما جعل - تعالى - هذه الحواس فى الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله -ﷺ- أنه قال : يقول تعالى - « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشىء أفضل مما افترضت عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن دعانى لأجيبنه ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وماترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه » .

فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة ، صارت أفعاله كلها لله ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أى : لما شرعه الله له .."[2] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[3] .

ثم حض - سبحانه - عباده على التفكر فى مظاهر قدرته فقال - تعالى - : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله .. ﴾ .

والطير : جمع طائر كركب وراكب . و « مسخرات » من التسخير بمعنى التذليل والانقياد أى : ألم ينظر هؤلاء الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى فى العبادة ، إلى الطيور وهن يسبحن فى الهواء المتباعد بين الأرض والسماء ، ما يمسكهن فى حال قبضهن وبسطهن لأجنحتهن إلا الله - تعالى - ، بقدرته الباهرة ، وبنواميسه التى أودعها فى فطرة الطير .

إنهم لو نظروا نظر تأمل وتعقل ، لعلموا أن المسخر لهن هو الله الذى لا معبود بحق سواه

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٨٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ص ٥٧٩ .
(٣) سورة الملك الآية ٢٤ .

وفى قوله - تعالى - « مسخرات » إشارة إلى أن طيرانها فى الجو ليس بمقتضى طبعها ، وإنما هو بتسخير الله تعالى لها وبسبب ما أوجد لها من حواس ساعدتها على ذلك ، كالأجنحة وغيرها . وأضاف - سبحانه - الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض ، ولاظهار كمال قدرته - سبحانه - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

أى : إن فى ذلك التسخير والتذليل للطير على هذه الصفة « لآيات » بينات على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، « لقوم يؤمنون » بالحق ، ويفتحون قلوبهم له ويسمون بأنفسهم عن التقليد الباطل .

ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا من النعم ، منها ما يتعلق بنعمة المسكن فقال - تعالى - : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ... ﴾ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ جعل لكم ﴾ معناه صير ، وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء ، وكل ما أقلك فهو أرض ، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار ، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت ، وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس فى البيوت وقوله : « سكنا » أى : تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة ...[1] .

والحق أن نعمة السكن فى البيوت والاستقرار فيها ، والشعور بداخلها بالأمان والاطمئنان ، هذه النعمة لا يقدرها حق قدرها ، إلا أولئك الذين فقدوها ، وصاروا يعيشون بلا مأوى يأويهم ، أو منزل يجمع شتاتهم .

والتعبير بقوله عز وجل ﴿ سكنا ﴾ فيه ما فيه من السمو بمكانة البيوت التى يسكنها الناس . فالبيت مكان السكينة النفسية ، والراحة الجسدية ، هكذا يريده الإسلام ، ولا يريده مكانا للشقاق والخصام ، لأن الشقاق والخصام ينافى كونه « سكنا » .

والبيت له حرمته التى جعل الإسلام من مظاهرها ، عدم اقتحامه بدون استئذان ، وعدم التطلع إلى ما بداخله ، وعدم التجسس على من بداخله .

وصيانة حرمة البيت - كما أمر الاسلام - تجعله « سكنا » آمنا ، يجد فيه أصحابه كل مايريدون من الراحة النفسية والشعورية .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٥٢ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴾ بيان لنعمة أخرى تتمثل فى البيوت الخفيفة المتنقلة ، بعد الحديث عن البيوت الثابتة المستقرة .

والأنعام : جمع نعم . وتشمل الإبل والبقر والغنم ، ويدخل فى الغنم المعز .

والظعن بسكون العين وفتحها : التحول والانتقال والرحيل من مكان إلى آخر طلبا للكلأ ، أو لمساقط الغيث ، أو لغير ذلك من الأغراض .

أى : ومن نعمه أيضا أنه أوجد لكم من جلود الأنعام بيوتا « تستخفونها » أى : تجدونها خفيفة « يوم ظعنكم » أى : يوم سفركم ورحيلكم من موضع إلى آخر « ويوم إقامتكم » فى مكان معين بحيث يمكنكم أن تنصبوها لترتاحوا بداخلها ، بأيسر السبل ، وذلك كالقباب والخيام والأخبية ، وغير ذلك من البيوت التى يخف حملها .

ثم ختم - سبحانه - الآية بإبراز نعمة ثالثة ، تتمثل فيما يأخذونه من الأنعام فقال - تعالى - : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها ، وأشعارها ، أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ .

والأثاث: متاع البيت الكثير ، وأصله من أث الشىء - بفتح الهمزة وتشديد الثاء مع الفتح - إذا كثر وتكاثف ، ومنه قول الشاعر .

وفرع يزين المتن أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقنو النخلة المتعثكل[1]

ويشمل جميع أصناف المال كالفرش وغيرها .

والمتاع : ما يتمتع به من حوائج البيت الخاصة كأدوات الطعام والشراب ، فيكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام .

وقيل : هما بمعنى واحد . والعطف لتنزيل تغاير اللفظ بمنزله تغاير المعنى .

أى : ومن أصواف الغنم ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز ، تتخذون لأنفسكم « أثاثا » كثيرا تستعملونه فى مصالحكم المتنوعة ، كما تتخذون من ذلك ما تتمتعون به فى بيوتكم وفى معاشكم « إلى حين » أى : إلى وقت معين قدره الله - تعالى - لكم فى تمتعكم بهذه الأصواف والأوبار والأشعار .

وبعد الحديث عن نعمة البيوت والأنعام جاء الحديث عن نعمة الظلال والجبال واللباس ،

---

(١) الفرع : الشعر التام : والمتن : ما عن يمين الرأس وشماله ، والفاحم : الشديد السواد . والأثيت : الكثير المتكاثف . والمتعثكل : الذى دخل بعضه فى بعض لكثرته (راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٥٤) .

فقال - تعالى - : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالا ... ﴾ .

والظلال : جمع ظل ، وهو ما يستظل به الإنسان .

أى : والله - تعالى - بفضله وكرمه جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد ، كالأبنية والأشجار ، وغير ذلك من الأشياء التى تستظلون بها .

وقوله - تعالى - ﴿ وجعل لكم من الجبال أكنانا ... ﴾ نعمة ثانية .

والأكنان جمع كِن - بكسر الكاف - وأصله السُّتْرَةُ ، والجمع : أكنان وأَكِنَّة ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ... ﴾[1] أى فى أستار وأغطية فلا يصل إليها قولك ...

والمراد بالأكنان هنا : المغارات والأسراب والكهوف المنحوتة فى بطون الجبال .

أى : وجعل لكم - سبحانه - من الجبال مواضع تستترون فيها من الحر أو البرد أو المطر ، أو غير ذلك من وجوه انتفاعكم بتلك الأكنان .

وقوله - سبحانه - ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ نعمة ثالثة . والسرابيل : جمع سربال وهى كل ما يتسربل به : أى يلبسه الناس للتستر والوقاية كالقمصان والثياب والدروع وغيرها . أى : وجعل لكم من فضله وكرمه ملابس تتقون بها ضرر الحر وضرر البرد ، وملابس أخرى هى الدروع وما يشبهها - تتقون بها الضربات والطعنات التى تسدد إليكم فى حالة الحرب .

وقال - سبحانه - : ﴿ تقيكم الحر ﴾ مع أنها تقى من الحر والبرد ، اكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر ، أو اكتفى بذكر الحر لأنه الأهم عندهم ، إذ من المعروف أن بلاد العرب يغلب عليها الحر لا البرد .

قال صاحب الكشاف : لم يذكر البرد ، لأن الوقاية من الحر أهم عندهم ، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيرا محتملا ، وقيل : ما يقى من الحريقى من البرد ، فدل ذكر الحر على البرد[2] .

وقال القرطبى : قال العلماء : فى قوله - تعالى - : ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ دليل

---

(١) سورة فصلت الآية ٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٢٦ .

على اتخاذ الناس عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء . وقد لبسها النبى - ﷺ - فى حروبه ..[١] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ أى : كذلك الإتمام السابغ للنعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده يتم نعمته عليكم المتمثلة فى نعم الدين والدنيا ، لعلكم بذلك تسلمون وجوهكم لله - عز وجل - ، وتدخلون فى دين الإسلام عن اختيار واقتناع ، فإن من شاهد كل هذه النعم ، لم يسعه إلا الدخول فى الدين الحق .

ثم سلى الله - تعالى - نبيه - ﷺ - عما أصابه من أعدائه فقال : ﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ .

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : فإن استمر هؤلاء المشركون فى إعراضهم عن دعوتك بعد هذا البيان والامتنان ، فلا لوم عليك ، فأنت عليك البلاغ الواضح ونحن علينا محاسبتهم ، ومعاقبتهم بما يستحقون من عقاب .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ استئناف مسوق لبيان الموقف الجحودى الذى وقفه المشركون من نعم الله - تعالى - .

والمراد بالكفر فى قوله - تعالى - : ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ الستر لنعم الله عن معرفة لها ، وغمطها عن تعمد وإصرار .

أى : إن هؤلاء المشركين ، يعرفون نعم الله التى عددها فى هذه السورة ، كما أنهم يعترفون بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله ، ولكنهم ينكرون هذه النعم بأفعالهم القبيحة ، وأقوالهم الباطلة ، كقولهم هذه النعم من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا الأصنام ، أو كقولهم : هذه النعم ورثناها عن آبائنا .

وجاء التعبير بثم لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة بالنعم ، فإن من شأن العالم بالنعمة أن يؤدى الشكر لمسديها ، وأن يستعملها فيما خلقت له .

وقوله ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ أى : وأكثر هؤلاء الضالين . جاحدون لنعم الله عن علم بها لا عن جهل ، وعن تذكر لا عن نسيان .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا .. ﴾[٢] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٦٠ .
(٢) سورة النمل الآية ١٤ .

قال صاحب فتح البيان : و عبر هنا بالأكثر فى قوله - تعالى - : ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ والمراد الكل ، لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع ، أو أراد بالاكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم ، أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر أقلهم عن جهل ، وكفر أكثرهم بسبب تكذيبهم للرسول - ﷺ - عنادا أو حسدا ..[1] .

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت لنا ألوانا من نعم الله - تعالى - على عباده ، وأدلة متعددة على وحدانيته وقدرته ، وجانبا من موقف الكافرين من هذه النعم .

ثم تحدثت السورة الكريمة بعد ذلك عن حال الظالمين يوم القيامة وعن الأقوال التى يقولونها عندما يرون أصنامهم فى هذا اليوم العصيب ..

قال تعالى :

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ

---

(١) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٢٨٢ .

أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين حال القوم ، أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، وذكر أيضا من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد ، فذكر حال يوم القيامة فقال : . ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ...﴾ وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار ، وبذلك الكفر ، والمراد بهؤلاء الشهداء : الأنبياء ، كما قال - تعالى - : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[١] .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - ﴿ يوم نبعث فى كل أمة ﴾ أى : جماعة من الناس ، « شهيدا » يشهد للمؤمن بالإيمان ويشهد على الكافر بالكفر .

قال ابن عباس : شهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق ، وعليهم بالكفر والتكذيب .

وقوله : ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ بيان للمصير السيء الذى ينتظر هؤلاء الكافرين يوم القيامة .

أى : ثم لا يؤذن للذين كفروا يوم القيامة فى الاعتذار ، عما كانوا عليه فى الدنيا من عقائد زائفة ، وأقوال باطلة ، وأفعال قبيحة ، كما قال - تعالى - فى سورة أخرى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾[٢] .

أو المعنى : ثم لا يؤذن لهم فى الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من عقائد سليمة وأعمال صالحة ، لأنهم قد تركوها ولا عودة لهم إليها . أى : ثم لا يؤذن لهم فى الكلام ، بعد أن ثبت بطلانه ، وقامت عليهم الحجة والتعبير بثم للاشعار بأن مصيبتهم بسبب عدم قبول أعذارهم ، أشد من مصيبتهم بسبب شهادة الأنبياء عليهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٣٤٢ .

(٢) سورة المرسلات الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى « ثم » هذه ؟ .

قلت : معناها أنهم يبتلون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها ، وهو أنهم يمنعون الكلام ، فلا يؤذن لهم فى إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ تيئيس آخر لهم فى الحصول على شيء من رحمة الله - تعالى - . أى :لا يؤذن لهم فى الاعتذار ، ولا يقبل منهم أن يزيلوا عتب ربهم ، أى : غضبه وسخطه عليهم ، لأن العتاب إنما يطلب لأجل معاودة الرضا من العاتب ، وهؤلاء قد انسد عليهم هذا الطريق ، لأن الله - تعالى - قد سخط عليهم سخطا لا مجال لإزالته ، بعد أن أصروا على كفرهم فى الدنيا وماتوا على ذلك .

قال القرطبى : قوله ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون .

وأصل الكلمة من العَتْب - بفتح العين وسكون التاء - وهى الموجدة . يقال : عَتَب عليه يُعتِب ، إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه ، فإذا رجع الى مسرتك فقد أعتب ، والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب .

قال النابغة :

فإن كنتُ مظلوما فعبدا ظلمتَه وإن كنتَ ذا عُتْبَى فمثلك يُعتِبُ[2]

وبذلك ترى الآية الكريمة قد نفت عن الذين كفروا قبول أعذارهم ، وقبول محاولتهم إرضاء ربهم عما كانوا عليه من كفر وزيغ فى الدنيا .

ثم نفى - سبحانه - عنهم - أيضا - تخفيف العذاب أو تأخيره فقال : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ .

أى : وإذا أبصر الذين ظلموا العذاب الذى أعد لهم فى الآخرة بسبب ظلمهم وكفرهم فى الدنيا ، فزعوا وخافوا ، ولكن خوفهم وفزعهم لن يغير من الأمر شيئا ، إذ لا يخفف عنهم العذاب بسبب خوفهم أو فزعهم : ولا هم يمهلون أو يؤخرون عنه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٢٦ .

(٢) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٢ .

وعلق - سبحانه - الرؤية بالعذاب ، للاشعار بأن فجيعتهم الكبرى كانت عند إبصاره ومشاهدته .

ثم حكى سبحانه بعض ما يدور بينهم وبين معبوداتهم الباطلة يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ، قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك .. ﴾ .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أى : أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ، وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يوردوهم النار . وفى صحيح مسلم : « من كان يعبد شيئا فليتبعه » فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... »[1] .

وقال الآلوسى : والمراد بشركائهم : كل من اتخذوه شريكا له - عز وجل - من صنم ، ووثن ، وشيطان ، وآدمى ، وملك .. وإضافتهم إلى ضمير المشركين لهذا الاتخاذ - أى لاتخاذهم إياهم شركاء لله فى العبادة - أو لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم وأنعامهم »[2] .

أى : وإذا أبصر المشركون يوم القيامة شركاءهم الذين أشركوهم مع الله - تعالى - فى العبادة ، « قالوا » أى المشركون على سبيل التحسر والتفجع ياربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا فى الدنيا نعبدهم من دونك ، ونتقرب بهم إليك ، فلا تجعل ياربنا العذاب علينا وحدنا بل خففه أو ارفعه عنا فهؤلاء الشركاء هم الذين أضلونا .

قال أبو مسلم : ومقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك واستراوحا ، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ حكاية لما رد به الشركاء على المشركين . أى : فرد أولئك الشركاء من الأصنام وغيرها على المشركين بقولهم : إنكم لكاذبون - أيها المشركون - فى إحالتكم الذنب علينا ، فإننا ما دعوناكم لعبادتنا ، ولا أجبرناكم على الإشراك بالله - تعالى - ، ولكنكم أنتم الذين اخترتم هذا الطريق المعوج ،

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٣ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢٠٨ - بتصرف وتلخيص - .
(٣) تفسير فتح البيان ج ٥ ص ٢٨٤ للشيخ صديق حسن خان .

تقليدا لآبائكم واستجابة لأهوائكم وشهواتكم ، وإيثارا للباطل على الحق وما رد به الشركاء على المشركين هنا ، قد جاء ما يشبهه فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ..﴾[2] .

قال القرطبى : وقوله - تعالى - : ﴿ فألقوا إليهم القول ... ﴾ أى : ألقت إليهم الآلهة القول ، أى : نطقت بتكذيب من عبدها . بأنها لم تكن آلهة ، ولا أمرتهم بعبادتها ، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار[3] .

وقال الجمل : فإن قلت : كيف أثبت للأصنام نطقا هنا ، ونفاه عنها فى قوله - تعالى - فى سورة الكهف : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ..﴾ .

فالجواب : أن المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين فى دعوى عبادتهم لها ، والمنفى عنهم فى الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافى[4] .

والتعبير بقوله - تعالى - : ﴿ فألقوا إليهم القول ...﴾ يشعر بأن الشركاء قد ردوا على المشركين قولهم بسرعة وبدون إبطاء حيث أتى - سبحانه - بالفاء فى قوله ﴿ فألقوا ﴾ واشتملت جملة « إنكم لكاذبون » على جملة من المؤكدات ، لإفحام المشركين ، وتكذيبهم فى قولهم تكذيبا قاطعا لا يحتمل التأويل .

ولذا وجدنا المشركين يعجزون عن الرد على شركائهم ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أى :وألقى المشركون يوم القيامة « السلم » أى : الاستسلام والخضوع والانقياد ، لقضاء الله - تعالى - العادل فيهم ، وغاب وذهب عنهم ما كانوا يفترونه ويزعمونه فى الدنيا من أن آلهتهم ستشفع لهم ، أو ستنفعهم يوم القيامة .

---

(١) سورة مريم الآيتان ٨١ ، ٨٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٢٢ .

(٣) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٣ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٩٢ .

وقيل : إن الضمير فى قوله - تعالى - ﴿ وألقوا ﴾ يعود على المشركين وشركائهم . أى . استسلم العابدون والمعبودون وانقادوا لحكم الله الواحد القهار فيهم .

ثم بين - سبحانه - مصير الذين لم يكتفوا بالكفر ، بل ضموا إليه رذائل أخرى فقال - تعالى - : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ أى : الذين لم يكتفوا بكفرهم ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم « صدوا » غيرهم ومنعوه « عن سبيل الله » أى : عن اتباع الصراط المستقيم ، والطريق القويم وهو طريق الإسلام .. هؤلاء الأشقياء الذين فعلوا ذلك : « زدناهم عذابا » شديدا « فوق العذاب » الذى يستحقونه «بما كانوا يفسدون » أى : بسبب فسادهم فى الأرض وكفرهم بالحق ، وصدهم الناس عن اتباعه .

وهذه الزيادة فى عذابهم ، وردت آثار عن بعض الصحابة فى بيانها . و من ذلك ما روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : « زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال ينهشونهم فى جهنم »[1] .

قال ابن كثير : وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم[2] .

ثم أكد - سبحانه - أمر البعث ، وأنه آت لا ريب فيه ، فقال - تعالى - : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ﴾ .

والمراد بالشهيد هنا : كل نبى بعثه الله - تعالى - لأمة من الأمم السابقة كنوح ، وإبراهيم ، وموسى، وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء السابقين - عليهم الصلاة والسلام - .

والظرف « يوم » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتتعظ وتعتبر - يوم القيامة - يوم نبعث فى كل أمة من الأمم السابقة ، نبيها الذى أرسل إليها فى الدنيا ، ليشهد عليها الشهادة الحق ، بأن يشهد لمؤمنها بالإيمان ، ولكافرها بالكفر .

وقوله - سبحانه - : ﴿ من أنفسهم ﴾ أى : من جنسهم وبيئتهم ، ليكون أتم للحجة ، وأقطع للمعذرة ، وأدعى إلى العدالة والإنصاف .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ١٠٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨١ .

قال الآلوسى : ولا يرد لوط - عليه السلام - فإنه لما تأهل فيهم وسكن معهم عد منهم - أيضا - .

وقال ابن عطية : يجوز أن يبعث الله شهداء من الصالحين مع الأنبياء - عليهم السلام - .

وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحدا على معصية فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيدا عليه يوم القيامة[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ خطاب للنبى - ﷺ - على سبيل التشريف والتكريم . أى : وجئنا بك - أيها الرسول الكريم - يوم القيامة شهيدا على هؤلاء الذين أرسلك الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وإيثار لفظ المجىء على البعث ، لكمال العناية بشأنه - ﷺ - .

قال ابن كثير قوله : ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ يعنى أمتك . أى اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم ، والمقام الرفيع . وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله - ﷺ - صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله - تعالى - ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فقال له رسول الله - ﷺ - « حسبك » . فقال ابن مسعود : فالتفت فإذا عيناه - ﷺ - تذرفان . أى بالدموع ...[٢] .

والمراد بشهادته على أمته - ﷺ - : تصريحه بأنه قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح لأمته ، وتزكيته لأعمال الصالحين منها ، ورجاؤه من الله - تعالى - فى هذا اليوم العصيب أن يغفر للعصاة من هذه الأمة .

ويرى بعضهم أن المراد بهؤلاء فى قوله : ﴿ وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ أى : على الأنبياء السابقين وأممهم .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة ، ولأن آية سورة النساء ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ تؤيده .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان ما أنزله عليه من وحى فيه الشفاء للصدور ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٤ ص ٢١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٢ .

والموعظة للنفوس فقال - تعالى - : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ .

والتبيان : مصدر يدل على التكثير . قالوا : ولم يجئ من المصادر على هذه الزنة إلا لفظان لفظ التبيان ، ولفظ التلقاء . أى : « ونزلنا عليك » - أيها الرسول الكريم - « الكتاب » الكامل الجامع وهو القرآن الكريم « تبيانا » . أى : بيانا بليغا شاملا « لكل شىء » على سبيل الإجمال تارة ، وعلى سبيل التفصيل تارة أخرى .

وقوله : ﴿ وهدى ورحمة وبشرى للمؤمنين ﴾ صفات أخرى للكتاب .

أى : أنزلنا عليك القرآن ليكون تبيانا لكل شىء وليكون هداية للناس إلى طريق الحق والخير ، ورحمة لهم من العذاب ، وبشارة لمن أسلموا وجوههم لله - تعالى - وأحسنوا القول والعمل ، لا لغيرهم ممن آثروا الكفر على الإيمان ، والغىّ على الرشد .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : ﴿ تبيانا لكل شىء ﴾ أى بيانا بليغا ، فالتبيان أخص من مطلق البيان على القاعدة : أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

وهذا التبيان إما فى نفس الكتاب ، أو بإحالته على السنة لقوله - تعالى - : ﴿ ... وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ... ﴾[1] ، أو بإحالته على الاجماع كما قال - تعالى - : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ...﴾[2] أو على القياس كما قال : ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ والاعتبار : النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس .

فهذه أربعة طرق لا يخرج شىء من أحكام الشريعة عنها ، وكلها مذكورة فى القرآن ، فكان تبيانا لكل شىء فاندفع ما قيل : كيف قال الله - تعالى - ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ﴾ ونحن نجد كثيرا من أحكام الشريعة لم يعلم من القرآن نصا ، كعدد ركعات الصلاة ، ومقدار حد الشرب ، ونصاب السرقة وغير ذلك ...[3] .

وبعد أن مدح - سبحانه - القرآن الكريم ، بأن فيه تبيان كل شىء ، وأنه هداية ورحمة وبشرى للمسلمين ، أتبع ذلك بآيات كريمة أمرت المسلمين بأمهات الفضائل ، وبجماع مكارم

---

(١) سورة الحشر الآية ٧ .
(٢) سورة النساء الآية ١١٥ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩٣ .

الأخلاق ، ونهتهم عن الفواحش والرذائل لتكون كالدليل على ما فى هذا الكتاب من تبيان وهدى ورحمة فقال - تعالى - :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ، فقال ابن عباس : العدل : لا إله إلا الله ، والإحسان : أداء الفرائض . وقيل العدل : الفرض . والإحسان : النافلة ، وقال على بن أبى طالب : العدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل .

وقال ابن العربى : العدل بين العبد وربه : إيثار حقه - تعالى - على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر . وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعه

ما فيه هلاكها .. وأما العدل بينه وبين غيره فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قل أو كثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه .

وأما الإحسان فهو مصدر أحسن يحسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما : متعد بنفسه ، كقولك : أحسنت كذا ، أى : حسنته وأتقنته وكملته ، وهو منقول بالهمزة من حسن الشىء . وثانيهما : متعد بحرف جر ، كقولك : أحسنت إلى فلان ، أى : أوصلت إليه ما ينتفع به . وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معا ..[1] .

ومن هذا الكلام الذى نقلناه بشىء من التلخيص عن الإمام القرطبى ، يتبين لنا أن العدل هو أن يلتزم الإنسان جانب الحق والقسط فى كل أقواله وأعماله ، وأن الإحسان يشمل إحسان الشىء فى ذاته سواء أكان هذا الشىء يتعلق بالعقائد أم بالعبادات أم بغيرهما ، كما يشمل إحسان المسلم إلى غيره .

فالإحسان أوسع مدلولا من العدل : لأنه إذا كان العدل معناه : أن تعطى كل ذى حق حقه ، بدون إفراط أو تفريط ، فإن الإحسان يندرج تحته أن تضيف إلى ذلك : العفو عمن أساء إليك ، والصلة لمن قطعك ، والعطاء لمن حرمك .

وإيثار صيغة المضارع فى قوله : ﴿ إن الله يأمر ... ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار . ولم يذكر - سبحانه - متعلقات العدل والإحسان ليعم الأمر جميع ما يعدل فيه ، وجميع ما يجب إحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال ، وجميع ما ينبغى أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ فضيله ثالثة معطوفة على ما قبلها من عطف الخاص على العام ، إذ هى مندرجة فى العدل والإحسان .

وخصها - سبحانه - بالذكر اهتماما بأمرها ، وتنويها بشأنها ، وتعظيما لقدرها .

والإيتاء : مصدر بمعنى الإعطاء ، وهو هنا مصدر مضاف لمفعوله .

والمعنى : إن الله - تعالى - يأمركم - أيها المسلمون - أمرا دائما وواجبا ، أن تلتزموا الحق والإنصاف فى كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم ، وأن تلتزموا التسامح والعفو والمراقبة لله - تعالى - فى كل أحوالكم .

كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة ، ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر ..

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٦ .

لأن هذه الفضائل متى سرت بينكم ، نلتم السعادة فى دينكم ودنياكم ، إذ بالعدل ينال كل صاحب حق حقه ، وبالإحسان يكون التحاب والتواد والتراحم ، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون .. .

وبعد أن أمر - سبحانه - بأمهات الفضائل ، نهى عن رءوس الرذائل فقال - تعالى - : ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. ﴾ .

والفحشاء : كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل . وخصها بعضهم بالزنا .

والمنكر : كل ما أنكره الشرع بالنهى عنه ، فيعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها .

والبغى : هو تجاوز الحد فى كل شىء يقال : بغى فلان على غيره ، إذا ظلمه وتطاول عليه .

وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .. .

أى : كما أمركم - سبحانه - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فإنه - تعالى - ينهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر ، وعن كل تجاوز لما شرعه الله - عز وجل - .

وذلك لأن هذه الرذائل ماشاعت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا ، وأمرها فرطا ، والفطرة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه الرذائل ، لأنها تتنافى مع العقول السليمة ، ومع الطباع القويمة .

ومهما روج الذين لم ينبتوا نباتا حسنا لتلك الرذائل ، فإن النفوس الطاهرة ، تلفظها بعيدا عنها ، كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التى تصل إليه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ أى : ينبهكم - سبحانه - أكمل تنبيه وأحكمه إلى ما يصلحكم عن طريق اتباع ما أمركم به وما نهاكم عنه ، لعلكم بذلك تحسنون التذكر لما ينفعكم ، وتعملون بمقتضى ما علمكم - سبحانه .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى فضل هذه الآية كثيرا من الآثار والأقوال ، ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة .. قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى - ﷺ - فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا له : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه . قال : فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه . فانتدب رجلان فأتيا النبى - ﷺ - فقالا له : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبى - ﷺ - : « أما أنا فمحمد ابن عبدالله ، وأما ما أنا ، فأنا عبد الله ورسوله » .

ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. ﴾ الآية .

فقالوا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب .. وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الامر رءوسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا[1] .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أعظم آية فى كتاب الله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ..» . وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ..﴾ . وأشد آية فى كتاب الله رجاء : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ..﴾[2] .

ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بالعهود فقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ..﴾ .

والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كاليمين والوصية وما يشبههما .

وعهد الله : أوامره ونواهيه وتكاليفه الشرعية التى كلف الناس بها ، والوفاء بعهد الله - تعالى - : يتأتى بتنفيذ أوامره وتكاليفه ، واجتناب ما نهى عنه .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وأوفوا بعهد الله ...﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ، ويلتزمه الإنسان من بيع أوصلة ، أو مواثقة فى أمر موافق للديانة .

وهذه الآية مضمن قوله - تعالى - : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، وانتهوا عن كذا ، فعطف على ذلك التقدير .

وقد قيل إنها نزلت فى بيعة النبى - ﷺ - على الإسلام . وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية ، وجاء الإسلام بالوفاء به - كحلف الفضول - .

والعموم يتناول كل ذلك ...[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٨٣ .
(٢) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٢٨٩ .
(٣) تفسير القرطبى ج ١٠ ص ١٦٩ .

والمعنى : إن الله يأمركم - أيها المسلمون - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ويأمركم - أيضا - بالوفاء بالعهود التى التزمتم بها مع الله - تعالى - أو مع الناس .

والآيات التى وردت فى وجوب الوفاء بالعهود كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾[1] .

وخص - سبحانه - الأمر بالوفاء بالعهد بالذكر - مع أنه داخل فى المأمورات التى اشتملت عليها الآية السابقة كما أشار إلى ذلك القرطبى فى كلامه السابق - لأن الوفاء بالعهود من آكد الحقوق وأوجبها على الإنسان .

وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ﴾[2] .

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ... ﴾ تأكيد للأمر بالوفاء ، وتحذير من الخيانة والغدر .

والنقض فى اللغة : حقيقة فى فسخ ماركب بفعل يعاكس الفعل الذى كان به التركيب . واستعمل هنا على سبيل المجاز فى إبطال العهد .

والأيمان : جمع يمين . وتطلق بمعنى الحلف والقسم . وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه ، ووضع كل واحد من المتعاهدين يمينه فى يمين صاحبه .

أى : كونوا أوفياء بعهودكم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، أى : بعد توثيقها وتغليظها عن طريق تكرارها بمرة ومرتين ، أو عن طريق الإتيان فيها ببعض أسماء الله - تعالى - وصفاته .

وقوله - تعالى - : ﴿ بعد توكيدها ﴾ للإشعار بأن نقض الأيمان وإن كان قبيحا فى كل حالة ، فهو فى حالة توكيد الأيمان وتغليظها أشد قبحا .

ولذا قال بعض العلماء : وهذا القيد لموافقة الواقع ، حيث كانوا يؤكدون أيمانهم فى

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٤٠ .

(٣) رياض الصالحين للإمام النووى ص ٣٠٢ .

المعاهدة ، وحينئذ فلا مفهوم له ، فلا يختص النهى عن النقض بحالة التوكيد ، بل نقض اليمين منهى عنه مطلقا . أو يراد بالتوكيد القصد ، ويكون احترازا عن لغو اليمين . وهى الصادرة عن غير قصد للحلف »[١] .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله - ﷺ - فيما ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها ، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها - وفى رواية - وكفرت عن يمينى » لأن هذه الأيمان المراد بها فى الآية : الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان التى هى واردة فى حث أو منع ..»[٢] .

والخلاصة ، أن الآية الكريمة تنهى المؤمن عن نقض الأيمان نهيا عاما ، إلا أن السنة النبوية الصحيحة قد خصصت هذا التعميم بإباحة نقض اليمين إذا كانت مانعة من فعل خير ، ويؤيد هذا التخصيص قوله - تعالى - : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ..﴾[٣] .

وجملة « وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ..» حال من فاعل « تنقضوا » ، وهى مؤكدة لمضمون ما قبلها من وجوب الوفاء بالعهود والنهى عن نقضها .

والكفيل : من يكفل غيره ، أى : يضمنه فى أداء ما عليه .

أى : ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، والحال أنكم قد جعلتم الله - تعالى - ضامنا لكم فيما التزمتم به من عهود ، وشاهدا ورقيبا على أقوالكم وأعمالكم .

فالجملة الكريمة تحذر المتعاهدين من النقض بعد أن جعلوا الله - تعالى - كفيلا عليهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بهذا التهديد الخفى فقال - تعالى - : ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ . أى : إن الله - تعالى - يعلم ما تفعلون من الوفاء أو النقض ، وسيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر ، فالمراد من العلم لازمه ، وهو المجازاة على الأعمال .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لتقبيح نقض العهد ، فقال - تعالى - : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٥٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٣ .

(٣) راجع تفسير هذه الآية فى تفسيرنا لسورة البقرة ص ٤٩٩ .

وقوله : ﴿ غزلها ﴾ أى : مغزولها ، فهو مصدر بمعنى المفعول . والفعل منه غزل يغزل - بكسر الزاى .. من باب ضرب . يقال غزلت المرأة الصوف أو القطن غزلا .

والجار والمجرور فى قوله ﴿ من بعد قوة ﴾ متعلق بالفعل ﴿ نقضت ﴾ أى : نقضته وأفسدته من بعد إبرامه وإحكامه .

و﴿ أنكاثا ﴾ حال مؤكدة من ﴿ غزلها ﴾ ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، بتضمين الفعل نقضت معنى صيرت أو جعلت .

والأنكاث : جمع نكث - بكسر النون - ، بمعنى منكوث أى منقوض ، وهو ما نقض وحل فتله ليغزل ثانيا ، والجمع أنكاث كحمل وأحمال .

يقال : نكث الرجل العهد نكثا - من باب قتل - إذا نقضه ونبذه ، ومنه قوله - تعالى - ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ .

قال ابن كثير : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه .

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده . وهذا أرجح وأظهر سواء أكان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا[1] .

والمعنى : كونوا - أيها المسلمون - أوفياء بعهودكم ، ولا تنقضوها بعد إبرامها ، فإنكم إن نقضتموها كان مثلكم كمثل تلك المرأة الحمقاء ، التى كانت تفتل غزلها فتلا محكما ، ثم تنقضه بعد ذلك ، وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة محلولة . .

فالجملة الكريمة تحقر فى كل جزئية من جزئياتها ، حال من ينقض العهد ، وتشبهه على سبيل التنفير والتقبيح بحال امرأة ملتاثة فى عقلها ، مضطربة فى تصرفاتها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾ .

إبطال للأسباب التى كان يتخذها بعض الناس ذرائع ومبررات لنقض العهود .

والدَّخَل - بفتح الخاء - : المكر والغش والخديعة . وهو فى الأصل اسم للشىء الذى يدخل فى غيره وليس منه .

قال الراغب : والدخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة ، كالدَّغَل ، وعن الدعوة فى النسب ... ومنه قيل : شجرة مدخولة - أى ليست من جنس الأشجار التى حولها[2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٤ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى ص ١٦٦ .

وقوله ﴿ أن تكون أمة ... ﴾ متعلق بقوله ﴿ تتخذون ﴾ .

وقوله ﴿ أربى ﴾ مأخوذ من الربو بمعنى الزيادة والكثرة . يقال : رَبَا الشىء يربو إذا زاد وكثر .

والمعنى : لا تكونوا مشبهين لامرأة هذا شأنها ، حالة كونكم متخذين أيمانكم وأقسامكم وسيلة للغدر والخيانة ، من أجل أن هناك جماعة أوفر عددا وأكثر مالا من جماعة أخرى .

قال القرطبى : قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة أخرى كبيرة قوية فداخلتها غدرت بالأولى ونقضت عهدها ، ورجعت إلى هذه الكبرى ، فنهاهم الله - تعالى - : أن ينقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى ، أو أكثر أموالا ...

وقال الفراء : المعنى : لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم ، أو لقلتكم وكثرتهم وقد عزز تموهم بالأيمان[1] .

وقال ابن كثير : قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز ، فنهوا عن ذلك[2] .

والخلاصة : أن الآية الكريمة تدعو إلى وجوب الوفاء بالعهود فى جميع الأحوال ، وتنهى عن اللجوء إلى الذرائع الباطلة ، من أجل نقض العهود ، إذ الإسلام لا يقر هذه الذرائع وتلك المبررات ، بدعوى أن هناك جماعة أقوى من جماعة ، أو دولة أعز من دولة ، وإنما الذى يقره الإسلام هو مراعاة الوفاء بالعهود ، وعدم اتخاذ الأيمان وسيلة للغش والخداع .

والضمير المجرور فى قوله : ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ يعود على مضمون الجملة المتقدمة وهى قوله - تعالى - : ﴿ أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾ .

أى : إنما يبلوكم الله ويختبركم بكون أمة أربى من أمة ، لينظر أتفُون بعهودكم أم لا . وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : قوله - تعالى -: ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ الضمير لقوله : ﴿ أن تكون أمة ... ﴾ لأنه فى معنى المصدر . أى : إنما يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله ، وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله - ﷺ - أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم . وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم[3] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٧١ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٤ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٣١ .

ويجوز أن يعود إلى ما أمر الله به من الوفاء بالعهد ، فيكون المعنى : إنما يبلوكم الله ويختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهود ، ومن النهى عن النقض ليظهر لكم المطيع من العاصى ، وقوى الإيمان من ضعيفه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن مرد الفصل بين العباد فيما اختلفوا فيه إليه - تعالى - وحده ، فقال : ﴿ وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيجازى أهل الحق بما يستحقون من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما هم أهله من عقاب .

ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شىء فقال - تعالى - : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم ﴾ أيها الناس ﴿ أمة واحدة ﴾ متفقة على الحق ﴿ ولكن ﴾ لحكم يعلمها ولا تعلمونها ، ولسنن وضعها فى خلقه ﴿ يضل من يشاء ﴾ إضلاله لاستحبابه العمى على الهدى ، وإيثاره الغى على الرشد ﴿ ويهدى من يشاء ﴾ هدايته لحسن استعداده ، وسلامة اختياره ، ونهيه النفس عن الهوى .

﴿ ولتسألن ﴾ أيها الناس يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا ، فيثيب الطائعين بفضله ، ويعاقب العصاة بعدله .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بالعهود ونهى عن نقضها بصفة عامة ، أتبع ذلك بالنهى عن الحنث فى الإيمان بصفة خاصة ، فقال تعالى :

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ

أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

فقوله - سبحانه - ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ﴾ تصريح بالنهى عن اتخاذ الإيمان من أجل الغش والخديعة ، بعد النهى عن نقض العهود بصفة عامة . أى : ولا تتخذوا - أيها المؤمنون - الحلف بالله - تعالى - ذريعة إلى غش الناس وخداعهم واستلاب حقوقهم ، فقد جرت عادة الناس أن يطمئنوا إلى صدق من يقسم بالله - تعالى - ، فلا تجعلوا هذا الاطمئنان وسيلة للكذب عليهم ، ولإفساد ما بينكم وبينهم من مودة .

ثم رتب - سبحانه - على هذا النهى ما من شأنه أن يردع النفوس عن اتخاذ الأيمان دخلا فقال : ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ وأصل الزلل الخروج عن الطريق السليم . يقال : زل فلان يزل زللا وزلولا ، إذا دحضت قدمه ولم تصب موضعها الصحيح أى : لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للخديعة والإفساد بين الناس ، فتزل أقدامكم عن طريق الإسلام بعد ثبوتها عليها ، ورسوخها فيها ، قالوا : والجملة الكريمة مثل يُضْرَب لكل من وقع فى بلية ومحنة ، بعد أن كان فى عافية ونعمة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحدت القدم ونكرت ؟ قلت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق . بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثيرة[1] ؟ .

وقوله ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ﴾ بيان لما يصيبهم من عذاب دنيوى بسبب اتخاذ أيمانهم دخلا بينهم . أى : وتذوقوا السوء وهو العذاب الدنيوى من المصائب والخوف والجوع ، بسبب صدودكم وإعراضكم عن أوامر الله ونواهيه ، أو بسبب صدكم لغيركم عن الدخول فى دين الله ، حيث رأى منكم ما يجعله ينفر منكم ومن دينكم .

والتعبير يتذوقوا فيه إشارة إلى أن العذاب الدنيوى الذى سينزل بهم بسبب اتخاذهم أيمانهم دخلا بينهم ، سيكون عذابا شديدا يحسون آلامه إحساسا واضحا ، كما يحس الشارب للشىء المر مرارته ، ويتذوق آلامه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٧ .

قال ابن كثير : حذر الله - تعالى - عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا ، أى : خديعة ومكرا ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها ؛ مثل لمن كان على الاستقامة وحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة ، المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام[1] .

وقوله : ﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾ لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله - عز وجل - فأنت ترى أن الآية الكريمة قد رتبت على اتخاذ الأيمان دخلا ، انقلاب حالة الإنسان من الخير إلى الشر ، ونزول العذاب الدنيوى والأخروى به .

ثم نهاهم - سبحانه - عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم فقال - تعالى - : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ .

والاشتراء هنا : استعارة للاستبدال ، والذى استبدل به الثمن القليل هو الوفاء بعهد الله .

والمراد بعهد الله - تعالى - : أوامره ونواهيه التى كلفنا بالتزامها والعمل بمقتضاها .

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها وزينتها من الأموال وغيرها .

والمعنى : ولا تستبدلوا بأوامر الله - تعالى - ونواهيه ، عرضا قليلا من أعراض الدنيا الزائلة ، بأن تنقضوا عهودكم فى مقابل منفعة دنيوية زائلة .

وليس وصف الثمن بالقلة فى قوله : ﴿ ثمنا قليلا ﴾ من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل عدم الوفاء بالعهد ، إذ لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - تعالى - .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ أى : لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له[1] .

ثم رغبهم - سبحانه - فيما عنده فقال : ﴿ إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

أى : إن ما ادخره الله - تعالى - لكم من ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، وحياة طيبة ، هو خير لكم من ذلك الثمن القليل الذى تتطلعون إليه ، وتنقضون العهود من أجله ، إن كنتم من أهل العلم والفطنة ، الذين يؤثرون الباقى على الفانى .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٥ .

قال الآلوسى : قوله ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أى : إن كنتم من أهل العلم والتمييز . فالفعل منزل منزلة اللازم . وقيل : متعد ، والمفعول محذوف ، وهو فضل ما بين العوضين ، والأول أبلغ ومستغن عن التقدير[1] .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ترغيبهم فى العمل بما يرضيه ترغيبا آخر فقال : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ .

أى : ما عندكم من متاع الدنيا وزهرتها يفنى وينقضى ويزول ، وما عند الله - تعالى - فى الآخرة من عطاء باق لا يفنى ولا يزول ، فآثروا ما يبقى على ماينفد . يقال : نفد الشىء بكسر الفاء - ينفد - بفتحها - نفادا ونفودا ، إذا ذهب وفنى .

ثم بشر - سبحانه - الصابرين على طاعته بأعظم البشارات فقال : ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

أى : ولنجزين الذين صبروا على طاعتنا ، واجتنبوا معصيتنا ، ووفوا بعهودنا ، بجزاء أفضل وأكرم مما كانوا يعملونه فى الدنيا من خيرات وطاعات .

وأكد - سبحانه - هذه البشارة بلام القسم ، ونون التوكيد ، لترغيبهم فى الثبات على فضيلة الصبر ، وعلى الوفاء بالعهد .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله ﴿ أجرهم ﴾ مفعول ثان لنجزى . وقوله ﴿ بأحسن ﴾ نعت لمحذوف ، أى : بجزاء أحسن من عملهم الذى كانوا يعملونه فى الدنيا ، والباء بمعنى على[2] .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين الذين يحرصون على العمل الصالح فقال - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

أى : من عمل عملا صالحا ، بأن يكون خالصا لوجه الله - تعالى - وموافقا لما جاء به النبى - ﷺ - سواء أكان هذا العامل المؤمن ذكرا أو أنثى ، فلنحيينه حياة طيبة ، يظفر معها بصلاح البال ، وسعادة الحال .

وقال - سبحانه - : ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ مع أن لفظ « مَنْ » فى قوله : ﴿ من عمل ﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٢٤ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩٦ .

يتناول الذكور والإناث ؛ للتنصيص على النوعين ، حتى يكون أغبط لهما ، ولدفع ما قد يتوهم من أن الخطاب للذكور وحدهم .

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت « مَن » متناول فى نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما ؟ قل : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين ، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور ، فقيل « من ذكر أو أنثى » على التبيين ليعم الوعد النوعين جميعا[1] .

وقيد - سبحانه - العامل بكونه مؤمنا فقال : ﴿ وهو مؤمن ﴾ لبيان أن العمل لا يكون مقبولا عند الله - تعالى - إلا إذا كان مبنيا على العقيدة الصحيحة ، وكان صاحبه يدين بدين الإسلام ، وقد أوضح القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[2] .

والمراد بالحياة الطيبة فى قوله - تعالى - : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ الحياة الدنيوية التى يحياها المؤمن إلى أن ينقضى أجله .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : هذا وعد من الله - تعالى - لمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا .. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت . وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال ، وعن على بن أبى طالب أنه فسرها بالقناعة .

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه[3] » .

وقيل المراد بالحياة الطيبة هنا : الحياة الأخروية ، وقد صدر الشيخ الآلوسى تفسيره بهذا الرأى فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ والمراد بالحياة الطيبة التى تكون فى الجنة ، إذ هناك حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة بلا شقاوة .. فعن الحسن : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة .

وقال شريك : هى حياة تكون فى البرزخ .. وقال غير واحد هى فى الدنيا[4] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٧ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٥ .

(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٢٧ .

ويبدو لنا أن تفسير الحياة الطيبة هنا بأنها الحياة الدنيوية أرجح ، لأن الحياة الأخروية جاء التصريح بها بعد ذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

فلو فسرنا الحياة الطيبة بالحياة الأخروية لكان فى الآية الكريمة ما يشبه التكرار ، ولكننا لو فسرناها بالحياة الدنيوية لكانت الآية الكريمة مبينة لجزاء المؤمنين فى الدارين .

وأيضا فإن قول النبى - ﷺ - السابق : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا » يشير إلى أن المراد بالحياة الطيبة ، الحياة الدنيوية ، لأن من نال الفلاح نال حياة طيبة .

وعلى ذلك يكون المعنى الإجمالى للآية الكريمة : من عمل عملا صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة فى الدنيا ، يظفر معها بالسعادة وصلاح البال ، والأمان والاطمئنان ، أما فى الآخرة فسنجزيه جزاء أكرم وأفضل مما كان يعمله فى الدنيا من أعمال صالحة .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ حياة طيبة ﴾ يعنى فى الدنيا ، وهو الظاهر لقوله ﴿ ولنجزينهم ﴾ وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ... ﴾[1] .

وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا ، يعيش عيشا طيبا ، إن كان موسرا فلا مقال فيه ، وإن كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله .

وأما الفاجر فأمره على العكس . إن كان معسرا فلا إشكال فى أمره ، وإن كان موسرا ، فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه[2] .

* * *

ثم أشار - سبحانه - إلى أن من الأعمال الصالحة ، أن يستعيذ المسلم عند قراءته للقرآن الكريم ، من الشيطان الرجيم ، فقال - تعالى :

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٨ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٨ .

﴿ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

والمراد بقوله - تعالى - : ﴿ فإذا قرأت القرآن .. ﴾ أى فإذا أردت قراءته . فالكلام على حذف الإرادة ، وذلك لأن المعنى الذى طلبت من أجله الاستعاذة وهو دفع وسوسة الشيطان يقتضى أن يبدأ القارىء بها - أى بالاستعاذة - قبل القراءة لا بعدها وشبيه بهذه الآية فى حذف الإرادة لدلالة المقام عليها قوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق .. ﴾[1] أى : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ﴾[2] أى : أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا .

والمعنى : فإذا أردت - أيها المسلم - قراءة القرآن ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أى : فاستجر بالله ، والتجىء إلى حماه ﴿ من الشيطان الرجيم ﴾ .

قال ابن كثير : والشيطان فى لغة العرب ، كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء ، وهو مشتق من شطن بمعنى بعد ، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير ... »[3] .

والرجيم بزنة فعيل بمعنى مفعول . أى : أنه مرجوم ومطرود من رحمة الله - تعالى - .

قال بعض العلماء : وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، مع أنه قد أمر بها على وجه العموم فى جميع الشئون ، لأن القرآن مصدر هداية ، والشيطان مصدر ضلال ، فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص ، فيثير أمامه ألوانا من الشكوك فيما يفيد من قراءته ، وفيما يقصد بها ، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته . فعلمنا الله - تعالى - أن نتقى ذلك كله بهذه الاستعاذة التى هى فى الواقع عنوان صادق ، وتعبير حق ، عن امتلاء قلب

---

(١) سورة المائدة الآية ٦ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٤ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٤ .

المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله . وقوة عزيمته فى طرد الشيطان ووساوسه ، واستقبال هدايته بقلب طاهر ، وعقل واع وإيمان ثابت[١] .

وكيفية الاستعاذة أن يقول القارىء عند إرادة قراءته للقرآن ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقد تضافرت الروايات عن رسول الله - ﷺ - بهذه الصيغة .

قال الآلوسى . وروى الثعلبى والواحدى أن ابن مسعود قرأ عن النبى - ﷺ - فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال له النبى - ﷺ - : « يابن أم عبد ، قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أقرأنى جبريل .. »[٢] .

وقال صاحب تفسير آيات الأحكام : والأمر بها - أى بالاستعاذة - للندب عند الجمهور .

وعن الثورى أنها واجبة . وظاهر الآية يؤيده ، إذ الأمر للوجوب . والجمهور يقولون : إنه صرفها عن الوجوب ما ورد من أنه - ﷺ - لم يعلمها للأعرابى - أى الذى سأله عن كيفية الصلاة - وأيضا فقد روى أنه كان - ﷺ - يتركها ..[٣] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن وسوسة الشيطان لا أثر لها على المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى : إن الشيطان مهما تمرد وعتا فإنه « ليس له سلطان » أى : ليس له تسلط واستيلاء واستحواذ بالقهر والغلبة ، على نفوس الذين آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان والذين هم عليه - تعالى - وحده يتوكلون ويعتمدون لا على غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ وقوله[٤] - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾[٥] .

وبعد أن نفى - سبحانه - أن يكون للشيطان سلطان على نفوس المؤمنين الصادقين ، أثبت - سبحانه - أن تسلط الشيطان إنما هو على نفوس الضالين ، فقال - تعالى - : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ﴾ .

أى : إنما تسلط الشيطان وتأثيره على الضالين الفاسقين الذين ﴿ يتولونه ﴾ أى : يتقربون منه ، ويجعلونه واليا عليهم ، فيحبونه ويطيعونه ويتبعون خطواته .

---

(١) تفسير القرآن الكريم جـ ١٦ لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٢٨ .

(٣) تفسير آيات الأحكام ص ٥٢ جـ ٣ لفضيلة الشيخ محمد على السايس رحمه الله .

(٤) سورة الحجر الآية ٤٢ .

(٥) سورة الأسراء الآية ٦٥ .

فقوله ﴿ يتولونه ﴾ من الوَلْى - بفتح الواو وسكون اللام - بمعنى القرب والنصرة وقوله : ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ أى : والذين هم بسبب الشيطان وإغوائه لهم ، مشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة .

فالضمير فى « به » يعود إلى الشيطان ، والباء للسببية .

ويرى بعضهم أن الضمير فى « به » يعود على الله - تعالى ، وأن الباء للتعدية ، فيكون المعنى : إنما سلطان الشيطان على الذين يطيعونه ، والذين هم بالله - تعالى - مشركون .

قالوا ، والأول أرجح لاتحاد الضمائر فيه ، ولأنه هو المتبادر إلى الذهن .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، تأمر المؤمنين بأن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، عند قراءتهم للقرآن الكريم ، كما نراها تبشرهم بأنه لا سلطان للشيطان عليهم ما داموا معتصمين بحبل الله - تعالى - ومنفذين لأوامره ، ومعتمدين عليه .

* * *

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض الأقاويل التى قالها المشركون عن النبى - ﷺ - وعن القرآن الكريم ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم فقال تعالى :

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ... ﴾ التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية هنا : الآية القرآنية . وعلى أن المراد بتبديلها نسخها .

قال صاحب الكشاف : تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ، والله - تعالى - ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة . والله - تعالى - عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء ، وينسخ ما يشاء بحكمته ..[١] .

وقال الجمل : قوله - تعالى - : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ... ﴾ وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا : إن محمدا - ﷺ - يسخر بأصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، ما هذا إلا مفترى يتقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ... ﴾ والمعنى : وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر[٢] .

وقال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ أى : وإذا نزلنا آية من القرآن مكان آية منه . وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها ..[٣] .

ومنهم من يرى أن المراد بالآية هنا « الآية الكونية » أى المعجزة التى أتى بها كل نبى لقومه وأن المراد بتبديلها : الإتيان بمعجزة أخرى سواها .

قال الشيخ القاسمى عند تفسيره لهذه الآية : وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرهما من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية ، وهى كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل .

فبدلت تلك - وهى الآيات الكونية - بآية هو كتاب العلم والهدى من نبى أمى - ﷺ -[٤] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ... ﴾ يدل دلالة واضحة على أن المراد بالآية ، الآية القرآنية .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٨ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٥٩٨ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣١ .
(٤) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٥٨ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ جملة معترضة بين الشرط وجوابه للمسارعة إلى توبيخ المشركين وتجهيلهم .

أى : والله - تعالى - أعلم من كل مخلوق بما هو أصلح لعباده ، وبما ينزله من آيات ، وبما يغير ويبدل من أحكام ، فكل من الناسخ والمنسوخ منزل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قالوا إنما أنت مفتر ﴾ جواب الشرط ، وهو حكاية لما تفوهوا به من باطل وبهتان : وقوله ﴿ مفتر ﴾ من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب .

أى : قال المشركون للنبى - ﷺ - عند تبديل آية مكان آية : إنما أنت يا محمد تختلق هذا القرآن من عند نفسك ، وتفتريه من إنشائك واختراعك . .

وقوله - تعالى - : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ تسلية للنبى - ﷺ - عما أصابه منهم .

أى : لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بما قاله هؤلاء المشركون فى شأنك وفى شأن القرآن الكريم ، فإن أكثرهم جهلاء أغبياء ، لا يعلمون ما فى تبديلنا للآيات من حكمة ، ولا يفقهون من أمر الدين الحق شيئا .

وقال - سبحانه - ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق وتدركه ، ولكنها تنكره عنادا وجحودا وحسدا لرسول الله - ﷺ - على ما آتاه الله من فضله .

ثم لقن الله - تعالى - رسوله - ﷺ - الرد الذى يقذفه على باطلهم فيزهقه فقال : .

﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - ، والإضافة فيه إضافة الموصوف إلى الصفة . أى : الروح المقدس . ووصف بالقدس لطهارته وبركته . وسمى روحا لمشابهته الروح الحقيقى فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر ، فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين ، إن هذا القرآن الذى تزعمون أننى افتريته ، قد نزل به الروح الأمين على قلبى من عند ربى ، نزولا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، ليزيد المؤمنين ثباتا فى إيمانهم ، وليكون هداية وبشارة لكل من أسلم وجهه لله رب العالمين .

وفى قوله ﴿ من ربك ﴾ تكريم وتشريف للرسول - ﷺ - حيث اختص - سبحانه - هذا النبى الكريم بإنزال القرآن عليه ، بعد أن رباه برعايته ، وتولاه بعنايته .

وقوله ﴿ بالحق ﴾ فى موضع الحال ، أى : نزله إنزالا ملتبسا بالحكمة المقتضية له ، بحيث لا يفارقها ولا تفارقه .

وقوله : ﴿ ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ بيان للوظيفة التى من أجلها نزل القرآن الكريم ، وهى وظيفة تسعد المؤمنين وحدهم ، أما الكافرون فهم بعيدون عنها .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مقولة أخرى من مقولات المشركين فقال - تعالى - : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يقول - تعالى - مخبرا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء : إن محمدا - ﷺ - إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان النبى - ﷺ - يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف إلا اليسير من العربية .

وعن عكرمة وقتادة كان اسم ذلك الرجل « يعيش » ، وعن ابن عباس كان اسمه « بلعام » ، وكان أعجمى اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله - ﷺ - يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية[1] .

والمعنى : ولقد نعلم - أيها الرسول الكريم - علما مستمرا لايعزب عنه شىء مما يقوله المشركون فى شأنك ، من أنك تتعلم القرآن من واحد من البشر .

قال الآلوسى : وإنما لم يصرح القرآن باسم من زعموا أنه يعلمه - عليه الصلاة والسلام - مع أنه أدخل فى ظهور كذبهم ، للإيذان بأن مدار خطئهم ، ليس بنسبته - ﷺ - إلى التعلم من شخص معين ، بل من البشر كائنا من كان ، مع كونه - ﷺ - معدنا لعلوم الأولين والآخرين[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين ﴾ رد عليهم فيما زعموه وافتروه .

والمراد باللسان هنا : الكلام الذى يتكلم به الشخص ، واللغة التى ينطق بها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٦ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣٣ .

وقوله : ﴿ يلحدون ﴾ من الإلحاد بمعنى الميل . يقال لحد وألحد ، إذا مال عن القصد ، وسمى الملحد بذلك ، لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها .

والأعجمى : نسبة إلى الأعجم : وهو الذى لا يفصح فى كلامه سواء أكان من العرب أم من العجم . وزيدت فيه ياء النسب على سبيل التوكيد .

والمعنى : لقد كذبتم - أيها المشركون - كذبا شنيعا صريحا ، حيث زعمتم أن رسول الله - ﷺ - يعلمه القرآن بشر ، مع أن لغة هذا الإنسان الذى زعمتم أنه يعلم الرسول - ﷺ - لغة أعجمية ، ولغة هذا القرآن لغة عربية فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، وتحداكم وأنتم أهل اللسن والبيان أن تأتوا بسورة من مثله .

فخبرونى بربكم ، من أين للأعجمى أن يذوق بلاغة هذا التنزيل وما حواه من العلوم ، فضلا عن أن ينطق به ، فضلا عن أن يكون معلما له !! .

ثم هدد - سبحانه - المعرضين عن آياته بقوله : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ الدالة على وحدانيته - سبحانه - وعلى صدق نبيه - ﷺ - فيما يبلغه عنه .

﴿ لا يهديهم الله ﴾ إلى طريق الحق فى الدنيا ، بسبب زيغهم وعنادهم وإيثارهم الغى على الرشد . ﴿ ولهم ﴾ فى الآخرة عذاب أليم جزاء إصرارهم على الباطل ، وإعراضهم عن الآيات التى لو تأملوها واستجابوا لها لاهتدوا إلى الصراط المستقيم .

ثم بين - سبحانه - أن افتراء الكذب لا يصدر عن المؤمنين فضلا عن الرسول الأمين ، وإنما يصدر عن الكافرين فقال - تعالى - : ﴿ إنما يفترى الكذب ﴾ أى : يختلقه ويخترعه ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ الدالة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى صدق رسله ، وعلى صحة البعث يوم القيامة ، لأن عدم إيمانهم بذلك يجعلهم لا يخافون عقابا ، ولا يرجون ثوابا . ﴿ وأولئك ﴾ الكافرون بما يجب الإيمان به ﴿ هم الكاذبون ﴾ فى قولهم عن الرسول - ﷺ - إنما يعلمه بشر ، وفى قولهم ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ وفى غير ذلك من أقوالهم الباطلة ، التى حاربوا بها دعوة الحق .

قال بعض العلماء : ولا يخفى ما فى الحصر بعد القصر من العناية بمقامه - صلوات الله عليه - ، وقد كان أصدق الناس وأبرهم .. بحيث كانوا يلقبونه بالصادق الأمين .

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان فقال له - من بين ما قال - : هل كنتم تتهمونه

بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله - تعالى - .

وفى هذه الآية دلالة على أن الكذب من أكبر الكبائر ، وأفحش الفواحش . والدليل عليه أن كلمة « إنما » للحصر .

وروى أن النبى - ﷺ - قيل له : هل يكذب المؤمن ؟ قال : « لا ، ثم قرأ هذه الآية[1] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حكم من أكره على النطق بكلمة الكفر ، وحكم من استحب الكفر على الإيمان فقال - تعالى - :

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ... ﴾ روايات منها قول الآلوسى : روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه : ياسرا ، وسمية ، على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ... ثم قتلوها وقتلوا ياسرا ، وهما أول شهيدين فى الإسلام . وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل يارسول الله : إن عمارا قد كفر .

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٦١ .

فقال - ﷺ - : « كلا ، إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » .

فأتى عمار رسول الله - ﷺ - وهو يبكى ، فجعل رسول الله - ﷺ - يمسح عينيه وقال له : « مالك ، إن عادوا فعد لهم بما قلت » . وفى رواية أنه قال له : « كيف تجد قلبك ؟ قال مطمئن بالإيمان قال - ﷺ - إن عادوا فعد » . فنزلت هذه الآية ..

ثم قال الآلوسى : والآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عن ذلك إعزازا للدين ولو تيقن القتل ، كما فعل ياسر وسمية ، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة ، بل هو كالقتل فى الغزو كما صرحوا به .[1] .

و« من » فى قوله ﴿ من كفر بالله ﴾ مبتدأ أو شرطية ، والخبر أو جواب الشرط محذوف والتقدير : فعليه غضب من الله ، أو فله عذاب شديد ، ويدل عليهما قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ﴾ .

والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من بعد إيمانه بوحدانيته - سبحانه - وبصدق رسوله - ﷺ - فإنه بسبب هذا الكفر يكون قد ضل ضلالا بعيدا ، يستحق من أجله العذاب المهين .

وقوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ استثناء متصل من الجملة السابقة أى : إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر ، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان ، ثابت عليه ، متمكن منه .. فإنه فى هذه الحالة لا يكون ممن يستحقون عقوبة المرتد .

قال بعض العلماء : وأما قوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو استثناء متصل من « مَنْ » لأن الكفر أعم من أن يكون اعتقادا فقط ، أو قولا فقط ، أو اعتقادا وقولا ... وأصل الاطمئنان سكون بعد انزعاج ، والمراد به هنا : السكون والثبات على الإيمان بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه ..[2] .

وقوله : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ بيان لسوء مصير من استحب الكفر على الإيمان باختياره ورضاه .

و« من » فى قوله ﴿ من شرح ﴾ شرطية ، وجوابها ﴿ فعليهم غضب من الله ﴾ .

أى : حكم من تلفظ بكلمة الكفر مكرها أنه لا يعتبر مرتدا ، ولكن حكم من طابت

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣٧ .

(٢) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٥٤ .

نفوسهم بالكفر ، وانشرحت له صدورهم ، واعتقدوا صحته ، أنهم عليهم من الله - تعالى - غضب شديد لا يعلم مقداره إلا هو ، ولهم يوم القيامة عذاب عظيم الهول ، يتناسب مع عظيم جرمهم .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأخبار التى حكت ما تعرض له المسلمون الأولون من فتن وآلام . فقال ما ملخصه : ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال - رضى الله عنه - يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ بيان للأسباب التى جعلتهم محل غضب الله ونقمته .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى كفرهم بعد إيمانهم ، أو إلى ما توعدهم الله - تعالى - به من غضب عليهم ، وعذاب عظيم لهم .

أى : ذلك الذى جعلهم يرتدون عن دينهم ، ويكونون محل غضب الله ونقمته ، من أسبابه أنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة وما فيها من ثواب .

﴿ وأن الله ﴾ - تعالى - ﴿ لا يهدى القوم الكافرين ﴾ إلى الصراط المستقيم ، لأنهم حين زاغوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى رذائلهم رذيلة أخرى فقال : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾ .

والطبع : الختم والوسم بطابع ونحوه على الشىء ، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه . أى : أولئك الذين شرحوا صدورهم بالكفر ، وطابوا به نفسا ، قد طبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها ، وعاجزة عن الانتفاع به ، وأولئك هم الكاملون فى الغفلة والبلاهة ، إذ لاغفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره ، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٧ .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بالحكم العادل عليهم فقال : ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ .

أى : لاشك ولا محالة فى أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان سيكونون يوم القيامة من القوم الخاسرين ؛ لأنهم لم يقدموا فى دنياهم ما ينفعهم فى أخراهم .

وكلمة « لا جرم » قد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع ، متلوة فى كل موضع بأن واسمها ، وليس بعدها فعل . وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر ، ومعناها بعد التركيب معنى الفعل : حق ، أو ثبت ، أو ما يشبه ذلك ، أى : حق وثبت كونهم فى الآخرة من الخاسرين .

والذى يتدبر هذه الآيات ، يراها قد توعدت المرتدين عن دينهم بألوان من العقوبات المغلظة ، لقد توعدتهم بغضب الله - تعالى - وبعذابه العظيم ، وبعدم هدايتهم إلى طريق الحق ، وبالطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وبالغفلة التى ليس بعدها غفلة ، وبالخسران الذى لاشك فيه يوم القيامة ، نعوذ بالله - تعالى - من ذلك .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر لطفه ورأفته لقوم هاجروا من بعد ما فتنوا ، فقال - تعالى - :

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ أى : عذبوا وأوذوا من أجل أن يرتدوا إلى الكفر .

وأصل الفتن : إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته ، ثم استعمل فى الاختبار

والامتحان بالمحن والشدائد ، وبالمنح واللطائف ، لما فيه من إظهار الحال والحقيقة ، وأكثر ما تستعمل الفتنة فى الامتحان والمحن وعليه يحمل بعضهم تفسير الفتنة بالمحنة .

والمراد بهؤلاء الذين هاجروا من بعد ما فتنوا - كما يقول ابن كثير - جماعة كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا ..[1] .

والمعنى : « ثم إن ربك » - أيها الرسول الكريم - تكفل بالولاية والمغفرة لهؤلاء الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، من بعد أن عذبهم المشركون لكى يرتدوا عن دينهم .

قال الآلوسى : وقرأ ابن عامر ﴿ من بعد ما فتنوا ﴾ بالبناء للفاعل ، وهو ضمير المشركين عند غير واحد ، أى : عذبوا المؤمنين ، كالحضرمى ، أكره مولاه « جبرا » حتى ارتد ، ثم أسلما وهاجرا ..[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ثم جاهدوا وصبروا ﴾ أى جاهدوا المشركين حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وصبروا على البلاء والأذى طلبا لرضا الله - تعالى - .

والضمير فى قوله : ﴿ من بعدها ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر . أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد هذه الأفعال لكثير المغفرة والرحمة لهم ، جزاء هجرتهم وجهادهم وصبرهم على الأذى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ... ﴾ منصوب على الظرفية بقوله ﴿ رحيم ﴾ أو منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره اذكر . والمراد باليوم : يوم القيامة .

والمجادلة هنا بمعنى : المحاجة والمدافعة ، والسعى فى الخلاص من أهوال ذلك اليوم الشديد .

والمعنى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد تلك المذكورات من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر ، لغفور رحيم ، يوم تأتى كل نفس مشغولة بأمرها ، مهتمة بالدفاع عن ذاتها ، بدون التفات إلى غيرها ، ساعية فى الخلاص من عذاب ذلك اليوم .

والمتأمل فى هذه الجملة الكريمة ، يراها تشير بأسلوب مؤثر بليغ إلى ما يعترى الناس يوم

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٣٩ .

القيامة من خوف وفزع يجعلهم لا يفكرون إلا فى ذواتهم ولا يهمهم شأن آبائهم أو أبنائهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى النفس المضافة إلى النفس ؟ .

قلت : يقال لعين الشىء وذاته نفسُه ، وفى نقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هى ، فالنفس الأولى هى الجملة ، والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته ، لا يهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسى نفسى . ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها ، كقولهم : ﴿ ما كنا مشركين ﴾ وكقولهم : ﴿ هؤلاء أضلونا .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ بيان لمظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - فى قضائه بين عباده .

أى : وفى هذا اليوم تعطى كل نفس جزاء ما عملته من أعمال فى الدنيا وافيا غير منقوص ، بدون ظلم أو حيف أو ميل عن العدل والقسطاس ، ولن ينفع نفسا مجادلتها عن ذاتها ، واعتذارها بالمعاذير الباطلة ، وإنما الذى ينفعها هو عملها .

وبذلك ترى الآيتين الكريمتين ، قد بينتا بأسلوب بليغ جانبا من مظاهر فضل الله - تعالى - على عباده ، وجانبا من أهوال يوم القيامة ، ومن القضاء العادل الذى يحكم الله به بين الناس .

ثم ضرب - سبحانه - مثلا لسوء عاقبة الذين يجحدون نعم الله ، ويكذبون بآياته ، فقال - تعالى - :

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣١ .

والفعل ضرب فى قوله - تعالى - : ﴿ وضرب الله مثلا قرية ... ﴾ متضمن معنى جعل ، ولذا عدى إلى مفعولين .

والمثل - بفتح الثاء - بمعنى المثل - بسكونها - أى : النظير والشبيه . ويطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه لمورده الذى ورد فيه ، ثم استعير للصفة والحال كما فى الآية التى معنا .

والمراد بالقرية : أهلها ، فالكلام على تقدير مضاف .

وللمفسرين اتجاهان فى تفسير هذه الآية . فمنهم من يرى أن هذه القرية غير معينة ، وإنما هى مثل لكل قوم قابلوا نعم الله بالجحود والكفران .

وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف حيث قال : قوله - تعالى - : ﴿ وضرب الله مثلا قرية ... ﴾ أى : جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة . فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نقمته ، فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضرب بها الله مثلا لمكة إنذارا من مثل عاقبتها[1] .

ومنهم من يرى أن المقصود بهذه القرية مكة ، وعلى هذا الاتجاه سار الامام ابن كثير حيث قال ما ملخصه : هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها،ومن دخلها كان آمنا ... فجحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد - ﷺ - فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[2] .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لتنكير لفظ قرية ، ولشموله الاتجاه الثانى ، لأنه يتناول كل قرية بدلت نعمة الله كفرا ، ويدخل فى ذلك كفار مكة دخولا أوليا .

فيكون المعنى : وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بهذه النعم ، فلم يشكروا الله - تعالى - عليها ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وقوله : ﴿ كانت آمنة مطمئنة ﴾ أى : كانت تعيش فى أمان لا يشوبه خوف ، وفى سكون واطمئنان لا يخالطها فزع أو انزعاج : .

وقوله : ﴿ يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ﴾ بيان لسعة عيشها ، أى :يأتيها ما يحتاج إليه أهلها واسعا لينا سهلا من كل مكان من الأمكنة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٣٩ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٩ .

يقال : رَغُد - بضم الغين - عيش القوم ، أى : اتسع وطاب فهو رغد ورغيد ... وأرغد القوم ، أى : أخصبوا وصاروا فى رزق واسع .

فالآية الكريمة قد تضمنت أمهات النعم : الأمان والاطمئنان ورغد العيش . قال بعضهم :

ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية

وقوله - تعالى - : ﴿ فكفرت بأنعم الله ﴾ بيان لموقفها الجحودى من نعم الله - تعالى - أى : فكان موقف أهل هذه القرية من تلك النعم الجليلة ، أنهم جحدوا هذه النعم ، ولم يقابلوها بالشكر ، وإنما قابلوها بالإشراك بالله - تعالى - مُسدى هذه النعم .

قال القرطبى : « والأنْعُم : جمع النِّعمة . كالأشُد جمع الشِّدة ، وقيل : جمع نعمى ، مثل بُؤسى وأبؤس » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ بيان للعقوبة الأليمة التى حلت بأهلها بسبب كفرهم وبطرهم .

أى : فأذاق - سبحانه - أهلها لباس الجوع والخوف ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله .

وذلك بأن أظهر أثرهما عليهم بصورة واضحة ، تجعل الناظر اليهم لا يخفى عليه ما هم فيه من فقر مدقع ، وفزع شديد .

ففى الجملة الكريمة تصوير بديع لما أصابهم من جوع وخوف ، حتى لكأن ما هم فيه من هزال وسوء حال ، يبدو كاللباس الذى يلبسه الإنسان ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا يحسون أثره إحساسا عميقا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد فى تصوير هذا المعنى فقال : « فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه ؟ .

قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها . فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب . شبه مايدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من الطعم المر البشع .

وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث .

وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منها ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقهم ماغشيهم من الجوع والخوف..[١] .

ثم بين - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل هذه القرية الكافرة بأنعم الله فقال : ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ﴾ .

أى : ولقد جاء إلى أهل هذه القرية رسول من جنسهم ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأمرهم بطاعة الله وشكره ، ولكنهم كذبوه وأعرضوا عنه .

والتعبير بقوله ﴿ جاءهم ﴾ يدل على أن هذا الرسول وصل إليهم وبلغهم رسالة ربه ، دون أن يكلفهم الذهاب إليه ، أو البحث عنه .

والتعبير بالفاء فى قوله : ﴿ فكذبوه ﴾ يشعر بأنهم لم يتمهلوا ولم يتدبروا دعوة هذا الرسول ، وإنما قابلوها بالتكذيب السريع بدون روية ، مما يدل على غباوتهم وانطماس بصيرتهم .

وقوله - تعالى - ﴿ فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ بيان للعاقبة السيئة التى حاقت بهم .

أى : فكانت نتيجة تكذيبهم السريع لنبيهم أن أخذهم العذاب العاجل الذى استأصل شأفتهم ، والحال أنهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأن هذا العذاب ما نزل بهم إلا بعد أن كفروا بأنعم الله ، وكذبوا رسوله .

هذا ، والذى يتأمل هاتين الآيتين الكريمتين يراهما وإن كانتا تشملان حال كل قوم بدلوا نعمة الله كفرا .. إلا أنهما ينطبقان تمام الانطباق على كفار مكة .

وقد بين ذلك الإمام الآلوسى - رحمه الله - فقال ما ملخصه : وحال أهل مكة - سواء أضرب المثل لهم خاصة ، أم لهم ولمن سار سيرتهم كافة - أشبه بحال أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم ، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء رزقا ، ولقد جاءهم رسول منهم تحار فى سمو مرتبته العقول - ﷺ - فأنذرهم وحذرهم فكفروا بأنعم الله ، وكذبوه - ﷺ - فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، حيث أصابهم بدعائه - ﷺ - : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » - ما أصابهم من جدب شديد ، فاضطروا إلى أكل الجيف .. وكان أحدهم ينظر إلى

---

(١) راجع تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٣٩ .

السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله - ﷺ - ، حيث كانوا يغيرون عليهم ..»[١] .

ثم أمرهم - سبحانه - بأن يأكلوا مما أحله لهم ، وأن يشكروه على نعمه ، وأن يجتنبوا ما حرمه عليهم ، فقال - تعالى - :

فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

والفاء فى قوله : ﴿ فكلوا ... ﴾ للتفريع على ما تقدم من التمثيل بالقرية التى كفرت بأنعم الله ، والتى أصابها ما أصابها بسبب ذلك .

أى : لقد ظهر لكم حال الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، ورأيتم كيف أذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، فاحذروا أن تسيروا على شاكلتهم ، وكلوا من الحلال الطيب الذى رزقكم الله - تعالى - إياه .

واشكروا نعمة الله التى أنعم بها عليكم ، بأن تستعملوها فيما خلقت له ، وبأن تقابلوها بأسمى ألوان الطاعة لمسديها - عز وجل - .

﴿ إن كنتم إياه ﴾ سبحانه - تعبدونه حق العبادة ، وتطيعونه حق الطاعة .

ثم بين - سبحانه - ما حرمه على عباده رعاية لمصالحهم فقال : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .. ﴾ .

والميتة فى عرف الشرع : ما مات حتف أنفه ، أو قتل على هيئة غير مشروعة ، فيدخل

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٤ .

فيها المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وما عدا عليها السبع .

وكان الأكل من الميتة محرما ، لفساد جسمها بسبب ذبول أجزائه وتعفنها ، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقذارتها وضررها .

والدم المحرم : هو ما يسيل من الحيوان الحى كثيرا كان أم قليلا وكذلك يحرم من دم الحيوان ماجرى منه بعد ذبحه ، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح . .

والحكمة فى تحريم الدم المسفوح ، أنه تستقذره النفوس الكريمة ، ويفضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس . .

وحرمة الخنزير شاملة للحمه ودمه وشحمه وجلده . وإنما خص لحمه بالذكر لأنه المقصود بالأكل ، ولأن سائر أجزائه كالتابعة للحمه .. .

ومن الحكم فى تحريم لحم الخنزير : قذارته ، واشتماله على دودة تضر بآكله ، كما أثبت ذلك العلم الحديث .

وقوله : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ معطوف على ما قبله من المحرمات .

والفعل ﴿ أهل ﴾ مأخوذ من الإهلال بمعنى رفع الصوت ، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم ، سموا عليها أسماءها فيقولون : باسم اللات أو باسم العزى ، رافعين بذلك أصواتهم .

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لعله ذاتية فى تلك الأشياء ، أما تحريم ما أهل لغير الله به ، بسبب التوجه بالمذبوح إلى غير الله - عز وجل - .

وقوله - تعالى - : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴾ بيان لحالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات .

واضطر : من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشىء بشدة .

والمعنى : فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات ، حالة كونه « غير باغ » ، أى : غير طالب للمحرم وهو يجد غيره ، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر ، « ولا عاد » أى : ولا متجاوز فى أكله ما يسد الجوع ويحفظ الحياة « فإن الله » - تعالى - « غفور » واسع المغفرة لعبادة « رحيم » كثير الرحمة بهم[1] .

---

(١) إذا أردت التفصيل لتفسير هذه الآية فارجع الى تفسير الآية رقم ١٧٣ من سورة البقرة ص ٣٥٠ للمؤلف .

ثم نهى - سبحانه - عن القول على الله - تعالى - بغير علم اتباعا للظن والأوهام ، فقال :

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب .. ﴾ « ما » موصولة ، والعائد محذوف ، أى : ولا تقولوا - فى شأن الذى تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة - هذا حلال وهذا حرام ، من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر ، فضلا عن استناده إلى وحى أو قياس مبنى عليه ، بل مجرد قول باللسان .

ولفظ « الكذب » منتصب على أنه مفعول به لـ ﴿ تقولوا ﴾ وقوله - سبحانه - : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ بدل منه ..[1] .

والمعنى : ولا تقولوا - أيها الجاهلون - للشىء الكذب الذى تصفه ألسنتكم ، وتحكيه وتنطق به بدون بينة أو برهان . هذا الشىء حلال وهذا الشىء حرام .

وقد حكى الله - تعالى - عن هؤلاء الجاهلين فى آيات كثيرة ، أنهم حللوا وحرموا أشياء من عند أنفسهم ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا .. ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالا وحراما ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾[3] .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٧ .
(٢) سورة الانعام الآية ١٣٩ .
(٣) سورة يونس الآية ٥٩ .

الكلام وبليغه ، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه . فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته ، كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف السحر ..[١] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : ويصح أن يكون لفظ الكذب مفعولا لتصف ، وأن يكون قوله : ﴿ هذا حلال وهذا حرام ﴾ مفعولا لتقولوا .

وعلى هذا الوجه يكون فى وصف ألسنتهم الكذب ، مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب ، حتى لكأن ما هية الكذب كانت مجهولة ، فكشفت عنها ألسنتهم ووضحتها ووصفتها ونعتتها بالنعوت التى جلتها .. ومنه قول الشاعر :

أضحت يمينُك من جُودٍ مصوَّرةً لا ، بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ[٢]

واللام فى قوله : ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ هى لام الصيرورة والعاقبة ، أو هى - كما يقول صاحب الكشاف - من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض ، لأن ما صدر عنهم من تحليل وتحريم دون أن يأذن به الله ، ليس الغرض منه افتراء الكذب فحسب ، بل هناك أغراض أخرى ، كظهورهم بمظهر أولى العلم ، وكحبهم للتباهى والتفاخر . .

وقوله : ﴿ تفتروا ﴾ من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب ، لأنه اختلاق للكذب الذى لايستند إلى شىء من الواقع .

أى : ولا تقولوا لما تحكيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لا صحة لها ، هذا حلال وهذا حرام ، لتنسبوا ذلك إلى الله - تعالى - كذبا وزورا .

قال الإمام ابن كثير : ويدخل فى الآية كل من ابتدع بدعة ، ليس له فيها مستند شرعى ، أو حلل شيئا مما حرم الله أو حرم شيئا مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهيه[٣] .

وقال الآلوسى : وحاصل معنى الآية : لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمته عن الله - تعالى - ورسوله - - ﷺ - حلالا ولا حراما ، فتكونوا كاذبين على الله ؛ لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه - سبحانه - .

ومن هنا قال : أبو نضرة : لم أزل أخاف الفتيا منذ أن سمعت هذه الآية إلى يومى هذا .

وقال ابن العربى : كره مالك وقوم أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٣ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٧٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٠ .

الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله عليه . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا ونحو ذلك[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ بيان لسوء عاقبتهم ، وخيبة مسعاهم .

أى : إن الذين يختلقون الكذب وينسبونه إلى الله - تعالى - لا يفوزون بمطلوب ، ولا يفلحون فى الوصول إلى مأمول .

وقوله - تعالى - : ﴿ متاع قليل ﴾ بيان لخسة مايسعون للحصول إليه من منافع الدنيا ، وهو خبر لمبتدأ محذوف أى : متاعهم فى الدنيا متاع قليل ، لأنهم عما قريب سيتركونه لغيرهم بعد رحيلهم عن هذه الدنيا .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فى الآخرة فقال : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى : ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[٢] وقوله - تعالى - : ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[٣] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن ما حرمه على اليهود من طيبات ، كان بسبب ظلمهم وبغيهم ، وأن رحمته - تعالى - تسع العصاة متى تابوا وأصلحوا ، فقال - تعالى - :

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٨ .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٦ .

قال ابن كثير - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أرخص فيه عند الضرورة وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر - ، ذكر - سبحانه - بعد ذلك ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج ، فقال : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل.. ﴾ .

أى : فى سورة الأنعام فى قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[1] .

والمعنى : وعلى اليهود بصفة خاصة ، دون غيرهم من الأمم ، حرمنا بعض الطيبات التى سبق أن بيناها لك فى هذا القرآن الكريم ، وما كان تحريمنا إياها عليهم إلا بسبب بغيهم وظلمهم .

وفى الآية الكريمة إبطال لمزاعمهم ، حيث كانوا يقولون : لسنا أول من حرمت عليه هذه الطيبات ، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم وغيرهما ممن جاء بعدهما .

وقوله : ﴿ من قبل ﴾ متعلق بحرمنا ، أو بقصصنا .

وبذلك يتبين أن ما حرمه الله - تعالى - على الأمة الإسلامية ، كالميتة والدم ولحم الخنزير .. كان من باب الرحمة بها ، والحرص على مصلحتها .. أما ما حرمه - سبحانه - على اليهود ، فقد كان بسبب بغيهم وظلمهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ بيان لمظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - فى معاملته لعباده .

أى : وما ظلمنا هؤلاء اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، حيث تركوها تسير فى طريق الشيطان ، ولم يوقفوها عند حدود الله - تعالى - ، فاستحقوا بسبب ذلك ما استحقوا من عقوبات .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة .. ﴾ بيان لسعة رحمته - سبحانه - بعباده ، ورأفته بهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٠ .
(٢) سورة يونس الآية ٤٤ .

والمراد بالجهالة : الجهل والسفه اللذان يحملان صاحبهما على ارتكاب ما لا يليق بالعقلاء ، وليس المراد بها عدم العلم .

قال مجاهد : كل من عصى الله - تعالى - عمدا أو خطأ فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .

وقال ابن عطيه : الجهالة هنا بمعنى تعدى الطور ، وركوب الرأس : لا ضد العلم . ومنه ما جاء فى الخبر : « اللهم إنى أعوذ بك من أن أجهل ، أو يجهل على » .

ومنه قول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين[1]

والمعنى : ثم إن ربك - أيها الرسول الكريم - ، لكثير الغفران والرحمة لأولئك الذين عملوا الأعمال السيئة ، بدافع الجهل والسفه والطيش وعدم تدبر العواقب ، ثم إنهم بعد ذلك تابوا توبة صادقة عن تلك الأعمال السيئة ، ولم يكتفوا بذلك بل أصلحوا من شأن أنفسهم ، حيث أوقفوها عند حدود الله - تعالى - وأجبروها على تنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه .

قال الآلوسى : والتقييد بالجهالة قيل : لبيان الواقع ، لأن كل من يعمل السوء لا يعمله إلا بجهالة .

وقال العسكرى : ليس المعنى أنه - تعالى - يغفر لمن يعمل السوء بجهالة ، ولا يغفر لمن عمله بدون جهالة ، بل المراد أن جميع من تاب فهذه سبيله . وإنما خص من يعمل السوء بجهالة ، لأن أكثر من يأتى الذنوب يأتيها بقلة فكر فى عاقبة الأمر ، أو عند غلبة الشهوة ، أو فى جهالة الشباب : فذكر الأكثر على عادة العرب فى مثل ذلك[2] .

واسم الاشارة فى قوله : ﴿ ثم تابو من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ يعود إلى الأعمال السيئة التى عملوها قبل التوبة والإصلاح . أى : ثم تابوا توبة صادقة من بعد أن عملوا ما عملوا من سيئات ، وأصلحوا نفوسهم فهيأوها للسير على الطريق المستقيم .

والضمير فى قوله : ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ يعود إلى التوبة وما يصاحبها من فعل للطاعات ومن اجتناب للسيئات .

---

(١) ، (٢) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٤٩ .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد هذه التوبة النصوح ، لكثير المغفرة والرحمة للتائبين .

والتعبير - بثم - فى قوله : ﴿ ثم إن ربك للذين ... ﴾ وقوله : ﴿ ... ثم تابوا من بعد ذلك ﴾ لبيان الفرق الشاسع بين رحمة الله - تعالى - بعباده ، وبين ما يصدر عن بعضهم من كفران وارتكاب للمعاصى ، وبين المصرين على فعل السوء ، وبين التائبين عنه .

وكرر - سبحانه - ﴿ إن ربك ﴾ مرتين فى الآية الواحدة ، لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما ﴾[1] .

ثم مدح - سبحانه - خليله ابراهيم مدحا عظيما ، وأنه بشره بالعطاء الذى يسعده فى دنياه وآخرته ، وأمر نبيه محمدا - ﷺ - باتباع ملة أبيه إبراهيم ، فقال - تعالى - :

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف خليله ابراهيم - عليه السلام - بجملة من الصفات الفاضلة . والمناقب الحميدة .

وصفه أولا - بأنه ﴿ كان أمة ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآية ١٧ .

ولفظ ﴿ أمة ﴾ يطلق فى اللغة بإطلاقات متعددة ، منها : الجماعة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾[1] أى : جماعة من الناس.. .

ومنها : الدين والملة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة .. ﴾[2] أى : على دين وملة .

ومنها : الحين والزمان كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾[3] . أى : إلى زمان معين . .

والمراد بقوله - سبحانه -: ﴿إن إبراهيم كان أمة..﴾ أى: كان عنده من الخير ما كان عند أمة ، أى جماعة كثيرة من الناس ، وهذا التفسير مروى عن ابن عباس .

وقال مجاهد : سمى - عليه السلام - أمة لانفراده بالإيمان فى وقته مدة ما .

وفى صحيح البخارى أنه قال لزوجته سارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك .

ويصح أن يكون المراد بقوله - تعالى - : ﴿ إن إبراهيم كان أمة .. ﴾ أى : كان إماما يقتدى به فى وجوه الطاعات . وفى ألوان الخيرات ، وفى الأعمال الصالحات ، وفى إرشاد الناس إلى أنواع البر ، قال - تعالى - : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما .. ﴾[4] .

ووصفه ثانيا - بأنه كان « قانتا لله » أى مطيعا لله ، خاضعا لأوامره ونواهيه ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع .

ووصفه - ثالثا - بأنه كان ، حنيفا ، أى : مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق . من الحنف بمعنى المَيل والاعوجاج ، يقال : فلان برجله حنف أى اعوجاج وميل .

ومنه قول أم الأحنف بن قيس وهى تداعبه :

والله لولا حنف برجله ... ما كان فى فتيانكم من مثله

ووصفه - رابعا - بأنه منزه عن الإشراك بالله - تعالى - فقال : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٣ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٢٢ .

(٣) سورة هود الآية ٨ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

أى : ولم يكن ابراهيم - عليه السلام - من الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة أو الطاعة ، أو فى أى من الأمور ، بل أخلص عبادته لخالقه - عز وجل - .

وقال - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾[1] .

ووصفه - خامسا - بقوله - سبحانه - : ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾ أى : معترفا بفضل الله - تعالى - عليه ، ومستعملا نعمه فيما خلقت له ، ومؤديا حقوق خالقه فيها . قال - تعالى - : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى : قام بأداء جميع ما كلفه الله به .

وبعد أن مدح - سبحانه - إبراهيم بتلك الصفات الجامعة لمجامع الخير ، أتبع ذلك ببيان فضله - تعالى - عليه فقال : ﴿ اجتباه ﴾ أى اختاره واصطفاه للنبوة . من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار .

واجتباء الله - تعالى - لعبده معناه : اختصاصه ذلك العبد بخصائص ومزايا يحصل له عن طريقها أنواع من النعم بدون كسب منه .

﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ أى : وأرشده إلى الطريق القويم ، الذى دعا الصالحون ربهم أن يرشدهم إليه ، حيث قالوا فى تضرعهم : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . وهو طريق الإسلام .

﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾ أى : وجمعنا له خير الدنيا من كل ما يحتاج المؤمن إليه ليحيا حياة طيبة ، كهدايته إلى الدين الحق ، ومنحه نعمة النبوة ، وإعطائه الذرية الصالحة ، والسيرة الحسنة ، والمال الوفير .

وقد أشار القرآن الكريم إلى جانب من هذه النعم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾[2] .

وكما فى قوله - تعالى - : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا .. ﴾[3] .

﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى : وإنه فى الدار الآخرة لمندرج فى عباد الله الصالحين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والذين كانت لهم جنات الفردوس نزلا .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩ .
(٢) سورة الشعراء الآية ٨٤ .
(٣) سورة مريم الآية ٤٩ .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم التى منحها لخليله إبراهيم ، بأمر نبيه محمد - ﷺ - أن يتبع ملة أبيه إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

والمراد بملة إبراهيم : شريعته التى أمره الله - تعالى - باتباعها فى عقيدته وعبادته ومعاملاته ، وهى شريعة الإسلام ، التى عبر عنها آنفا بالصراط المستقيم فى قوله - تعالى - : ﴿ اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ .

والمراد باتباع الرسول - ﷺ - له فى ذلك : الإقتداء به فى التوحيد وفى أصول الدين ، الثابتة فى كل الشرائع ، لا الفروع الشرعية التى تختلف من شريعة إلى أخرى ، بحسب المصالح التى يريدها الله - تعالى - لعباده .

أى : ثم أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - بأن تتبع فى عقيدتك وشريعتك ﴿ ملة إبراهيم حنيفا ﴾ أى : شريعته التى هى شريعة الإسلام .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ﴿ ثم أوحينا إليك .. ﴾ : فى « ثم » هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله - ﷺ - ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة ، وأجل ما أوتى من النعمة ، اتباع رسول الله - ﷺ - لملته ، من جهة أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها[1] .

وقال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدى إلى الصواب ، ولا درك على الفاضل فى هذا ، فإن النبى - ﷺ - أفضل الأنبياء ، وقد أمر بالاقتداء بهم ، قال - تعالى - : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده .. ﴾[2] وقال - سبحانه - هنا : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا.. ﴾[3] .

وقوله : ﴿ حنيفا ﴾ حال من إبراهيم ، أى : من المضاف إليه ، وصح ذلك لأن المضاف هنا وهو ﴿ ملة ﴾ كالجزء من المضاف إليه وهو إبراهيم من حيث صحة الاستغناء بالثانى عن الأول ، لأن قولك : أن اتبع إبراهيم حنيفا كلام تام . .

وقد أشار ابن مالك - رحمه الله - إلى هذا المعنى بقوله :

ولا تجز حالا من المضاف له ... إلا إذا اقتضى المضاف عمله

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٠ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٩٠ .

أو كــان جـزء مــالـه أضيفــا أو مثــل جـزئـه فــلا تحيفــا

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ تنزيه لإبراهيم - عليه السلام - عن أى لون من ألوان الإشراك بالله - تعالى - .

أى : وما كان إبراهيم - عليه السلام - من المشركين مع الله - تعالى - آلهة أخرى لا فى عقيدته ولا فى عبادته ولا فى أى شأن من شئونه .

وفى ذلك رد على المشركين الذين زعموا أنهم على ملة ابراهيم ، ورد - أيضا - على اليهود والنصارى الذين زعموا أن إبراهيم - عليه السلام - كان على ملتهم .

قال - تعالى - : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - حقيقة عقيدة إبراهيم ، ومدحه بجملة من الصفات الجليلة ، وبين جانبا من مظاهر فضله - سبحانه - عليه ، أتبع ذلك ببيان أن تحريم العمل فى يوم السبت أمر خاص باليهود ، ولا علاقة له بشريعة إبراهيم أو بشريعة محمد - ﷺ - فقال - تعالى - : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه... ﴾ .

والمراد بالسبت : اليوم المسمى بهذا الاسم ، وأصله - كما يقول ابن جرير - الهدوء والسكوت فى راحة ودعة ، ولذلك قيل للنائم مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته ، كما قال - جل ثناؤه - : ﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أى : راحة لأبدانكم ..[2] .

والكلام على حذف مضاف ، والمعنى : إنما جعل تعظيم يوم السبت ، والتخلى فيه للعبادة ، ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ وهم اليهود ، حيث أمرهم نبيهم موسى - عليه السلام - بتعظيم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت .

قال الجمل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ أى : خالفوا نبيهم ، حيث أمرهم : أن يعظموا يوم الجمعة بالتفرغ للعبادة فيه ، وشدد عليهم بتحريم الاصطياد فيه : فليس المراد بالاختلاف أن بعضهم رضى ، وبعضهم لم يرض ، بل المراد به امتناع الجميع - حيث قالوا لا نريد يوم الجمعة ، واختاروا السبت .

ثم قال : وفى معنى الآية قول آخر . قال قتادة : إن الذين اختلفوا فيه هم اليهود ، حيث استحله بعضهم وحرمه بعضهم ، فعلى هذا القول يكون معنى قوله ﴿ إنما جعل السبت .. ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٧ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى جـ ١ ص ٣٢٧ .

أى : وبال يوم السبت ولعنته ﴿ على الذين اختلفوا فيه ﴾ ، وهم اليهود ، حيث استحله بعضهم فاصطادوا فيه ، فعذبوا ومسخوا .. وثبت بعضهم على تحريمه فلم يصطد فيه ، فلم يعذبوا .. والقول الأول أقرب إلى الصحة[١] .

وقال الإمام ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم - أى أهل الكتاب - أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم - أى يوم الجمعة - فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد»[٢] .

ثم بين - سبحانه - حكمه العادل فيهم فقال : ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - ليحكم بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة ، بأن ينزل بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب مخالفتهم لنبيهم ، وإعراضهم عن طاعته فيما أمرهم به من تعظيم يوم الجمعة .

ويصح أن يكون المعنى : وإن ربك ليحكم بحكمه العادل بين هؤلاء اليهود الذين اختلفوا فى شأن يوم السبت ، حيث استحله بعضهم ، وحرمه البعض الآخر ، فيجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت إبراهيم - عليه السلام - مدحا عظيما ، وذكرت جانبا من المآثر التى أكرمه الله - تعالى - بها ، وبرأته مما ألصقه به المشركون وأهل الكتاب من تهم باطلة ، ودعاوى كاذبة .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الآيات الجامعة لآداب الدعوة إلى الله ، والهادية إلى مكارم الأخلاق ، فقال - تعالى - : .

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٠٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩١ .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ للرسول - ﷺ - ويدخل فيه كل مسلم يصلح للدعوة إلى الله - عز وجل - .

أى : ادع - أيها الرسول الكريم - الناس إلى سبيل ربك أى : إلى دين ربك وشريعته التى هى شريعة الإسلام ﴿ بالحكمة ﴾ أى : بالقول المحكم الصحيح الموضح للحق ، المزيل للباطل ، الواقع فى النفس أجمل موقع .

وحذف - سبحانه - مفعول الفعل ﴿ ادع ﴾ للدلالة على التعميم ، أى ، ادع كل من هو أهل للدعوة إلى سبيل ربك .

وأضاف - سبحانه - السبيل اليه . للإشارة إلى أنه الطريق الحق ، الذى من سار فيه سعد وفاز ، ومن انحرف عنه شقى وخسر .

وقوله - تعالى - : ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ وسيلة ثانية للدعوة إلى الله - تعالى -

أى : وادعهم - أيضا- إلى سبيل ربك بالأقوال المشتملة على العظات والعبر التى ترقق القلوب ، وتهذب النفوس ، وتقنعهم بصحة ما تدعوهم إليه ، وترغبهم فى الطاعة لله - تعالى - وترهبهم من معصيته - عز وجل - وقوله - تعالى - : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ بيان لوسيلة ثالثة من وسائل الدعوة السليمة .

أى : وجادل المعاند منهم بالطريقة التى هى أحسن الطرق وأجملها ، بأن تكون مجادلتك لهم مبنية على حسن الإقناع ، وعلى الرفق واللين وسعة الصدر فإن ذلك أبلغ فى إطفاء نار غضبهم ، وفى التقليل من عنادهم ، وفى إصلاح شأن أنفسهم ، وفى إيمانهم بأنك إنما تريد من وراء مجادلتهم ، الوصول إلى الحق دون أى شىء سواه .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت أقوم طرق الدعوة إلى الله - تعالى - وعينت أحكم وسائلها ، وأنجعها فى هداية النفوس .

إنها تأمر الدعاة فى كل زمان ومكان أن تكون دعوتهم إلى سبيل الله لا إلى سبيل غيره : إلى طريق الحق لا طريق الباطل ، وإنها تأمرهم - أيضا- أن يراعوا فى دعوتهم أحوال الناس ، وطباعهم ، وسعة مداركهم ، وظروف حياتهم ، وتفاوت ثقافاتهم .

وأن يخاطبوا كل طائفة بالقدر الذى تسعه عقولهم ، وبالأسلوب الذى يؤثر فى نفوسهم ، وبالطريقة التى ترضى قلوبهم وعواطفهم .

فمن لم يقنعه القول المحكم ، قد تقنعه الموعظة الحسنة ، ومن لم تقنعه الموعظة الحسنة . قد يقنعه الجدال بالتى هى أحسن .

ولذلك كان من الواجب على الدعاة الى الحق ، أن يتزودوا بجانب ثقافتهم الدينية الأصيلة الواسعة - بالكثير من ألوان العلوم الأخرى كعلوم النفس والاجتماع والتاريخ ، وطبائع الأفراد والأمم .. فإنه ليس شيء أنجع فى الدعوة من معرفة طبائع الناس وميولهم ، وتغذية هذه الطبائع والميول بما يشبعها من الزاد النافع ، وبما يجعلها تقبل على فعل الخير ، وتدبر عن فعل الشر .

وكما أن أمراض الأجسام مختلفة ، ووسائل علاجها مختلفة -أيضا - ، فكذلك أمراض النفوس متنوعة ، ووسائل علاجها متباينة .

فمن الناس من يكون علاجه بالمقالة المحكمة : ومنهم من يكون علاجه بالعبارة الرقيقة الرفيقة التى تهز المشاعر ، وتثير الوجدان ، ومنهم من يكون علاجه بالمحاورة والمناقشة والمناظرة والمجادلة بالتى هى أحسن ، لأن النفس الإنسانية لها كبرياؤها وعنادها ، وقلما تتراجع عن الرأى الذى آمنت به . إلا بالمجادلة بالتى هى أحسن . والحق : أن الدعاة إلى الله - تعالى - إذا فقهوا هذه الحقائق فتسلحوا بسلاح الإيمان والعلم ، وأخلصوا لله - تعالى - القول والعمل ، وفطنوا إلى أنجع الأساليب فى الدعوة إلى الله ، وخاطبوا الناس على قدر عقولهم واستعدادهم .. نجحوا فى دعوتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال الآلوسى : وإنما تفاوتت طرق دعوته - ﷺ - لتفاوت مراتب الناس ، فمنهم خواص ، وهم أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لإدراك المعانى ، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه ، وهؤلاء يدعون بالحكمة .

ومنهم عوام ، أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد ، شديدة الإلف بالمحسوسات ، قوية

التعلق بالرسوم والعادات ، قاصرة عن درجة البرهان ، لكن لا عناد عندهم ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة .

ومنهم من يعاند ويجادل بالباطل ليدحض به الحق ، لما غلب عليه من تقليد الأسلاف ، ورسخ فيه من العقائد الباطلة ، فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر ، بل لابد من إلقامه الحجر بأحسن طرق الجدال ، لتلين عريكته ، وتزول شكيمته ، وهؤلاء الذين أمر - ﷺ - بجدالهم بالتى هى أحسن[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ بيان لكمال علم الله - تعالى - وإحاطته بكل شيء ، وإرشاد للدعاة فى شخص نبيهم - ﷺ - إلى أن عليهم أن يدعوا الناس بالطريقة التى بينها - سبحانه - لهم ، ثم يتركوا النتائج له - تعالى - يسيرها كيف يشاء .

والظاهر أن صيغة التفضيل ﴿ أعلم ﴾ فى هذه الآية وأمثالها ، المراد بها مطلق الوصف لا المفاضلة ، لأن الله - تعالى - لايشاركه أحد فى علم أحوال خلقه ، من شقاوة وسعادة ، وهداية وضلال .

والمعنى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده العليم بمن ضل من خلقه عن صراطه المستقيم ، وهو وحده العليم بالمهتدين منهم إلى السبيل الحق وسيجازى كل فريق منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وما دام الأمر كذلك ، فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تسلك فى دعوتك إلى سبيل ربك ، الطرق التى أرشدك إليها ، من الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، ومن كان فيه خير - كما يقول صاحب الكشاف - كفاه الوعظ القليل ، والنصيحة اليسيرة ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل ، وكأنك تضرب منه فى حديد بارد[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنجع أساليب الدعوة إلى سبيله فى حالة المسالمة والمجادلة بالحجة والبرهان ، أتبع ذلك ببيان ما ينبغى على المسلم أن يفعله فى حالة الاعتداء عليه أو على دعوته فقال - تعالى - : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... ﴾ .

أى : وإن أردتم معاقبة من ظلمكم واعتدى عليك ، فعاقبوه بمثل ما فعله بكم ، ولا تزيدوا على ذلك ، فإن الزيادة حيف يبغضه الله - تعالى - .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٤ ص ٢٥٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٥ .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى ما هو أسمى من مقابلة الشر بمثله فقال : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

والضمير فى قوله ﴿ لهو ﴾ يعود إلى المصدر فى قوله ﴿ صبرتم ﴾ ، والمصدر إما أن يراد به الجنس فيكون المعنى : ولئن صبرتم فالصبر خير للصابرين ، وأنتم منهم .

وإما أن يراد به صبرهم الخاص فيكون المعنى : ولئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل ، لصبركم خير لكم ، فوضع - سبحانه - الصابرين موضع لكم على سبيل المدح لهم ، والثناء عليهم بصفة الصبر .

هذا ، وقد ذكر جمع من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى أعقاب غزوة أحد ، بعد أن مثل المشركون بحمزة - رضى الله عنه - .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : روى الحافظ البزار عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - وقف على حمزة بن عبد المطلب حين استشهد . فنظر الى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه .

وقد مثل المشركون به . فقال - ﷺ - : رحمة الله عليك ، لقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات . والله لولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع . أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله - ﷺ - عن يمينه .

ثم قال ابن كثير بعد روايته لهذا الحديث : وهذا إسناد فيه ضعف لأن أحد رواته وهو « صالح بن بشير المرى » ضعيف عند الأئمة . وقال البخارى هو منكر الحديث .

ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : وروى عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أبى بن كعب ، قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله - ﷺ - : لئن كان لنا يوم مثل هذا اليوم من المشركين لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم . فنادى مناد أن رسول الله - ﷺ - قد أمن الأبيض والأسود إلا فلانا وفلانا - ناسا سماهم - ، فنزلت الآية .

فقال رسول الله - ﷺ - « نصبر ولا نعاقب »[1] .

والذى نراه أن الآية الكريمة - حتى ولو كان سبب نزولها ما ذكر - إلا أن التوجيهات التى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٦ .

اشتملت عليها صالحة لكل زمان ومكان ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعلى رأس هذه التوجيهات السامية التى اشتملت عليها : دعوة المسلمين الى التزام العدالة فى أحكامهم ، وحضهم على الصبر والصفح ما دام ذلك لا يضر بمصلحتهم ومصلحة الدعوة الإسلامية .

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله – تعالى – : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ... ﴾[1] .

ثم أمر – سبحانه – بالصبر أمرا صريحا ، بعد أن بين حسن عاقبته فقال : ﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ... ﴾ .

أى : : واصبر – أيها الرسول الكريم – على أذى قومك ، وما صبرك فى حال من الأحوال بمؤت ثماره المرجوة منه إلا بتوفيق الله – تعالى – لك ، وبتثبيته إياك ، وما دام الأمر كذلك فالجأ إليه وحده ، واستعن به – سبحانه – فى كل أمورك ، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال .

ثم نهاه – سبحانه – عن الحزن بسبب كفر الكافرين ، فإن الهداية والإضلال بقدرة الله وحده فقال – تعالى – : ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ .

أى ولا تحزن بسبب كفر الكافرين ، وإصرارهم على ذلك ، وإعراضهم عن دعوتك ، ولا يضق صدرك بمكرهم ، فإن الله – تعالى – ناصرك عليهم ، ومنجيك من شرورهم .

وقوله – تعالى – : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ تعليل لما سبق من أمره بالصبر ، ومن نهيه عن الحزن وضيق الصدر .

أى : إن الله – تعالى – بمعونته وتأييده مع الذين اتقوه فى كل أحوالهم ، وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضاه . ومع الذين يحسنون القول والعلم ، بأن يؤدوهما بالطريقة التى أمر الإسلام بها ، ومن كان الله – تعالى – معه ، سعد فى دنياه وفى أخراه .

وقد قيل لبعض الصالحين وهو يحتضر : أوص . فقال : إنما الوصية من المال . ولا مال لى ،

---

(١) سورة الشورى الآية ٤٠ .

ولكنى أوصيكم بالعمل بخواتيم سورة النحل .

وبعد فهذه سورة النحل ، وهذا تفسير لها . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة : مساء الثلاثاء ٢٧ من ذى الحجة ١٤٠٣ هـ

الموافق ١٩٨٣/١٠/٤ م

تفسير

سورة الإسراء



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الإسراء ، أسأل الله - عز وجل - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة فى ١٤٠٤/١/٥ هـ

الموافق ١٩٨٣/١٠/١٠ م

المؤلف

د . محمد سيد طنطاوى

تعريف بسورة الإسراء

١ - سورة الإسراء هى السورة السابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سورة : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء .... الخ .

أما ترتيبها فى النزول ، فقد ذكر السيوطى فى الإتقان أنها السورة التاسعة والأربعون ، وأن نزولها كان بعد سورة القصص[١] .

٢ - وتسمى - أيضا - بسورة بنى إسرائيل ، وبسورة « سبحان » ، وعدد آياتها عند الجمهور إحدى عشرة آية ومائة ، وعند الكوفيين عشر آيات ومائة آية .

٣ - ومن الأحاديث التى وردت فى فضلها ، ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال فى بنى إسرائيل ، والكهف ومريم : إنهن من العِتَاق الأُول ، وهنّ من تلادى[٢] .

والعتاق : جمع عتيق وهو القديم ، وكذلك التالد بمعنى القديم . ومراده - رضى الله عنه - أن هذه السور من أول ما حفظه من القرآن .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد بن زيد ، عن مروان عن أبى لبابة ، قال : سمعت عائشة - رضى الله عنها - تقول : كان رسول الله - ﷺ - يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة : « بنى إسرائيل » و« الزمر »[٣] .

٤ - ومن وجوه مناسبة هذه السورة لما قبلها ، ما ذكره أبو حيان بقوله : « ومناسبة هذه لما قبلها ، أنه - تعالى - لما أمره - فى آخر النحل - بالصبر ، ونهاه عن الحزن عليهم ، وعن أن يضيق صدره من مكرهم ، وكان من مكرهم نسبته إلى الكذب والسحر والشعر ، وغير ذلك مما رموه به ، أعقب - تعالى - ذلك بذكر شرفه ، وفضله ، واحتفائه به ، وعلو منزلته عنده »[٤] .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٢٧ طبعة المشهد الحسينى .

(٢ ، ٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣ - طبعة مكتبة الشعب .

(٤) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ٣ .

٥ - وسورة الإسراء من السور المكية ، ومن المفسرين الذين صرحوا بذلك دون أن يذكروا خلافا فى كونها مكية . الزمخشرى ، وابن كثير ، والبيضاوى ، وأبو حيان .

وقال الآلوسى : وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور .

وقيل : هى مكية إلا آيتين : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ... وإن كادوا ليستفزونك ﴾ .

وقيل : إلا أربعا ، هاتان الآيتان ، وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق ... ﴾[1] .

والذى تطمئن إليه النفس أن سورة الإسراء بتمامها مكية - كما قال جمهور المفسرين - لأن الروايات التى ذكرت فى كون بعض آياتها مدنية ، لا تنهض دليلا على ذلك لضعفها .. .

والذى يغلب على الظن أن نزول هذه السورة الكريمة : أو نزول معظمها ، كان فى أعقاب حادث الإسراء والمعراج .

وذلك لأن السورة تحدثت عن هذا الحدث ، كما تحدثت عن شخصية الرسول - ﷺ - حديثا مستفيضا ، وحكت إيذاء المشركين له ، وتطاولهم عليه ، وتعنتهم معه ، كمطالبتهم إياه بأن يفجر لهم من الأرض ينبوعا .. .

وقد ردت السورة الكريمة على كل ذلك ، بما يسلى الرسول - ﷺ - ويثبته ، ويرفع منزلته ، ويعلى قدره ... فى تلك الفترة الحرجة من حياته - ﷺ - وهى الفترة التى أعقبت موت زوجه السيدة خديجة - رضى الله عنها - وموت عمه أبى طالب .. .

٦ - (أ) وعندما نقرأ سورة الإسراء نراها فى مطلعها تحدثنا عن إسراء الله - تعالى - بنبيه - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعن الكتاب الذى آتاه الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - ليكون هداية لقومه ، وعن قضاء الله فى بنى إسرائيل .. .

قال - تعالى - : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير . وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ، ألا تتخذوا من دونى وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢.

شكورا . وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ﴾ ..

(ب) ثم يبين - سبحانه - بعد ذلك أن هذا القرآن قد أنزله - سبحانه - على نبيه - ﷺ - ليهدى الناس إلى الطريق الأقوم ، وليبشر المؤمنين يالأجر الكبير ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، وسيحاسب عليه يوم القيامة ، دون أن تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى .. .

قال - تعالى - : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، أن لهم أجرا كبيرا... ﴾ .

إلى أن يقول - سبحانه - : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا * من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

(جـ) ثم تسوق السورة الكريمة سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن عاقبة الترف والفسق ، الدمار والهلاك ، وأن من يريد العاجلة كانت نهايته إلى جهنم ، ومن يريد الآخرة ويقدم لها العمل الصالح كانت نهايته إلى الجنة .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ فيقول : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح . وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا . من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ .

(د) وبعد أن بين - سبحانه - أن سعادة الآخرة منوطة بإرادتها ، وبأن يسعى الانسان لها وهو مؤمن ، عقب ذلك بذكر بضع وعشرين نوعا من أنواع التكاليف ، التى متى نفذها المسلم ظفر برضى الله - تعالى - ومثوبته ، ومن تلك التكاليف قوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾.. .

﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا .. ﴾ .

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم... ﴾ .

﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ .

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ .

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ .

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم.. ﴾ .

﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا .. ﴾ .

(هـ) وبعد أن ساقت السورة الكريمة تلك التكاليف المحكمة التى لا يتطرق إليها النسخ أو النقض ، فى ثمانى عشرة آية ، أتبعت ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وبتنزيه الله - تعالى - عن الشريك ، وببيان أن كل شىء يسبح بحمده - عز وجل - .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا ﴾ .

(و) ثم تحكى السورة الكريمة جانبا من أقوال المشركين ، وترد عليها بما يدحضها ، وتأمر المؤمنين بأن يقولوا الكلمة التى هى أحسن .. فتقول : .

﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة أو حديدا.أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا . وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ .

(ز) وبعد أن تقرر السورة الكريمة شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وقدرته على كل شىء ، بعد أن تقرر ذلك ، تحكى لنا جانبا من قصة آدم وإبليس فتقول : .

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ .

(ح) ثم تسوق السورة بعد ذلك ألوانا من نعم الله على عباده فى البر والبحر ، وألوانا من

تكريمه لبنى آدم ، كما تصور أحوال الناس يوم القيامة ، وعدالة الله - تعالى - فى حكمه عليهم فتقول :

﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا .. ﴾ .

ثم يقول - سبحانه - : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا .. ﴾ .

(ط) ثم تحكى السورة جانبا من نعم الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - حيث ثبته - سبحانه - أمام مكر أعدائه ، وأمره بالمداومة على الصلاة وعلى قراءة القرآن ، لأن ذلك يزيده ثباتا على ثباته ، وتكريما على تكريمه .

قال - تعالى - : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ﴾ .

(ى) ثم يقول - سبحانه - : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا . وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ..

(ك) وبعد أن تقرر السورة الكريمة طبيعة الإنسان ، وتقرر أن الروح من أمر الله - تعالى - ، تتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وببيان أنه المعجزة الخالدة للرسول - ﷺ - ، وبإيراد المطالب المتعنتة التى طالب المشركون بها النبى - ﷺ - .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقرر كل ذلك بأسلوبه البليغ فيقول : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ .

(ل) ثم تسوق السورة الكريمة فى أواخرها الدلائل الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وتحكى جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وتؤكد أن هذا القرآن أنزله الله - تعالى - بالحق ، وبالحق نزل ، وأنه نزله مفرقا ليقرأه الناس على تؤدة وتدبر .

وكما افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ، فقد اختتمت بحمد الله - تعالى - وتكبيره . قال - تعالى - :

﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾ .

(م) وبعد فهذا عرض إجمالى لأهم الموضوعات والمقاصد التى اشتملت عليها سورة الإسراء . ومن هذا العرض يتبين لنا مايلى : .

١ - أن سورة الإسراء - كغيرها من السور المكية - قد اهتمت اهتماما بارزا بتنقية العقيدة من كل ما يشوبها من شرك أو انحراف عن الطريق المستقيم .

وقد ساقت السورة فى هذا المجال أنواعا متعددة من البراهين على وحدانية الله - تعالى - وعلمه وقدرته ، ووجوب إخلاص العبادة له ، وعلى تنزيهه - سبحانه - عن الشريك ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما . ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا . قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ .

٢ - كذلك على رأس الموضوعات التى فصلت السورة الحديث عنها ، شخصية الرسول - ﷺ - ، فقد ابتدأت بإسراء الله - تعالى - به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث أراه - سبحانه - من آياته ما أراه ، ثم تحدثت عن طبيعة رسالته ، وعن مزاياها ، وعن موقف المشركين منه ، وعن المطالب المتعنتة التى طلبوها منه ، وعن تثبيت الله - تعالى - له ، وعن تبشيره بحسن العاقبة .. .

قال - تعالى - : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ .

٣ - من الواضح - أيضا - أن سورة الإسراء اعتنت بالحديث عن القرآن الكريم ، من حيث هدايته ، وإعجازه ، ومنع الذين لا يؤمنون به عن فقهه ، واشتماله على ما يشفى الصدور ، وتكراره للبينات والعبر بأساليب مختلفة ، ونزوله مفرقا ليقرأه الناس على مكث ..

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - :

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ... ﴾ .

﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا .. ﴾ .

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .. ﴾ .

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا .. ﴾ .

٤ - اهتمت السورة الكريمة اهتماما بينا ، بالحديث عن التكاليف الشرعية ، المتضمنة لقواعد السلوك الفردى والجماعى .

وقد ذكرت السورة أكثر من عشرين تكليفا ، فى آيات متتالية ، بدأت بقوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا ﴾ الآية ٢٢ وانتهت بقوله - تعالى - : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ الآية ٣٨ .

وبجانب حديثها المستفيض عن التكاليف الشرعية ، تحدثت - أيضا - عن طبيعة الإنسان فى حالتى العسر واليسر ، وعن بخله الشديد بما يملكه .. .

قال - تعالى - : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ، إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا ﴾ .

٥ - ومن الجوانب التى حرصت السورة الكريمة على تجليتها والكشف عنها : بيان سنن الله التى لا تتخلف فى الهداية والإضلال ، وفى الثواب والعقاب ، وفى النصر والخذلان ، وفى الرحمة والإهلاك ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ .

﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ .

﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ... ﴾ .

هذه بعض المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها سورة الإسراء ، وهناك مقاصد أخرى يراها المتأمل فيها ، والمتدبر لآياتها ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

د . محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

التفسير

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

افتتحت سورة الإسراء بتنزيه الله – تعالى – عن كل ما لا يليق بجلاله ، كما يدل على ذلك لفظ « سبحان » الذى من أحسن وجوه إعرابه ، أنه اسم مصدر منصوب – على أنه مفعول مطلق – بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله – تعالى – سبحانا أى تسبيحا ، بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء .

قال القرطبى : وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة – أى المبشرين بالجنة – أنه قال للنبى – ﷺ – : ما معنى سبحان الله ؟ فقال : « تنزيه الله من كل سوء »[١] .

وقوله ﴿ أسرى ﴾ من الإسراء ، وهو السير بالليل خاصة .

قال الجمل : يقال أسرى وسرى ، بمعنى سار فى الليل ، وهما لازمان ، لكن مصدر الأول الإسراء ومصدر الثانى السرى – بضم السين كالهدى – فالهمزة ليست للتعدية إلى المفعول ، وإنما جاءت التعدية هنا من الباء . ومعنى أسرى به ، صيره ساريا فى الليل[٢] .

والمراد ﴿ بعبده ﴾ خاتم أنبيائه محمد – ﷺ – ، والإضافة للتشريف والتكريم . .

وأوثر التعبير بلفظ العبد ، للدلالة على أن مقام العبودية لله – تعالى – هو أشرف صفات

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٠٤ .

(٢) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٦٠٨ .

المخلوقين وأعظمها وأجلها ، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه فى هذا المقام لعبر به ، وللإشارة - أيضا - إلى تقرير هذه العبودية لله - تعالى - وتأكيدها ، حتى لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، كما التبسا فى العقائد المسيحية ، حيث ألّهوا عيسى - عليه السلام - ، وألّهوا أمه مريم ، مع أنهما بريئان من ذلك . .

قال الشيخ القاسمى نقلا عن الإمام ابن القيم فى كتاب « طريق الهجرتين » : أكمل الخلق أكملهم عبودية لله - تعالى - ، ولهذا كان النبى - ﷺ - أقرب الخلق إلى الله - تعالى - وأعظمهم عنده جاها ، وأرفعهم عنده منزلة ، لكماله فى مقام العبودية . وكان - ﷺ - يقول : « أيها الناس ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنما أنا عبد » . وكان يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وذكره - سبحانه - بسمة العبودية فى أشرف مقاماته : فى مقام الإسراء حيث قال : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ .

وفى مقام الدعوة حيث قال : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ . .

وفى مقام التحدى حيث قال : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ ليلا ﴾ ظرف زمان لأسرى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل ؟ .

قلت : أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير ، تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية ...»[2] .

وقوله : ﴿ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ بيان لابتداء الإسراء وانتهائه .

أى : جل شأن الله - عز وجل - وتنزه عن كل نقص ، حيث أسرى بعبده محمد - ﷺ - فى جزء من الليل ، من المسجد الحرام الذى بمكة إلى المسجد الأقصى الذى بفلسطين .

ووصف مسجد مكة بالحرام ، لأنه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره .

(١) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٨٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٦ .

ووصف مسجد فلسطين بالأقصى ، لبعده عن المسجد الحرام ، إذ المسافة بينهما كان يقطعها الراكب للإبل فى مدة شهر أو أكثر .

قال الآلوسى : ووصفه بالأقصى - أى الأبعد - بالنسبة إلى من بالحجاز . وقال غير واحد : إنه سمى به لأنه أبعد المساجد التى تزار من المسجد الحرام وبينهما زهاء أربعين ليلة . وقيل - وصف بذلك - : لأنه ليس وراءه موضع عبادة فهو أبعد مواضعها ..[1] .

وظاهر الآية يفيد أن الإسراء كان من المسجد الحرام ، فقد أخرج الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « بينا أنا فى الحجر - وفى رواية - فى الحطيم ، بين النائم واليقظان ، إذ أتانى آت فشق ما بين هذه إلى هذه ، فاستخرج قلبى فغسله ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق فحملت عليه » ...

وقيل أُسرِى به من بيت أم هانىء بنت أبى طالب ، فيكون المراد بالمسجد الحرام : الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به . فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : الحرم كله مسجد .

ويمكن الجمع بين هذه الروايات ، بأن الرسول - ﷺ - بقى فى بيت أم هانىء لفترة من الليل ، ثم ترك فراشه عندها وذهب إلى المسجد ، فلما كان فى الحِجْر أو فى الحطيم بين النائم واليقظان ، أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السموات العلا . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد - كما جاء فى بعض الروايات .

وبذلك يترجح لدينا أن وجود الرسول - ﷺ - فى تلك الليلة فى بيت أم هانىء ، لا ينفى أن الإسراء بدأ من المسجد الحرام ، كما تقرر الآية الكريمة .

وقوله ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ صفة مدح للمسجد الأقصى .

أى : جل شأن الله الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى أحطنا جوانبه بالبركات الدينية والدنيوية .

أما البركات الدينية فمن مظاهرها : أن هذه الأرض التى حوله ، جعلها الله - تعالى - مقرا لكثير من الأنبياء ، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وداود وسليمان ، وزكريا ويحيى وعيسى .

قال - تعالى - : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها .. ﴾[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨١ .

وقال - سبحانه - فى شأن إبراهيم : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾[١] .

والمقصود بهذه الأرض : أرض الشام ، التى منها فلسطين .

وأما البركات الدنيوية فمن مظاهرها : كثرة الأنهار والأشجار والثمار والزروع فى تلك الأماكن .

قال بعض العلماء : وقد قيل فى خصائص المسجد الأقصى : أنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبين ، ومعراجه إلى السموات العلا .. وأولى القبلتين وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ إشارة الى الحكمة التى من أجلها أسرى الله - تعالى - بنبيه - ﷺ - فقوله ﴿ لنريه ﴾ متعلق بأسرى .

و« من » للتبعيض لأن ما رآه النبى - ﷺ - وإن كان عظيما إلا أنه مع عظمته بعض آيات الله بالنسبة لما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب .

أى : أسرينا بعبدنا محمد ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، ثم عرجنا به إلى السموات العلا ، لنطلعه على آياتنا ، وعلى عجائب قدرتنا ، والتى من بينها : مشاهدته لأنبيائنا الكرام ، ورؤيته لما نريد أن يراه من عجائب وغرائب هذا الكون .

ولقد وردت أحاديث متعددة فى بيان ما أراه الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - فى تلك الليلة المباركة ، ومن ذلك ما رواه البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال : ... ووجدت فى السماء الدنيا آدم فقال لى جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه ورد على آدم السلام فقال : مرحبا وأهلا بابنى ، فنعم الابن أنت .. .

وفى رواية للإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لما عرج بى ربى - عز وجل - مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم ..[٣] » .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على سعة علمه ، ومزيد فضله فقال - تعالى - : ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧١ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٣٨٨٥ .
(٣) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ص ٨ طبعة دار الشعب .

أى : إنه - سبحانه - هو السميع لأقوال عباده : مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم . بصير بما يسرونه ويعلنونه ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب ، بدون ظلم أو محاباة .

هذا وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية جملة من المسائل منها :

١ - أن هذه الآية دلت على ثبوت الإسراء للنبى - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأما العروج به - ﷺ - إلى السموات العلا فقد استدل عليه بعضهم بآيات سورة النجم ، وهى قوله - تعالى - : ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ﴾ .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة بأسانيدها ومتونها ، وقال فى أعقاب ذكر بعضها :

قال البيهقى : وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به - عليه الصلاة والسلام - من مكة إلى بيت المقدس ، وهذا الذى قاله هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية[١] .

وقال القرطبى : ثبت الإسراء فى جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام ، فهو من المتواتر بهذا الوجه ، وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابيا[٢] .

٢ - قال بعض العلماء ما ملخصه : ذهب الاكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث ، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهرى وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النووى ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان فى رجب سنة اثنتى عشرة من النبوة .

وإختار الحافظ المقدسى أنه كان فى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب[٣] .

والذى تطمئن إليه النفس أن حادث الإسراء والمعراج ، كان بعد وفاة أبى طالب والسيدة خديجة - رضى الله عنها - .

ووفاتها كانت قبل الهجرة بسنتين أو ثلاثة . وفى هذه الفترة التى أعقبت وفاتها اشتد أذى

(١) تفسير ابن كثير المجلد الخامس ص ٧ طبعة دار الشعب .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٠٥
(٣) تفسير القاسمى جـ ١٠ ص ٢٨٨٨ .

المشركين بالنبى - ﷺ - فكان هذا الحادث لتسليته - ﷺ - عما أصابه منهم ، ولتشريفه وتكريمه . .

٣ - من المسائل التى ثار الجدل حولها ، مسألة : أكان الإسراء والمعراج فى اليقظة أم فى المنام ؟ وبالروح والجسد أم بالروح فقط ؟ .

وقد لخص بعض المفسرين أقوال العلماء فى هذه المسألة فقال : اعلم أن هذا الإسراء به - ﷺ - المذكور فى هذه الآية الكريمة زعم بعض أهل العلم أنه بروحه دون جسده ، زاعما أنه فى المنام لا فى اليقظة ، لأن رؤيا الأنبياء وحى .

وزعم بعضهم أن الإسراء بالجسد ، والمعراج بالروح دون الجسد .

ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده - ﷺ - يقظة لا مناما ، لأنه قال : ﴿ بعبده ﴾ والعبد مجموع الروح والجسد .

ولأنه قال : ﴿ سبحان ﴾ والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان مناما لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه .

ولأنه لو كان رؤيا منام لما كان فتنة ، ولا سببا لتكذيب قريش له - ﷺ - لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار لأن المنام قد يرى فيه ما لا يصح .

ولأنه - سبحانه - قال ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ والظاهر أن ما أراه الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - إنما كان رؤيا عن طريق العين ويؤيده قوله - تعالى - : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ولأنه ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن الرسول - ﷺ - قد استعمل فى رحلته البراق ، واستعماله البراق يدل على أن هذا الحادث كان بالروح والجسد وفى اليقظة لا فى المنام .

وما ثبت فى الصحيحين عن طريق شريك عن أنس - رضى الله عنه - أن الإسراء المذكور وقع مناما ، لاينافى ما ذكرنا مما عليه أهل السنة والجماعة ، ودلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أنه كان يقظة وبالروح والجسد ، لإمكان أنه - ﷺ - رأى الإسراء المذكور مناما ، ثم جاءت تلك الرؤيا كفلق الصبح ، فأسرى به يقظة تصديقا لتلك الرؤيا المنامية[1] .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٣٤٨ لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

هذا ، ومن العلماء الذين فصلوا القول فى تلك المسألة تفصيلا محققا ، القاضى عياض فى كتابه « الشفا » فقد قال - رحمه الله - بعد أن ساق الآراء فى ذلك :

والحق فى هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالروح والجسد فى القصة كلها ، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده وروحه حال يقظته استحالة ..[1] .

وما قاله القاضى عياض - رحمه الله - فى هذه المسألة هو الذى نعتقده ، ونلقى الله - تعالى - عليه .

وبعد أن بين الله - سبحانه - جانبا من مظاهر تكريمه وتشريفه لنبيه محمد - ﷺ - عن طريق إسرائه به . أتبع ذلك بالحديث عما أكرم به نبيه موسى - عليه السلام - فقال :

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

والواو فى قوله - تعالى - : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ ، استئنافية ، أو عاطفة على قوله : ﴿ سبحان الذى أسرى .. ﴾ .

والمراد بالكتاب : التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - والضمير المنصوب فى قوله : ﴿ وجعلناه ﴾ يعود إلى الكتاب .

وقوله ﴿ لبنى إسرائيل ﴾ متعلق بهدى .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ﴾ .

و﴿ أن ﴾ فى قوله ﴿ أن لاتتخذوا من دونى وكيلا ﴾ يصح أن تكون زائدة وتكون الجملة مقولة لقول محذوف ، والمعنى :

---

(١) راجع الشفا للقاضى عياض جـ ١ ص ١٤٥ وما بعدها .

وآتينا موسى الكتاب من أجل أن يكون هداية لبنى إسرائيل إلى الصراط المستقيم .

وقلنا لهم : لا تتخذوا غير الله - تعالى - وكيلا ، أى : معبودا ، تفوضون إليه أموركم ، وتكلون إليه شئونكم ، فهو - سبحانه - : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قرأ أبو عمرو « ألا يتخذوا » بالياء خبرا عن بنى إسرائيل : وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب ، أى : قلنا لهم لا تتخذوا . ويصح أن تكون ﴿ أن ﴾ ناصبة للفعل فيكون المعنى : وجعلناه هدى لئلا تتخذوا ... وأن تكون ﴿ أن ﴾ بمعنى أى التى للتفسير - أى هى مفسرة لما تضمنه الكتاب من النهى عن اتخاذ وكيل سوى الله - تعالى -[1] .

وقوله : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ... ﴾ منصوب على الاختصاص ، أو على النداء والمقصود بهذه الجملة الكريمة إثارة عزائمهم نحو الإيمان والعمل الصالح ، وتنبيههم إلى نعمه - سبحانه - عليهم ، حيث جعلهم من ذرية أولئك الصالحين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - وحضهم على السير على مناهجهم فى الإيمان والعمل الصالح ، فإن شأن الأبناء أن يقتدوا بالآباء فى التقوى والصلاح .

والمعنى : لا تتخذوا يا بنى إسرائيل معبودا غير الله - تعالى - ، فأنتم أبناء أولئك القوم الصالحين ، الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فأنجاهم الله - تعالى - مع نبيهم من الغرق .

قال الآلوسى : وفى التعبير بما ذكر إيماء إلى علة النهى من أوجه : أحدها تذكيرهم بالنعمة فى إنجاء آبائهم . والثانى : تذكيرهم بضعفهم وحالهم المحوج إلى الحمل والثالث : أنهم أضعف منهم - أى من آبائهم - لأنهم متولدون عنهم وفى إيثار لفظ الذرية الواقعة على الأطفال والنساء فى العرف الغالب مناسبة تامة لما ذكر[2] .

وقوله : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾ تذييل قصد به الثناء على نوح - عليه السلام - أى : إن نوحا - عليه السلام - كان من عبادنا الشاكرين لنعمنا ، المستعملين لها فيما خلقت له ، المتوجهين إلينا بالتضرع والدعاء فى السراء والضراء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٥٣ طبعة دار الكتاب العالمية .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٥ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾ ما وجه ملاءمته لما قبله ؟ .

قلت : كأنه قيل لا تتخذوا من دونى وكيلا ، ولا تشركوا بى ، لأن نوحا كان عبدا شكورا ، وأنتم مَنْ آمن به وحمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم ، ويجوز أن يكون تعليلا لاختصاصهم ، والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح - عليه السلام - فهم متصلون به ، فاستأهلوا لذلك الاختصاص ..[1] .

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعتا إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - بأسلوب يرضى العقول السليمة ، والعواطف الشريفة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك قضاءه العادل فى بنى إسرائيل وساق سنة من سننه التى لا تتخلف فى خلقه فقال - تعالى -:

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٨ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ... ﴾ إخبار من الله - تعالى - لهم ، بما سيكون منهم ، حسب ما وقع فى علمه المحيط بكل شيء ، والذى ليس فيه إجبار أو قسر ، وإنما هو صفة انكشافية ، تنبىء عن مآلهم وأحوالهم .

قال أبو حيان : والفعل ﴿ قضي ﴾ يتعدى بنفسه إلى مفعول ، كقوله - تعالى - : ﴿ فلما قضى موسى الأجل .. ﴾ ولما ضُمِّن هنا معنى الإيحاء أو الإنفاذ تعدى بإلى أى : وأوحينا أو أنفذنا إلى بنى إسرائيل فى القضاء المحتوم المثبوت وعن ابن عباس : وأعلمناهم ..[1] .

والمراد بالكتاب : التوراة ، وقيل اللوح المحفوظ .

واللام فى قوله ﴿ لتفسدن ... ﴾ جواب قسم محذوف تقديره : والله لتفسدن .

ويجوز أن تكون جوابا لقوله - تعالى - : ﴿ وقضينا... ﴾ لأنه مضمن معنى القسم ، كما يقول القائل : قضى الله لأفعلن كذا ، فيجرى القضاء والقدر مجرى القسم .. .

والمقصود بالأرض : عمومها أو أرض الشام .

و« مرتين » منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : ﴿ لتفسدن ﴾ من غير لفظه ، والمراد لتفسدن إفسادتين وقوله - عز وجل - : ﴿ ولتعلن .. ﴾ من العلو وهو ضد السفل ، والمراد به هنا : التكبر والتجبر والبغى والعدوان .

والمعنى : وأخبرنا بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة خبراً مؤكدا : وأوحينا إليهم بواسطه رسلنا ، بأن قلنا لهم : لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتستكبرن على الناس بغير حق ، إستكبارا كبيرا ، يؤدى بكم إلى الخسران والدمار .

والتعبير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه فى الكتاب ، يدل على ثبوته ، إذ أصل القضاء - كما يقول القرطبى - الإحكام للشيء والفراغ منه .

وأكد إفسادهم واستعلاءهم بلام القسم ، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب بالتجبر والتكبر والبغى والعدوان .

---

(١) تفسير البحر المحيط لابى حيان جـ ٦ ص ٨ طبعة دار الفكر - بيروت .

وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض : تحريفهم للتوراة ، وتركهم العمل بما فيها من أحكام ، وقتلهم الأنبياء والمصلحين .

ثم بين - سبحانه - أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول فى الأرض ، من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ، ويدمرهم تدميرا ، فقال - تعالى - : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد . فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ﴾ .

والمراد بالوعد : الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم فى الأرض ، فالكلام على حذف مضاف ، والضمير فى ﴿ أولاهما ﴾ يعود على المرتين المعبر عنهما بقول : ﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ﴾ .

وقوله ﴿ فجاسوا ﴾ معطوف على ﴿ بعثنا ﴾ وأصل الجوس : طلب الشيء باستقصاء واهتمام لتنفيذ ما من أجله كان الطلب .

والمعنى : فإذا حان وقت عقابكم - يابنى إسرائيل - على أولى مرتى إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم ﴿ عبادا لنا أولى بأس شديد ﴾ أى أصحاب بطش شديد فى الحروب والقتال ، فأذلوكم وقهروكم ، وفتشوا عنكم بين المساكن والديار ، لقتل من بقى منكم على قيد الحياة ، وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلكم وسلب أموالكم ، وهتك أعراضكم ، وتخريب دياركم ... وعدا نافذا لا مرد له ، ولا مفر لكم منه .

قال الآلوسى : واختلف فى تعيين هؤلاء العباد - الذين بعثهم الله لمعاقبة بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول - فعن ابن عباس وقتادة : هم جالوت وجنوده ، وقال ابن جبير وابن إسحاق : هم سنحاريب ملك بابل وجنوده . وقيل : هم العمالقة ، وقيل : بختنصر[1] .

وسنبين رأينا فيمن سلطه الله - تعالى - عليهم فى المرتين ، بعد تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة .

فإن قال قائل : وما فائدة أن يخبر الله - تعالى - بنى إسرائيل فى التوارة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين . وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان ، بأن يسلط عليهم من يذلهم ويقهرهم ويقضى عليهم ؟ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٧ .

فالجواب : أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله - عز وجل - لا يظلم الناس شيئا ، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير ، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم .

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار ، وهو تنبيه العقلاء فى جميع الأمم أن يحذروا من مواقعة المعاصى التى تؤدى إلى الهلاك ، وأن يحذروا أممهم من ذلك ، ويبصروهم بسوء عاقبة السير فى طريق الغى ، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله - عز وجل - .

ومن فوائد إيراد هذا الخبر فى القرآن الكريم ، تنبيه اليهود المعاصرين للنبى - ﷺ - ومن على شاكلتهم فى الفسوق والعصيان من المشركين ، إلى سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن الإفساد عاقبته الخسران .

فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول - ﷺ - الذى ثبتت نبوته ثبوتا لاشك فيه ، لكى يسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

ثم أشار - سبحانه - إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار ، وهى أن الأمم المغلوبة على أمرها . تستطيع أن تسترد مجدها ، متى أصلحت من شأن أنفسها ، ومتى استقامت على أمر الله - تعالى - فقال - سبحانه - : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ .

ففى هذه الآية الكريمة تذكير لبنى إسرائيل بجملة من نعم الله عليهم ، بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم .

أما النعمة الأولى فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ .

والكَرَّة : المرة من الشيء : وأصلها من الكَرِّ وهو الرجوع ، مصدر كريكر - من باب قتل - ، يقال : كرَّ الفارس كَرًّا ، إذا فر للجولان ثم عاد للقتال .

والمراد بالكرة هنا : الدولة والغلبة على سبيل المجاز .

أى : ثم أعدنا لكم - يابنى إسرائيل - الدولة والغلبة على أعدائكم الذين قهروكم وأذلوكم ، بعد أن أحسنتم العمل ، ورجعتم إلى الله - تعالى - واتبعتم ما جاءكم به رسلكم .

والتعبير بثم لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا فيه من ذل وهوان ، وما أفاءه الله عليهم بعد ذلك من نصر وظفر .

قال أبو حيان : وجعل - سبحانه - ﴿ رددنا ﴾ موضع نرد - إذ وقت إخبارهم لم يقع

الأمر بعد - لأنه لما كان وعد الله فى غاية الثقة فى كونه سيقع ، عبر عن المستقبل بالماضى[١] .

وأما النعمة الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين ﴾ .

أى : لم نكتف بأن جعلنا النصر لكم على أعدائكم ، بل فضلا عن ذلك ، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد ، بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم ، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم .

وأما النعمة الثالثة فتتجلى فى قوله - تعالى - : ﴿ وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ .

والنفير : من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته ، وهو منصوب على التمييز . والمفضل عليه محذوف ، والتقدير : وجعلناكم أكثر عددا وقوة من أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم . .

فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم ، وأن تحسنوا الاستفادة منها ، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له العبادة والطاعة ، فقد نصركم بعد هزيمتكم ، وأغناكم بعد فقركم ، وكثّركم بعد قتلكم .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان عاقبته الفلاح ، والعصيان عاقبته الخسران ، وأن كل إنسان مسئول عن عمله ، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا - لا تعود إلا عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ﴾ .

أى : إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم ، بأن أديتموها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى - أفلحتم وسعدتم ، وجنيتم الثمار الطيبة التى تترتب على هذا الإحسان للعمل ، وإن أسأتم أعمالكم ، بأن آثرتم الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة ، خسرتم وشقيتم وتحملتم وحدكم النتائج الوخيمة التى تترتب على إتيان الأعمال التى لا ترضى الله - تعالى - .

وقد رأيتم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن ﴿ بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ﴾ .

وكيف أن الإحسان كانت عاقبته أن ﴿ رددنا لكم الكرة ﴾ على أعدائكم ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ .

قال صاحب البحر ما ملخصه : وجواب « وإن أسأتم » قوله « فلها » وهو خبر لمبتدأ محذوف أى : فالإساءة لها . قال الكرمانى : قال - سبحانه - : ﴿ فلها ﴾ باللام ازدواجا .

---

(١) تفسير أبى حيان جـ ٦ ص ١٠ .

أى : أنه قابل ﴿ لأنفسكم ﴾ بقوله ﴿ فلها ﴾ . وقال الطبرى اللام بمعنى إلى أى : فإليها ترجع الإساءة .

وقيل : اللام بمعنى على . أى : فعليها ، كما فى قول الشاعر : فخر صريعا لليدين وللفم[1] .

ثم بين - سبحانه - ما يحل بهم من دمار ، بعد إفسادهم للمرة الثانية ، فقال - تعالى - : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ، ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ .

والكلام أيضا هنا على حذف مضاف ، وجواب إذا محذوف دل عليه ما تقدم وهو قوله ﴿ بعثنا عليكم عبادا لنا ﴾ فإذا جاء وقت عقوبتكم يا بنى إسرائيل على إفسادكم الثانى فى الأرض ، بعثنا عليكم أعداءكم ليسوءوا وجوهكم أى : ليجعلوا آثار المساءة والحزن بادية على وجوهكم ، من شدة ما تلقونه منهم من إيذاء وقتل .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله ﴿ ليسوءوا ﴾ الواو للعباد أولى البأس الشديد .

وفى عود الواو على العباد نوع استخدام ، إذ المراد بهم أولا جالوت وجنوده ، والمراد بهم هنا بختنصر وجنوده .

وقرأ ابن عامر وحمزة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعل ﴿ ليسوء ﴾ والفاعل إما الله - تعالى - وإما الوعد ، وإما البعث .

وقرأ الكسائى لنسوء - بنون العظمة . أى : لنسوء نحن وهو موافق لما قبله ، من قوله : بعثنا ، ورددنا ، وأمددنا ، ولما بعده من قوله : عدنا ، وجعلنا ، وقرأ الباقون . ليسوءوا ، مسندا إلى ضمير الجمع العائد على العباد ، وهو موافق لما بعده من قوله : ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ ﴿ وليتبروا ﴾[2] .

وقال الإمام الرازى : ويقال ساءه يسوءه إذا أحزنه ، وإنما عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه ، لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة فى القلب إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل الفرح فى القلب ظهر الإشراق فى الوجه ، وإن حصل الحزن والخوف فى القلب ، ظهر الكلوح فى الوجه[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ﴾ معطوف على ما قبله وهو قوله - سبحانه - ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ١١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦١٧ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٢ ص ١٥٩ .

والمراد بالمسجد : المسجد الأقصى الذى ببيت المقدس ، وقوله «كما دخلوه » صفة لمصدر محذوف .

والمعنى : وليدخلوا المسجد دخولا كائنا كدخولهم إياه أول مرة .

قال أبو حيان : ومعنى ﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ أى بالسيف والقهر والغلبة والإذلال[1] .

أى : أن المراد من التشبيه ، بيان أن الأعداء فى كل مرة أذلوا بنى إسرائيل وقتلوهم وقهروهم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ يشعر بشدة العقوبة التى أنزلها أولئك العباد ببنى إسرائيل ، إذ التتبير معناه الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه . ومنه قول الشاعر :

وما الناس إلا عاملان فعامل يتبر ما يبنى وآخر رافع

أى : يخرب ويهد ما يبنى .

و« ما » فى قوله ﴿ ما علوا ﴾ اسم موصول مفعول يتبروا : وهو عبارة عن البلاد والأماكن التى هدموها ، والعائد محذوف ، وتتبيرا مفعول مطلق مؤكد لعامله .

أى : وليدمرا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها ، وصارت فى حوزتهم ، تدميرا تاما لا مزيد عليه .

وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل ، عقب إفسادهم الثانى فى الأرض ، لم يكتفوا بجوس الديار ، بل أضافوا إلى ذلك إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم ، ودخول المسجد الأقصى فاتحين ومخربين ، وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا فظيعا لا يوصف .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى إسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين ، قد يكون طريقا لرحمتهم ، وسببا فى توبتهم وإنابتهم ، إن فتحوا قلوبهم للحق ، واعتبروا بالأحداث الماضية ، وفهموا عن الله - تعالى - سنته التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان يؤدى إلى الفلاح والظفر ، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى أبلغ تعبير وأحكمه . فقال - تعالى - : ﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٥ ص ١١ .

أى: عسى ربكم أن يرحمكم : ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصتم له العبادة والطاعة ، وأصلحتم أقوالكم وأعمالكم ، فقد علمتم أنه - سبحانه - لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفعه إلا بتوبة .

قال : أبو حيان : وهذه الترجية ليست لرجوع دولة ، وإنما هى من باب ترحم المطيع منهم ، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى ومحمدا - عليهما السلام - ولكنهم لم يفعلوا[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ إنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم ، إن عادوا إلى فسادهم وإفسادهم .

أى : وإن عدتم إلى المعاصى ومخالفة أمرى ، وانتهاك حرماتى ، بعد أن تداركتكم رحمتى ، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار .

ولقد عادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان ، حيث أعرضوا عن دعوة الحق التى جاءهم بها الرسول - ﷺ - ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل هموا بقتله - ﷺ - وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين ، فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم النبى - ﷺ - وأصحابه بما يستحقون من إجلاء وتشريد وقتل . .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما -:« عادوا فلسط الله عليهم المؤمنين » .

ثم بين - سبحانه - عقوبتهم فى الآخرة فقال : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ أى : إن عدتم إلى معصيتنا فى الدنيا عدنا عليكم بالعقوبة الرادعة ، أما فى الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم « حصيرا » أى : سجنا حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه ، أو الفكاك عنه ، أو فراشا تفترشونه ، كما قال - تعالى - : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش . وكذلك نجزى الظالمين ﴾ .

قال بعض العلماء : قوله ﴿ حصيرا ﴾ فيه وجهان : الأول : أن الحصير المحبس والسجن . من الحصر و هو الحبس : يقال حصره يحصره حصرا ، إذا ضيق عليه وأحاط به .

والثانى أن الحصير : البساط والفراش ، من الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا ..»[٢] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت لنا قضاء الله - تعالى - فى بنى إسرائيل ، وساقت لنا لكى نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف ، والتى من أبرزها أن

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ١١ .
(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٣ صـ٣٧٢ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

الايمان والصلاح عاقبتها الفلاح ، وأن الكفر والفساد عاقبتها الشقاء ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

هذا ، والذى يراجع ما قاله المفسرون فى بيان العباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثانى فى الأرض ، يرى أقوالا متعددة يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف[1] .

ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - أن الله - تعالى - عهد إلى بنى إسرائيل فى التوراة ﴿ لتفسدن فى الأرض مرتين ﴾ فكان أول الفسادين قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، وكان يدعى « صحابين » فبعث الجنود ، وكانوا من أهل فارس .. فتحصنت بنو إسرائيل .. ودخل فيهم « بختنصر » - أحد جنود صحابين - وسمع أقوالهم .. الخ[2] .

وهذا الأثر من وجوه ضعفه ، أن غزو النبط ومعهم بختنصر لبنى اسرائيل سابق على زمان زكريا - عليه السلام - بحوالى ستة قرون .

لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر غزا بنى إسرائيل وانتصر عليهم ثلاث مرات : الأولى فى سنة ٦٠٦ ق .م والثانية فى سنة ٥٩٩ ق . م ، والثالثة فى سنة ٥٨٨ ق . م .

وفى هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم ، وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل .

أما زكريا - عليه السلام - فمن المعروف أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقاربا لعصره : فقد أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى .

وإذاً فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا ، وأن المسلط عليهم ملك البنط ومع « بختنصر » يتنافى مع الحقائق التاريخية .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذا الأثر اضطرابه ظاهر ، لأن « صحابين » ملك النبط ، هو الذى يسميه المؤرخون « سنحاريب » وكان ملكا للأشوريين ، وهو الذى غزا مملكة يهوذا سنة ٧١٣ ق . م أى قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة ، أى : أن بختنصر لم يكن معاصرا له .

والرأى الذى نختاره : هو أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم

---

(١) ذكرنا معظم هذه الأقوال فى كتابنا « بنو إسرائيل فى القرآن والسنة » جـ ٢ ص ٣٥٩ وناقشناها ، وضعفنا ما يستحق التضعيف منها ، ورجحنا ما يستحق الترجيح .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١٧ - بتصرف وتلخيص .

الأول ، هم جالوت وجنوده . ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى أمور من أهمها ما يلى : .

١ - ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة ، عند عرضه لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل ، وبين « جالوت » قائد أعدائهم ، ما يدل على أن بنى اسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم .

ويتجلى هذا المعنى فى قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لاتقاتلوا قالوا وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا .. ﴾ .

فقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا.. ﴾ يدل دلالة قوية ، على أنهم كانوا قبل قتالهم لجالوت مهزومين هزيمة اضطرتهم إلى الخروج عن ديارهم ، وإلى مفارقة أبنائهم .

٢ - قوله - تعالى - : ﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾ صريح فى أن الله - تعالى - نصر بنى إسرائيل - بعد أن تابوا وأنابوا - على أعدائهم .

وهذا المعنى ينطبق على ما قصه القرآن علينا ، من أن بنى إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده . .

قال - تعالى - : ﴿ ولما برزوا[1] لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه ممايشاء .. ﴾ .

ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى إسرائيل ، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم ، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم . ولاشك أن النصر فى هذه الحالة ، أدعى لطاعة الله - تعالى - وشكره على آلائه .

٣ - قوله - تعالى - : ﴿ وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم طالوت ، وداود ، وسليمان لهم .

ففى هذا العهد الذى دام زهاء ثمانين سنة ، ازدهرت مملكتهم ، وعز سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة ، وبالبنين الكثيرة ، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة .

---

(١) أى بنو إسرائيل .

أما بعد هذا العهد ، بل وقبل هذا العهد ، فقد كانت حياتهم سلسلة من المآسى والنكبات . .

فبعد موت سليمان - عليه السلام - سنة ٩٧٥ ق . م تقريبا ، انقسمت مملكتهم إلى قسمين : مملكة يهوذا فى الجنوب ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ، واستمرتا فى صراع ونزاع حتى قضى الأشوريون سنة ٧٢١ ق . م على مملكة إسرائيل ، وقضى « بختنصر » على مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق . م .

٤ - ذكر بعض المفسرين أن العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول هم جالوت وجنوده .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ﴾ قال : بعث الله عليهم فى الأولى جالوت ، فجاس خلال ديارهم ، فسألوا الله - تعالى - أن يبعث لهم ملكا ، فبعث لهم طالوت ، فقاتلوا جالوت ، وانتصروا عليه ، وقتل داود جالوت ، ورجع إلى بنى اسرائيل ملكهم . فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى المرة الآخرة « بختنصر » فخرب المساجد ، وتبر ما علوا تتبيرا ..[1] .

هذه بعض الأدلة التى تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض ، هم جالوت وجنوده .

أما العباد الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثانى ، فيرى كثير من المفسرين أنهم « بختنصر » وجنوده .

وهذا الرأى ليس ببعيد عن الصواب ، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم ، وسوقهم أسارى إلى بابل سنة ٥٨٨ ق . م .

إلا أننا نؤثر على هذا الرأى ، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثانى ، هم الرومان بقيادة زعيمهم ، تيطس سنة ٧٠ م . لأمور من أهمها : .

١ - أن الذى يتتبع التاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سبقت تنكيل « تيطس » بهم ، أشد وأكبر من الرذائل التى سبقت إذلال « بختنصر » لهم . فهم - على سبيل المثال - قبيل بطش الرومان بهم ، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السلام - ، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم .

---

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطى جـ ٤ ص ١٦٣ .

٢ - ضربات الرومان - في ذاتها - كانت أشد وأقسى على بنى اسرائيل . من ضربات « بختنصر » لهم .

فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة « تيطس » بلغ مليون قتيل ، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير[1] .

بينما عدد القتلى والأسرى منهم على يد « بختنصر » كان أقل من هذا العدد بكثير .

ولقد وصف المؤرخون النكبة التى أوقعها الرومان بهم ، بأوصاف تفوق بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم .

يقول أحد الكتاب واصفا ما حل باليهود على يد « تيطس » الرومانى : كان « تيطس » فى الثلاثين من عمره ، حين وقف سنة ٧٠ م أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه ، بعد أن بدأت المدينة تعانى من أهوال الحصار .

وبعد أن اقتحم « تيطس » وجنوده المدينة ، أصدر أمره إليهم : أن احرقوا وانهبوا واقتلوا ، فأموال اليهود وأعراضهم حلال لكم ، وقد أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه ، وتحققت نبوءة المسيح - عليه السلام - حين قال : ستلقى هذه الأرض بؤسا وعنتا ، وسيحل الغضب على أهلها ، وسيسقطون صرعى على حد السيف ، ويسيرون عبيدا إلى كل مصر ، وستطأ أورشليم الأقدام[2] .

٣ - النكبة التى أنزلها الرومان بهم - من حيث آثارها - أشنع بكثير من النكبة التى أنزلها بختنصر بهم . لأنهم بعد تنكيل بختنصر بهم وأخذهم أسرى إلى بلاده وبقائهم فى الأسر زهاء خمسين سنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى ، بمساعدة « قورش » ملك الفرس ، الذى انتصر على « بختنصر » سنة ٥٣٨ ق . م تقريبا ، وبدأوا يتكاثرون من جديد .

أما بعد تنكيل « تيطس » بهم فلم تقم لهم قائمة ، ومزقوا فى الأرض شر ممزق ، وانقطع دابرهم كأمة .

وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه « تيطس » بهم من ضربات : إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمة ، فإنهم بعد خراب أورشليم على يد « تيطس » تفرقوا فى جميع بلاد الله ، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها أو نزلوا فيها[3] . .

---

(١) من كتاب « تاريخ الإسرائيليين » ص ٧٦ لشاهين مكاريوس .

(٢) من مقال للاستاذ عمر طلعت زهران عنوانه « تدمير أورشليم » نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢١ ص ٤٧ .

(٣) تاريخ الإسرائيليين ص ٧٧ لشاهين مكاريوس .

ولهذه الأسباب نرجح أن يكون العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الثانى فى الأرض ، هم الرومان بقيادة « تيطس » .

هذا ، ومع ترجيحنا بأن المسلط عليهم فى المرة الأولى ، هم جالوت وجنوده وفى المرة الثانية هم الرومان بقيادة « تيطس » .

أقول مع ترجيحنا لذلك ، إلا أننا نحب فى نهاية حديثنا عن هذه الآيات الكريمة ، أن نقرر ما يأتى :

١ - أنه لم يصح عن رسول الله - ﷺ - حديث فى بيان المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى اسرائيل عقب مرتى إفسادهم ، وإلا لذكره المفسرون .

٢ - أن الإفساد فى الأرض قد حدث كثيرا من بنى اسرائيل ، وأن المقصود من قوله -تعالى- ﴿لتفسدن فى الأرض مرتين﴾ إنما هو أظهر وأبرز مرتين حدث فيهما الإفساد منهم .

ومما يدل على أن هذا الإفساد قد تكرر منهم قوله - تعالى - : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾[1] .

٣ - آن المقصود من سياق الآيات ، إنما هو بيان سنة من سنن الله فى الأمم حال صلاحها وفسادها .

وقد ساق القرآن الكريم هذا المعنى بأحكم عبارة ، وذلك فى قوله - تعالى - : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ .

ولاشك أن هذه السنة ماضية فى الأمم دون تبديل أو تحويل فى كل زمان ومكان .

وما دام هذا هو المقصود ، ففهمه لا يتوقف على تحديد مرتى إفسادهم ، وتحديد المسلط عليهم عقب كل مرة .

ويعجبنى فى هذا المقام ، قول الإمام ابن كثير : « وقد وردت فى هذا - أى فى المسلط عليهم فى المرتين - آثار كثيرة إسرائيلية ، لم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها ما هو موضوع من وضع زنادقتهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن فى غنية عنها ، ولله الحمد ، وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله - تعالى - أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم ، فاستباح بيضتهم وسلك

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء »[١] .

وقول الإمام الرازى : « واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض فى معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم ، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصى . سلط عليهم أقواما قتلوهم وأفنوهم »[٢] .

وقد بسطنا فى تفسير هذه الآيات الكريمة ، بصورة أكثر تفصيلا فى غير هذا المكان ، فليرجع إليه من شاء الاستزادة[٣] .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه قد آتى موسى - عليه السلام - التوراة لتكون هداية لبنى اسرائيل ، وأنه - عز وجل - قد قضى فيهم بقضائه العادل . أتبع ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، فقال - تعالى - :

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما شرح ما فعله فى حق عباده المخلصين ، وهو الإسراء برسول الله - ﷺ - ، وإيتاء الكتاب لموسى - عليه السلام - ، وما فعله فى حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم ، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ، ومعصيته توجب كل بلية وغرامة ، لا جرم أثنى - سبحانه - على القرآن فقال : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾[٤] .

والفعل ﴿ يهدى ﴾ مأخوذ من الهداية ، ومعناها : الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى البغية . والمفعول محذوف . أى : يهدى الناس .

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد ٥ ص ٤٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٢٠ ص ١٥٦ .
(٣) راجع كتابنا « بنو اسرائيل فى القرآن والسنة » جـ ٢ من ص ٣٤٧ إلى ص ٣٩٦ .
(٤) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٦٠ .

وقوله - سبحانه - ﴿ للتي هي أقوم ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أي يهدى الناس إلى الطريقة أو الملة التي هي أقوم .

قال صاحب الكشاف : ﴿ للتي هي أقوم ﴾ أي : للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها ، أو للملة أو للطريقة . وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف ، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه[1] .

والمعنى : إن هذا القرآن الكريم ، الذي أنزله الله - تعالى - عليك يا محمد - ﷺ - ، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم - في جميع شئونهم الدينية والدنيوية - إلى الملة التي هي أقوم الملل وأعدلها ، وهي ملة الإسلام . فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة ، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ، ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق .

ويهدى للتي هي أقوم ، في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله .

ويهدى للتي هي أقوم في عالم العبادة ، بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل ، ولا تسهل حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار ، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ويهدى للتي هي أقوم ، في علاقات الناس بعضهم ببعض : أفرادا وأزواجا وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا .

ويهدى للتي هي أقوم في نظام الحكم ، ونظام المال ، ونظام الاجتماع ، ونظام التعامل ..[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾ صفة ثانية من صفات القرآن الكريم .

أي : أن هذا القرآن بجانب هدايته للتي هي أقوم ، فهو - أيضا - يبشر المؤمنين الذين

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٩ .

(٢) في ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٢٢١٥ .

يعملون الأعمال الصالحات بأن لهم أجرا كبيرا من خالقهم - عز وجل - : أجرا كبيرا لا يعلم مقداره إلا مسديه ومانحه ، وهو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ بيان لسوء عاقبة الذين لا يستجيبون لهداية القرآن الكريم ، وهو معطوف على قوله - تعالى -: ﴿ أن لهم أجرا كبيرا ﴾ .

أى : أن هذا القرآن يبشر المؤمنين بالأجر الكبير ، ويبشر - على سبيل التهكم - الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب بالعذاب الأليم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وتخصيص الآخرة بالذكر من بين سائر ما لم يؤمن به الكفرة ، لكونها أعظم ما أمروا بالإيمان به ، ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها ، الذى أنبأ عنه قوله - تعالى - : ﴿ أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ وهو عذاب جهنم . أى : أعددنا وهيأنا لهم ، فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما .

والآية معطوفة على قوله ﴿ أن لهم أجرا كبيرا ﴾ فيكون إعداد العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشرا به كثبوت الأجر الكبير للمؤمنين ، ومصيبة العدو سرور يبشر به ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين بثوابهم وعقاب أعدائهم ..[1] .

ثم بين - سبحانه - بعض الأحوال التى قد يقدم الإنسان فيها على طلب ما يضره بسبب عجلته واندفاعه فقال - تعالى - : .

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

والمراد بالإنسان هنا : الجنس وليس واحدا معينا .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ دعاءه بالخير ﴾ أى : دعاء كدعائه بالخير ، فحذف الموصوف وحرف التشبيه وانتصب المجرور على المصدرية[2] .

والمعنى : ويدعو الإنسان حال غضبه وضجره ، على نفسه ، أو على غيره ، ﴿ بالشر ﴾ كأن يقول : « اللهم أهلكنى ، أو أهلك فلانا .. » .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٢ .
(٢) الألوسى جـ ١٥ ص ٢٣ .

﴿ دعاءه بالخير ﴾ أى : يدعو بالشر على نفسه أو على غيره ، كدعائه بالخير ، كأن يقول : اللهم اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين .

قال ابن كثير : يخبر - تعالى - عن عجلة الإنسان ، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده ، أو ماله ، ﴿ بالشر ﴾ أى : بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، كما قال - تعالى - : .

﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم .. ﴾ .

وفى الحديث : « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها »[١] .

وقيل المراد بالإنسان هنا : الكافر ، أو الفاسق الذى يدعو الله - تعالى - بالشر ، كأن يسأله بأن ييسر له أمرا محرما كالقتل والسرقة والزنا وما يشبه ذلك .

وقد أشار القرطبى إلى هذا الوجه بقوله : « وقيل نزلت فى النضر بن الحارث ، كان يدعو ويقول - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور ، كما يدعو فى طلب المباح . كما فى قول الشاعر :

أطوف بالبيت فيمن يطوف ... وأرفع من مئزرى المُسْبَلِ
واسجل بالليل حتى الصباح ... وأتلو من المحكَم المنزلِ
عسى فارج الهم عن يوسفٍ ... يُسخر لى ربة المَحْمَلِ[٢]

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه المأثور عن بعض الصحابة والتابعين وهم أدرى بتفسير كتاب الله من غيرهم .

قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : عن ابن عباس قال فى قوله - تعالى - : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير .. ﴾ يعنى قول الإنسان اللهم العنه واغضب عليه ، فلو يعجل له الله ذلك كما يعجل له الخير لهلك.. .

وقال قتادة : يدعو على ماله فيلعن ماله ، ويدعو على ولده ، ولو استجاب الله له لأهلكه .

وقال مجاهد : ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته ولا يحب أن يجاب[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٦ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٢٥ .
(٣) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٣٧ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ بيان للسبب الذى حمل الإنسان على أن يدعو بالشر كما يدعو بالخير .

والعجول من العجل - بفتح العين والجيم - وهو الإسراع فى طلب الشىء قبل وقته . يقال : عجل - بزنة تعب - يعجل فهو عجلان ، إذا أسرع .

أى : وكان الإنسان متسرعا فى طلب كل ما يقع فى قلبه ، ويخطر بباله ، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر ، ولا يتأمل تأمل المتدبر .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : ﴿ خلق الإنسان من عجل ، سأريكم آياتى فلا تستعجلون[1] ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته بعباده ، ومجازاتهم على أعمالهم يوم القيامة فقال - تعالى - : .

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٧ .

قال أبو حيان : قوله - تعالى - ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ..﴾ لما ذكر - سبحانه - القرآن وأنه هاد إلى الطريقة المستقيمة ، ذكر ماأنعم به مما لم يمكن الانتفاع إلا به ، وما دل على توحيده من عجائب العالم العلوى . وأيضا لما ذكر عجلة الإنسان ، وانتقاله من حال إلى حال ذكر أن كل هذا العالم كذلك فى الانتقال لايثبت على حال ، فنور عقب ظلمة وبالعكس ، وازدياد نور وانتقاص آخر[1] .

والمراد بالآيتين هنا : العلامتان الواضحتان ، الدالتان على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته .

وقوله : ﴿ فمحونا ﴾ من المحو بمعنى إزالة أثر الشىء ، يقال : محا فلان الشىء محوا - من باب قتل - إذا أزال أثره .

وللعلماء فى تفسير هذه الآية اتجاهات : أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه ، أن المراد بالآيتين : نفس الليل والنهار ، وأن الكلام ليس فيه حذف .

فيكون المعنى : وجعلنا الليل والنهار - بهيئاتهما الثابتة ، وتعاقبهما الدائم ، واختلافهما طولا وقصرا - آيتين كونيتين كبيرتين ، دالتين على أن لهما صانعا قادرا ، حكيما ، هو الله رب العالمين .

وقوله - سبحانه - ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ أى : فجعلنا الآية التى هى الليل . ممحوة الضوء ، مظلمة الهيئة ، مختفية فيها الأشياء ، ساكنة فيها الحركات .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أى : وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ، تبصر فيها الأشياء وترى بوضوح وجلاء .

وعلى هذا الاتجاه ، تكون إضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشىء إلى نفسه ، مع اختلاف اللفظ ، تنزيلا لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف فى المعنى ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ شهر رمضان ﴾ فرمضان هو نفس الشهر .

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الكلام على حذف مضاف ، وأن المراد بالآيتين : الشمس والقمر ، فيكون المعنى : وجعلنا نيرى الليل والنهار - وهما الشمس والقمر - آيتين دالتين على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، فمحونا آية الليل - وهى القمر - ، بأن أزلنا عنه شعاعه وضياءه ، ولم نجعله كالشمس فى ذلك ، وجعلنا آية النهار - وهى الشمس - مبصرة ، أى : ذات شعاع وضياء يبصر فى ضوئها الشىء على حقيقته .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٦ ص ١٤ .

وقد ذكر صاحب الكشاف هذين الوجهين دون أن يرجح بينهما فقال : قوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين .. ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان فى أنفسهما ، فتكون الإضافة فى آية الليل وآية النهار للتبيين ، كإضافة العدد إلى المعدود ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل ، وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة .

والثانى : أن يراد : وجعلنا نيرى الليل والنار آيتين ، يريد الشمس والقمر .. .

أى : فمحونا آية الليل التى هى القمر ، حيث لم نخلق له شعاعا كشعاع الشمس تبصر به الأشياء ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شىء[1] .

والذى نراه : أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ؛ ولأنه لا يحتاج إلى تقدير ، وما كان كذلك أولى مما يحتاج إلى تقدير ، ولأن الليل والنهار هما بذاتهما من أظهر العلامات والأدلة على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته .

وهناك عشرات الآيات القرآنية فى هذا المعنى ، ومن ذلك قوله - تعالى - ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ... ﴾[3] .

وقال - تعالى - : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى أوردها الله - تعالى - فى هذا المعنى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ بيان لمظهر من مظاهر حكمته - تعالى - ورحمته بعباده .

والجملة الكريمة متعلقة بما قبلها ، وهو قوله - سبحانه - : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ أى : جعلنا النهار مضيئا ، لتطلبوا فيه ما تحتاجونه من أمور معاشكم ، ومن الأرزاق التى قسمها الله بينكم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وفى التعبير عن الرزق بالفضل ، وعن الكسب بالابتغاء : دلالة على أنه ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب ، وإنما الإعطاء من الله - تعالى -

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٤٠ .
(٢) سورة يس الآية ٣٧ .
(٣) سورة فصلت الآية ٣٧ .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .

بطريق التفضل ..»[1] .

وشبيه بهذه الجملة الكريمة قوله - تعالى - : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ﴾ .

فقوله - تعالى - : ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ يعود إلى الليل . وقوله - تعالى - : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ يعود على النهار .

ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى ونعمة أخرى لجعله الليل والنهار على هذه الهيئة فقال : ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ .

أى : وجعلنا الليل والنهار على هذه الصفة من التعاقب والاختلاف فى الطول والقصر لتعرفوا عن طريق ذلك عدد الأيام والشهور والأعوام ، التى لا تستغنون عن معرفتها فى شئون حياتكم ، ولتعرفوا - أيضا - الحساب المتعلق بها فى معاملاتكم ، وبيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطائكم ، وصلاتكم ، وصيامكم ، وزكاتكم ، وحجكم ، وأعيادكم .. وغير ذلك مما تتوقف معرفته على تقلب الليل والنهار . وولوج أحدهما فى الآخر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ .

والتفصيل : من الفصل بمعنى القطع . والمراد به هنا : الإبانة التامة للشىء بحيث يظهر ظهورا لاخفاء معه ولا التباس .

ولفظ ﴿ كل ﴾ منصوب على الاشتغال بفعل يفسره ما بعده .

أى : وفصلنا كل شىء تحتاجون إليه فى أمور دينكم ودنياكم ، تفصيلا ، واضحا جليا ، لاخفاء معه ولا التباس ، فقد أقمنا هذا الكون على التدبير المحكم ، وعلى الصنع المتقن ، وليس على المصادفات التى لا تخضع لنظام أو ترتيب .

ثم ساق - سبحانه - صورة من صور هذا التفصيل المحكم فى كل شىء فقال - تعالى - : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ .

والمراد بطائره : عمله الصادر عنه باختياره وكسبه ، حسبما قدره الله - تعالى - عليه من خير وشر .

أى : وألزمنا كل إنسان مكلف عمله الناتج عنه ، إلزاما لا فكاك له منه ، ولا قدرة له على مفارقته .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٠ .

وعبر - سبحانه - عن عمل الإنسان بطائره ، لأن العرب كانوا - كما يقول الآلوسى - يتفاءلون بالطير ، فإذا سافروا ومر بهم الطير زجروه ، فإن مر بهم سانحا - أى من جهة الشمال إلى اليمين - تيمنوا وتفاءلوا ، وإن مر بارحا ، أى : من جهة اليمين الى الشمال تشاءموا ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير استعارة تصريحية ، لما يشبههما من قدر الله - تعالى - وعمل العبد ، لأنه سبب للخير والشر[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فى عنقه ﴾ تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط بين الإنسان وعمله .

وخص - سبحانه - العنق بالذكر من بين سائر الأعضاء ، لأن اللزوم فيه أشد ، ولأنه العضو الذى تارة يكون عليه ما يزينه كالقلادة وما يشبهها ، وتارة يكون فيه ما يشينه كالغل والقيد وما يشبههما .

قال الامام ابن كثير : و طائره : هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد - من خير أو شر ، يلزم به ويجازى عليه : كما قال - تعالى - : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

وكما قال - تعالى - : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، قليله وكثيره : ويكتب عليه ليلا ونهارا ، صباحا ومساء[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ بيان لحاله فى الآخرة بعد بيان حاله فى الدنيا .

والمراد بالكتاب هنا صحائف أعماله التى سجلت عليه فى الدنيا .

أى : ألزمنا كل إنسان مكلف عمله الصادر عنه فى الدنيا ، وجعلناه مسئولا عنه دون غيره . أما فى الآخرة فسنخرج له ما عمله من خير أو شر « فى كتاب يلقاه منشورا » أى : مفتوحا بحيث يستطيع قراءته ، ومكشوفا بحيث لا يملك إخفاء شىء منه ، أو تجاهله ، أو المغالطة فيه .

كتاب ظهرت فيه الخبايا والأسرار ظهورا يغنى عن الشهود والجدال .

كتاب مشتمل على كل صغيرة وكبيرة من أعمال الإنسان ، كما قال - تعالى - : ﴿ ونضع

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٧ .

الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾[١] .

ثم بين - سبحانه - ما يخاطب به الإنسان بعد أن فتح كتابه أمامه ، فقال - تعالى - ﴿ اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ .

أى : ويقال له بعد أن وجد كتابه منشورا أمامه ، اقرأ كتابك هذا ، وما اشتمل عليه من أعمال صدرت عنك فى الدنيا ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

أى : محاسبا ، كجليس بمعنى مجالس ، أو حاسبا وعادًّا كصريم بمعنى صارم يقال حسب فلان على فلان قوله ، إذا عده عليه .

ولفظ ﴿ كفى ﴾ هنا لازم ، ويطرد فى هذه الحالة جر فاعله بالباء المزيدة لتوكيد الكفاية و« حسيبا » تمييز ، وعليك متعلق به .

وتارة يأتى لفظ « كفى » متعديا ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ .

ثم ساق - سبحانه - قاعدة كلية ، لتحمل كل إنسان نتيجة عمله ، فقال - تعالى - : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

والفعل ﴿ تزر ﴾ من الوزر بمعنى الإثم والحمل والثقل . يقال : وزر يزر وزرا ، أى : أثم ، أو حمل حملا ثقيلا ، ومنه سمى الوزير ، لأنه يحمل أعباء تدبير شئون الدولة .

أى : من اهتدى إلى الطريق المستقيم ، وقدم فى حياته العمل الصالح فثمرة هدايته راجعة إلى نفسه ، ومن ضل عن الطريق القويم ، وفسق عن أمر ربه فوبال ضلاله راجع إليه وحده ، ولا تحمل نفس آثمة ، إثم نفس أخرى ، وإنما تسأل كل نفس عن آثامها فحسب .

وقد تكرر هذا المعنى فى كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ، ولو كان ذا قربى .. ﴾[٣] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .
(٣) سورة فاطر الآية ١٨ .

ولا يتنافى هذا مع قوله - تعالى - : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم .. ﴾[١] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم .. ﴾[٢] .

لأن المقصود فى هاتين الآيتين وأشباههما ، أن دعاة الكفر والفسوق والعصيان ، يحملون ذنوبهم يوم القيامة ، ويحملون فوق ذلك جانبا من ذنوب من كانوا هم سببا فى ضلالهم ، لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها - كما جاء فى الحديث الصحيح - فهم يحملون آثام أنفسهم ، والآثام التى كانوا سببا فى ارتكاب غيرهم لها .

كذلك لا يتنافى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ مع ما ثبت فى الحديث الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما من « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه .. » .

لأن العلماء حملوا الحديث على أن يكون الميت قد أوصى بذلك قبل موته ، أو أن يهمل نهيهم عن النوح عليه قبل موته ، مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه ويشقون الجيوب ، ويلطمون الخدود .. فتعذيبه بسبب تفريطه ، وعدم تنفيذه لقوله - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنو قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة .. ﴾[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده - ورأفته بهم ، وكرمه معهم .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ بيان للعناية الربانية إثر بيان آثار الهداية والضلالة بأصحابها ، وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته . وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها .

أى : وما صح وما استقام منا ، بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة .. أن نعذب أحدا بنوع ما من العذاب دنيويا كان أو أخرويا ، على فعل شىء أو ترك شىء أصليا كان أو فرعيا ، حتى نبعث إليه ﴿ رسولا ﴾ يهدى إلى الحق ، ويردع عن الضلال ، ويقيم الحجج ، ويمهد الشرائع ..[٤] .

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، تشبه هذه الآية ، فى بيان أن الله - تعالى -

---

(١) سورة العنكبوت الآية ١٣ .
(٢) سورة النحل الآية ٢٥ .
(٣) سورة التحريم الآية ٦ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٧ .

لا يعذب أحدا من خلقه ، حتى يبعث إليه رسولا يبشره وينذره ، فيعصى ذلك الرسول ، ويستمر فى كفره وضلاله بعد التبشير والإنذار .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ..﴾[3] .

قال ابن كثير عند تفسيره لقوله - تعالى - : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ : هذا إخبار عن عدله - تعالى - وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، بإرسال الرسول إليه ، كما قال - تعالى - : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ..﴾ .

إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن الله - تعالى - لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ..[4] .

هذا ، وما ذهب إليه الإمام ابن كثير ، والإمام الآلوسى ، من أن الله - تعالى - اقتضت رحمته وعدالته ، أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، عن طريق إرسال الرسل ، هو الذى نعتقده ، وتطمئن إليه نفوسنا ، لأنه هو الظاهر من معانى الآيات الكريمة ، ولأنه هو المناسب لرحمة الله - تعالى - التى وسعت كل شىء .

وهناك من يرى أن من مات على الكفر فهو فى النار ، ولو لم يرسل الله - تعالى - إليه رسولا ، واستدلوا بأدلة لا مجال لذكرها هنا[5] .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه فى إهلاك الأمم ، وفى حال الذين يريدون العاجلة ، وحال الذين يريدون الآجلة ، فقال - تعالى - :

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .
(٢) سورة طه الآية ١٣٤ .
(٣) سورة المائدة الآية ١٩ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٥٠ .
(٥) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٧ وتفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٤٢٩ للشيخ الشنقيطى .

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

قال أبو حيان - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - فى الآية السابقة ، أنه لا يعذب أحدا حتى يبعث إليه رسولا ، بين بعد ذلك علة إهلاكهم ، وهي مخالفة أمر الرسول - ﷺ - ، والتمادى على الفساد - فقال ، سبحانه - : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها .. ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أمرنا ﴾ من الأمر الذى هو ضد النهى ، والمأمور به هو الإيمان والعمل الصالح ، والشكر لله رب العالمين ، وحذف لظهوره والعلم به .

وقوله ﴿ مترفيها ﴾ جمع مترف ، وهو المتنعم الذى لا يمنع من تنعمه ، بل يترك يفعل ما يشاء . يقال : ترف فلان - كفرح - أى : تنعم ، وفلان أترفته النعمة ، أى : أطغته وأبطرته لأنه لم يستعملها فى وجوهها المشروعة .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان جـ ٦ ص ١٧ .

والمراد بهم ، أصحاب الجاه والغنى والسلطان ، الذين أحاطت بهم النعم من كل جانب ، ولكنهم استعملوها فى الفسوق والعصيان ، لا فى الخير والإحسان .

والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا فيها ، وعاثوا فى الأرض فسادا .

وهذا الأمر إنما هو على لسان الرسول المبعوث إلى أهل تلك القرية ، وعلى ألسنة المصلحين المتبعين لهذا الرسول والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

وقال - سبحانه - : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية ...﴾ مع أن الهلاك لأهلها ، للإشارة إلى أن هذا الهلاك لن يصيب أهلها فقط ، بل سيصيبهم ويصيب معهم مساكنهم وأموالهم وكل ما احتوته تلك القرية ، بحيث تصير هى وسكانها أثرا بعد عين .

وخص مترفيها بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة ، فإذا ما استجابوا للأمر استجاب غيرهم تبعا لهم فى معظم الأحيان ، ولأنهم فى أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس فى المتع والشهوات .

والحكمة من هذا الأمر ، هو الإعذار والإنذار ، والتخويف والوعيد .

كما قال - تعالى - : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ..﴾[1] .

وهذا التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .

ولصاحب الكشاف رأى يخالف ذلك ، فهو يرى أن الأمر فى الآية الكريمة مجاز عن إمدادهم بالنعم الكثيرة التى أبطرتهم .

قال - رحمه الله - : قوله - تعالى - : ﴿ وإذا أردنا ﴾ وإذا دنا وقت إهلاك قوم ، ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم ﴿ ففسقوا ﴾ أى : أمرناهم بالفسق ففعلوا .

والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون ، فبقى أن يكون مجازا ، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبا ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصى واتباع الشهوات ، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ، ويتمكنوا من الإحسان والبر ، كما خلقهم أصحاء أقوياء ، وأقدرهم على

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٥ .

الخير والشر ، وطلب منهم إيثار الطاعة ، على المعصية ، فآثروا الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم ..[١] .

ومن المفسرين من يرى أن قوله - تعالى - : ﴿ أمرنا ﴾ بمعنى كثّرنا - بتشديد الثاء - وقرىء ﴿ أمّرنا ﴾ بتشديد الميم ، أى : كثرنا مترفيها وجعلناهم أمراء مسلطين . .

ولكن هذه القراءة . وقراءة ﴿ آمرنا ﴾ بمعنى « كثرنا » أيضا ، ليستا من القراءات السبعة أو العشرة ، وإنما هما من القراءات الشاذة .

قال الإمام ابن جرير : وأولى القراءات فى ذلك عندى بالصواب ، قراءة من قرأ « أمرنا » بقصر الألف وتخفيف الميم - لإجماع الحجة من القراء بتصويبها دون غيرها وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة ، فأولى التأويلات به تأويل من تأوله : أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها . فحق عليهم القول ، لأن الأغلب من معنى ﴿ أمرنا ﴾ الأمر الذى هو خلاف النهى دون غيره .

وتوجيه معانى كلام الله - جل ثناؤه - إلى الأشهر الأعرف من معانيه ، أولى ما وجد إليه سبيل من غيره ..[٢] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول الذى سار عليه جمهور المفسرين ، وعلى رأسهم الإمام ابن جرير ، أولى بالقبول ، لأسباب منها :

ان القرآن الكريم يؤيده فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ..﴾[٣] .

فقوله - تعالى - : ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ دليل واضح على أن قوله - سبحانه - : ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ..﴾ معناه : أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وليس معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا لأنه - سبحانه - لا يأمر لا بالفسق ولا بالفحشاء .

ومنها : أن الأسلوب العربى السليم يؤيده لأنك إذا قلت : أمرته فعصانى كان المعنى المتبادر والظاهر من هذه الجملة ، أمرته بالطاعة فعصانى ، وليس معناه . أمرته بالعصيان فعصانى .

ومنها : أن حمل الكلام على الحقيقة - كما سار جمهور المفسرين - أولى من حمله على المجاز - كما ذهب صاحب الكشاف - .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٤٣ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

وقوله – سبحانه – : ﴿ فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ بيان لما نزل بهذه القرية وأهلها من عذاب محاها من الوجود ، إذ التدمير هو الإهلاك مع طمس الأثر ، وهدم البناء .

أى : أمرنا مترفيها بطاعتنا وشكرنا ، فعصوا أمرنا وفسقوا فيها ، فثبت وتحقق عليها عذابنا ، فأهلكناها إهلاكا استأصل شأفتها ، وأزال آثارها .

وأكد – سبحانه – فعل التدمير بمصدره ، للمبالغة فى إبراز شدة الهلاك الواقع على تلك القرية الظالم أهلها .

قال الآلوسى ما ملخصه : والآية تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه ، وإهلاك جميعهم ، لصدور الفسق منهم جميعا ، فإن غير المترف يتبع المترف عادة .. .

وقيل : هلاك الجميع لا يتوقف على التبعية فقد قال – تعالى – : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ...﴾ .

وقد صح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أنها قالت : قلت ، يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث[1] .

ثم بين – سبحانه – أن هذه القرية لم تكن بدعا فى نزول العذاب بها ، بل هناك قرى كثيرة عتت عن أمر ربها فأخذها – سبحانه – أخذ عزيز مقتدر ، فقال – تعالى – : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ... ﴾ .

و﴿ كم ﴾ هنا خبرية أى : أن معناها الإخبار عن عدد كثير ، وهى فى محل نصب مفعول به لجملة ﴿ أهلكنا ﴾ و« من » فى قوله – تعالى – : ﴿ من القرون ﴾ بيان للفظ ﴿ كم ﴾ وتمييز له كما يميز العدد بالجنس . وأما « من » فى قوله – تعالى – : ﴿ من بعد نوح ﴾ فهى لابتداء الغاية .

والقرون : جمع قرن ، ويطلق على القوم المقترنين فى زمان واحد . والمشهور أن مدته مائة سنة .

أى : أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها ، وعصيانهم لأمرنا ، ليست هى القرية الوحيدة التى نزل بها عذابنا ، بل إننا قد أهلكنا كثيرا من القرى من بعد زمن نوح – عليه السلام – كقوم عاد وثمود وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الكفر على الإيمان والغى على الرشد .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٤٤ .

وخص نوح - عليه السلام - بالذكر ، لأنه أول رسول كذبه قومه وآذوه وسخروا منه .. فأهلكهم الله - تعالى - بالطوفان .

قال ابن كثير : ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال - تعالى - : ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ .

أى : وكفى بربك - أيها الرسول الكريم - إحاطة واطلاعا وعلما بما يقدمه الناس من خير أو شر ، فإنه - سبحانه - يعلم السر وأخفى .

والآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول - ﷺ - فهى - أيضا - تهديد للمشركين ، وإنذار لهم بأنهم إذا ما استمروا على كفرهم ، ومعاداتهم للحق ، وتطاولهم على من جاء به وهو الرسول - ﷺ - فسيكونون محلا لغضب الله - تعالى - وسخطه ، ولنزول عذابه الذى أهلك به أمثالهم فى الشرك والكفر والجحود .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[3] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الذين يؤثرون العاجلة على الآجلة ، فقال - تعالى - : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ .

والمراد بالعاجلة : دار الدنيا ، وهى صفة لموصوف محذوف أى : الدار العاجلة التى ينتهى كل شىء فيها بسرعة وعجلة .

أى : من كان يريد بقوله وعمله وسعيه ، زينة الدار العاجلة وشهواتها فحسب ، دون التفات إلى ثواب الدار الآخرة ، ﴿ عجلنا له فيها ﴾ أى : عجلنا لذلك الإنسان فى هذه الدنيا ، ﴿ ما نشاء ﴾ تعجيله له من زينتها ومتعها . .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٥٩ .
(٢) سورة محمد الآية ١٠ .
(٣) سورة ق الآية ١٦ .

وهذا العطاء العاجل المقيد بمشيئتنا ليس لكل الناس ، وإنما هو ﴿ لمن نريد ﴾ عطاءه منهم ، بمقتضى حكمتنا وإرادتنا .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد قيد العطاء لمن يريد العاجلة بمشيئته وإرادته .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : « من كانت العاجلة همه ، ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد . فقيد الأمر تقييدين : أحدهما : تقييد المعجل بمشيئته ، والثانى : تقييد المعجل له بإرادته .

وهكذا الحال ، ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموا فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار مراده ، وهو غنى الآخرة فما يبالى أوتى حظا من الدنيا أو لم يؤت . فإن أوتى فبها شكر ، وإن لم يؤت صبر ، فربما كان الفقر خيرا له ، وأعون على مراده .

وقوله ﴿ لمن نريد ﴾ بدل من ﴿ له ﴾ وهو بدل البعض من الكل ، لأن الضمير يرجع إلى ﴿ من ﴾ وهو فى معنى الكثرة[1] ومفعول نريد محذوف . أى : لمن نريد عطاءه .

وقوله : ﴿ ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ بيان لسوء مصير هذا المريد للعاجلة فى الآخرة .

و﴿ يصلاها ﴾ أى : يلقى فيها ويذوق حرها وسعيرها : يقال : صليت الشاة : شويتها . وصَلِيَ فلان بالنار - من باب تعب - إذا وجد حرها .

و﴿ مذموما ﴾ من الذم الذى هو ضد المدح .

و﴿ مدحورا ﴾ من الدحور بمعنى الطرد واللعن . يقال : دحره دحرا ودحورا ، إذا طرده وأبعده .

أى: من كان يريد بسعيه الدنيا وزينتها اعطيناه منها مانشاء إعطاءه له، أما فى الآخرة فقد جعلنا له جهنم يدخلها ، ويصلى حرها ولهيبها ، حالة كونه « مذموما » أى مبغوضا بسبب سوء صنيعه ، « مدحورا » أى : مطرودا ومبعدا من رحمة الله - تعالى - .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى لفظ هذه الآية فوائد : منها : ان العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم ، بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة فقوله : ﴿ ثم جعلنا له جهنم يصلاها ﴾ إشارة إلى المضرة العظيمة . وقوله ﴿ مذموما ﴾ إشارة إلى الإهانة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٣ .

والذم . وقوله ﴿ مدحورا ﴾ إشارة إلى البعد والطرد عن رحمة الله - تعالى - .

وهى تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة ، وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص ..[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ بيان لحسن عاقبة المؤمنين الصادقين بعد بيان سوء عاقبة المؤثرين لمتع الدنيا وشهواتها .

أى : ومن أراد بقوله وعمله ثواب الدار الآخرة ، وما فيها من عطاء غير مقطوع ، وسعى لهذه الدار سعيها الذى يوصله إلى مرضاة الله - تعالى - حالة كونه مؤمنا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، ﴿ فأولئك ﴾ الذى فعلوا ذلك ، ﴿ كان سعيهم ﴾ للدار الآخرة سعيا ﴿ مشكورا ﴾ : من الله - تعالى - ، حيث يقبله - سبحانه - منهم ، ويكافئهم عليه بما يستحقون من ثواب لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - وعبر - عز وجل - بالسعى عن أعمالهم الصالحة ، للإشعار بجدهم وحرصهم على أداء ما يرضيه - تعالى - بدون إبطاء أو تأخير ، إذ السعى يطلق على المشى الذى تصاحبه السرعة . وأشار - سبحانه - إليهم بأولئك ، للإشعار بعلو درجاتهم وسمو مراتبهم .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وفى الآية الدليل الواضح على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله - تعالى - لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة .

ولذا قال - سبحانه - : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن..﴾ .

وقد أوضح - سبحانه - هذا فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة... ﴾ .

ومفهوم هذه الآية وأمثالها ، أن غير المؤمن إذا قدم عملا صالحا فى الدنيا لا ينفعه فى الآخرة لفقد شرط الإيمان ، قال - تعالى - : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ .

وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها »[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٧٨ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٤٤٨ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة عطائه فقال : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان ربك محظورا ﴾ ولفظ « كلا » هنا مفعول به للفعل نمد ، والتنوين عوض عن المضاف إليه . أى : نمد كل واحد من الفريقين .

وقوله ﴿ نمد ﴾ من الإمداد بمعنى الزيادة . يقال : أمد القائد الجيش بالجند ، إذا زاده وقواه .

والمراد باسم الإشارة الأول « هؤلاء » : المؤثرون للعاجلة ، والمراد بالثانى الراغبون فى ثواب الآخرة .

والمعنى : كلا من الفريقين نمده من فضلنا وإحساننا فنعطى ما نريد إعطاءه لمن يريد العاجلة ولمن يريد الآجلة دون أن ينقص مما عندنا شىء ، ودون أن يخرج عن مشيئتنا شىء .

﴿ وما كان عطاء ربك ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ محظورا ﴾ أى : ممنوعا لا عن المؤمن ولا عن الكافر ، ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

من الحظر بمعنى المنع يقال : حظره يحظره - من باب قتل - فهو محظور ، أى : ممنوع .

ثم أمر - سبحانه - عباده بالنظر والتأمل فى أحوال خلقه ، ليزدادوا عظة وعبرة ، فقال : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

أى : انظر - أيها العاقل - نظر تأمل وتدبر واعتبار فى أحوال الناس ، لترى عن طريق المشاهدة كيف فضل الله - تعالى - بعض الناس على بعض فى هذه الحياة ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا قوى وذاك ضعيف ، وهذا ذكى وذاك خامل ، وهذا مالك وذاك مملوك . .

إلى غير ذلك من الأحوال التى تدل على تفاوت الناس فى هذه الدنيا ، على حسب ما تقتضيه إرادة الله - تعالى - وحكمته ، ومشيئته .

أما فى الآخرة فالناس فيها أكبر تفاضلا وتفاوتا فى الدرجات والمنازل ، مما كانوا عليه فى الدنيا .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : وقوله : ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ أى : ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العلا ونعيمها وسرورها . ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفى الصحيحين : « إن أهل الدرجات العلا

ليرون أهل عليين ، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء »[١] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا سنة من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الأمم ، وأنه - تعالى - ما أهلكها إلا بعد أن عتت عن أمره ، وعصت رسله ، كما أنها بينت لنا سوء عاقبة الذين يؤثرون متع الدنيا على طاعة الله - تعالى - ، وحسن عاقبة الذين يريدون الآخرة وما فيها من ثواب جزيل ، وأن الفريقين لا ينالون مما يطلبونه إلا ما قدره الله - تعالى - لهم ، وأن عطاءه للناس جميعا لا ينقص مما عنده شيئا ، وأن حكمته - سبحانه - قد اقتضت تفضيل بعض الناس على بعض فى الدنيا والآخرة ، وصدق - عز وجل - حيث يقول : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : بعد أن بين - سبحانه - أن الناس فريقان : فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة : أولها : إرادة الآخرة ، وثانيها : أن يسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة ، وثالثها : أن يكون مؤمنا .

لا جرم فصل فى هذه الآيات تلك المجملات : فبدأ أولا بشرح حقيقة الإيمان ... ثم ذكر عقبيه سائر الأعمال ...[٢] .

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل ... ﴾ لكل من يصلح له .

والقعود فى قوله « فتقعد » قيل بمعنى المكث : كما يقول القائل : فلان قاعد فى أسوأ حال ، أى : ماكث فى أسوأ حال ، سواء أكان قاعدا أم غير قاعد . وقيل بمعنى العجز ، لأن العرب تقول : فلان ما أقعده عن المكارم ، أى : ما أعجزه عنها ، وقيل هو بمعنى الصيرورة ، من قولهم : فلان شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أى : صارت .

والذى تطمئن إليه النفس أن القعود على حقيقته ، لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائرا نادما على ما فرط منه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ مخذولا ﴾ من الخذلان ، وهو ترك النصرة عند الحاجة اليها .

يقال : خذل فلان صديقه ، أى : امتنع عن نصره وعونه مع حاجته الشديدة إليهما .

والمعنى : لا تجعل - أيها المخاطب - مع الله - تعالى - إلها آخر فى عبادتك أو خضوعك ، فتقعد جامعا على نفسك مصيبتين :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٦٠ - طبعة دار الشعب بالقاهرة .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٨٢ .

مصيبة الذم من الله - تعالى - ومن أوليائه ، لأنك تركت عبادة من له الخلق والأمر ، وعبدت ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

ومصيبة الخذلان ، بحيث لا تجد من يعينك أو ينصرك ، فى ساعة أنت أحوج ما تكون فيها إلى العون والنصر .

وجاء الخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل ﴾ عاما ، لكى يشعر كل فرد يصلح للخطاب أن هذا النهى موجه إليه ، وصادر إلى شخصه . لأن سلامة الاعتقاد مسألة شخصية ، مسئول عنها كل فرد بذاته وسيحمل وحده تبعة انحرافه عن طريق الحق ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وقوله ﴿ فتقعد ﴾ منصوب لأنه وقع بعد الفاء جوابا للنهى . وقوله ﴿ مذموما مخذولا ﴾ حالان من الفاعل .

وفى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع لحال الإنسان المشرك ، وقد حط به الذم والخذلان ، فقعد مهموما مستكينا عاجزا عن تحصيل الخيرات ، ومن السعى فى تحصيلها .

قال الآلوسى : وفى الآية الكريمة إشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة[١] .

ثم ساق - سبحانه - بضع عشرة آية ، تناولت مجموعة من التكاليف تزيد على عشرين أمرا ونهيا .

وهذه التكاليف قد افتتحت بالنهى عن الإشراك بالله - تعالى - وبالأمر بالإحسان إلى الوالدين قال - تعالى - :

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٥٣ .

صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

وبعد أن ذكر - سبحانه - الأساس فى قبول الأعمال ، وهو إخلاص العبادة له - عزَّ وجل - وحده ، أتبع ذلك بتأكيد هذا الأساس بما هو من شرائط الإيمان الحق وشعائره فقال - تعالى - ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا .. ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : ﴿ قضى ﴾ أى : أمر وألزم وأوجب .. .

والقضاء يستعمل فى اللغة على وجوه ، فالقضاء بمعنى الأمر ، كما فى هذه الآية والقضاء بمعنى الخلق كقوله ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ يعنى خلقهن ، والقضاء بمعنى الحكم ، كقوله - تعالى - : ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ يعنى : احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ من الشيء ، كقوله ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ أى فرغ منه .

والقضاء بمعنى الارادة . كقوله - تعالى - : ﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .. ﴾[٢] .

والمعنى : لقد نهى ربك عن الاشراك به نهيا قاطعا ، وأمر أمرا محكما لا يحتمل النسخ ، بأن لا تعبدوا أحدا سواه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، وغيره مخلوق وعاجز عن فعل شيء إلا بإذنه - سبحانه - .

فالجملة الكريمة أمر لازم لإخلاص العبادة لله ، بعد النهى عن الإشراك به فى قوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر .. ﴾ .

وقد جاء هذا الأمر بلفظ ﴿ قضى ﴾ زيادة فى التأكيد ، لأن هذا اللفظ هنا يفيد الوجوب القطعى الذى لا رجعة فيه ، كما أن اشتمال الجملة الكريمة على النفى والاستثناء - وهما أعلا مراتب القصر - يزيد هذا الأمر تأكيدا وتوثيقا .

ثم أتبع - سبحانه - الأمر بوحدانيته ، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ .

أى : وقضى - أيضا - بأن تحسنوا - أيها المخاطبون - إلى الوالدين إحسانا كاملا لايشوبه سوء أو مكروه .

---

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٣٧ .

وقد جاء الأمر بالاحسان إلى الوالدين عقب الأمر بوجوب إخلاص العبادة لله ، فى آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا .. ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا .. ﴾[2] .

ولعل السر فى ذلك هو الإشعار للمخاطبين بأهمية هذا الأمر المقتضى لوجوب الإحسان إلى الوالدين ، حيث إنهما هما السبب المباشر لوجود الإنسان فى هذه الحياة ، وهما اللذان لقيا مالقيا من متاعب من أجل راحة أولادهما ، فيجب أن يقابل ما فعلاه بالشكر والاعتراف بالجميل .

قال بعض العلماء : وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب ، وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكأن الاساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها ..[3] .

ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الإحسان فقال : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما .. ﴾ .

و﴿ إما ﴾ حرف مركب من « إن » الشرطية ، ومن « ما » المزيدة عليها للتأكيد ، وقوله : ﴿ أحدهما ﴾ فاعل يبلغن . وقرأ حمزة والكسائى ﴿ إما يبلغان ﴾ فيكون قوله ﴿ أحدهما ﴾ بدل من ألف الاثنين فى ﴿ يبلغان ﴾ .

وقوله ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ جواب الشرط .

قال الآلوسى : و ﴿ وأف ﴾ اسم صوت ينبىء عن التضجر ، أو اسم فعل مضارع هو أتضجر . .

وفيه نحو من أربعين لغة . والوارد من ذلك فى القراءات سبع ثلاث متواترة ، وأربعة شاذة .

فقرأ نافع وحفص بالكسر والتنوين ، وهو للتنكير : فالمعنى : فلا تقل أتضجر تضجرًا ما .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٨٣ .

(٣) تفسير القرآن الكريم ص ٤٣٤ لفضيلة الأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله .

وقرأ ابن كثير وابن عامر بالفتح دون تنوين ، والباقون بالكسر بدون تنوين ..[1] .

وقوله ﴿ ولا تنهرهما ﴾ من النهر بمعنى الزجر ، يقال نهر فلان فلانا إذا زجره بغلظة .

والمعنى : كن - أيها المخاطب - محسنا إحسانا تاما بأبويك .

فإذا ما بلغ ﴿ عندك ﴾ أى : فى رعايتك وكفالتك ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ سن الكبر والضعف ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ أى : قولا يدل على التضجر منهما والاستثقال لأى تصرف من تصرفاتهما .

قال البيضاوى : والنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء قياسا بطريق الأولى ، وقيل عرفا كقولك : فلان لا يملك النقير والقطمير - فإن هذا القول يدل على أنه لايملك شيئا قليلا أو كثيرا[2] .

وقوله ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أى : ولا تزجرهما عما يتعاطيانه من الأفعال التى لا تعجبك .

فالمراد من النهى الأول : المنع من إظهار التضجر منهما مطلقا .

والمراد من النهى الثانى : المنع من إظهار المخالفة لهما على سبيل الرد والتكذيب والتغليظ فى القول .

والتعبير بقوله : ﴿ عندك ﴾ يشير إلى أن الوالدين قد صارا فى كنف الابن وتحت رعايته ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن أصبح مسئولا عنهما ، بعد أن كانا هما مسئولين عنه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : مامعنى ﴿ عندك ﴾ قلت هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلًّا على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشد احتمالا وصبرا ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليانه منه فى حالة الطفولة ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطاءة الخلق ، ولين الجانب ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : أف ، فضلا عما يزيد عليه[3] .

والتقييد بحالة الكبر فى قوله - تعالى - : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر ﴾ جرى مجرى الغالب ، إذ أنهما يحتاجان إلى الرعاية فى حالة الكبر ، أكثر من احتياجهما إلى ذلك فى حالة قوتهما وشبابهما ، وإلا فالإحسان إليهما ، والعناية بشأنهما . واجب على الأبناء سواء كان الآباء فى سن الكبر أم فى سن الشباب أم فى غيرهما .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٥٥ .

(٢) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٥٨٢ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٤٤ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقل لهما قولا كريما ﴾ أمر بالكلام الطيب معهما . بعد النهى عن الكلام الذى يدل على الضجر والقلق من فعلهما .

أى : وقل لهما بدل التأفيف والزجر ، قولا كريما حسنا ، يقتضيه حسن الأدب معهما ، والاحترام لهما والعطف عليهما .

وقوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة .. ﴾ زيادة فى تبجيلهما والتلطف معهما فى القول والفعل والمعاملة على اختلاف ألوانها .

أى : وبجانب القول الكريم الذى يجب أن تقوله لهما ، عليك أن تكون متواضعا معهما ، متلطفا فى معاشرتهما ، لا ترفع فيهما عينا ، ولا ترفض لهما قولا ، مع الرحمة التامة بهما ، والشفقة التى لا نهاية لها عليهما .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وقوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ المقصود منه المبالغة فى التواضع .

وذكر القفال فى تقريره وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه ، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية . فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك .

والثانى : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه . فصار خفض الجناح كناية عن التواضع[1] .

وإضافة الجناح إلى الذل إضافة بيانية ، أى : اخفض لهما جناحك الذليل و﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من الرحمة ﴾ ابتدائية . أى تواضع لهما تواضعا ناشئا من فرط رحمتك عليهما .

قال الآلوسى : وإنما احتاجا إلى ذلك ، لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، واحيتاج المرء إلى من كان محتاجا إليه أدعى إلى الرحمة ، كما قال الشاعر :

يــامــن أتى يســألــنى عن فــاقــتى ... مــا حــال من يســأل من ســائله ؟
مــاذلــة الســلطان إلا إذا ... أصــبــح محــتــاجــا إلى عــامــلـه

وقوله : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ تذكير للانسان بحال ضعفه وطفولته ، وحاجته إلى الرعاية والحنان .

أى : وقل فى الدعاء لهما : يارب ارحمهما برحمتك الواسعة ، واشملهما بمغفرتك الغامرة ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩١ .

جزاء ما بذلا من رعاية لى فى صغرى ، فأنت القادر على مثوبتهما ومكافأتهما .

قال الجمل : والكاف فى قوله ﴿ كما ربيانى .. ﴾ فيها قولان : أحدهما أنها نعت لمصدر محذوف .

أى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهما لى ، والثانى أنها للتعليل . أى : ارحمهما لأجل تربيتهما لى ، كما فى قوله ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات التى سمت بمنزلة الوالدين ، بما يدل على كمال علمه ، وعلى التحذير من عقابه ، فقال - تعالى - : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ .

والأوابون : جمع أواب . وهو الكثير الأوبة والتوبة والرجوع إلى الله - تعالى - يقال : آب فلان يئوب إذا رجع .

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : الأواب هو التائب من الذنب ، الراجع عن معصية الله إلى طاعته ، ومما يكرهه إلى ما يرضاه ، لأن الأواب إنما هو فعال من قول القائل : آب فلان من سفره إلى منزله ، كما قال الشاعر :

وكل ذى غيبة يئوب وغائب الموت لا يؤوب[2]

أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بما فى نفوسكم ، وضمائركم ، سواء أكان خيرا أو شرا ، وسواء أكنتم تضمرون البر بآبائكم أم تخفون الإساءة إليهما ، ومع ذلك فإنكم إن تكونوا صالحين - أى : قاصدين الصلاح والبر بهما ، والرجوع عما فرط منكم فى حقهما أو فى حق غيرهما - فالله - تعالى - يقبل توبتكم ، فإنه - سبحانه - بفضله وكرمه كان للأوابين - أى الرجاعين إليه بالتوبة مما فرط منهم - غفورا لذنوبهم .

فالآية الكريمة وعيد لمن تهاون فى حقوق أبويه ، وفى كل حق أوجبه الله عليه ، ووعد لمن رجع إليه - سبحانه - بالتوبة الصادقة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أمرت بالإحسان إلى الوالدين ، بأسلوب يستجيش عواطف البر والرحمة فى قلوب الأبناء ، ويبعثهم على احترامهما ورعايتهما والتواضع لهما ، وتحذيرهم من الإساءة إليهما ، ويفتح باب التوبة أمام من قصر فى حقهما أو حق غيرهما .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٥٢ .

وقد كرر القرآن هذا الأمر للأبناء بالإحسان إلى الآباء ، ولم يفعل ذلك مع الآباء .

وذلك لأن الحياة - كما يقول بعض العلماء - وهى مندفعة فى طريقها بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام . الى الذرية . الى الناشئة الجديدة ، الى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة ، الى الحياة المولية الى الجيل الذاهب .

ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شىء حتى بالذات ، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء فى البيضة فإذا هي قشر ، كذلك يمتص الأولاد ، كل رحيق ، وكل عافية ، وكل جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان .

فأما الاولاد فسرعان ماينسون هذا كله ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية ... وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ، ليذكروا واجب الجيل الذى انفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف .

وهنا يجىء الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، فى صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله[١] .

هذا ، وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، كثيرا من الأحاديث والآثار التى توجه الأبناء إلى رعاية الآباء ، واحترامهم ، والعطف عليهم ، والرحمة بهم ، والاهتمام بشئونهم .

قال الإمام ابن كثير : وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره : أن رسول الله - ﷺ - لما صعد المنبر قال : آمين . آمين . آمين .

فقالوا : يارسول الله ، علام أمنت ؟ قال : أتانى جبريل فقال : يا محمد ، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقل : آمين فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل : آمين . فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة . قل : آمين ، فقلت : آمين » .

---

(١) « فى ظلال القرآن » جـ ١٥ ص ٢٢٢١ .

وعن مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينما أنا جالس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شيء بعد موتهما أبرهمابه ؟ قال : « نعم : خصال أربع . الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قِبَلهما ، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما من برهما »[1] .

وقال القرطبى : أمر الله - سبحانه - بعبادته وتوحيده ، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك . كما قرن شكرهما بشكره ، فقال : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ .

وقال : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ .

وفى صحيح البخارى عن عبدالله قال : سألت النبى - ﷺ - : أى الأعمال أحب إلى الله - تعالى - ؟ . قال : « الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت ثم أى : قال : الجهاد فى سبيل الله » .. .

ثم قال القرطبى - رحمه الله - : ومن عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما ، كا أن من برهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه . ما لم يكن ذلك الأمر معصية ، ولا يختص برهما بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما .

ففى صحيح البخارى عن أسماء قالت : قدمت أمى وهى مشركة فاستفتيت النبى - ﷺ - فقلت : إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها ؟ - أى وهى راغبة فى برى وصلتى ، أو وهى راغبة عن الإسلام كارهة له - قال : « نعم صلى أمك » .

ثم قال القرطبى : ومن الإحسان إليهما والبر بهما ، إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما . فعن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - يستأذنه فى الجهاد فقال : « أحى والداك ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد » .

قال ابن المنذر : فى هذا الحديث النهى عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النفير ، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع .

ثم قال : ومن تمام برهما : صلة أهل ودهما ، ففى الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٦٢ .

رسول الله - ﷺ - يقول : « إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يولى » .

وكان - ﷺ - يهدى لصديقات خديجة برًّا بها ووفاء لها وهى زوجته ، فما ظنك بالوالدين[1] .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب على الإنسان نحو خالقه - عز وجل - ونحو والديه ، أتبع ذلك ببيان ما يجب على هذا الانسان نحو أقاربه ، ونحو المسكين وابن السبيل ، ونحو ماله الذى هو نعمة من نعم الله عليه . فقال - تعالى - :

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

قال أبو حيان فى البحر : « لما أمر الله - تعالى - ببر الوالدين ، أمر بصلة القرابة . قال الحسن : نزلت فى قرابة النبى - ﷺ - . والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر ... ﴾ والحق هنا مايتعين له من صلة الرحم ، وسد الخلة ، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه . قال نحوه : ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم »[2] .

والمراد بذوى القربى : من تربطك بهم صلة القرابة سواء أكانوا من المحارم أم لا .

والمسكين : هو من لا يملك شيئا من المال ، أو يملك مالايسد حاجته ، وهذا النوع من

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٣٨ .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ ص ٢٩ .

الناس فى حاجة إلى العناية والرعاية ، لأنهم فى الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل ، على إراقة ماء وجوههم بالسؤال .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « ليس المسكين الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، قالوا : فما المسكين يارسول الله ؟ قال الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا » .

وابن السبيل : هو المسافر المنقطع عن ماله سمى بذلك - كما يقول الآلوسى - لملازمته السبيل - أى : الطريق - فى السفر . أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته »[1] .

وهذا النوع من الناس - أيضا - فى حاجة الى المساعدة والمعاونة ، حتى يستطيع الوصول إلى بلده .

وفى هذا الامر تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغى أن يكونوا فى التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة .

والمعنى : وأعط - أيها العاقل - ذوى قرباك حقوقهم الثابتة لهم من البر ، وصلة الرحم ، والمعاونة ، والزيارة ، وحسن المعاشرة ، والوقوف إلى جانبهم فى السراء والضراء ، ونحو ذلك مما توجبه تعاليم دينك الحنيف .

وأعط - كذلك - المسكين وابن السبيل حقوقهما التى شرعها الله - تعالى - لهما ، من الإحسان إليهما ، ومعاونتهما على ما يسد حاجتهما .

وقدم - سبحانه - الأقارب على غيرهم ، لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن إعطاءهم إحسان وصلة رحم .

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم ، عن سليمان بن عامر قال: قال رسول الله - ﷺ - : « إن الصدقة على المسكين صدقة . وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تبذر تبذيرا ﴾ نهى عن وضع المال فى غير موضعه الذى شرعه الله - تعالى - مأخوذ من تفريق البذر وإلقائه فى الأرض كيفما كان من غير تعهد لمواقعه ، ثم استعير لتضييع المال فى غير وجوهه .

قال صاحب الكشاف : التبذير تفريق المال فيما لا ينبغى ، وإنفاقه على وجه الإسراف ، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ، وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٤٦ .

أشعارها ، فأمر الله - تعالى - بالنفقة فى وجوهها ، مما يقرب منه ويزلف ..[١] .

وقال ابن كثير : وقوله ﴿ ولا تبذر تبذيرا ﴾ : لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه ، بل يكون وسطا ، كما قال - تعالى - : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ .

وقال ابن مسعود : التبذير : الإنفاق فى غير حق . وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا . ولو أنفق مُدا فى غير حقه كان تبذيرا[٢] .

وقوله : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ تعليل للنهى عن التبذير ، وتنفير منه بأبلغ أسلوب .

والمراد بأخوة الشياطين : المماثلة لهم فى الصفات السيئة ، والسلوك القبيح .

قال الإمام الرازى : والمراد من هذه الأخوة ، التشبه بهم فى هذا الفعل القبيح ، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشىء أخا له ، فيقولون : فلان أخو الكرم والجود . وأخو السفر ، إذا كان مواظبا على هذه الأعمال[٣] .

أى : كن - أيها العاقل - متوسطا فى نفقتك ، ولا تبذر تبذيرا. لأن المبذرين يماثلون ويشابهون الشياطين فى صفاتهم القبيحة ، وكان الشيطان فى كل وقت وفى كل حال جحودا لنعم ربه ، لا يشكره عليها ، بل يضعها فى غير ما خلقت له هذه النعم .

وفى تشبيه المبذر بالشيطان فى سلوكه السىء ، وفى عصيانه لربه ، إشعار بأن صفة التبذير من أقبح الصفات التى يجب على العاقل أن يبتعد عنها ، حتى لا يكون مماثلا للشيطان الجاحد لنعم ربه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المؤمن فعله فى حال عدم قدرته على تقديم العون للأقارب والمحتاجين ، فقال - تعالى - : ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسورا ﴾ .

ولفظ ﴿ إما ﴾ مركب من « إن » الشرطية ، ومن « ما » المزيدة . أى : إن تعرض عنهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٦٦ طبعة دار الشعب .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩٣ .

وقوله ﴿ تعرضن ﴾ من الإعراض ، بمعنى صرف الوجه عن السائل حياء منه وبسبب عدم القدرة على تلبية طلبه .

وقوله : ﴿ ابتغاء ﴾ مفعول لأجله منصوب بتعرضن ، وهو من باب وضع المسبب موضع السبب . لأن الأصل : وإما تعرضن عنهم لإعسارك .

والمراد بالرحمة : انتظار الحصول على الرزق ، وحلول الفرج بعد الضيق .

والميسور : اسم مفعول من يسر الأمر - بالبناء للمفعول - مثل سعد الرجل ، ومعناه : السهل اللين .

والمعنى : وإما تعرضن - أيها المخاطب - عن ذى قرابتك وعن المسكين وابن السبيل ، بسبب إعسارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله - عز وجل - فقل لهم فى هذه الحالة قولا لينا رفيقا يدل على اهتمامك بشأنهم ، ويدخل السرور على نفوسهم ، كأن تقول لهم مثلا - : ليس عندى اليوم ما أقدمه لكم ، وإن يرزقنى الله بشىء فسأجعل لكم نصيبا منه .

قال القرطبى ما ملخصه : وهو تأديب عجيب ، وقول لطيف بديع ، أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر غنى وقدرة فتحرمهم ، وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض ، وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله - تعالى - فتح باب الخير ، لتتوصل به إلى مواساة السائل ، فإن قعد بك الحال ﴿ فقل لهم قولا ميسورا ﴾ أى لينا لطيفا .. ولقد أحسن من قال :

إلَّا تكن وَرِقٌ يوماً أجود بها للسائلين فإنى لينُ العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوالى وإما حسنُ مردود[1]

ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى أفضل الطرق لإنفاق أموالهم والتصرف فيها ، فقال - تعالى - : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوما محسورا ﴾ .

وقوله ﴿ مغلولة ﴾ من الغل - بضم الغين - وأصله الطوق الذى يجعل فى العنق وتربط به اليد ، كما يربط المذنب والأسير : وهو كناية عن البخل والتقتير .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة . حتى أنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط ، ولا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٤٩ .

يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها . ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ؛ لأن بسط اليد وقبضها عبارتان معاقبتان للبخل والجود ..[1] .

وقوله : ﴿ محسورا ﴾ من الحسور بمعنى الانقطاع عن الشيء ، والعجز عن الحصول عليه .

يقال : فلان حسره السير ، إذا أثر فيه أثرا بليغا جعله يعجز عن اللحاق برفقائه .

ويقال : بعير محسور . أى : ذهبت قوته وأصابه الكلل والإعياء . فصار لا يستطيع النهوض بما يوضع عليه من أحمال .

والمقصود من الآية الكريمة : الأمر بالتوسط والاعتدال فى الإنفاق والنهى عن البخل والإسراف .

فقد شبه - سبحانه - مال البخيل ، بحال من يده مربوطة إلى عنقه ربطا محكما بالقيود والسلاسل ، فصار لا يستطيع تحريكها أو التصرف بها .

وشبه حال المسرف والمبذر ، بحال من مد يده وبسطها بسطا كبيرا ، بحيث أصبحت لا تمسك شيئا يوضع فيها سواء أكان قليلا أم كثيرا .

والمعنى : كن - أيها الإنسان - متوسطا فى كل أمورك ، ومعتدلا فى إنفاق أموالك بحيث لاتكون بخيلا ولا مسرفا ، فان الإسراف والبخل يؤديان بك إلى أن تصير ملوما . أى : مذموما من الخلق والخالق ، محسورا ، أى : مغموما منقطعا عن الوصول إلى مبتغاك بسبب ضياع مالك ، واحتياجك إلى غيرك .

قال الآلوسى ما ملخصه : فالآية الكريمة تحض على التوسط ، وذلك هو الجود الممدوح ، فخير الأمور أوساطها . وأخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما عال من اقتصد » . وأخرجه البيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة » . وفى رواية عن أنس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين » وكما يقال : حسن التدبير مع الكفاف ، خير من الغنى مع الإسراف[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦٥٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٦٥ .

ثم بين - سبحانه - أن مرجع الأمور كلها اليه ، فهو المعطى وهو المانع ، فقال - تعالى - : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ .

أى : إن ربك - أيها الانسان - العاقل - يبسط الرزق ويوسعه لمن يشاء أن يبسطه له ويمسك الرزق ويضيقه ويقدره على من يشاء من خلقه . إذ كل شيء فى هذا الكون يسير على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، وهو - سبحانه - العليم ببواطن الناس وبظواهرهم ، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم ، ولا يعطى أو يمنع ، إلا لحكمة هو يعلمها .

قال - تعالى - : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، ومايمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حضت على إيتاء ذوى القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم . وعلى الاعتدال فى إنفاق المال ، ونهت عن الشح والتبذير ، وأسندت العطاء والمنع الى الله - تعالى - الخبير البصير بالظواهر والبواطن .

ثم يسوق - سبحانه - جملة من النواهى التى يؤدى الوقوع فيها إلى فساد أحوال الأفراد والجماعات ، والى شيوع الفاحشة فى الأمم ، مما يؤدى إلى اضمحلالها وذهاب ريحها ، فقال - تعالى - :

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ

ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

وقوله – سبحانه – : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ...﴾ نهى عن قتل الأولاد بعد بيان أن الأرزاق بيده – سبحانه – ، يبسطها لمن يشاء ، ويضيقها على من يشاء .

والإملاق : الفقر . يقال : أملق الرجل إذا افتقر قال الشاعر : .

وإنى على الإملاق يا قوم ماجد   أعد لأضيافى الشواء المصهبا

قال الآلوسى : وظاهر اللفظ النهى عن جميع أنواع قتل الأولاد ، ذكورا كانوا أو إناثا مخافة الفقر والفاقة .

لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن ، فنهى فى الآية عن ذلك ، فيكون المراد بالأولاد البنات ، وبالقتل الوأد ..[1] .

أى : ولا تقتلوا – أيها الآباء – أولادكم خشية فقر متوقع ، فنحن قد تكفلنا برزقهم ورزقكم ، وأرزاق غيركم من مخلوقاتنا التى لا تحصى .

قال – تعالى – : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .. ﴾ .

ولاشك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم ، فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر المتوقع فى المستقبل ، مع أن الله – تعالى – هو الرازق لهم ولكم فى كل زمان ومكان .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٦٦ .

وقد ورد النهى عن قتل الاولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد فى سورة الأنعام بصيغة أخرى ، هى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ .

وليست أحدهما تكرارا للأخرى وإنما كل واحدة منها تعالج حالة معينة .

فهنا يقول - سبحانه - : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ لأن النهى موجه بالأصالة الى الموسرين الذين يقتلون أولادهم لا من أجل فقر كائن فيهم ، وإنما من أجل فقرٍ هم يتوهمون حصوله فى المستقبل بسبب الأولاد ، لذا قال - سبحانه - ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، فى زعم آبائهم - لكى يمتنع الآباء عن هذا التوقع ولكى يضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .

وقال - سبحانه - هناك ﴿ من إملاق ﴾ لأن النهى متوجه أصالة إلى الآباء المعسرين : أى لاتقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم - أيها الآباء - ، فقد يجعل الله بعد عسر يسرا . ولذا قال - سبحانه - : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ فجعل الرزق للآباء ابتداء . لكى يطمئنهم - سبحانه - على أنه هو الكفيل برزقهم وبرزق أولادهم .

وفى كلتا الحالتين ، القرآن الكريم ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله - تعالى - والاعتماد عليه .

وجمله ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ تعليل للنهى عن قتل الأولاد ، بإبطال موجبه - فى زعمهم - وهو الفقر .

أى : نحن نرزقهم لا أنتم ، ونرزقكم أنتم معهم ، وما دام الأمر كذلك فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء : وهى قتل الأولاد ، لأن الأولاد ، قطعة من أبيهم ، والشأن - حتى فى الحيوان الأعجم - أنه يضحى من أجل أولاده ويحميهم ، ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .

وقوله ﴿ إن قتلهم كان خطئا كبيرا ﴾ تعليل آخر للنهى عن قتل الأولاد جىء به على سبيل التأكيد .

والخِطْء : هو الإثم - وزنا ومعنى - ، مصدر خَطِىءَ خِطْئًا كأثم إثما من باب علم .

أى : أن قتل الأولاد كان عند الله - تعالى - إثما كبيرا فاحشا ، يؤدى إلى التعاسة والشقاء فى الدنيا والآخرة :

والحق أن المجتمع الذى يبيح قتل الأولاد ، خوفا من الفقر أو العار ، لايمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية والتشاؤم والأوهام ، لأن أفراده يظنون أن الله

يخلق خلقا لا يدبر لهم رزقهم ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة ، تخوفا من فقر أو عار مترقب ، وذلك هو الضلال المبين .

ورحم الله الإمام الرازى فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر ، فهو سوء ظن بالله . وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم . فالأول : ضد التعظيم لأمر الله - تعالى - والثانى : ضد الشفقة على خلقه ، وكلاهما مذموم[1] .

ولقد أمر النبى - ﷺ - برعاية الأبناء ، وحذر من الاعتداء عليهم فى أحاديث كثيرة ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قلت يارسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك[2] .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن قتل الأولاد المؤدى إلى إفناء النسل ، أتبع ذلك بالنهى عن فاحشة الزنا المؤدية إلى اختلاط الأنساب : فقال - تعالى - : ﴿ ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

والزنا : وطء المرأة بدون عقد شرعى يجيز للرجل وطأها .

والفاحشة : ماعظم قبحه من الأقوال والأفعال . يقال فحش الشىء ، فحشا ، كقبح قبحا - وزنا ومعنى - ، ويقال أفحش الرجل ، إذا أتى الفحش بضم الفاء وسكون الحاء - ، وهو القبيح من القول أو الفعل . وأكثر ما تكون الفاحشة إطلاقا على الزنا .

وتعليق النهى بقربانها ، للمبالغة فى الزجر عنها ، لأن قربانها قد يؤدى إلى الوقوع فيها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وهذا لون حكيم من ألوان إصلاح النفوس ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشىء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

فكأنه - سبحانه - يقول : كونوا - أيها المسلمون بعيدين عن كل المقدمات التى تفضى إلى فاحشة الزنا كمخالطة النساء ، والخلوة بهن ، والنظر إليهن ... فإن ذلك يفتح الطريق إلى الوقوع فيها .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢٠ ص ٢٩٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٦٩ .

قال بعض العلماء : وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشىء ، وضابطه بالاستقراء :

أن كل منهى عنه من شأنه أن تميل النفوس اليه ، وتدفع اليه الأهواء ، جاء النهى فيه عن القربان ، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ... ﴾ ﴿ ولا تقربوا الزنا ... ﴾ ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن .. ﴾ .

أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها ، ولا اقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها ، أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه .

ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ...﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ..﴾ .

فهذه وإن كانت فواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية ، يميل إليها الإنسان بشهوته . بل هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان فى نفسه مرارة ارتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها ، أو فى حكم الكاره ..[1] .

وقوله : ﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ تعليل للنهى عن الاقتراب منه ، أى : ابتعدوا عن مقدمات الزنا فضلا عن الوقوع فيه ذاته ، لأنه كان - ومازال - فى شرع الله ، وفى نظر كل عقل سليم فعلة فاحشة ظاهرة القبح وبئس الطريق طريقه ، فإنها طريق تؤدى إلى غضب الله - تعالى - وسخطه .

ومما لاشك فيه أن فاحشة الزنا من أقبح الفواحش التى تؤدى إلى شيوع الفساد والأمراض الخبيثة فى الأفراد والمجتمعات ، وما وجدت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا .

ولقد تحدث الإمام الرازى عن تلك المفاسد التى تترتب على الزنا فقال ما ملخصه :

الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد ، أولها : اختلاط الأنساب واشتباهها ، فلا يعرف الإنسان أن الولد الذى أتت به الزانية ، أهو منه أو من غيره .. .

وثانيا : أنه إذا لم يوجد سبب شرعى لأجله يكون هذا الرجل لتلك المرأة ، لم يبق فى حصول ذلك الاختصاص الا التواثب والتقاتل .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٤٤١ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

وثالثها : أن المرأة إذا باشرت الزنا ، استقذرها كل طبع سليم ، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ، ولا يتم السكن والازدواج . .

ورابعها : أنه إذا فتح باب الزنا ، فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان ، وبين سائر البهائم فرق فى هذا الباب .

وخامسها : أنه ليس المقصود من المرأة قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهماته .. وهذه المهمات لا تتم الا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد ، منقطعة الطمع عن سائر الرجال ، وذلك لا يحصل الا بتحريم الزنا ... فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضى على الزنا بالقبح[1] .

ولقد سد الإسلام جميع المنافذ التى تؤدى إلى ارتكاب هذه الفاحشة ، وسلك لذلك وسائل من أهمها :

١ - تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء الا فى حدود الضرورة الشرعية ، ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ، ما رواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يخلون أحدكم بامرأة الا مع ذى محرم » .

وروى الشيخان - أيضا - عن عقبة بن عامر أن رسول الله - ﷺ - قال : « إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو - بفتح الحاء وسكون الميم - وهو قريب الزوج كأخيه وابن عمه فقال - ﷺ - : « الحمو الموت »[2] . أى : دخوله قد يؤدى إلى الموت .

٢ - تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية . ووجوب غض البصر .

قال - تعالى - : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم .. ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن .. ﴾[3] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة : العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ... والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه »[4] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ١٩٨ .
(٢) رياض الصالحين ص ٦٢٤ باب تحريم الخلوة بالأجنبية .
(٣) سورة النور الآيتان ٣٠ ، ٣١ .
(٤) رياض الصالحين ص ٦٢٢ للإمام النووى .

٣ - وجوب التستر و الاحتشام للمرأة ؛ فإن التبرج والسفور يغرى الرجال بالنساء ، ويحرك الغريزة الجنسية بينهما .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ..[1] ﴾ .

٤ - الحض على الزواج ، وتيسير وسائله ، والبعد عن التغالى فى نفقاته ، وتخفيف مؤنه وتكاليفه .. فإن الزواج من شأنه أن يحصن الإنسان ، ويجعله يقضى شهوته فى الحلال . .

فإذا لم يستطع الشاب الزواج ، فعليه بالصوم فإنه له وقاية - كما جاء فى الحديث الشريف - .

٥ - إقامة حدود الله بحزم وشدة على الزناة سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، كما قال - تعالى - : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾[2] .

وهذا الجلد إنما هو بالنسبة للبكر ذكرا كان أو أنثى ، أما بالنسبة للمحصن وهو المتزوج أو الذى سبق له الزواج ، فعقوبته الرجم ذكرا كان أو أنثى ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

ففى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قضى فى زان لم يتزوج وزانية متزوجة ، بقوله لوالد الرجل : « على ابنك مائة جلدة وتغريب عام » ثم قال - ﷺ - لأحد أصحابه واسمه أنيس : اغد ياأنيس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها .

ومما لاشك أنه لو تم تنفيذ حدود الله - تعالى - على الزناة ، لمحقت هذه الفاحشة محقا ، لأن الشخص إن لم يتركها خوفا من ربه - عز وجل - لتركها خوفا من تلك العقوبة الرادعة ، ومن فضيحته على رءوس الأشهاد .

هذه بعض وسائل الوقاية من تلك الفاحشة القبيحة ، ولو اتبعها المسلمون ، لطهرت أمتهم من رجسها ، ولحفظت فى دينها ودنياها .

ثم نهى - سبحانه - عن قتل النفس المعصومة الدم ، بعد نهيه عن قتل الأولاد ، وعن الاقتراب من فاحشة الزنا فقال - تعالى - : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٩ .
(٢) سورة النور الآية ٢ .

أى : ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها ، إلا بالحق الذى يبيح قتلها شرعا ، كردة ، أو قصاص ، أو زنا يوجب الرجم .

قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ناهيا عن قتل النفس بغير حق شرعى ، كما ثبت فى الصحيحين - عن عبد الله بن مسعود - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وفى السنن : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم[1] » .

وقوله : ﴿ إلا بالحق ﴾ متعلق بلا تقتلوا ، والباء للسببية ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى : لا تقتلوها فى حال من الأحوال ، إلا فى حال ارتكابها لما يوجب قتلها .

وذلك : لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله - تعالى - فلا يحل لأحد أن يهدمه إلا بحق .

وبهذا يقرر الإسلام عصمة الدم الإنسانى ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة ، فكأنما قد اعتدى على الناس جميعا . قال - تعالى - : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا .. ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ﴾ إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق العدل عند المطالبة بحقه .

والمراد بوليه : من يلى أمر المقتول ، كأبيه وابنه وأخيه وغيرهم من أقاربه الذين لهم الحق فى المطالبة بدمه . فإن لم يكن للمقتول ولى ، فالحاكم وليه .

والمراد بالسلطان : القوة التى منحتها شريعة الله - تعالى - لولى المقتول على القاتل ، حيث جعلت من حق هذا الولى المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو أخذ الدية منه ، أو العفو عنه ، ولا يستطيع أحد أن ينازعه فى هذا الحق ، أو أن يجبره على التنازل عنه .

والمعنى : ومن قتل مظلوما ، أى : بدون سبب يوجب قتله ، فإن دمه لم يذهب هدرا ، فقد شرعنا « لوليه سلطانا » على القاتل ، لأنه - أى الولى - إن شاء طالب بالقصاص منه ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن شاء عفا عنه . وبذلك يصير الولى هو صاحب الكلمة الأولى فى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٠ .
(٢) سورة المائدة الآية ٣٢ .

التصرف فى القاتل ، حتى لكأنه مملوك له .

وما دامت شريعة الله - تعالى - قد أعطت الولى هذا السلطان على القاتل ، فعليه أن لا يسرف فى القتل ، وأن لا يتجاوز ما شرعه الله - تعالى - .

ومن مظاهر هذا التجاوز : أن يقتل اثنين - مثلا - فى مقابل قتيل واحد أو أن يقتل غير القاتل ، أو أن يمثل بالقاتل بعد قتله .

قال الآلوسى ما ملخصه : كان من عادتهم فى الجاهلية ، أنهم إذا قتل منهم واحد ، قتلوا قاتله ، وقتلوا معه غيره ...

وأخرج البيهقي فى سننه عن زيد بن أسلم أنه قال : إن الناس فى الجاهلية كانوا إذا قتل من ليس شريفا شريفا ، لم يقتلوه به ، وقتلوا شريفا من قومه ، فنهوا عن ذلك ، كما نهوا عن المثلة بالقاتل .

وقرأ حمزة والكسائى : « فلا تسرف » بالخطاب للولى على سبيل الالتفات[1] .

وقوله : ﴿ إنه كان منصورا ﴾ تذييل المقصود به تعليل النهى عن الإسراف فى القتل . والضمير يعود إلى الولى - أيضا - .

أى : فلا يسرف هذا الولى فى القتل ، لأن الله - تعالى - قد نصره عن طريق ما شرعه له من سلطان عظيم ، من مظاهره : المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو بأخذ الدية ، ومن مظاهره - أيضا - وقوف الحاكم وغيره إلى جانبه حتى يستوفى حقه من القاتل ، دون أن ينازعه منازع فى هذا الحق .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ﴿ إنه ﴾ يعود إلى المقتول ظلما ، على معنى : أن الله - تعالى - قد نصره فى الدنيا بمشروعية القصاص والدية حتى لا يضيع دمه ، ونصره فى الآخرة بالثواب الذى يستحقه ، وما دام الأمر كذلك فعلى وليه أن لا يسرف فى القتل .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب . لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأشبه ذلك بالصواب عندى ، قول من قال : عنى بها - أى بالهاء فى إنه - الولى ، وعليه عادت ، لأنه هو المظلوم ووليه المقتول ، وهى إلى ذكره أقرب من ذكر المقتول ، وهو المنصور - أيضا - لأن الله - جل ثناؤه - قضى فى كتابه المنزل ، أن سلطه على قاتل وليه ، وحكمه فيه ، بأن جعل إليه قتله إن شاء ،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٧٠ .

واستبقاءه على الدية إن أحب ، والعفو عنه إن رأى . وكفى بذلك نصرة له من الله - تعالى - ، فلذلك هو المعنى بالهاء التى فى قوله ﴿ إنه كان منصورا ﴾[1] .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة التى هى أول آية نزلت فى شأن القتل كما قال الضحاك[2] : يراها قد عالجت هذه الجريمة علاجا حكيما .

فهى أولا : تنهى عن القتل ، لأنه من أكبر الكبائر التى تؤدى إلى غضب الله - تعالى - وسخطه ، قال - تعالى - : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾[3] .

وجاء النهى عنه فى بعض الآيات بعد النهى عن الإشراك بالله - عز وجل - . قال - سبحانه - : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق .. ﴾[4] .

كما جاء النهى عنه فى كثير من الأحاديث النبوية ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء » .

وفى حديث آخر يقول - ﷺ - : « الآدمى بنيان الرب ، ملعون من هدم بنيان الرب » .

وفى حديث ثالث : « لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم ، لأكبهم الله فى النار » .

وهذا النهى الشديد عن قتل النفس من أسبابه : أنه يؤدى إلى شيوع الغل والبغض والتقاتل ... بين الأفراد والجماعات ؛ إذ النفس البشرية فى كل زمان ومكان ، يؤلمها ، ويثير غضبها وانتقامها ، أن ترى قاتل عزيز لديها يمشى على الأرض ..

وهى ثانيا : تسوق لولى المقتول من التوجيهات الحكيمة ، ما يهدئ نفسه ، ويقلل من غضبه ، ويطفئ من نار ثورته المشتعلة .

وقد أجاد صاحب الظلال - رحمه الله - فى توضيح هذا المعنى فقال :

« وفى تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان الشرع وتجنيد الحاكم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ٦٠ - طبعة دار المعرفة - بيروت .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٧٠ .
(٣) سورة النساء الآية ٩٣ .
(٤) سورة الفرقان الآية ٦٨ .

لنصرته ، تلبية للفطرة البشرية ، وتهدئة للغليان الذى تستشعره نفس الولى ، الغليان الذى قد يجرفه ويدفعه إلى الضرب يمينا وشمالا ، فى حمى الغضب والانفعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على دم القاتل . وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص ، فإن ثائرته تهدأ ، ونفسه تسكن ، ويقف عند حد القصاص العادل الهادئ .

والإنسان إنسان ، فلا يطالب بغير ما ركب فى فطرته من الرغبة العميقة فى القصاص . لذلك يعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبيها فى الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضا . إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ، ويحبب فيه ، ويأجر عليه ، ولكن بعد أن يعطى الحق . فلولى الدم أن يقتص أو يصفح .

وشعور ولى الدم بأنه قادر على كليهما ، قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح فقد يهيج نفسه ، ويدفع به إلى الغلو والجموح[1] .

هذا ، والذى نعتقده وندين الله - تعالى - عليه ، أنه لا علاج لجريمة القتل - وغيرها - إلا بتطبيق شريعة الله - تعالى - التى جمعت بين الرحمة والعدل .

وبالرحمة والعدل : تتلاقى القلوب بعد التفرق ، وتلتئم بعد التصدع ، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن إتلاف النفوس عن طريق القتل والزنا ، أتبع ذلك بالنهى عن إتلاف الأموال التى هى قوام الحياة ، وبدأ - سبحانه - بالنهى عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، ثم ثنى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان عند التعامل ، فقال - تعالى - :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا. وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

واليتيم : هو الصغير الذى مات أبوه مأخوذ من اليتم بمعنى الانفراد ، ومنه الدرة اليتيمة .

والخطاب فى قوله : ﴿ ولا تقربوا ... ﴾ لأولياء اليتيم ، والأوصياء على ماله .

والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته ، ومن الشدة بمعنى القوة . يقال : شد النهار إذا ارتفع واكتمل ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . أو هو جمع لا واحد له من لفظه ، أو جمع شدة كأنعم ونعمة .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٢٢٣٥ .

أى : ولا تقربوا - أيها الأولياء على اليتيم - ماله الذى منحه الله إياه عن طريق الميراث أو غيره ، إلا بالطريقة التى هى أحسن الطرق ، والتى من شأنها أن تنفعه ، كالمحافظة عليه ، واستثماره له ، وإنفاقه فى الوجوه المشروعة .

واعلموا أن كل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لايقع فى تلك الدائرة - دائرة الأنفع والأحسن - فهو تصرف محظور ومنهى عنه ، وسيحاسبكم الله - تعالى - عليه .

وتعليق النهى بالقربان ، للمبالغة فى الزجر عن التصرف فى مال اليتيم ، إلا بالطريقة التى هى أحسن .

وقوله : ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ ليس غاية للنهى ، إذ ليس المعنى : فإذا بلغ أشده فاقربوه ، لأن هذا المعنى يقتضى إباحة أكل الولى لمال اليتيم بعد بلوغه ، وإنما هو غاية لما يفهم من النهى ، فيكون المعنى : لا تقربوا مال اليتيم إلا بالطريقة التى هى أحسن ، واستمروا على ذلك حتى يبلغ أشده ، أى : حتى يصير بالغا عاقلا رشيدا ، فإذا ما صار كذلك ، فسلموا إليه ماله بأمانة واستعفاف عن التطلع إلى شىء منه .

هذا ، وقد أمرت شريعة الإسلام ، بحسن رعاية اليتيم ، وبالمحافظة على حقوقه ، ونهت عن الإساءة إليه ، بأى لون من ألوان الإساءة .

قال - تعالى - : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم .. ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا ﴾[2] .

وقال رسول الله - ﷺ - فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى[3] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يارسول الله وماهن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١٠ .

(٣) من كتاب رياض الصالحين ص ١٣٧ للإمام النووى .

ومن الحكم التى من أجلها أمر الاسلام بالعطف على اليتيم ونهى عن ظلمه ، أنه إنسان ضعيف فقد الأب الحانى ، والعائل والنصير منذ صغره ..

فإذا نشأ فى بيئة ترعاه وتكرمه .. شب محبا لمن حوله ، وللمجتمع الذى يعيش فيه .

وإذا نشأ فى بيئة تقهره وتذله وتظلمه .. نظر إلى من حوله ، وإلى المجتمع الذى يعيش فيه ، نظرة العدو إلى عدوه ..

وكأنه يقول لنفسه : إذا كان الناس لم يحسنوا إلى فى صغرى وفى حالة ضعفى ، فلماذا أحسن اليهم فى حال كبرى وقوتى !! وإذا كانوا قد حرمونى حقى الذى منحه الله لى فلماذا أعطيهم شيئا من خيرى وبرى !! .

هذه بعض الأسباب التى من أجلها أمر الإسلام أتباعه برعاية اليتيم وإكرامه ، وصيانة حقوقه من أى اعتداء أو ظلم .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، أمر بالوفاء بالعهود فقال : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ .

والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كالوصية واليمين . وعهد الله : أوامره ونواهيه وعهد الناس : ما يتعاهدون عليه من معاملات وعقود وغير ذلك مما تقتضيه شئون حياتهم .

أى : وأوفوا بالعهود التى بينكم وبين الله - تعالى - ، والتى بينكم وبين الناس ، بأن تؤدوها كاملة غير منقوصة ، وأن تقوموا بما تقتضيه من حقوق شرعية . وقوله ﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾ تعليل لوجوب الوفاء بالعهد .

أى : كونوا أوفياء بعهودكم لأن صاحب العهد كان مسئولا عنه ، أمام الله - تعالى - وأمام الناس ، فالكلام على حذف مضاف كما فى قوله - سبحانه - ﴿ واسأل القرية ﴾ .

وقال - سبحانه - : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد ...﴾ بالإظهار دون الإضمار للإشعار بكمال العناية بشأن الوفاء بالعهود .

ويجوز أن يكون المعنى : وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، أى : كان مطلوبا بالوفاء به وقد مدح الله - تعالى - الذين يوفون بعهودهم فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء

---

(١) سورة الرعد الآية ١٩ ، ٢٠ .

وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾[1] .

وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بصفة عامة ، أتبع ذلك بالوفاء فى شئون البيع والشراء ، فقال - تعالى - : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ .

والقسطاس : الميزان الذى يوزن به فى حالتى البيع والشراء .

قال صاحب الكشاف : قرئ « بالقسطاس » بكسر القاف وضمها .. قيل : كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها[2] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : و هذا اللفظ رومى معرب .. وقيل : عربى .. وعلى القول بأنه رومى معرب - وهو الصحيح - لايقدح استعماله فى القرآن فى عربيته المذكورة فى قوله - تعالى - : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا ﴾ لأنه بعد التعريب والسماع فى فصيح الكلام ، يصير عربيا ، فلا حاجة إلى إنكار تعريبه ..[3] .

وقوله : ﴿ تأويلا ﴾ من الأول - بفتح الهمزة وسكون الواو - بمعنى الرجوع . يقال : آل هذا الأمر إلى كذا ، إذا رجع إليه .

والمعنى : وأتموا أيها المؤمنون الكيل إذا كلتم لغيركم عند بيعكم لهم ما تريدون بيعه ، وزنوا لهم كذلك بالميزان المستقيم العادل ما تريدون وزنه لهم .

وقيد - سبحانه - الأمر بوجوب إتمام الكيل والميزان فى حالة البيع ، لأنها الحالة التى يكون فيها التطفيف فى العادة ، إذ أن البائع هو الذى غالبا ما يطفف للمشترى فى المكيال والميزان ولا يعطيه حقه كاملا .

قال - تعالى - : ﴿ ويل للمطففين . الذى إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ .

أى : ذلك الذى أمرناكم به . من وجوب إتمام المكيال والميزان عند التعامل ، خير لكم فى الدنيا ، لأنه يرغب الناس فى التعامل معكم ، أما فى الآخرة فهو أحسن عاقبة ومآلا ، لما يترتب عليه من الثواب الجزيل لكم من الله - عز وجل - .

ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات السامية السديدة ، بالنهى عن تتبع مالا علم للإنسان به ، وعن الفخر والتكبر والخيلاء .. فقال - تعالى - :

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٤٨ .

(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٧٢ .

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا ولاتمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة . ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ﴾ .

قال القرطبى - رحمه الله - ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ أى : ولا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك - من قول أو فعل - قال قتادة : لا تقل رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وأنت لم تسمع ، وعلمت وأنت لم تعلم . .

ثم قال : وأصل القَفْو البُهْت ، والقذف بالباطل . ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام - : « نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أُمَّنا ، ولا ننتفى من أبينا » أى : لا نسُبُّ أمنا .

وقال : قفوته أقفوه ... إذا اتبعت أثره . وقافية كل شىء آخره ، ومنه اسم النبى - ﷺ - : المُقَفِّى ، لأنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ، ومنه القائف ، وهو الذى يتبع الأثر ..[1] .

وقال صاحب الكشاف - رحمه الله - : قوله : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ﴾ : يعنى ، ولا تكن فى اتباعك مالا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلكا لايدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمراد : النهى عن أن يقول الرجل مالا يعلم ، وأن يعمل بما لايعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد الأعمى دخولا ظاهرا لأنه اتباع لما لايعلم صحته من فساده ..[2] .

وقوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ تحذير شديد من أن يقول الإنسان قولا لا علم له به ، أو أن يفعل فعلا بدون تحقق ، أو أن يحكم حكما بلا بينة أو دليل .

أى : إن السمع الذى تسمع به - أيها المكلف - ، والبصر الذى تبصر به ، والفؤاد - أى القلب - الذى تحيا به ، كل أولئك الأعضاء ستكون مسئولا عن أفعالها يوم القيامة ، وسيقال لك بتأنيب وتوبيخ : لماذا سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ونظرت إلى ما لا يجوز لك النظر إليه ، وسعيت إلى مالا يصح لك أن تسعى إليه !! .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٥٧ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٤٩ .

وعلى هذا التفسير يكون السؤال فى قوله - تعالى - : ﴿ كان عنه مسئولا ﴾ للانسان الذى تتبع ما ليس له به علم من قول أو فعل .

ومن الآيات التى تشهد لهذا التفسير قوله - تعالى - : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون ﴾[1] .

ومنهم من يرى أن السؤال موجه إلى تلك الأعضاء ، لتنطق بما اجترحه صاحبها ، ولتكون شاهدة عليه ، فيكون المعنى : .

إن السمع والبصر والفؤاد ، كل واحد من أولئك الأعضاء ، كان مسئولا عن فعله ، بأن يقال له : هل استعملك صاحبك فيما خلقت من أجله أوْلا ؟ .

ويكون هذا السؤال للأعضاء من باب التوبيخ لأصحابها ، كما قال - تعالى - : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[2] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾[3] .

واسم الإشارة ﴿ أولئك ﴾ على التفسيرين يعود إلى السمع والبصر والفؤاد ، إما لأن هذا الاسم يشار به إلى العقلاء ويشار به إلى غير العقلاء ، كما فى قول الشاعر:

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

وإما لأن هذه الأعضاء أخذت حكم العقلاء ، لأنها جزء منهم ، وشاهدة عليهم .

وعلى كلا التفسيرين أيضا ، يتمثل التحذير الشديد للإنسان عن أن يتبع ما ليس له به علم .

قال الجمل : وقوله - تعالى - : ﴿ كل أولئك ﴾ مبتدأ ، خبره جملة ﴿ كان عنه مسئولا ﴾ ، والضمير فى « كان » وفى « عنه » وفى « مسئولا » يعود على كل . أى : كان كل واحد منها مسئولا عن نفسه ، يعنى عما فعل به صاحبه : ويجوز أن يكون الضمير فى : « عنه » لصاحب السمع والبصر والفؤاد ..[4] .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩٢ ، ٩٣ .
(٢) سورة يس الآية ٦٥ .
(٣) سورة فصلت الآيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٥ .

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن اتباع ما لا علم للانسان به . قوله - تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[٢] .

قال الإمام ابن كثير : ومضمون ما ذكروه - فى معنى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم .. ﴾ أن الله - تعالى - نهى عن القول بلا علم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم .. ﴾ وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ... » وفى سنن أبى داود : « بئس مطية الرجل زعموا» وفى الحديث الآخر : « إن أفْرَى الفِرَى - أى أكذب الكذب - أن يُرِىَ الرجل عينيه مالم تريا »[٣] .

وقال بعض العلماء : وهذه الكلمات القليلة - التى اشتملت عليها الآية - تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثا جدا ، ويضيف إليه استقامة القلب ، ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة ! .

فالتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة ، قبل الحكم عليها ، هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق . .

فلا يقول اللسان كلمة ، ولا ينقل رواية ، ولا يروى حادثة ، ولا يحكم العقل حكما ، ولا يبرم الإنسان أمرا . إلا وقد تثبت من كل جزئية ، ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة فى صحتها ..[٤] .

ثم ينتقل القرآن الكريم من النهى عن أن يتبع الإنسان مالا علم له به ، إلى النهى عن التفاخر والتكبر والإعجاب فى النفس فيقول : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ... ﴾ .

والمرح فى الأصل : شدة الفرح ، والتوسع فيه ، مع الخيلاء والتعالى على الناس ، يقال : مرح - بزنة فرح - يمرح مرحا ، إذا اشتد فرحه ومشى مشية المتكبرين . وهو مصدر وقع موقع الحال .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٢ .
(٤) من تفسير « فى ظلال القرآن » جـ ١٥ ص ٢٢٢٧ .

أى : ولا تمش - أيها الانسان - فى الأرض مشية الفخور المتكبر المختال بل كن متواضعا متأدبا بأدب الإسلام فى سلوكك .

وتقييد النهى بقوله « فى الأرض » للتذكير بالمبدأ والمعاد ، المانعين من الكبر والخيلاء ، إذ من الأرض خلق وإليها يعود ، ومن كان كذلك كان جديرا به أن يتواضع لا أن يتكبر .

قال - تعالى - : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إنك لن تخرق الأرض ، ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ تعليل للنهى عن التفاخر مع السخرية والتهكم من المتفاخر المغرور .

أى : إنك - أيها الماشى فى الأرض مرحا - لن تخرق الأرض بوطئك عليها ، أو بمشيك فوقها ، ولن تبلغ - مهما ارتفعت قامتك - الجبال فى الطول والعلو . ومادام شأنك كذلك ، فكن متواضعا ، فمن تواضع لله - تعالى - رفعه .

وقوله « طولا » تمييز محول عن الفاعل . أى : لن يبلغ طولك الجبال .

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن التعالى والتطاول ، قوله - تعالى - : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾[2] .

وقد أمر النبى - ﷺ - بالتواضع ، ونهى عن التكبر والغرور ، وبين سوء عاقبة ذلك فى أحاديث كثيرة ، منها مارواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله - تعالى - أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد »[3] .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال :« لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا »[4] .

وروى الترمذى عن سلمة بن الأكوع قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لايزال الرجل يذهب بنفسه - أى يرتفع ويتكبر - حتى يكتب فى الجبارين - فيصيبه ما أصابهم »[5] .

ورحم الله القائل :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا ... فكم تحتها قوم هـو منك أرفع
وإن كنت فى عـز وحِرْزٍ ومَنْعَـة ... فكم مات من قوم هو منك أمنع

---

(١) سورة طه الآية ٥٥ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٨ .

(٣) ، (٤) ، (٥) من كتاب رياض الصالحين ص ٢٨٥ للامام النووى .

ثم ختم - سبحانه - تلك التكاليف التى يغلب عليها طابع النهى عن الرذائل بقوله : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ ذلك ﴾ يعود إلى ماتقدم ذكره من التكاليف والأوامر والنواهى . التى لايتطرق إليها النسخ ، والتى تبلغ خمسة وعشرين تكليفا ، تبدأ بقوله - تعالى - : ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر ﴾ ثم يأتى بعد ذلك النهى عن عقوق الوالدين ، والأمر بصلة الأرحام ، وبالعطف على المسكين وابن السبيل ، ثم النهى عن البخل ، والإسراف ، وقتل الأولاد ، والاقتراب من الزنا ، وقتل النفس إلا بالحق ، والاعتداء على مال اليتيم .. الخ .

والضمير فى ﴿ سيئه ﴾ يعود إلى ما نهى الله عنه من أفعال ، كالشرك ، وعقوق الوالدين ، والزنا . أى : كل ذلك الذى بيناه لك فيما سبق ، كان الفعل السيىء منه ، عند ربك مكروها ، أى : مبغوضا عنده - سبحانه - وأما الفعل الحسن كالوفاء بالعهد ، وإعطاء ذى القربى حقه ، فهو محمود عند ربك - عز وجل - .

قال الآلوسى : ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن أكثره من الكبائر - كالشرك والزنا ... - للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده - تعالى - كافية فى وجوب الكف عن ذلك .

وتوجيه الإشارة إلى الكل ، ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء ، لما قيل : من أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة ، بل على وجه الاختلاط لنكتة اقتضته ، وفيه إشعار بكون ماعداه مرضيا عنده - سبحانه - .

وإنما لم يصرح بذلك ، إيذانا بالغنى عنه ، أو اهتماما بشأن التنفير من النواهى ..[1] .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ كل ذلك كان سيئة ﴾ بالتاء والتنوين .

وعلى هذه القراءة يكون اسم الإشارة ، يعود إلى المنهيات السابقة فقط ، ويكون المعنى : كل ذلك الذى نهيناك عنه فى الآيات السابقة ، من الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، واتباع ما ليس لك به علم .. كان اقترافه سيئة من السيئات المبغوضة عند ربك ، المحرمة فى شرعه ، المعاقب مرتكبها .

ثم ختم - سبحانه - تلك الأحكام المحكمة ، والتكاليف السامية ، بقوله : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٧٦ .

أى : ذلك الذى أمرناك به ، ونهيناك عنه - أيها الرسول الكريم - بعض ما أوحاه الله - تعالى - عليك « من الحكمة » التى هى علم الشرائع ومعرفة الحق ، والعمل به ، وحذار أن تجعل بعد هذا البيان الحكيم ، مع الله - تعالى - إلها آخر - أيها المخاطب - فتلقى وتطرح فى جهنم ، ملوما من نفسك ومن غيرك ، مدحورا أى : مبعدا من رحمة الله - تعالى - .

قال صاحب الكشاف : ولقد جعل الله - تعالى - فاتحتها - أى تلك الآيات المشتملة على تلك الأوامر والنواهى - وخاتمتها ، النهى عن الشرك ، لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذّفيها الحكماء ، وحك بيافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم[1] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة التى اشتملت على بضع وعشرين تكليفا ، والتى ابتدأت بقوله - تعالى - لا تجعل مع الله إلها آخر ... وانتهت بقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تجعل مع الله إلها آخر .. ﴾ قد ربطت قواعد السلوك والآداب : والتكاليف الفردية والاجتماعية ، بإخلاص العبادة لله - تعالى - لأن هذا الإخلاص لله - تعالى - فى العقيدة والعبادة والقول والعمل .. هو رأس كل حكمة وملاكها . كما قال صاحب الكشاف - رحمه الله - .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما ذكر من الأوامر والنواهى فى الآيات السابقة ، التى بدأها وختمها بالنهى عن الإشراك بالله - تعالى - أتبع ذلك بإقامة الأدلة على استحالة أن يكون له شريك أو ولد ، بل كل من فى السموات ومن الأرض ، خاضع لسلطانه ، وما من شىء إلا ويسبح بحمده ، فقال - تعالى - :

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥٠ .

﴿ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ أفأصفاكم .. ﴾ للكافرين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله .

والإصفاء بالشىء : جعله خالصا . يقال : أصفى فلان فلانا بالشىء ، إذا آثره به . ويقال للأشياء التى يختص السلطان بها نفسه : الصوافى . وفعله : صفا يصفو ، وتضمن هنا معنى التخصيص .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتهكم .

والمعنى - كما يقول صاحب الكشاف - أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد ، وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لاترضونهن لأنفسكم ، بل تئدوهن وتقتلونهن !! فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن العبيد لا يُؤْثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات[1] .

والمقصود من الجملة الكريمة نفى مازعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ وجه ، أى : لم يخصكم ربكم بالبنين ، ولم يتخذ من الملائكة إناثا ، لأنه - سبحانه - تنزه عن الشريك والولد والوالد والشبيه .

قال - تعالى - : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[2] .

وقال - تعالى - : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى ﴾[3] .

وقوله - سبحانه - : ﴿إنكم لتقولون قولا عظيما ﴾ تسفيه لأقوالهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة وعقولهم السقيمة .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٥٠ .
(٢) سورة الزمر الآية ٤ .
(٣) سورة النجم الآية ٢١ ، ٢٢ .

أى : إنكم بنسبتكم البنات إلى الله - تعالى - ، لتقولون قولا عظيما فى قبحه وشناعته ، وفى استهجان العقول السليمة له ، وفيما يترتب عليه من عقوبات أليمة من الله - تعالى - لكم .

قال - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن الذى أنزله على نبيه محمد - ﷺ - قد اشتمل على ألوان متعددة من الهدايات والآداب والأحكام ، فقال - تعالى - : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ، وما يزيدهم إلا نفورا ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ صرفنا ﴾ من التصريف وهو فى الأصل صرف الشىء من حالة إلى أخرى ، ومن جهة إلى أخرى .

والمراد به هنا : بينا ، وكررنا ، ومفعوله محذوف للعلم به .

والمعنى : ولقد بينا وكررنا فى هذا القرآن أنواعا من الوعد والوعيد ، والقصص ، والأمثال ، والمواعظ والأخبار ، والآداب والتشريعات ، ليتذكر هؤلاء الضالون ويتعظوا ويعتبروا ، ويوقنوا بأنه من عند الله - تعالى - فيهديهم ذلك إلى اتباع الحق ، والسير فى الطريق القويم .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما يزيدهم إلا نفورا ﴾ تصوير بديع لإصرارهم على كفرهم وعنادهم ، وإيثارهم الغى على الرشد .

والنفور : التباعد والإعراض عن الشىء . يقال : نفرت الدابه تنفر - بكسر الفاء وضمها - نفورا ، إذا جزعت وتباعدت وشردت .

أى : وما يزيدهم هذا البيان والتكرار الذى اشتمل عليه القرآن الكريم ، إلا تباعدا عن الحق ، وإعراضا عنه ، وعكوفا على باطلهم ، بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للرسول - ﷺ - على ما آتاه الله من فضله .

---

(١) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٥ .

وكان بعض الصالحين إذا قرأ هذه الآية قال : زادنى لك خضوعا ، ما زاد أعداءك نفورا .

ثم أمر الله - تعالى - رسول الله - ﷺ - أن يوبخهم على شركهم ، وأن يسوق لهم الدليل الواضح على فساد عقولهم ، فقال - تعالى - : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا﴾ .

وقد قرأ جمهور القراء « كما تقولون » وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « كما يقولون » .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهان ، أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه أن المعنى .

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - إذا لطلبوا إلى ذى العرش - وهو الله عز و جل - طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه ، لكى ينازعوه فى ملكه ، ويقاسموه إياه ، كما هى عادة الشركاء ، وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم .

قال - تعالى - : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾[1] .

وقال سبحانه - : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون ﴾[2] .

وهذا الاتجاه قد صدر به صاحب الكشاف كلامه فقال ما ملخصه : قوله ﴿ إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾ جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو . أى : إذا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالية ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ..[3] .

وأما الإتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - ، إذا لابتغوا - أى الآلهة المزعومة - إلى ذى العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه ، ويعترفوا بفضله ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال - تعالى - : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محظورا ﴾[1] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٥١ .
(١) سورة الإسراء الآية ٥٧ .

وقد اقتصر ابن كثير على هذا الوجه فى تفسيره للآية فقال : يقول - تعالى - : قل يامحمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه ، لو كان الأمر كما تقولون ، من أن معه آلهة تعبد .. لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه يبتغون إليه الوسيلة والقربة .[١] .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن الرأى الأول أظهر ، لأن فى الآية فرض المحال ، وهو وجود الآلهة مع الله - تعالى - ، وافتراض وجودها المحال لا يظهر منه أنها تتقرب إليه - سبحانه - ، بل الذى يظهر منه أنها تنازعه لو كانت موجودة ، ولأن هذا الرأى يناسبه - أيضا - قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ .

أى : تنزه الله - تعالى - عما يقوله المشركون فى شأنه وتباعد ، وعلا علوا كبيرا ، فإنه - جل شأنه - لا ولد له ، فلا شريك له .. .

قال - تعالى - : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

والتعبير بقوله - سبحانه - : ﴿ إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾ يشير إلى الارتفاع والتسامى على تلك الآلهة المزعومة ، وأنها دون عرشه - تعالى - وتحته ، وليست معه . .

ثم بين - سبحانه - أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال - تعالى - : ﴿ تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

والتسبيح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء ، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء ، ومن كل مالا يليق به - سبحانه - .

أى تنزه الله - تعالى - وتمجده السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك ، وما من شىء من مخلوقاته التى لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه - تعالى - ، ولكن أنتم يابنى آدم « لا تفقهون تسبيحهم » لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم ، وفوق مستوى فهمكم ، وإنما الذى يعلم تسبيحهم هو خالقهم عز وجل ، وصدق - سبحانه - إذ يقول : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

والمتدبر فى هذه الآية الكريمة ، يراها تبعث فى النفوس الخشية والرهبة من الخالق - عز وجل - ، لأنها تصرح تصريحا بليغا بأن كل جماد ، وكل حيوان ، وكل طير ، وكل حشرة ..

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٦ .

بل كل كائن فى هذا الوجود يسبح بحمده - تعالى - .

وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله ، وإخلاص العبادة له ، ومداومة ذكره ... حتى لا يكون - وهو الذى كرمه ربه وفضله - أقل من غيره طاعة لله - تعالى - .

وقوله : ﴿ إنه كان حليما غفورا ﴾ تذييل قصد به بيان فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده مع تقصيرهم فى تسبيحه وذكره .

أى : ﴿ إنه كان حليما ﴾ لا يعاجل المقصر بالعقوبة ، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر عن تقصيره ومعصيته ، ﴿ غفورا ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحا واهتدى إلى صراطه المستقيم .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن تسبيح هذه الكائنات بلسان الحال .

قال بعض العلماء تسبيح هذه الكائنات لله - تعالى - هو دلالتها - بإمكانها وحدوثها ، وتغير شئونها ، وبديع صنعها - على وجود مبدعها ، ووحدته وقدرته ، وتنزهه عن لوازم الإمكان والحدوث ، كما يدل الأثر على المؤثر .

فهى دلالة بلسان الحال ، لا يفقهها إلا ذوو البصائر . أما الكافرون فلا يفقهون هذا التسبيح ، لفرط جهلهم وانطماس بصيرتهم ..[1] .

ومنهم من يرى أن تسبيحها بلسان المقال ، أى أن التسبيح بمعناه الحقيقى ، فالكل يسبح بحمد الله ، ولكن بلغته الخاصة التى لا يفهمها الناس .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقوله : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ أى : وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أى : لاتفقهون تسبيحهم - أيها الناس - لأنها بخلاف لغتكم وهذا عام فى الحيوانات والنبات والجماد .

وهذا أشهر القولين كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره ، عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

وفى حديث أبى ذر : أن النبى - ﷺ - أخذ فى يده حصيات ، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل . وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - وهو حديث مشهور فى المسانيد .. .

ثم قال ويشهد لهذا القول آية السجدة فى أول سورة الحج - وهو قوله - تعالى - : ﴿ ألم

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن جـ ١ ص ٤٥٧ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف .

تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب.. ﴾[١] .

وقال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل ، لما أسند اليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله ﴿ ومن فيهن ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن ، ثم عمم بعد ذلك الأشياء كلها فى قوله : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ .

واختلف فى هذا العموم هل هو مخصص أوْلا . فقالت فرقة : ليس مخصوصا ، والمراد به تسبيح الدلالة ، كل محدث يشهد على نفسه بأن الله - عز وجل - خالق قادر .

وقالت طائفة : هذا التسبيح حقيقة ، وكل شىء على العموم يسبح تسبيحا لا يسمعه البشر : ولا يفقهونه ، ولو كان ما قاله الأولون من أنه أثر الصفة والدلالة ، لكان أمرا مفهوما ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفْقَه .

ويستدل لهذا القول من الكتاب بقوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير.. ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ .

ثم قال : فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأى تخصيص لداود ، وإنما ذلك تسبيح المقال ، بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح . وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء فالقول به أولى[٢] .

والذى تطمئن إليه النفس أن التسبيح حقيقى وبلسان المقال ، لأن هذا هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تؤيد ذلك .

وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته ، وأثبت أن كل شىء يسبح بحمده ، أتبع ذلك ببيان أحوال المشركين عند سماعهم للقرآن الكريم ، وببيان ما جعله الله - تعالى - على حواسهم بسبب جحودهم وعنادهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) الآية ١٨ من سورة الحج وراجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٧٦ طبعة دار الشعب .

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٦٦ .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذا قرأت القرآن ... ﴾ للرسول - ﷺ - وقوله ﴿ حجابا ﴾ من الحجب بمعنى المنع .

قال صاحب المصباح : حجبه حجبا - من باب قتل - : منعه . ومنه قيل للستر : حجاب ؛ لأنه يمنع المشاهدة . وقيل للبواب : حاجب ، لأنه يمنع من الدخول . والأصل فى الحجاب : جسم حائل بين جسدين ، وقد استعمل فى المعانى فقيل : العجز حاجب ، أى : بين الإنسان ومراده ..[١] .

وقوله ﴿ مستورا ﴾ ساترا ، فهو من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل . كميمون بمعنى يامن . ومشئوم بمعنى شائم .

واختار بعضهم أن مستورا على معناه الظاهر ، من كونه اسم مفعول ، لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه ، أو مستورا به القارىء فلا يراه غيره ، ويجوز أن يكون مستورا ، أى : ذا ستر فهو للنسب كمكان مهول : ذو هول ..

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية أقوال ، أشهرها قولان :

أولهما يرى أصحابه ، أن المراد بالحجاب المستور : ما حجب الله به قلوب هؤلاء الكافرين

---

(١) المصباح المنير جـ ١٢١ للشيخ الفيومى .

عن الانتفاع بهدى القرآن الكريم ، بسبب جحودهم وجهلهم وإصرارهم على كفرهم . فهو حجاب معنوى خفى ، حال بينهم وبين الانتفاع بالقرآن .

فهم يستمعون إليه ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم عن التأثر به ، فكان استماعهم له كعدمه ، وعاقبهم الله على ذلك بأن طمس بصائرهم عن فقهه .

والمعنى : وإذا قرأت - أيها الرسول الكريم - القرآن الهادى إلى الطريق التى هى أقوم ، جعلنا - بقدرتنا ، ومشيئتنا - ، بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، حجابا يحجبهم ويمنعهم عن إدراك أسراره وهداياته ، وساترا بينك وبينهم ، بحيث لا يصل القرآن إلى قلوبهم وصول انتفاع وهداية .

ويشهد لهذا المعنى قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ﴾[1] .

ومن المفسرين الذين اكتفوا بهذا القول ، فلم يذكروا غيره ، الإمام البيضاوى ، فقد قال - رحمه الله : قوله : وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم ﴿ مستورا ﴾ ذا ستر : كقوله - تعالى - : ﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾ أى مستورا عن الحس ..[2] .

أما القول الثانى فيرى أصحابه : أن المراد بالحجاب المستور ، أن الله - تعالى - يحجب نبيه - ﷺ - عن أعين المشركين ، بحيث لا يرونه فى أوقات معينة ، لحكم منها : النجاة من شرورهم .

فيكون المعنى : وإذا قرأت القرآن - أيها الرسول الكريم - جعلنا بينك وبين هؤلاء الكافرين ، حجابا ساترا لك عنهم بحيث لا يرونك ، عندما تكون المصلحة فى ذلك .

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت سورة ﴿ تبت يد أبى لهب ﴾ جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفى يدها فِهْر - أى حجر - وهى تقول : مُذمَّما أتينا ، وأَمَره عصينا ، ودينه قَلَيْنا : ورسول الله - ﷺ - جالس ، وأبو بكر إلى جنبه .

فقال أبو بكر : يارسول الله ، لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك ، فقال - ﷺ - : « إنها

---

(١) سورة فصلت الآية ٥ .
(٢) تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٥٨٧ .

لن ترانى » وقرأ قرآنا اعتصم به منها ، ومما قرأه - : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا﴾ .

فجاءت حتى قامت على أبى بكر ، فلم تر النبى - ﷺ - ، فقالت : يا أبا بكر ، بلغنى أن صاحبك هجانى : فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك .

فانصرفت وهى تقول : لقد علمت قريش أنى بنت سيدها[١] .

ومن المفسرين الذين استظهروا هذا القول ، الإمام القرطبى ، فقد قال بعد أن ذكر ماروى عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - : وقال سعيد بن جبير : لما نزلت سورة ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ جاءت امرأة أبى لهب إلى النبى - ﷺ - ومعه أبو بكر ، فقال أبو بكر لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك فإنها امرأة بَذِيَّة .

فقال - ﷺ - : « إنه سيحال بينى وبينها » فلم تره . فقالت لأبى بكر : يا أبا بكر هجانا صاحبك .

فقال أبو بكر : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر : يارسول الله ، أما رأتك ؟ .

قال : لا . مازال ملك بينى وبينها يسترنى حتى ذهبت .

ثم قال القرطبى : وقيل : الحجاب المستور ، طَبْعٌ الله على قلوبهم حتى لايفقهوه : ولايدركوا ما فيه من الحكمة . قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك ، وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيتهم لك ، حتى كأن على قلوبهم أغطية.. .

ثم قال : والقول الأول أظهر فى الآية[٢] .

ويبدو لنا أن كلا القولين صحيح فى ذاته ، وأن كل واحد منهما يحكى حالات معينة ، ويشهد لذلك ما نقله الجمل فى حاشيته على الجلالين عن شيخه فقد قال - رحمه الله - . قوله : ﴿ حجابا مستورا ﴾ ، أى : ساترا لك عنهم فلا يرونك وهذا بالنسبة لبعضهم ، كان يحجب بصره عن رؤية النبى - ﷺ - إذا أراده بمكروه وهو يقرأ القرآن : وبعضهم كان يحجب قلبه عن إدراك معانى القرآن .. وبعضهم كان ينفر عند قراءة القرآن ..[٣] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٨٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٦٩ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٢٦٨ ه بتصرف وتلخيص - .

فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ يؤكد أن المشركين كانوا طوائف متعددة بالنسبة لموقفهم من القرآن الكريم ، ومن النبى - ﷺ - .

أى : وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ أكنة أن يفقهوه ﴾ أى : أغطية تسترها وتمنعها من فقه القرآن الكريم ، وفهمه فهما سليما .

وجعلنا - أيضا - : ﴿ فى آذانهم وقرا ﴾ أى : صمما وثقلا عظيما يمنعهم من سماعه سماعا ينفعهم .

وقوله : - سبحانه - : ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة .

أى : وإذا ذكرت أيها الرسول الكريم - ربك فى القرآن وحده ، دون أن تذكر معه آلهتهم المزعومة انفضوا من حولك ورجعوا على أعقابهم نافرين شاردين ﴿ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ﴾ .

وبذلك ترى أن هاتين الآيتين قد صورتا قبائح المشركين المتنوعة أبلغ تصوير ، لتزيد فى فضيحتهم وجهلهم ، ولتجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه . وأنه - تعالى - سيجازى هؤلاء الكافرين بما يستحقون من عقاب ، فقال - عز وجل - : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به . إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ .

والباء فى قوله - سبحانه - : ﴿ بما يستمعون ﴾ متعلقة بأعلم ، ومفعول ﴿ يستمعون ﴾ محذوف ، تقديره ، القرآن .

قال الآلوسى : قوله : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به ﴾ أى : متلبسين به من اللغو والاستخفاف ، والاستهزاء بك وبالقرآن . يروى أنه - ﷺ - كان يقوم عن يمينه رجلان من بنى عبد الدار ، وعن يساره رجلان منهم ، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار - إذا قرأ القرآن - .

ويجوز أن تكون الباء للسببية أو بمعنى اللام . أى : نحن أعلم بما يستمعون بسببه أو لأجله من الهزء ، وهم متعلقة بيستمعون .. وأفعل التفضيل فى العلم والجهل يتعدى بالباء ، وفى سوى ذلك يتعدى باللام ، فيقال : هو أكسى للفقراء ، والمراد من كونه - سبحانه - أعلم بذلك : الوعيد لهم ..[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٨٩ .

وإذ فى قوله ﴿ إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ﴾ ظرف لأعلم .

ولفظ ﴿ نجوى ﴾ مصدر بمعنى التناجى والمسارة فى الحديث . وقد جعلوا عين النجوى على سبيل المبالغة ، كما فى قولهم : قوم عدل .

ويجوز أن يكون جمع نَجِىٍّ ، كقتلى جمع قتيل أى : وإذ هم متناجون فى أمرك .

والمعنى : نحن - أيها الرسول الكريم - على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن الكريم . حين تتلوه عليهم ، وبالطريقة التى يستمعون بها وبالغرض الذى من أجله يستمعون إليك . وعلى علم تام بأحوالهم حين يستمعون إليك فرادى : وحين يستمعون إليك ثم يتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ، والتواصى بمعصيتك .

فالجملة الكريمة وعيد شديد للمشركين على استماعهم المصحوب بالاستهزاء والسخرية من الرسول - ﷺ - ومن القرآن . وتسلية له - ﷺ - عما أصابه منهم ، وبيان لشمول علم الله - تعالى - لكل أحوالهم الظاهرة والخفية .

وقوله - تعالى - : ﴿ إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ بدل من قوله - تعالى - : ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ .

والمسحور . هو الذى سحر فاختلط عقله ، وزالت عنه الهيئة السوية .

أى : ونحن أعلم بهؤلاء الأشقياء - أيضا - عندما يقول بعضهم لبعض : لاتتبعوا محمدا - ﷺ - فيما يدعو إليه ، فإنكم إن اتبعتموه تكونون قد اتبعتم رجلا مسحورا ، أصابه السحر فأخرجه عن وعيه وعقله .

وقال - سبحانه - : ﴿ إذ يقول الظالمون ﴾ بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الظلم عليهم فيما تفوهوا به ، وأنهم سيستحقون عقوبة الظالم .

وقوله - تعالى - : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ تسلية عظيمة للرسول - ﷺ - ، وتثبيت له وللمؤمنين على الطريق الحق الذى هداهم الله - تعالى - إليه .

أى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - كيف أن هؤلاء المشركين . قد بلغ بهم الجحود والفجور ، أنهم مثلوا لك الأمثال ، فوصفوك تارة بأنك مسحور ، وتارة بأنك شاعر .

وهم فى وصفهم هذا ، قد ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا ، وصاروا كالحيران الذى التبست عليه الطرق ، فأمسى لا يعرف السبيل الذى يسلكه .

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمة الله - عند تفسيره لهذه الآيات ، ما يدل على أن

المشركين كانوا يستمعون إلى الرسول - ﷺ - عند قراءته للقرآن .

فقال : قال محمد بن إسحاق فى السيرة : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، أنه حُدِّث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق .. خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - ﷺ - وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعتهم الطريق ، تلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة التالية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعتهم الطريق ، قال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه . فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد - ﷺ - ؟ فقال أبو سفيان : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ولا ما يراد بها .

فقال الأخنس : وأنا والذى حلفت به ، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل . فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد - ﷺ - ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسَىْ رهان قالوا : منّا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه[1] .

ثم حكى - سبحانه - أقوالهم الباطلة ، فى شأن البعث والحساب يوم القيامة ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٨١ طبعة دار الشعب - القاهرة .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا فى الإلهيات ، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، ذكر فى هذه الآية شبهات القوم فى إنكار المعاد والبعث والقيامة ..[1] .

والرفات : ما تكسر وبَلِىَ من كل شىء كالفتات . يقال : رفت فلان الشىء يرفته - بكسر الفاء وضمها - ، إذا كسره وجعله يشبه التراب .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ﴿ أئذا كنا ... ﴾ وفى قوله ﴿ أئنا لمبعوثون .. ﴾ للاستبعاد والإنكار .

أى : وقال الكافرون المنكرون لوحدانية الله - تعالى - ، ولنبوة النبى - ﷺ - ، وللبعث والحساب ، قالوا للنبى - ﷺ - على سبيل الإنكار والاستبعاد ، أئذا كنا يا محمد ، عظاما بالية ، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته ودقته ، أئنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى ، بحيث تعود إلينا أرواحنا ، وتدب الحياة فينا ثانية ، ونبعث على هيئة خلق جديد ، غير الذى كنا عليه فى الدنيا ؟ .

وقولهم هذا ، يدل على جهلهم المطبق ، بقدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء ، وكرر - سبحانه - الاستفهام فى الآية الكريمة ، للإشعار بإيغالهم فى الجحود والإنكار .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ ص ٢٢٤ .

والعامل فى ﴿ إذا ﴾ محذوف ، والتقدير : أنبعث أو أنحشر إذا كنا عظاما ورفاتا ، وقد دل على هذا المحذوف قوله - تعالى - : ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ﴾ أمر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بالرد عليهم فيما استبعدوه وأنكروه من إعادتهم الى الحياة بعد موتهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الرد على استبعادهم ، والتحقير من شأنهم ، والتعجيز لهم : « كونوا » - إن استطعتم - ﴿ حجارة ﴾ كالتى تعبدونها من دون الله ، ﴿ أو حديدا ﴾ كالذى تستعملونه فى شئون حياتكم ، ﴿ أو ﴾ كونوا ﴿ خلقا ﴾ أى : مخلوقا سوى الحجارة والحديد ﴿ مما يكبر ﴾ أى : يعظم ويستبعد - ﴿ فى صدوركم ﴾ المظلمة - قبوله للحياة ، قل لهم : كونوا أى شىء من ذلك أو غيره إن استطعتم ، فإن الله - تعالى - لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لكى يحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من عقاب .

فالمقصود من الجملة الكريمة ، بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شىء . .

قال الجمل : أجابهم الله - تعالى - بما معناه : تحولوا بعد الموت إلى أى صفة تزعمون أنها أشد منافاة للحياة ، وأبعد عن قبولها ، كصفة الحجرية والحديدية ونحوهما . فليس المراد الأمر ، بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله - تعالى - عن الإعادة[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ أى : فسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدا أو غيرهما ؟ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل الذى فطركم أول مرة ﴾ رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب .

أى : قل لهم : الله - تعالى - الذى فطركم وخلقكم ، أول مرة ، على غير مثال سابق ، قادر على أن يعيدكم الى الحياة مرة أخرى . كما قال - تعالى - : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يكون منهم من استهزاء وسوء أدب عندما يسمعون من الرسول - ﷺ - هذه الإجابات السديدة ، فقال : ﴿ فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ... ﴾

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٩ .
(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

أى : فسيحركون إليك رءوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ، ويقولون على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب : متى هو ؟ أى ما ذكرته من الإعادة بعد الموت ، أو متى هو ذلك اليوم الذى سنعود فيه إلى الحياة بعد أن نصير عظاما ورفاتا .

فالجملة الكريمة تصور تصويرا بليغا ما جبلوا عليه من تكذيب بيوم القيامة ومن استهزاء بمن يذكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب . ومن استبعاد لحصوله كما قال - تعالى - : حكاية عنهم فى آية أخرى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قل عسى أن يكون قريبا ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد لهم .

أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التأنيب والوعيد : عسى هذا اليوم الذى تستبعدون حصوله ، يكون قريبا جدا وقوعه .

ولاشك فى أنه قريب ، لأن عسى فى كلام الله - تعالى - لما هو محقق الوقوع ، وكل ما هو محقق الوقوع فهو قريب ، ولأن الرسول -ﷺ- قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » - وأشار بالسبابة والوسطى .

ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يُدْعَوْن فى هذا اليوم الهائل الشديد فقال : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ... ﴾ .

والظرف ﴿ يوم ﴾ منصوب بفعل مضمر أى : اذكروا يوم يدعوكم .. ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من ﴿ قريبا ﴾ .

والداعى لهم هو « إسرافيل » - عليه السلام - عندما يأذن الله - تعالى - له بالنفخ فى الصور ، كما قال - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[١] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾[٢] .

وقوله ﴿ بحمده ﴾ حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار ، والباء للملابسة .

أى : اذكروا - أيها المكذبون - يوم يدعوكم الداعى إلى البعث والنشور فتلبون نداءه

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .

(٢) سورة القمر . الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

بسرعة وانقياد ، حال كونكم حامدين الله - تعالى - على كمال قدرته ، وناسين ما كنتم تزعمون فى الدنيا من أنه لا بعث ولا حساب .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ بحمده ﴾ حال منهم . أى : حامدين ، وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث ، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع ، ستركبه وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتقسر قسرا . حتى أنك تلين لين المسمح - أى الذليل - الراغب فيه ، الحامد عليه .

وعن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك[1] .

وقوله : ﴿ فتستجيبون ﴾ بمعنى تجيبون ، إلا أن الاستجابة تقتضى طلب الموافقة ، فهى أوكد من الإجابة ، وأسرع فى التلبية .

وجملة « وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » حالية ، أى : والحال أنك تظنون عند بعثكم أنكم ما لبثتم فى الدنيا أو فى قبوركم إلا زمنا قليلا .

قال قتادة : إن الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلّت ، حين رأوا يوم القيامة ، لهول ما يرون فقالوا هذه المقالة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ .. كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[4] .

ثم ترك القرآن الكريم أولئك الذين كفروا بالبعث والنشور فى طغيانهم يعمهون ، ووجه خطابه إلى المؤمنين ، آمرا إياهم بأن يقولوا الكلمة الطيبة ، ومبينا لهم ولغيرهم ، أن مصائرهم بيد الله - تعالى - وحده ، فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٢ .
(٢) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .
(٣) سورة يس الآيات ٥١ ، ٥٢ .
(٤) سورة النازعات الآية ٤٦ .

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

قال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ... ﴾ الآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبه عمر وهَمَّ بقتله ، فكادت تثير فتنة ، فأنزل الله فيه : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾ .

وقيل : نزلت لما قال المسلمون : ائذن لنا يارسول الله فى قتال المشركين ، فقد طال إيذاؤهم لنا فقال : « لم أومر بعد بالقتال »[1] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين ، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم ، الكلمة التى هى أحسن ، والعبارة التى هى أرق وألطف .

وذلك لأن الكلمة الطيبة ، تزيد فى المودة التى بين المؤمنين ، وتكسر حدة العداوة التى بينهم وبين أعدائهم .

قال - تعالى - : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[2] .

قال الآلوسى : ومقول فعل الأمر محذوف ، أى : قل لهم قولوا التى هى أحسن يقولوا ذلك . فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر . وإلى هذا ذهب الأخفش .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٧٦ .
(٢) سورة فصلت الآية ٣٤ .

وقال الزجاج : إن قوله ﴿ يقولوا ﴾ هو المقول ، وجزمه بلام الأمر محذوفة ، أى : قل لهم ليقولوا ...[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ تعليل للأمر السابق .

أى : إن الشيطان يتربص بكم ، ويتلمس السقطات التى تقع من أفواهكم ، والعثرات التى تنطق بها ألسنتكم ، لكى يشيع الشر بينكم ، ويبذر بذور الشر والبغضاء فى صفوفكم ، ويهيج أعداءكم عليكم .

وينزغ بمعنى يفسد . يقال : نزغه - كنفعه - ينزغه ، إذا طعن فيه واغتابه ، وقوله : ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ تعليل لحرص الشيطان على الإفساد بينهم .

أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس ، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله - سبحانه - من الشيطان وكيده فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[٣] .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله - ﷺ - أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته .. وعداوته ظاهرة بينة ، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده . أى : فربما أصابه بها .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لايشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى أحدكم ، لعل الشيطان أن ينزغ فى يده ، فيقع فى حفرة من النار»[٤] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٩٤ .
(٢) سورة فاطر . الآية ٦ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٧ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٥ .

ثم بين - سبحانه - أن مصير جميع الخلائق إليه ، وأنه محيط بأحوالهم فقال . ﴿ ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم ﴾ ...

أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بكم من أنفسكم ، وهو - سبحانه - إن يشأ بفضله يرحمكم ، بأن يوفقكم لطاعته وتقواه ، وإن يشأ بعدله يعذبكم ، بسبب معاصيكم وفسوقكم عن أمره ، لا يسأل - عز وجل - عما يفعل ، ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ بيان لوظيفة الرسول - ﷺ - .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتكون حفيظا ورقيبا . وموكولا إليك أمرهم فى إجبارهم وإكراههم على الدخول فى الإسلام ، وإنما أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

ثم انتقل - سبحانه - من بيان كمال علمه بأحوال الناس ، إلى بيان كمال علمه بجميع من فى السموات والأرض ، فقال - تعالى - : ﴿ وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ﴾ .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - أعلم بأحوال من فى السموات والأرض من إنس وجن وملك ، وغير ذلك ، ولا يخفى عليه شىء من ظواهرهم أو بواطنهم ، ولا يعزب عن علمه - تعالى - شىء من طاعتهم أو معصيتهم ، ولا يعلم أحد سواه من هو أهل منهم للتشرف بحمل رسالته ، وتبليغ وحيه كما قال : - تعالى - : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾ بيان لمظهر من مظاهر علمه المطلق ، وفضله العميم : وعطائه الواسع .

والزبور : هو الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على داود - عليه السلام .

أى : ولقد فضلنا - على علم وحكمة منا - بعض النبيين على بعض ، بأن جعلنا منهم من كلم الله ، ومنهم من اتخذناه خليلا لنا ، ومنهم من آتيناه البينات وأيدناه بروح القدس ، ومنهم من آتيناه الزبور وهو داود - عليه السلام - .

قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ... ﴾ لا ينافى ماثبت من الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تفضلوا بين الأنبياء » فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية ، لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل الدليل على شىء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل عن بقية الأنبياء ، وأن أولى العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون

نصا فى قوله - تعالى - : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .. ﴾ .

ولا خلاف فى أن محمدا - ﷺ - أفضلهم ..[1] .

وإنما خص كتاب داود بالذكر ، لأن اليهود زعموا أنه لانبى بعد موسى ، ولا كتاب بعد التوراة ، فكذبهم الله - تعالى - فى ذلك ، ولأن فى هذا الإيتاء إشارة إلى أن تفضيل داود لم يكن بسبب ما أعطاه الله من ملك ، بل بسبب ما أعطاه من كتاب فيه إشارة إلى تفضيل الرسول - ﷺ - وأمته ، قال - تعالى - : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[2] .

والمراد بالعباد الصالحين : محمد - ﷺ - وأمته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا عرف الزبور ، كما عرف فى قوله: ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور ...﴾؟ .

قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور ، كالعباس وعباس ، والفضل وفضل . ويجوز أن يريد : وآتينا داود بعض الزبر - وهى الكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله - ﷺ - من الزبور ، فسمى ذلك زبورا ، لأنه بعضها كما سمى بعض القرآن قرآنا[3] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يتحدى المشركين ، بأن يبين لهم : أن آلهتهم المزعومة لا تملك دفع الضر عنهم ، أو جلب الخير لهم ، بل إن هذه الآلهة لتخاف عذاب الله ، وترجو رحمته ، فقال - سبحانه - :

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٦ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٥ .
(٣) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٣ .

أورد المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها :

قال ابن كثير : قال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ... ﴾ .

قال : كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا .

وروى البخارى وغيره عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء - أى الإنس - بدينهم .. فنزلت هذه الآية[1] .

وقال القرطبى : لما ابتليت قريش بالقَحْط ، وشكَوْا إلى رسول الله - ﷺ - ، أنزل الله هذه الآية : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه... ﴾[2] .

والمراد بالزعم هنا : الظن الكاذب الذى لا أساس له من الحقيقة والواقع .

قال الآلوسى ما ملخصه : والزعم قريب من الظن ، ويقال إنه القول المشكوك فيه ، ويستعمل بمعنى الكذب ، حتى قال ابن عباس : كل ما ورد فى القرآن زعم فهو كذب .

وقد يطلق على القول المحقق ، والصدق الذى لا شك فيه ... فقد ورد عن النبى - ﷺ - أنه قال : « زعم جبريل كذا ... » .

وهو مما يتعدى إلى مفعولين ، وقد حذفا هنا ، أى : زعمتموهم آلهة .. والظاهر أن المراد من الموصول - الذين - كل من عبد من دون الله من العقلاء »[3] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة . قل لهم على سبيل الإرشاد والتحدى : هذه الآلهة التى تعبدونها ، اطلبوا منها أن تدفع عنكم ما نزل بكم من ضر كمرض أو فقر أو قحط ؛ أو أن تحوله منكم إلى غيركم ...

فإذا لم تستطع ذلك - وهى بكل تأكيد لا تستطيع ولن تستطيع - فاتركوا عبادتها ، وأخلصوا العبادة والطاعة لمن هو على كل شىء قدير ، وهو الله - عز وجل - .

واكتفى - سبحانه - بذكر كشف الضر ، لأنه هو الذى تتطلع إليه النفوس عند نزول

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٦ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٧٩ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص ٩٧ .

المصائب ، أكثر من تطلعها إلى جلب النفع ، إذ عند نزول الضر ، لا تشتغل الألسنة والقلوب إلا برجاء كشفه .

ثم بين - سبحانه - أن كل معبود - سوى الله - عز وجل - يفتقر إلى عونه - سبحانه - ، وإلى رجاء الثواب منه ، وإلى دفع العذاب عنه ، فقال - تعالى - ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه .. ﴾ واسم الإشارة ﴿ أولئك ﴾ يعود على المعبودين من دون الله ، وهو مبتدأ ، وخبره . قوله : ﴿ يبتغون ﴾ وما عطف عليه من قوله : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ .

والضمير فى ﴿ يدعون ﴾ يعود إلى المشركين ، وفى يبتغون يعود إلى المعبودين و ﴿ أيهم ﴾ بدل من واو الفاعل فى يبتغون ، و ﴿ أقرب ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : هو ، أى : يبتغيها الذى هو أقرب ، والجملة صلة أى .

والوسيلة : ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من الأعمال الصالحة .

والمعنى : أولئك المعبودون الذين يزعم المشركون أنهم آلهة . ويسمونهم أربابا ، وينادونهم لكشف الضر عنهم ، هؤلاء المعبودون ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ .

أى : يتقربون إلى خالقهم ومالك أمرهم بصالح الأعمال ، ويبتغى أكثرهم صلاحًا وطاعة لله - تعالى - الرضا منه - عز وجل - .

وإذا كان هذا شأن أكثرهم قربًا فكيف يكون حال من هو أقل منه ؟ لا شك أنه يكون أشد طلبًا لرضا الله - تعالى - وعفوه ، وأشد حرصًا على طاعته .

وقوله - تعالى - ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ زيادة بيان لشدة حرص هؤلاء المعبودين على طاعة الله - تعالى -

أى : وهم فوق ذلك يرجون رحمة الله - تعالى - وفضله ، بأن يحشرهم مع الأبرار ، ويخشون عذابه ونقمته ، ويتضرعون إليه أن يجنبهم عذاب النار ، وبالرجاء والخشية يحيى الصالحون الأخيار ، إذ الرجاء يدفع المؤمن إلى الإكثار من العمل الصالح ، والخشية تمنعه من الوقوع فى المعاصى .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن عذاب ربك كان محذورًا ﴾ تذييل قصد به التعليل لما قبله وهو خوف العذاب .

أى : إن عذاب ربك كان جديرًا وقمينا بأن يحذره ، ويحترز منه كل عاقل .

وقدم - سبحانه - الرجاء على الخوف ، لأن متعلقه أسبق ، ولأنه بجانب الله - تعالى - أظهر ، ففى الحديث القدسى : « إن رحمتى سبقت غضبى » .

هذا ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير ﴾[1] .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد قررتا بأسلوب منطقى بليغ ، أن الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء ، وأنه وحده هو المتصرف فى شئون عباده ، وأن كل مخلوق سواه - سبحانه - محتاج إلى عونه وعفوه ورضاه ، وأن الذين زعمهم المشركون آلهة كعيسى وعزير والملائكة ... ما هم إلا من عباد الله الذين يبتغون إليه الوسيلة ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ، وبين جانبًا من مظاهر فضله على هذه الأمة ونبيها - ﷺ - . فقال - تعالى - :

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٢ .

والمقصود بالقرية فى قوله - تعالى - : ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابًا شديدًا ﴾ : قرى الكفار والظالمين ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، فيكون المعنى :

وما من قرية من قرى الظالمين ، إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة بالموت أو الخراب ، أو معذبوها عذابًا شديدًا ، يستأصل شأفتها ، ويقطع دابرها ، كما فعلنا مع قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم .

ومن المفسرين الذين ساروا على ذلك ، الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : هذا إخبار من الله - عز وجل - ، بأنه قد حتم وقضى ، بما كتب عنده فى اللوح المحفوظ ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها ؛ بأن يبيد أهلها جميعهم ، أو يعذبهم عذابًا شديدًا ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال - تعالى - عن الأمم الماضية : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾[1] .

ويرى آخرون ، أن المقصود بالقرية هنا : القرى كلها سواء أكانت للمؤمنين أم للكافرين .

ومن المفسرين الذين ذهبوا إلى ذلك الآلوسى - رحمه الله - فقد قال : قوله - تعالى - : ﴿ وإن من قرية ﴾ الظاهر العموم ، لأن ﴿ إن ﴾ نافية ، و ﴿ من ﴾ زائدة لاستغراق الجنس . أى : وما من قرية من القرى . ﴿ إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة ﴾ بإماتة أهلها حتف أنوفهم ﴿ أو معذبوها عذابًا شديدًا ﴾ بالقتل وأنواع البلاء .. وروى عن مقاتل أنه قال : الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة ... »[2] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن هناك آيات كثيرة تؤيده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وماكنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[3] . وقوله - سبحانه - : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾[4] . وقوله - عز وجل - : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[5] ، ولأن الله - تعالى - قيد الإهلاك بكونه قبل يوم القيامة ، وكونه كذلك يقتضى أنه للقرى الظالمة . إذ الإهلاك يوم القيامة يشمل جميع القرى ، سواء أكان أهلها مؤمنين أم كافرين ، بسبب انقضاء عمر الدنيا .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٧ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٠ .
(٣) سورة القصص الآية ٥٩ .
(٤) سورة الأنعام الآية ١٣١ .
(٥) سورة هود الآية ١١٧ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورًا ﴾ تأكيد لقضاء الله النافذ، وحكمه الثابت.

أى : ﴿ كان ذلك ﴾ الإهلاك والتعذيب، فى الكتاب، وهو اللوح المحفوظ ﴿ مسطورًا ﴾ أى : مكتوبًا وثابتًا.

قال القرطبى : ﴿ مسطورًا ﴾ أى : مكتوبًا. والسطر : الخط والكتابة، وهو فى الأصل مصدر. والسطر - بالتحريك - مثله، وجمعه أسطار، مثل سبب وأسباب، وجمع السطر - بسكون الطاء - أسطر وسطور مثل أفلس وفلوس. والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ »[1].

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الأمة الإسلامية، ورحمته بها، فقال - تعالى - : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... ﴾.

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية آثارًا منها ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سأل أهل مكة رسول الله - ﷺ - أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا. فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا. فإن كفروا، هلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم.

فقال - ﷺ - : « لا .. بل استأنى بهم »، وأنزل الله قوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... ﴾[2].

قال الآلوسى : والمنع لغة : كف الغير وقسره عن فعل يريد أن يفعله، ولاستحالة ذلك فى حقه - تعالى - لاستلزامه العجز المحال المنافى للربوبية قالوا : إنه مستعار هنا للصرف والترك ... »[3].

وقوله : ﴿ أن نرسل ﴾ فى محل نصب لأنه مفعول ثان لمنعنا، أو فى محل جر، على حذف الجار، أى : من أن نرسل، وقوله : ﴿ إلا أن كذب بها ﴾ فى محل رفع لأنه فاعل منعنا، والتقدير : وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين.

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٨٠.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٧.
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٣.

والمراد بالآيات : ما اقترحه المشركون على النبى - ﷺ - من قلب الصفا ذهبا ، ومن إزاحة الجبال عن مكة ليزرعوا مكانها ...

والمعنى : وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التى طلبها المشركون منك - أيها الرسول الكريم - إلا علمنا بأنهم سيكذبون بها إذا جاءتهم ، كما كذب بأمثالها أشباههم الأولون ، وفى هذه الحالة فإنهم سيستحقون مثلهم عذاب الاستئصال كما جرت بذلك سنتنا .

وقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا - بأمتك أيها الرسول الكريم - ، ألا نعذبهم عذاب الاستئصال والمحو ، بل نؤخر عذاب الضالين منهم إلى يوم القيامة .

قالوا : ومن الحكم فى هذا التأخير : الإظهار لمزيد شرف النبى - ﷺ - ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ ، والرعاية لشأن من سيولد من بعضهم من المؤمنين ، ولمن سيؤمن من هؤلاء المقترحين ، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

قال صاحب الكشاف : استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة ... والمراد : الآيات التى اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ، ومن إحياء الموتى ، وغير ذلك .

وعادة الله فى الأمم ، أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها . ثم لم يؤمن ، أن يعاجل بعذاب الاستئصال . فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم ، كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك ، وقالوا : هذا سحر مبين ، كما يقولون فى غيرها . واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة »[1] .

ثم ساق - سبحانه - مثالاً للسابقين الذين أجيبوا إلى ما اقترحوه ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فأخذهم عذاب الاستئصال ، فقال - تعالى - : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ .

وثمود : هم قوم صالح - عليه السلام - ، وخصهم بالذكر ، لأنهم معروفون لأهل مكة أكثر من غيرهم ، لمرورهم على ديارهم عند أسفارهم إلى بلاد الشام .

والناقة المراد بها : ناقة صالح - عليه السلام - التى طلبها قومه منه ، فأخرجها الله - تعالى - لهم لتكون معجزة له ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، بل عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم الله - تعالى - بالصيحة التى جعلتهم فى دارهم جاثمين .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٤ .

وقوله ﴿ مبصرة ﴾ أى : معجزة واضحة ، يراها الناس بأعينهم بدون خفاء أو لبس ..

قال الجمل : ﴿ مبصرة ﴾ بكسر الصاد - باتفاق السبعة ، والإسناد مجازى . أى : يبصرونها خارجة من الصخرة . وقرىء شاذا بفتح الصاد . ثم قال : وفى السمين : مبصرة حال . وهو إسناد مجازى ، إذ المراد إبصار أهلها ، ولكنها لما كانت سببا فى الإبصار نسب إليها ، والظاهر أن المراد الإبصار المعنوى ، وهو الاهتداء بها ، والتوصل بها ، إلى تصديق نبيهم ، وعلى هذا تظهر السببية ، فإن وجودها سبب فى هذا المعنى ... »[1] .

وقال الآلوسى : وقوله : ﴿ مبصرة ﴾ على صيغة اسم الفاعل حال من الناقة ، والمراد : ذات إبصار ، أو ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها ، فالصيغة للنسب .... »[2] .

والمعنى : لقد تركنا إجابة المطالب التى اقترحها قومك - يا محمد - ، رحمة بهم ، لأننا لو أعطيناهم إياهم ثم استمروا فى تكذيبهم لك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين . فقد أجبنا قوم صالح - عليه السلام - إلى ما طلبوه من نبيهم ، بأن أخرجنا لهم الناقة ، وجعلناها معجزة واضحة نيرة فى الدلالة على صدقه ، فقابلوها بالتكذيب والجحود ، وظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها .

قال - تعالى - : ﴿ فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾[3] .

وقال - سبحانه - : ﴿ كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها ﴾[4] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا ﴾ تذييل قصد به الزجر عن تكذيب ما يأتى به الأنبياء من هدايات ومعجزات تدل على صدقهم .

والباء فى قوله ﴿ بالآيات ﴾ للملابسة ، ومفعول ، نرسل ، محذوف ، و ﴿ تخويفًا ﴾ مفعول لأجله .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٤ .
(٣) سورة الأعراف الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .
(٤) سورة الشمس الآيات ١١ - ١٥ .

قال القرطبى قوله : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأول : العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل ، من دلائل الإنذار تخويفًا للمكذبين . الثانى : أنها آيات الانتقام تخويفًا من المعاصى . الثالث : أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك . الرابع : القرآن ، الخامس : الموت الذريع »[1] .

والمعنى : وما نرسل رسلنا ملتبسين بالآيات والمعجزات الدالة على صدقهم ، إلا تخويفًا لأقوامهم من سوء تكذيبهم لها . فإنهم إن كذبوها يصيبهم من العذاب ما يصيبهم .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد النبى - ﷺ - ثباتًا على ثباته ، ويقينًا على يقينه ، وما يدل على شمول علمه - تعالى - ونفاذ قدرته ، وبليغ حكمته فقال : ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... ﴾ .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلنا لك على لسان وحينا . إن ربك - عز وجل - قد أحاط بالناس علمًا وقدرة . فهم فى قبضته ، وتحت تصرفه ، وقد عصمك منهم ، فامض فى طريقك . وبلغ رسالة ربك ، دون أن تخشى من كفار مكة أو من غيرهم ، عدوانًا على حياتك ، فقد عصمك - سبحانه - منهم .

وفى هذه الجملة ما فيها من التسلية للنبى - ﷺ - ، ومن التبشير له ولأصحابه ، بأن العاقبة ستكون لهم ، ومن الحض لهم على المضى فى طريقهم دون أن يخشوا أحدًا إلا الله .

والمراد بالرؤيا فى قوله - تعالى - : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ : ما رآه النبى - ﷺ - وعاينه بعينيه من عجائب ، ليلة الإسراء والمعراج .

أى : وما جعلنا ما رأيته وعاينته ليلة إسرائنا بك من غرائب ، إلا فتنة للناس . ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وسليم القلب من مريضه .

وأطلق - سبحانه - على ما أراه لنبيه ليلة الإسراء لفظ الرؤيا مع أنه كان يقظة « لأن هذا اللفظ يطلق حقيقة على رؤيا المنام ، وعلى رؤية اليقظة ليلًا فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا ، كما فى قول الشاعر يصف صائدا : وكبر للرؤيا وهش فؤاده .. أى : وسر لرؤيته للصيد الذى سيصيده . أو أطلق عليه لفظ الرؤيا على سبيل التشبيه بالرؤيا المنامية ، نظرًا لما رآه فى

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٨١ .

تلك الليلة من عجائب سماوية وأرضية ، أو أطلق عليه ذلك بسبب أن ما رآه قد كان ليلاً . وقد كان فى سرعته كأنه رؤيا منامية .

وكان ما رآه - ﷺ - فى تلك الليلة فتنة للناس ، لأنه لما قص عليهم ما رآه ، ارتد بعضهم عن الإسلام ، وتردد البعض الآخر فى قبوله ، وضاقت عقولهم عن تصديقه ، زاعمة أنه لا يمكن أن يذهب - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم يعرج إلى السموات العلا .. ثم يعود إلى مكة ، كل ذلك فى ليلة واحدة .

وبعضهم يرى أن المراد بالرؤيا هنا : ما رآه النبى - ﷺ - من أنه سيدخل مكة هو وأصحابه ..

وبعضهم يرى أن المراد بها هنا : ما أراه الله - تعالى - لنبيه فى منامه ، من مصارع المشركين قبل غزوة بدر ؛ فقد قال - ﷺ - قبل بدء المعركة : والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . ثم أومأ إلى الأرض وقال : هذا مصرع فلان . وهذا مصرع فلان .

والذى نرجحه هو الرأى الأول ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه على الرأيين الثانى والثالث يترجح أن الآية مدنية ، لأن غزوة بدر وفتح مكة كانا بعد الهجرة ، والتحقيق أن هذه الآية مكية .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس .. ﴾ لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ، ضم إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن ابن عباس فى قوله - تعالى - : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال : هى رؤيا عين أريها النبى - ﷺ - ليلة أسرى به إلى بيت المقدس ...

وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى - ﷺ - أنه أسرى به .

وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها .

وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية ، رؤيا رسول الله - ﷺ - أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية - فرده المشركون عن دخولها فى تلك السنة - ، فافتتن بعض المسلمين لذلك ، فنزلت هذه الآية .. وفى هذا التأويل ضعف . لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة ... »[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٨٢ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ معطوف على الرؤيا .
أى : وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس .

والمراد بالشجرة الملعونة هنا : شجرة الزقوم ، المذكورة فى قوله - تعالى - : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾[1] .

والمراد بلعنها : لعن الآكلين منها وهم المشركون ، أو هى ملعونة لأنها تخرج فى أصل الجحيم . أو هى ملعونة لأن طعامها مؤذ وضار ، والعرب تقول لكل طعام ضار : إنه ملعون .

قال الآلوسى : وروى فى جعلها فتنة لهم : أنه لما نزل فى شأنها فى سورة الصافات وغيرها ما نزل ، قال أبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر . وما نعرف الزقوم إلا بالتمر والزبد ، ثم أمر جارية له فأحضرت تمرًا وزبدًا ، وقال لأصحابه : تزقموا .

وافتتن بهذه الآية أيضًا بعض الضعفاء ، ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدًا ...[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا ﴾ تذييل قصد به بيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جحود ، وقسوة قلب ...

أى : ونخوف هؤلاء المشركين بعذاب الدنيا ، وبعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم التى طلعها كأنه رءوس الشياطين ... فما يزيدهم هذا التخويف والتهديد إلا طغيانًا متجاوزًا فى ضخامته وكبره كل حِد ، وكل عقل سليم .

وعبر - سبحانه - بصيغة المضارع الدالة على الاستقبال ، مع أن تخويفهم وازدياد طغيانهم قد وقعا ، للإشعار بالتجدد والاستمرار .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، ومن فضله على هذه الأمة ، ومن تبشيره وإنذاره ، ووعده ووعيده ، ما يزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم ، وما يصرف الطاغين عن طغيانهم لو كانوا يعقلون .

---

(١) سورة الصافات الآيات ٦١ - ٦٥ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٠٦ .

ثم ساق - سبحانه - جانبًا من قصة آدم وإبليس ، لزيادة التسلية للرسول - ﷺ - وللإشعار بأن الحسد والغرور ، كما منعا إبليس من السجود لآدم ، فقد منعا مشركى مكة من الإيمان بالنبى - ﷺ - فقال - تعالى - :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... ﴾ تذكير لبنى آدم بما جرى بين أبيهم وبين إبليس ، ليعتبروا ويتعظوا ، ويستمروا على عداوتهم لإبليس وجنده .

أى : واذكروا - يابنى آدم - وقت أن قلنا للملائكة ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ سجود تحية وتكريم ، فسجدوا امتثالاً لأمر الله - تعالى - ، بدون تردد أو تلعثم ، ﴿ إلا إبليس ﴾ فإنه أبى السجود لآدم - عليه السلام - ﴿ وقال ﴾ بتكبر وعصيان لأمر ربه - عز وجل - : ﴿ أأسجد ﴾ وأنا المخلوق من نار ﴿ لمن خلقت طينًا ﴾ أى : أأسجد لمن خلقته من طين ، مع أننى أفضل منه .

والتعبير بقوله ﴿ فسجدوا ﴾ بفاء التعقيب ، يفيد أن سجودهم - عليهم السلام - كان فى

أعقاب أمر الله - تعالى - لهم مباشرة ، بدون تأخير أو تسويف .

وقوله - تعالى - : ﴿ قال أأسجد ... ﴾ استئناف بيانى ، فكأنه قيل : فماذا كان موقف إبليس من هذا الأمر ؟ فكان الجواب أن إبليس فسق عن أمر ربه وقال ما قال .

والاستفهام فى ﴿ أأسجد ﴾ للإنكار والتعجب ، لأن يرى - لعنه الله - أنه أفضل من آدم .

وقوله : ﴿ طينا ﴾ منصوب بنزع الخافض أى : من طين .

وقد جاء التصريح بإباء إبليس عن السجود لآدم ، بأساليب متنوعة ، وفى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾[2] .

ثم فصل - سبحانه - ما قاله إبليس فى اعتراضه على السجود لآدم فقال : ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ .

ورأى هنا علمية فتتعدى إلى مفعولين ، أولهما ﴿ هذا ﴾ والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه ، والكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التاء قبله ، والاسم الموصول ﴿ الذى ﴾ بدل من ﴿ هذا ﴾ أو صفة له ، والمراد من التكريم فى قوله ﴿ كرمت على ﴾ : التفضيل .

والمعنى : قال إبليس فى الرد على خالقه - عز وجل - : أخبرنى عن هذا الإنسان المخلوق من الطين ، والذى فضلته على ، لماذا فضلته على وأمرتنى بالسجود له مع أننى أفضل منه ، لأنه مخلوق من طين ، وأنا مخلوق من نار !!

وجملة هذا الذى كرمت على ، واقعة موقع المفعول الثانى .

ومقصود إبليس من هذا الاستفهام ، التهوين من شأن آدم - عليه السلام - والتقليل من منزلته . ولم يجبه - سبحانه - على سؤاله ، تحقيراً له . وإهمالاً لشخصه ، بسبب اعتراضه على أمر خالقه - عز وجل - .

ثم أكد إبليس كلامه فقال : ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ .

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٤ .

(٢) سورة الحجر الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

إذ أن اللام فى قوله ﴿ لئن ... ﴾ موطئة للقسم ، وجوابه لأحتنكن .

وأصل الاحتناك : الاستيلاء على الشىء ؛ أو الاستئصال له . يقال : حنك فلان الدابة يحتنكها - بكسر النون ورفعها - إذا وضع فى حنكها - أى فى ذقنها - الرسن ليقودها به . ويقال : احتنك الجراد الأرض ، إذا أكل نباتها وأتى عليه .

والمعنى : قال إبليس - متوعدًا ومهددًا - : لئن أخرتن - يا إلهى - إلى يوم القيامة ، لأستولين على ذرية آدم ، ولأقودنهم إلى ما أشاء من المعاصى والشهوات ، إلا عددًا قليلاً منهم فإنى لا أستطيع ذلك بالنسبة لهم ، لقوة إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وهذا الذى ذكره - سبحانه - عن إبليس فى هذه الآية من قوله : ﴿ لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ شبيه به قوله - تعالى - : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم : ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[2] .

قال بعض العلماء : وقول إبليس فى هذه الآية : ﴿ لأحتنكن ذريته ... ﴾ قاله ظنا منه أنه سيقع . وقد تحقق له هذا الظن - فى كثير من بنى آدم - كما قال - تعالى - ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين ﴾[3] .

وقوله - تعالى - ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ بيان لما توعد الله - سبحانه - به إبليس وأتباعه .

والأمر فى قوله ﴿ اذهب ﴾ للإهانة والتحقير . أى : قال الله - تعالى - لإبليس ﴿ اذهب ﴾ مطرودًا ملعونًا ، وقد أخرناك إلى يوم القيامة ، فافعل ما بدالك مع بنى آدم ، فمن أطاعك منهم ، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم ، جزاء مكملا متمما لا نقص فيه .

وقال - سبحانه - ﴿ فإن جهنم جزاؤكم ﴾ مع أنه قد تقدم غائب ومخاطب فى قوله ﴿ فمن تبعك منهم ﴾ ، تغليبًا لجانب المخاطب - وهو إبليس - على جانب الغائب وهم أتباعه . لأنه هو السبب فى إغواء هؤلاء الأتباع .

وقوله : ﴿ جزاء ﴾ مفعول مطلق ، منصوب بالمصدر قبله .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧ .
(٢) سورة ص الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) سورة سبأ الآية ٢٠ .

وقوله ﴿ موفورا ﴾ اسم مفعول ، من قولهم وفر الشيء فهو وافر وموفور أى : مكمل متمم . وهو صفة لقوله : ﴿ جزاء ﴾ .

وهذا الوعيد الذى توعد الله - تعالى - به إبليس وأتباعه ، جاء ما يشبهه فى آيات كثيرة ، منها قوله - سبحانه - : ﴿ قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ .

ثم أضاف - سبحانه - إلى إهانته وتحقيره لإبليس أوامر أخرى ، فقال - تعالى - : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ .

قال الجمل : أمر الله - تعالى - إبليس بأوامر خمسة ، القصد بها : التهديد والاستدراج ، لا التكليف ، لأنها كلها معاص ، والله لا يأمر بها[1] .

وهذه الأوامر الخمسة هى : اذهب ، واستفزز ... وأجلب ... وشاركهم ... وعدهم .

وقوله : واستفزز ، من الاستفزاز ، بمعنى الاستخفاف والإزعاج ، يقال : استفز فلان فلانا إذا استخف به ، وخدعه ، وأوقعه فيما أراده منه . ويقال : فلان استفزه الخوف ، إذا أزعجه .

وقوله : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ أصل الإجلاب : الصياح بصوت مسموع . يقال : أجلب فلان على فرسه وجلب عليه ، إذا صاح به ليستحثه على السرعة فى المشى .

قال الآلوسى : قوله ﴿ وأجلب عليهم ﴾ أى : صح عليهم من الجلَبة وهى الصياح . قاله الفراء وأبو عبيدة . وقال الزجاج : أجلب على العدو : جمع عليه الخيل . وقال ابن السكيت : جلب عليه : أعان عليه . وقال ابن الأعرابى : أجلب على الرجل ، إذا توعده الشر ، وجمع عليه الجمع .

والخيل : يطلق على الأفراس حقيقة ولا واحد له من لفظه ، وعلى الفرسان مجازا ، وهو المراد هنا .

ومنه قول الرسول - ﷺ - فى بعض غزواته لأصحابه : « يا خيل الله اركبى » . والرجل - بكسر الجيم - بمعنى راجل - كحذر بمعنى حاذر - هو الذى يمشى رجلاً ، أى غير راكب ... »[2] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١١١ .

والمعنى . قال الله - تعالى - لإبليس : اذهب أيها اللعين مذءوما مدحورًا . فإن جهنم هى الجزاء المعد لك ولأتباعك من ذرية آدم ، وافعل ماشئت معهم من الاستفزاز والخداع والإزعاج ولهو الحديث وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكايد ، وما تقدر عليه من وسائل ، كأن تناديهم بصوتك ووسوستك إلى المعاصى ، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم وإغوائهم وصدهم عن الطريق المستقيم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته ، وإجلابه بخيله ورجله ؟

قلت : هو كلام وارد مورد التمثيل شبهت حاله فى تسلطه على من يغويه ، بمغوار أوقع على قوم ، فصوت بهم صوتًا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده ، من خيالة ورجالة حتى استأصلهم ، وقيل : بصوته ، أى : بدعائه إلى الشر ، وبخيله ، ورجله : أى كل راكب وماش من أهل العبث . وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال »[1] .

وعلى أية حال ، فالجملة الكريمة تصوير بديع ، لعداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنه معهم فى معركة دائمة ، يستعمل فيها كل وسائل شروره ، ليشغلهم عن طاعة ربهم ، وليصرفهم عن الصراط المستقيم ، ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى شىء من أغراضه الفاسدة ، ماداموا معتصمين بدين ربهم - عز وجل - .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ﴾ ، معطوف على ما قبله .

أى : وشاركهم فى الأموال ، بأن تحضهم على جمعها من الطرق الحرام ، وعلى إنفاقها فى غير الوجوه التى شرعها الله ، كأن يستعملوها فى الربا والرشوة وغير ذلك من المعاملات المحرمة .

وشاركهم فى الأولاد : بأن تحثهم على أن ينشئوهم تنشئة تخالف تعاليم دينهم الحنيف وبأن تيسر لهم الوقوع فى الزنا الذى يترتب عليه ضياع الأنساب ، وبأن تظاهرهم على أن يسموا أولادهم بأسماء يبغضها الله - عز وجل - ، إلى غير ذلك من وساوسك التى تغرى الآباء بأن يربوا أبناءهم تربية يألفون معها الشرور والآثام ، والفسوق والعصيان .

قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق عددًا من الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال بالصواب أن

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٨ .

يقال : كل مولود ولدته أنثى ، عصى الله فيه ، بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه ، من ولد ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله : ﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد ﴾ معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصى الله فيه أو به ، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة ... »[1] .

وقد علق الإمام ابن كثير على كلام ابن جرير بقوله : وهذا الذى قاله - ابن جرير - متجه ، فقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - قال : « يقول الله - عز وجل - إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .

وفى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدًا »[2] .

وقوله : ﴿ وعدهم ﴾ أى : وعدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة . كأن تعدهم بأن الدنيا هى منتهى آمالهم . فعليهم أن يتمتعوا بها كيف شاءوا ، بدون تقيد بشرع أو دين أو خلق . وكأن تعدهم بأنه ليس بعد الموت حساب أو ثواب أو عقاب ، أو جنة أو نار ...

وقوله سبحانه ﴿ وما يعدهم الشيطان الا غرورا ﴾ تحذير من الله تعالى لعباده من اتباع الشيطان ، ومن السير وراء خطواته .

وأصل الغرور تزين الباطل بما يوهم أنه حق . يقال : غر فلان فلانا فهو يغُره غرورًا إذا خدعه ، وأصله من الغُرّ ، وهو الأثر الظاهر من الشىء ، ومنه غرة الفرس لأنها أبرز ما فيه . ولفظ ﴿ غرورا ﴾ صفة لموصوف محذوف .

والتقدير : وعدهم - أيها الشيطان - بما شئت من الوعود الكاذبة ، وما يعد الشيطان بنى آدم إلا وعدا غرورا .

ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله فيكون المعنى : وما يعدهم الشيطان إلا من أجل الغرور والمخادعة .

وفى الجملة الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إهمالاً لشأن الشيطان ، وبيانًا لحاله مع بنى آدم ؛ حتى يحترسوا منه ويحذروه .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٠ .

ثم ختم - سبحانه - الآيات بغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين الصادقين ، فقال - تعالى - : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ .

أى : إن عبادى الصالحين الذين أخلصوا دينهم لى ، ليس لك - يا إبليس - تسلط واقتدار على إغوائهم وإضلالهم ، وصرفهم عن السبيل الحق إلى السبيل الباطل .

قال - تعالى - : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾[١] .

وقال - سبحانه - ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[٢] .

والإضافة فى قوله ﴿ إن عبادى ... ﴾ للتشريف والتكريم حيث خصهم - سبحانه - بهذا اللون من الرعاية والحماية .

وقوله ﴿ وكفى بربك وكيلا ﴾ أى : وكفى بربك وكيلا يتوكلون عليه ، ويفوضون إليه أمورهم ، ويعتصمون به لكى يقيهم وساوس الشيطان ونزغاته .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ وكفى بربك وكيلا ﴾ أى : حافظًا ومؤيدًا ونصيرًا .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول - ﷺ - قال : « إن المؤمن لَيُنْضِى شيطانه - أى ليقهره - كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر »[٣] .

وقال الجمل فى حاشيته : وهذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله . وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلال ، لأنه لو كان الإقدام على الحق ، والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه ، لوجب أن يقال : وكفى بالإنسان نفسه فى الاحتراز عن الشيطان . فلما لم يقل ذلك ، بل قال : وكفى بربك وكيلًا . علمنا أن الكل من الله . ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعته إلا بقوته .[٤] .

وبعد أن بين - سبحانه - لبنى آدم ما يبيته إبليس من عداوة وبغضاء ، أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه - تعالى - عليهم فى البر والبحر وفى السراء والضراء فقال - عز وجل - :

---

(١) سورة النحل الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .
(٢) سورة الحجر الآية ٤٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٠ .
(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٢٥ .

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ... ﴾ بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، وفضله عليهم .

و ﴿ يزجى ﴾ من الإزجاء ، وهو السوق شيئًا فشيئًا . يقال أزجى فلان الإبل ، إذا ساقها برفق ، وأزجت الريح السحاب ، أى : ساقته سوقًا رفيقًا ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ... ﴾ .

و ﴿ الفلك ﴾ ما عظم من السفن . قال الجمل ما ملخصه : ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث . قال - تعالى - : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ فأفرد وذكر . وقال - سبحانه - : ﴿ والفلك التى تجرى فى البحر ﴾ ، فأنث ، ويحتمل الإفراد والجمع . قال - تعالى - : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ... ﴾ فجمع ...[1] .

و ﴿ البحر ﴾ يطلق على الماء الكثير عذبًا كان أو ملحًا . وأكثر ما يكون إطلاقًا على الماء الملح .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٦ .

أى : اذكروا – أيها الناس – لتعتبروا وتشكروا ربكم الذى من مظاهر نعمته عليكم ، أنه يسوق لكم – بلطفه وقدرته – السفن التى تركبونها فى البحر لكى تطلبوا من وراء ركوبها الرزق الذى يصلح معاشكم ، والذى هو لون من ألوان فضل الله عليكم .

وقوله : لتبتغوا من فضله ، تعليل لإزجاء الفلك ، وتصريح بوجوه النفع التى تفضل الله – تعالى – بها عليهم .

وقوله : ﴿ إنه كان بكم رحيمًا ﴾ تعليل ثان لهذا الإزجاء .

أى : يزجى لكم الفلك فى البحر ، لتطلبوا من وراء ذلك ما ينفعكم ، ولأنه – سبحانه – كان أزلا وأبدا ، بكم دائم الرحمة والرأفة .

ثم انتقل – سبحانه – من الحديث عن مظاهر نعمه عليهم ، فى حال سوق السفن ودفعها بهم فى البحر برفق وأناة ، إلى بيان رعايته لهم فى حال اضطرابها وتعرضها للغرق ، بسبب هيجان البحر وارتفاع أمواجه ، فقال – تعالى – : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ... ﴾ .

والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة ، والمراد به هنا : ما يعتريهم من خوف وفزع ، وهم يرون سفينتهم توشك على الغرق .

والمراد بالضر هنا : اضطراب الفلك ، وارتفاع الأمواج ، واشتداد العواصف ، وتعرضهم للموت من كل مكان .

المعنى : وإذا أحاطت بكم الأمواج من كل جانب وأنتم على ظهور سفنكم وأوشكتم على الغرق .. ذهب وغاب عن خواطركم وأذهانكم ، كل معبود سوى الله – عز وجل – لكى ينقذكم مما أنتم فيه من بلاء ، بل إياه وحده – سبحانه – تدعون ليكشف عنكم ما نزل بكم من سوء .

فالجملة الكريمة تصوير مؤثر بديع لبيان أن الإنسان عند الشدائد والمحن لا يتجه بدعائه وضراعته إلا إلى الله – تعالى – وحده .

قال القرطبى : ﴿ ضل ﴾ معناه : تَلِف وفُقد وهى عبارة عن تحقير لمن يدعى إلهًا من دون الله . والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلًا ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علمًا لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد ،

فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل »[١] .

وقال الإمام ابن كثير : يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ أى : ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله - تعالى - كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل ، لما ذهب فارا من رسول الله - ﷺ - حين فتح مكة ، فذهب هاربًا فركب فى البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده .

فقال عكرمة فى نفسه : والله إن كان لا ينفع فى البحر غيره ، فإنه لا ينفع فى البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه ، لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد - ﷺ - فلأجدنه رءوفًا رحيمًا . فخرجوا من البحر ، فرجع إلى الرسول - ﷺ - فأسلم وحسن إسلامه - رضى الله عنه »[٢] .

وقوله - تعالى - : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورًا ﴾ بيان لطبيعة الإنسان إلا من عصم الله .

أى : فلما نجاكم الله - تعالى - بلطفه وإحسانه : من الغرق ، وأوصلكم سالمين إلى البر ، أعرضتم عن طاعته ، وتركتم دعاءه والضراعة إليه ، وكان الإنسان الفاسق عن أمر ربه ، ﴿ كفورا ﴾ أى : كثير الكفران والجحود لنعم ربه - عز وجل - .

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾ كالتعليل للإعراض ، ويعلم منه حكم أولئك المخاطبين ، وفيه لطافة حيث أعرض - سبحانه - عن خطابهم بخصوصهم ، وذكر أن جنس الإنسان مجبول على الكفران ، فلما أعرضوا أعرض الله - تعالى - عنهم »[٣] .

وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[٤] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٩١ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٠ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١١٦ .
(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٥ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين . فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شيء ، لا فى البحر ولا فى البر ولا فى غيرهما فقال : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ والهمزة فى قوله ﴿ أفأمنتم ﴾ للاستفهام الإنكارى ، والفاء عاطفة على محذوف ، والتقدير : أنجوتم فأمنتم .

وقوله ﴿ يخسف ﴾ من الخسف وهو انهيار الأرض بالشيء ، وتغييبه فى باطنها و ﴿ جانب البر ﴾ ناحية ارض ، وسماه - سبحانه - جانبًا ، لأن البحر يمثل جانبا من الأرض ، والبر يمثل جانبًا آخر .

والحاصب : الريح الشديدة ، التى ترمى بالحصباء ، وهى الحجارة الصغيرة . يقال . حصب فلان فلانا ، إذا رماه بالحصباء .

والمعنى : أنجوتم من الغرق - أيها الناس - ففرحتم وأمنتم ونسيتم أن الله - تعالى - إذا كان قد أنجاكم من الغرق ، فهو قادر على أن يخسف بكم جانب الأرض ، وقادر كذلك على أت يرسل عليكم ريحًا شديدة ترميكم بالحصباء التى تهلككم ؛ ثم لا تجدوا لكم وكيلًا تكلون إليه أموركم ، ونصيرًا ينصركم ويحفظكم من عذاب الله - تعالى - .

إن كنتم قد أمنتم عذاب الله بعد نجاتكم من الغرق ، فأنتم جاهلون ، لأن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها أن تأخذكم أخذ عزيز مقتدر سواء أكنتم فى البحر أو فى البر أو فى غيرهما ، إذ جميع جوانب هذا الكون فى قبضة الله - تعالى - وتحت سيطرته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت فما معنى ذكر الجانب ؟ قلت : معناه ، أن الجوانب والجهات كلها فى قدرته سواء ، وله فى كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة ، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك ، بل إن كان الغرق فى جانب البحر ، ففى جانب البر ما هو مثله وهو الخسف ، لأنه تغييب تحت التراب ، كما أن الغرق تغييب تحت الماء فالبر والبحر عنده سيان ، يقدر فى البر على نحو ما يقدر عليه فى البحر ، فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله فى جميع الجوانب وحيث كان »[2] .

ثم ساق - سبحانه - مثالًا آخر للدلالة على شمول قدرته ، فقال - تعالى - :

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٢ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٧٩ .

﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفًا من الريح ، فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ .

و ﴿ أم ﴾ هنا يجوز أن تكون متصلة ؛ بمعنى : أى الأمرين حاصل . ويجوز أن تكون منقطعة بمعنى : بل .

والقاصف من الريح : هو الريح العاتية الشديدة التى تقصف وتحطم كل ما مرت به من أشجار وغيرها . يقال : قصف فلان الشىء ، إذا كسره .

والتبيع : فعيل بمعنى فاعل ، وهو المطالب غيره بحق سواء أكان هذا الحق دينا أو ثأرًا أو غيرهما ، مع مداومته على هذا الطلب .

والمعنى : بل أأمنتم - أيها الناس - ﴿ أن يعيدكم ﴾ الله - تعالى - ﴿ فيه ﴾ أى : فى البحر ، لسبب من الأسباب التى تحملكم على العودة إليه مرة أخرى ﴿ فيرسل عليكم ﴾ - سبحانه - وأنتم فى البحر ﴿ قاصفًا من الريح ﴾ العاتية الشديدة التى تحطم سفنكم ﴿ فيغرقكم ﴾ بسبب كفركم وجحودكم لنعمه ، ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا ﴾ أى : إننا من السهل علينا أن نفعل معكم ذلك وأكثر منه ، ثم لا تجدوا لكم أحدًا ينصركم علينا ، أو يطالبنا بحق لكم علينا ، فنحن لا نسأل عما نفعل ، وأنتم المسئولون .

فالاستفهام هنا - أيضًا - للإنكار والتوبيخ .

وقال - سبحانه - ﴿ أن يعيدكم فيه ﴾ ولم يقل أن يعيدكم إليه ، للإشعار باستقرارهم فيه ، وأنه - تعالى - لا يعجزه أن يفعل ذلك .

والتعبير بقوله ﴿ قاصفا من الريح ﴾ فيه من الترهيب والإنذار ما فيه لأن لفظ القصف يدل بمعناه اللغوى على التحطيم والتكسير .

وقال - سبحانه - ﴿ بما كفرتم ﴾ لبيان أن الله - تعالى - ما ظلمهم بإهلاكهم ، وإنما هم الذين عرضوا أنفسهم لذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن طاعته - سبحانه - .

والضمير فى ﴿ به ﴾ يعود إلى الإهلاك بالإغراق المفهوم من قوله ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أى : لا تجدون تبيعًا يتبعنا بثأركم بسبب ذلك الإغراق الذى أوقعناه بكم .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد ساقت ألوانًا من نعم الله - تعالى - على الناس ، وحذرتهم من جحود هذه النعم ، حتى لا يتعرضوا لعذاب الله ، الذى قد ينزل بهم وهم فى البحر أو فى البر أو فى غيرهما .

ثم ذكر - سبحانه - تكريمه لبنى آدم ، وتفضيلهم على كثير من مخلوقاته ، وأحوالهم فى الآخرة ، فقال - تعالى - :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

قال الآلوسى : قوله : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ... ﴾ أى : جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ، ذوى كرم ، أى : شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر .. »[1] .

ومن مظاهر تكريم الله - تعالى - لبنى آدم ، أنه خلقهم فى أحسن تقويم ، كما قال - تعالى - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

وأنه ميزهم بالعقل والنطق والاستعدادات المتعددة ، التى جعلتهم أهلًا لحمل الأمانة ، كما قال - سبحانه - : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ... ﴾[2] .

وأنه سخر الكثير من مخلوقاته لمنفعتهم ومصلحتهم ، قال - تعالى - : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم

(١) تفسير الالوسى جـ ١٥ ص ١١٧ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٧٢ .

الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[١] .

وأنه سجل هذا التكريم فى القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكفاهم بذلك شرفا وفخرا .

وقوله - تعالى - ﴿ وحملناهم فى البر والبحر ﴾ بيان لنوع من أنواع هذا التكريم . أى : وحملناهم بقدرتنا ورعايتنا فى البر على الدواب وغير ذلك من وسائل الانتقال كالقطارات والسيارات وغيرها ، وحملناهم فى البحر على السفن وعابرات البحار التى تنقلهم من مكان إلى آخر .

وقوله : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ بيان لنوع آخر من أنواع التكريم . أى : ورزقناهم بفضلنا وإحساننا من طيبات المطاعم والمشارب والملابس ، التى يستلذونها ، ولا يستغنون عنها فى حياتهم .

وقوله : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ بيان لنوع ثالث من أنواع التكريم ، أى : وبسبب هذا التكريم فضلناهم على كثير من مخلوقاتنا التى لا تحصى ، تفضيلاً عظيًما .

وعلى هذا التفسير يكون التفضيل لونًا من ألوان التكريم الذى منحه الله - تعالى - لبنى آدم .

وبعضهم يرى أن هناك فرقًا بين التكريم والتفضيل ، ومن هذا البعض الإمام الفخر الرازى ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : لقد قال الله - تعالى - فى أول الآية ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ وقال فى آخرها ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ . ولابد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار .

والأقرب أن يقال : إنه - تعالى - فضل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خِلْقية طبيعية ذاتية ، مثل : العقل ، والنطق ، والصورة الحسنة .. ثم إنه - تعالى - عرضه بواسطة ذلك لاكتساب العقائد الحقة ، والأخلاق الفاضلة فالأول : هو التكريم ، والثانى : هو التفضيل »[٢] .

وكأن الفخر الرازى يرى أن التكريم يرجع إلى الصفات الخلقية التى امتاز بها بنو آدم ، أما التفضيل فيرجع إلى ما اكتسبوه من عقائد سليمة ، وأخلاق قويمة .

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢١ .

هذا ، وقد أخذ صاحب الكشاف من هذه الجملة وهى قوله - تعالى - : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ أن الملائكة أفضل من البشر ، لأنهم - أى الملائكة - هم المقصودون بالقليل الذى لم يفضل عليه بنو آدم .

قال - رحمه الله - : قوله : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا ... ﴾ هو ما سوى الملائكة وحسب بنى آدم تفضيلاً ، أن ترفع عليهم الملائكة - وهم هم - ، ومنزلتهم عند الله منزلتهم ... »[١] .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالتفضيل هنا : تفضيل الجنس ، ولا يلزم منه تفضيل كل فرد على كل فرد .

قال الجمل ما ملخصه : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ المراد تفضيل جنس البشر على أجناس غيره كالملائكة ، ولا يلزم من تفضيل جنس البشر على جنس الملك تفضيل الأفراد ، إذ الملائكة فى جملتهم أفضل من البشر غير الأنبياء . وصلحاء البشر - كالصديق - أفضل من عوام الملائكة ، أى : غير الرؤساء منهم ، على المعتمد من طريقة التفضيل »[٢] .

والذى تطمئن إليه النفس فى هذه المسألة - والله أعلم - : أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أفضل من الملائكة جميعًا ، لأن الله - تعالى - قد أمر الملائكة بالسجود لآدم الذى جعله خليفة له فى أرضه ، دون غيره من الملائكة ...

وأن الرسل من الملائكة - كجبريل وإسرافيل وعزرائيل وميكائيل - أفضل من عموم البشر - سوى الأنبياء - ، لأن هؤلاء الرسل قد اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لوظائف معينة ، قال - تعالى - ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ .

وأن صلحاء البشر - كالعشرة المبشرين بالجنة - أفضل من عامة الملائكة ، لأن الملائكة ليست فيهم شهوة تدفعهم إلى مخالفة ما أمر الله به ... أما بنو آدم فقد ركب الله - تعالى - فيهم شهوة داعية إلى ارتكاب المعصية ، ومقاومة هذه الشهوات جهاد يؤدى إلى رفع الدرجات ...

ومن العلماء الذين بسطوا القول فى هذه المسألة الإمام الفخر الرازى ، فليرجع إليه من شاء[٣] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٨١ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٨ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢١ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ شروع فى بيان تفاوت أحوال بنى آدم فى الآخرة ، بعد بيان حالهم فى الدنيا .

ولفظ ﴿ يوم ﴾ منصوب بفعل محذوف ، أى : واذكر يوم ندعو كل أناس بإمامهم . والمراد بإمامهم هنا : كتاب أعمالهم .

وقد اختار هذا القول الإمام ابن كثير ورجحه فقال : يخبر الله - تعالى - عن يوم القيامة ، أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، وقد اختلفوا فى ذلك . فقال مجاهد وقتادة أى : بنبيهم ، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ﴾ ...

وقال ابن زيد : بإمامهم أى بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير ...

وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ أى : بكتاب أعمالهم ...

وهذا القول هو الأرجح لقوله - تعالى - : ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ ، وقال - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ ..

ويحتمل أن المراد بإمامهم : أن كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم فى الكفر ...

وفى الصحيحين : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ... » الحديث ...

ثم قال - رحمه الله - ولكن المراد ههنا بالإمام ، هو كتاب الأعمال[1] .

والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - يوم ندعو كل أناس من بنى آدم الذين كرمناهم وفضلناهم على كثير من خلقنا ، بكتاب أعمالهم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الذين أخلصوا دينهم لله فقال - تعالى - : ﴿ فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلا ﴾ .

أى : فمن أوتى من بنى آدم يوم القيامة ، كتابه بيمينه ، بأن ثقلت موازين حسناته على سيئاته ، فأولئك السعداء يقرءون كتابهم بسرور وابتهاج ، ولا ينقصون من أجورهم قدر

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٢ .

فتيل ، وهو الخيط المستطيل فى شق النواة ، وبه يضرب المثل فى الشىء القليل و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ فمن أوتى ﴾ يجوز أن تكون شرطية ، وأن تكون موصولة ، ودخلت الفاء فى الخبر وهو « فأولئك » لشبهه بالشرط .

وجاء التعبير فى قوله ﴿ أوتى كتابه بيمينه ﴾ بالإفراد ، حملا على لفظ من ، وجاء التعبير بالجمع فى ﴿ أولئك ﴾ حملا على معناها .

وفى قوله – سبحانه – ﴿ بيمينه ﴾ تشريف وتبشير لصاحب هذا الكتاب الملىء بالإيمان والعمل الصالح وقال – سبحانه – : ﴿ فأولئك يقرءون كتابهم ﴾ بالإظهار ، ولم يقل : يقرءونه ، لمزيد العناية بهؤلاء السعداء ، ولبيان أن هذا الكتاب تبتهج النفوس بتكرار اسمه .

ثم بين – سبحانه – سوء عاقبة من أوتى كتابه بشماله فقال : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ .

والمراد بالعمى هنا : عمى القلب لا عمى العين ، بدليل قوله – تعالى – : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

والمعنى : ومن كان من بنى آدم فى هذه الدنيا أعمى القلب ، مطموس البصيرة ، بسبب إيثاره الكفر على الإيمان ، فهو فى الدار الآخرة أشد عمى ، وأضل سبيلاً منه فى الدنيا ، لأنه فى الدنيا كان فى إمكانه أن يتدارك ما فاته أما فى الآخرة فلا تدارك لما فاته .

وعبر – سبحانه – عن الذى أوتى كتابه بشماله بقوله – ﴿ ومن كان فى هذه أعمى ﴾ للإرشاد إلى العلة التى بسببها أصابه الشقاء فى الآخرة ، وهى – فقدانه النظرِ السليم ، وإيثاره الغى على الرشد ، والباطل على الحق ..

ومما يدل على أن المراد به من أوتى كتابه بشماله ، مقابلته لمن أوتى كتابه بيمينه ، كما جاء فى آيات كثيرة منها قوله – تعالى – : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه ﴾[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لبنى آدم من التكريم والتفضيل ما من شأنه أن

---

(١) سورة الحاقة الآيات من ١٩ الى ٢٥ .

يحملهم على إخلاص العبادة لخالقهم ، وعلى امتثال أمره ، واجتناب نهيه ، لكى يكونوا من السعداء فى دنياهم وآخرتهم .

ثم حكى - سبحانه - جانبًا من المسالك الخبيثة ، التى سلكها المشركون مع النبى - ﷺ - لزحزحته عن التمسك بدعوته ، وكيف أن الله - تعالى - قد عصمه من كيدهم ، فقال - سبحانه - :

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات روايات منها ما جاء عن سعيد بن جبير أنه قال : كان النبى - ﷺ - يستلم الحجر الأسود فى طوافه ، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تُلم بآلهتنا ... فأبى الله - تعالى - ذلك ، وأنزل عليه هذه الآية .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت فى وفد تقيف ، أتوا النبى - ﷺ - فسألوه شططا : وقالوا : متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهدى لها . وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ... فنزلت هذه الآية[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٢٩٩ .

و ﴿ إن ﴾ فى قوله ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ... ﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن .

و ﴿ كاد ﴾ من أفعال المقاوبة . و ﴿ يفتنونك ﴾ من الفتنة ، وأصلها الاختبار والامتحان . يقال : فتن الصائغ الذهب ، أى : اختبره ليعرف جيده من خبيثه ، ويقال : فتنت الرجل عن رأيه ، إذا أزلته عما كان عليه ، وهو المراد هنا .

والمعنى ؛ وإن شأن هؤلاء المشركين ، أنهم قاربوا فى ظنهم الباطل ، وزعمهم الكاذب ، أن يخدعوك ويفتنوك - أيها الرسول الكريم - عما أوحينا إليك من هذا القرآن ، لكى تفترى علينا غيره ، وتتقول علينا أقوالاً ما أنزل الله بها من سلطان .

وقوله : ﴿ وإذًا لاتخذوك خليلا ﴾ بيان لحالهم مع الرسول - ﷺ - لو أنه أطاعهم فيما اقترحوه عليه .

قال الجمل ما ملخصه : « وإذًا حرف جواب وجزاء يقدر بلو الشرطية . وقوله : ﴿ لاتخذوك ﴾ جواب قسم محذوف تقديره : والله لاتخذوك ، وهو مستقبل فى المعنى ، لأن إذًا تقتضى الاستقبال . إذ معناها المجازاة ، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿ ولئن أرسلنا ريحًا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ أى : ليظلوا[1] .

والمعنى : لو أنك - أيها الرسول الكريم - وافقتهم على مقترحاتهم الفاسدة لأحبوا ذلك منك ، ولصاروا أصدقاء لك فى مستقبل أيامك .

وقد بين القرآن الكريم فى كثير من آياته ، أن الرسول - ﷺ - أعرض عن مقترحاتهم ورفضها ، ولم يلتفت إليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلا تعقلون ﴾[2] .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على نبيه - ﷺ - فقال : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً ﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٣٨ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢١ .

أى : ولولا تثبيتنا إياك - أيها الرسول الكريم - على ما أنت عليه من الحق والصدق ، بأن عصمناك من كيدهم لقاربت أن تميل ميلًا قليلًا ، بسبب شدة احتيالهم وخداعهم .

قال بعض العلماء : وهذه الآية أوضحت غاية الإيضاح ، براءة نبينا - ﷺ - من مقاربة الركون إلى الكفار ، فضلًا عن نفس الركون ؛ لأن ﴿ لولا ﴾ حرف امتناع لوجود ، فمقاربة الركون منعتها ﴿ لولا ﴾ الامتناعية لوجود التثبيت من الله - تعالى - لأكرم خلقه - ﷺ - فاتضح يقينًا انتفاء مقاربة الركون - أى الميل - ، فضلًا عن الركون نفسه .

وهذه الآيةتبين ما قبلها ، وأنه - ﷺ - لم يقارب الركون إليهم مطلقًا . لأن قوله : ﴿ لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا ﴾ أى : قاربت تركن إليهم ، هو عين الممنوع بلولا الامتناعية[1] .

ومما يشهد بأن الرسول - ﷺ - لم يقارب الركون من مقترحات الكافرين ، قول ابن عباس - رضى الله عنهما - كان رسول الله - ﷺ - معصومًا ، ولكن هذا تعريف للأمة ، لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله - تعالى - وشرائعه .

وعن قتادة أنه قال : لما نزلت هذه الآية ، قال النبى - ﷺ - « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

ثم بين - سبحانه - ما كان سيترتب على الركون إليهم - على سبيل الفرض من عقاب فقال - تعالى - : ﴿ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرًا ﴾ .

والضعف : عبارة عن أن يضم إلى شىء مثله .

أى : لو قاربت - أيها الرسول الكريم - أن تركن إليهم أقل ركون ، أو تميل إليهم أدنى ميل ، لأنزلنا بك عذابًا مضاعفًا فى الدنياوعذابًا مضاعفًا فى الآخرة ، ثم لا تجد لك بعد ذلك نصيرا ينصرك علينا ، أو ظهيرًا يدفع عنك عذابنا ، أو يحميك منه ، كما قال - تعالى - : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ .

والسبب فى تضعيف العذاب ، أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه ، ويصغر بمقدار صغره ، ورحم الله القائل :

وكبائر الرجل الصغير صغائر   وصغائر الرجل الكبير كبائر

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٣ ص ٦٢١ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

والرسول - ﷺ - هو أعظم الخلق على الإطلاق ، لذا توعده الله - تعالى - بمضاعفة العذاب ، لو ركن إلى المشركين أدنى ركون .

وقريب من هذا المعنى قوله - تعالى - ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[1] .

قال صاحب الكشاف : وفى ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين ، دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته ، وفيه دليل على أن أدنى مداهنه للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآيات أن يجثو عندها ويتدبرها فهى جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وإزدياد التصلب فى دين الله[2] .

ثم ذكر - سبحانه - مكيدة أخرى من مكايد المشركين ، وهى محاولتهم إخراج النبى - ﷺ - من بلده ، لكى يعكفوا على عبادة آلهتهم الباطلة دون أن ينهاهم عن ذلك أحد ، فقال - تعالى - : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ... ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : قيل نزلت فى اليهود إذ أشاروا على النبى - ﷺ - بسكنى الشام ، بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة كان بعد ذلك ...

ثم قال : وقيل نزلت فى كفار قريش ، حين هموا بإخراج الرسول - ﷺ - من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله - تعالى - بهذه الآية : وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا زمنًا يسيرا ...[3] .

وما ذهب إليه ابن كثير - رحمه الله - من أن الآية مكية ، هو الذى تسكن إليه النفس . فيكون المعنى : ﴿ وإن كادوا ﴾ أى : كفار مكة ﴿ ليستفزونك من الأرض ﴾ أى : ليزعجونك ويحملونك على الخروج من الأرض التى على ترابها ولدت وفيها نشأت ، وهى أرض مكة .

وقوله : ﴿ وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلًا ﴾ بيان لسوء مصيرهم إذا ما أخرجوه - ﷺ - من مكة .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٠ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٨٥ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٣ .

أى : ولو أنهم استفزوك وأجبروك على الخروج إجبارًا ، لما لبثوا ﴿ خلافك ﴾ أى : بعد خروجك إلا زمنًا قليلاً ، ثم يصيبهم ما يصيبهم من الهلاك والنقم .

ومع أن الرسول - ﷺ - قد خرج من مكة مهاجرًا بأمر ربه إلا أنه - سبحانه - قد مكن نبيه - ﷺ - وأصحابه من مشركى مكة فى غزوة بدر ، فقتلوا منهم سبعين ، وأسروا نحو ذلك ، وكانت المدة بين هجرته - ﷺ - وبين غزوة بدر تقل عن سنتين .

وهكذا حقق الله - تعالى - وعده لنبيه - ﷺ - وأنزل وعيده بأعدائه .

ثم بين - سبحانه - أن نصرة رسله سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ .

ولفظ ﴿ سنة ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد ، أى : سن الله ما قصه عليك سنة ، وهذه السنة هى أننا لا نترك بدون عقاب أمة أخرجت رسولها من أرضه ، وقد فعلنا ذلك مع الأقوام السابقين الذين أخرجوا أنبياءهم من ديارهم ولا تجد - أيها الرسول الكريم - لسنتنا وطريقتنا تحويلا أو تبديلا ، ولولا أننا قد منعنا عن قومك عذاب الاستئصال لوجودك فيهم ، لأهلكناهم بسبب إيذائهم لك ، وتطاولهم عليك .

قال - تعالى - : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ... ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبًا من المسالك الخبيثة التى اتبعها المشركون مع النبى - ﷺ - كما حكت لنا ألوانًا من فضل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - حيث عصمه من أى ركون إليهم ووعده بالنصر عليهم .

ثم أرشد الله - تعالى - رسوله - ﷺ - إلى ما يعينه على التغلب على كيد المشركين ، وإلى ما يزيده رفعة فى الدرجة ، وبشره بأن ما معه من حق ، سيزهق ما مع أعدائه من باطل فقال - تعالى - :

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ

أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى نظم هذه الآيات مع ما قبلها وجوه ، الأول : أنه - تعالى - لما قرر الإلهيات والمعاد والنبوات ، أردفها بذكر الأمر بالطاعات . وأشرف الطاعات . بعد الإيمان الصلاة ؛ فلهذا أمر بها .

الثانى : أنه - تعالى - لما قال : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ . أمره - تعالى - بالإقبال على عبادته لكى ينصره عليهم .. كما قال - تعالى - : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ... ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على إقامة الصلاة ، من وقت زوالها وميلها عن وسط السماء لجهة الغرب . يقال : دلكت الشمس تدلك - بضم اللام - إذا مالت وانتقلت من وسط السماء إلى ما يليه . ومادة ﴿ دلك ﴾ تدل على التحول والانتقال .

ولذلك سمى الدلاك بهذا الاسم . لأن يده لا تكاد تستقر على مكان معين من الجسم .

وتفسير دلوك الشمس هذا بمعنى ميلها وزوالها عن كبد السماء ، مروى عن جمع من الصحابة والتابعين منهم عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله ، وأنس ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

وقيل المراد بدلوك الشمس هنا غروبها . وقد روى ذلك عن على ، وابن مسعود ، وابن زيد .

قال بعض العلماء : والقول الأول عليه الجمهور ، وقالوا : الصلاة التى أمر بها ابتداء من هذا الوقت ، هى صلاة الظهر ، وقد أيدوا هذا القول بوجوه منها : ما روى عن جابر أنه قال : طعم عندى رسول الله - ﷺ - وأصحابه . ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فقال - ﷺ - هذاحين دلكت الشمس .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١٢٧ .

ومن الوجوه - أيضًا - النقل عن أهل اللغة ، فقد قالوا : إن الدلوك فى كلام العرب : الزوال ، ولذا قيل للشمس إذا زالت . دالكة[1] .

وقوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ أى : إلى شدة ظلمته .

قال القرطبى : يقال : غسق الليل غُسوقًا . وأصل الكلمة من السيلان . يقال : غَسقت العين إذ سالت تغسق . وغسَق الجرح غسقانا ، أى : سال منه ماء أصفر ... وغسق الليل : اجتماع الليل وظلمته .

وقال : أبو عبيدة : الغسق : سواد الليل ... »[2] .

والمراد من الصلاة التى تقام من بعد دلوك الشمس إلى غسق الليل : صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ معطوف على مفعول ﴿ أقم ﴾ وهو الصلاة .

والمراد بقرآن الفجر : صلاة الفجر . وسميت قرآنًا ، لأن القراءة ركن من أركانها ، من تسمية الشىء باسم جزئه ، كتسمية الصلاة ركوعًا وسجودًا وقنوتًا .

وقوله ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودًا ﴾ تنويه بشأن صلاة الفجر ، وإعلاء من شأنها .

أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على أداء صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وداوم على صلاة الفجر - أيضًا - فإن صلاتها مشهودة من الملائكة ومن الصالحين من عباد الله - عز وجل - .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد ثبتت السنة عن رسول الله - ﷺ - تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفًا عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد ، خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر » .

يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا .... ﴾[3] .

---

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٦٠ للمرحوم الشيخ محمد على السايس .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٠٤ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٤ .

وقال الإمام الفخر الرازى : وفى الآية احتمال ، وهو أن يكون المراد من قوله - تعالى - : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ الترغيب فى أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة . ويكون المعنى : إن صلاة الفجر مشهودة بالجماعة الكثيرة »[١] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ومن الليل ، فتهجد به نافلة لك ﴾ إرشاد إلى عبادة أخرى من العبادات التى تطهر القلب ، وتسمو بالنفس إلى مراقى الفلاح ، وتعينها على التغلب على الهموم والآلام .

والجار والمجرور ﴿ ومن الليل ﴾ متعلق بقوله ﴿ فتهجد ﴾ أى . تهجد بالقرآن بعض الليل . أو متعلق بمحذوف تقديره : وقم قومة من الليل فتهجد ، و ﴿ من ﴾ للتبعيض .

قال الجمل : والمعروف فى كلام العرب أن الهجود عبارة عن النوم بالليل . يقال : هجد فلان ، إذا نام بالليل .

ثم لما رأينا فى عرف الشرع أنه يقال لمن انتبه بالليل من نومه وقام إلى الصلاة أنه متهجد ، وجب أن يقال : سمى ذلك متهجدا من حيث أنه ألقى الهجود . فالتهجد ترك الهجود وهو النوم ... »[٢] .

والضمير فى ﴿ به ﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، المذكور فى قوله - تعالى - ﴿ وقرآن الفجر ﴾ ، إلا أنه ذكر فى الآية السابقة بمعنى الصلاة ، وذكر هنا بمعناه المشهور ، ففى الكلام ما يسمى فى البلاغة بالاستخدام .

والنافلة : الزيادة على الفريضة ، والجمع نوافل . يقال : تنفل فلان على أصحابه ، إذا أخذ زيادة عنهم .

أى : واجعل - أيها الرسول الكريم - جانبًا من الليل ، تقوم فيه ، لتصلى صلاة زائدة على الصلوات الخمس التى فرضها الله - تعالى - عليك وعلى أمتك .

قال - تعالى - : ﴿ يأيها المزمل قم الليل إلا قليلًا .نصفه أو انقص منه قليلًا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ .

قالوا : وقيام الليل كان واجبًا فى حقه - ﷺ - بصفة خاصة ، زيادة على الصلاة المفروضة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٢٩ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٢ .

أخرج البيهقى فى سننه عن عائشة أن النبى - ﷺ - قال : « ثلاث هن على فرائض ، وهن لكم سنة : الوتر ، والسواك ، وقيام الليل » .

ومن العلماء من يرى أن قيام الليل كان مندوبًا فى حقه - ﷺ - كما هو الشأن فى أمته ، ومعنى ﴿ نافلة لك ﴾ أى : زيادة فى رفع درجاتك ، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أما غيرك فقد شرعنا له النافلة تكفيرًا لخطاياه .

وقوله - عز وجل - : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا ﴾ بيان لما يترتب على أدائه للصلوات بخشوع وخضوع ، من سمو فى المكانة ، ورفعة فى الدرجة .

وكلمة عسى فى كلام العرب تفيد التوقع ، أما فى كلام الله - تعالى - فتفيد الوجوب والقطع .

قال الجمل : اتفق المفسرون على أن كلمة ﴿ عسى ﴾ من الله - تعالى - تدخل فيما هو قطعى الوقوع ، لأن لفظ عسى يفيد الإطماع ، ومن أطمع إنسانا فى شىء ، ثم حرمه ، كان عارا عليه والله - تعالى - أكرم من أن يطمع أحدًا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه » .

أى : داوم أيها الرسول الكريم على عبادة الله وطاعته لنبعثك يوم القيامة ونقيمك مقامًا محمودًا ، ومكانًا عاليًا ، يحمدك فيه الخلائق كلهم .

والمراد بالمقام المحمود هنا ، هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة . ليريح الناس من الكرب الشديد ، فى موقف الحساب .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فى هذا منها : ما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا - جمع جثوة كخطوة وخطا - أى جماعات - كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد - ﷺ - ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودًا » .

وروى الإمام أحمد والترمذى عن أبى بن كعب عن النبى - ﷺ - قال : « إذا كان يوم القيامة ، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم . وصاحب شفاعتهم غير فخر » .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة أن الرسول - ﷺ - سئل عن قوله - تعالى - : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا ﴾ فقال : « هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه »[1] .

وقال الآلوسى : والمراد بذلك المقام ، مقام الشفاعة العظمى فى فصل القضاء حيث لا أحد

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٥ .

إلا وهو تحت لوائه - ﷺ - ، فقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم موسى فيقول كذلك . ثم محمد فيشفع فيقضى الله - تعالى - بين الخلق ، فيمشى - ﷺ - حتى يأخذ بحلقة باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله - تعالى - مقامًا محمودًا ، يحمده أهل الجمع كلهم »[١] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بأن يكثر من اللجوء إليه عن طريق الدعاء ، بعد أن أمره بذلك عن طريق المداومة على الصلاة ، فقال - تعالى - : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ﴾ .

والمدخل والمخرج - بضم الميم فيهما - مصدران بمعنى الإدخال والإخراج ، فهما كالمجرى والمرسى وإضافتهما إلى الصدق من إضافة الموصوف لصفته .

قال الآلوسى : واختلف فى تعيين المراد من ذلك ، فأخرج الزبير بن بكار عن زيد بن أسلم ، أن المراد : بالإدخال : دخول المدينة ، وبالإخراج : الخروج من مكة ، ويدل عليه ما أخرجه أحمد ، والطبرانى ، والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، وجماعة ، عن ابن عباس قال : كان النبى - ﷺ - بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله - تعالى - عليه هذه الآية . وبدأ بالإدخال لأنه الأهم ...

ثم قال : والأظهر أن المراد إدخاله - عليه الصلاة والسلام - إدخالاً مرضيًا فى كل ما يدخل فيه ويلابسه من مكان أو أمر ، وإخراجه - من كل ما يخرج منه خروجًا مرضيًا - كذلك - ، فتكون الآية عامة فى جميع الموارد والمصادر ... »[٢] .

ويبدو لنا أن المعنى الذى أشار إليه الآلوسى - رحمه الله - بأنه الأظهر ، هو الذى تسكن إليه النفس ، ويدخل فيه غيره دخولاً أوليا ، ويكون المعنى :

وقل - أيها الرسول الكريم - متضرعًا إلى ربك : يارب أدخلنى إدخالاً مرضيًا صادقًا فى كل ما أدخل فيه من أمر أو مكان ، وأخرجنى كذلك إخراجًا طيبًا صادقًا من كل أمر أو مكان .

والمراد بالسلطان فى قوله - تعالى - : ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ﴾ الحجة البينة الواضحة التى تقنع العقول ، والقوة الغالبة التى ترهب المبطلين .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٠ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٣ .

أى : واجعل لى - يا إلهى - من عندك حجة تنصرنى بها على من خالفنى ، وقوة تعيننى بها على إقامة دينك ، وإزالة الشرك والكفر .

وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى فقال : قوله : ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ﴾ أى : حجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكًا وعزًا قويًا ناصرًا للإسلام على الكفر ، مظهرًا له عليه ، فأجيبت دعوته بقوله :

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ ﴿ ليستخلفنهم فى الأرض ﴾. ووعده لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له .

وعنه - ﷺ - أنه استعمل « عتاب بن أسيد » على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على أهل الله ، فكان شديدًا على المريب . لينًا على المؤمن ، وقال : لا والله لا أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق . فقال أهل مكة : يارسول الله لقد استعملت على أهل الله « عتاب بن أسيد » أعرابيًا جافيًا .

فقال - ﷺ - : « إنى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديدًا ، حتى فتح له فدخلها ، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم ، فذلك السلطان النصير »[1] .

وقال ابن كثير - بعد أن ساق بعض الأقوال فى معنى الآية الكريمة - قوله : ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا ﴾ قال الحسن البصرى فى تفسيرها : وعده ربه لينزعن ملك فارس والروم وليجعلنه له .

وقال قتادة فيها : إن نبى الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان . فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله .ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم ...

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة ، وهو الأرجح ، لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول - تعالى - : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ... ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٨٨ .

وفى الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » أى : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ، ما لا يمتنع كثير من الناس عن ارتكابه بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع »[1] .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ واجعل لى من لدنك ﴾ تصوير بديع لشدة القرب والاتصال بالله - تعالى - واستمداد العون منه - سبحانه - مباشرة ، واللجوء إلى حماه بدون وساطة من أحد .

ثم بشره - سبحانه - بأن النصر له آت لا ريب فيه فقال - تعالى - ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا ﴾ .

والحق فى لغة العرب : الشىء الثابت الذى ليس بزائل ولا مضمحل . والباطل على النقيض منه .

والمراد بالحق هنا : حقائق الإسلام وتعاليمه التى جاء بها النبى - ﷺ - من عند ربه - عز وجل - .

والمراد بالباطل : الشرك والمعاصى التى ما أنزل الله بها من سلطان ، والمراد بزهوقه : ذهابه وزواله . يقال : فلان زهقت روحه ، إذا خرجت من جسده وفارق الحياة .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الشكر لربك ، والاعتراف له بالنعمة ، والاستبشار بنصره ، قل : جاء الحق الذى أرسلنى به الله - تعالى - وظهر على كل ما يخالفه من شرك وكفر ، وزهق الباطل ، واضمحل وجوده وزالت دولته ، إن الباطل كان زهوقًا ، أى : كان غير مستقر وغير ثابت فى كل وقت . كما قال - تعالى - : ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾[2] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ... ﴾[3] .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية أحاديث منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : دخل النبى - ﷺ - مكة - عند فتحها - وحول البيت ستون وثلثمائة صنم . فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا ﴾ ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩ .
(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٨ .

وأخرج ابن أبى شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر قال : دخلنا مع رسول الله - ﷺ - مكة ، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فأمر بها رسول الله - ﷺ - فأكبت على وجهها . وقال ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا ﴾[1] .

وقال القرطبى : فى هذه الآية دليل على كسر نُصُب المشركين ، وجميع الأوثان إذا غلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التى لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى ..[2] .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت المسلمين فى شخص نبيهم - ﷺ - بالمداومة على كل ما يقربهم من الله - تعالى - ، ولا سيما الصلاة التى هى صلة بين العبد وربه ، وبشرت النبى - ﷺ - بمنحه المقام المحمود من ربه - عز وجل ، وبأن ما معه من حق وصدق ، سيزهق ما مع أعدائه من باطل وكذب ، فإن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن تكون العاقبة للمتقين .

ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذى أنزله على قلب نبيه محمد - ﷺ - وبين أحوال الإنسان فى حالتى اليسر والعسر ، والرخاء والشدة ، وأن كل إنسان يعمل فى هذه الدنيا على حسب طبيعته ونيته وميوله ، فقال - تعالى - :

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣١٤ .

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : اعلم أنه - تعالى - لما أطنب فى شرح الإلهيات والنبوات ، والحشر والمعاد والبعث ، وإثبات القضاء والقدر ، ثم أتبعه بالأمر بالصلاة ، ونبه على ما فيها من الأسرار ، وإنما ذكر كل ذلك فى القرآن ، أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة . فقال - تعالى - : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .. ﴾ .

ثم قال : ولفظة ﴿ من ﴾ ههنا ليست للتبعيض ، بل هى للجنس كقوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ .

والمعنى : وننزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ما هو شفاء ، فجميع القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين[1] .

ومما لا شك فيه ، أن قراءة القرآن ، والعمل بأحكامه وآدابه وتوجيهاته .. شفاء للنفوس من الوسوسة ، والقلق ، والحيرة ، والنفاق ، والرذائل المختلفة ، ورحمة للمؤمنين من العذاب الذى يحزنهم ويشقيهم .

إنه شفاء ورحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت بنور ربها ، وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من هدايات وإرشادات .

إنه شفاء للنفوس من الأمراض القلبية كالحسد والطمع والانحراف عن طريق الحق ، وشفاء لها من الأمراض الجسمانية .

قال القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : اختلف العلماء فى كونه - أى القرآن - شفاء على قولين :

أحدهما : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل .

الثانى : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه ، وقد روى الأئمة - واللفظ للدار قطنى - عن أبى سعيد الخُدرى قال : بعثنا رسول الله - ﷺ - فى سرية ثلاثين راكبًا . قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا . قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : أفيكم أحد يَرْقى من العقرب ؟ قال : قلت : أنا نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ سبع مرات فبرئ . فبعثوا إلينا بالنزل وبعثوا إلينا بالشاء . فأكلنا الطعام أنا وأصحابى ، وأبوا

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ٤٣٢ .

أن يأكلوا من الغنم ، حتى أتينا رسول الله - ﷺ - فأخبرته الخبر ، فقال « ما يدريك أنها رقية » ؟ قلت : يارسول الله ، شيء ألقى فى روعى . قال : « كلوا وأطعمونا من الغنم »[1] .

والذى تطمئن إليه النفس أن قراءة القرآن الكريم ، والعمل بما فيه من هدايات وإرشادات وتشريعات .. كل ذلك يؤدى - بإذن الله تعالى - إلى الشفاء من أمراض القلوب ومن أمراض الأجسام .

قال بعض العلماء : وقوله - تعالى - فى هذه الآية ﴿ ما هو شفاء ﴾ يشمل كونه شفاء للقلب من أمراضه ، كالشك والنفاق وغير ذلك . وكونه شفاء للأجسام إذا رقى عليه به ، كما تدل له قصة الذى رقى الرجل اللديغ بالفاتحة ، وهى صحيحة مشهورة »[2] .

وبعد أن بين - سبحانه - أثر القرآن بالنسبة للمؤمنين ، أتبع ذلك ببيان أثره بالنسبة للظالمين ، فقال : ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ .

أى : ولا يزيد ما ننزله من قرآن الظالمين إلا خسارا وهلاكًا ، بسبب عنادهم وجحودهم للحق بعد إذ تبين .

قال الآلوسى : وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن . مع أنهم المزدادون فى ذلك لسوء صنيعهم ، باعتباره سببا لذلك ، وفيه تعجيب من أمره من حيث كونه مدارًا للشفاء والشقاء .

كماء صار فى الأصداف درا وفى ثغر الأفاعى صار سما[3]

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾[4] .

وقوله - تعالى - ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾[5] .

ثم صور - سبحانه - حال الإنسان عند اليسر والعسر ، وعند الرخاء والشدة فقال

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣١٦ .
(٢) أضواء البيان جـ ٣ ص ٦٢٤ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .
(٣) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٦ .
(٤) سورة التوبة ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٥) سورة فصلت الآية ٤٤ .

- تعالى - : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذامسه الشر كان يئوسًا ﴾ .

أى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ بنعمة الصحة والغنى وما يشبههما مما يسره ويبهجه ﴿ أعرض ﴾ عن طاعتنا وشكرنا ﴿ ونأى بجانبه ﴾ أى : وابتعد عنا ، وولانا ظهره والنأى : البعد ، يقال : مكان ناء ، أى بعيد ، ونأى فلان عن الشىء نأيا : إذا ابتعد عنه .

وقوله - تعالى - : ﴿ نأى بجانبه ﴾ تأكيد للإعراض ، لأن الإعراض عن الشىء أن يوليه عرض وجهه ، والنأى بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ، ويوليه ظهره ، ويظهر الاستكبار والغرور . وقوله - تعالى - : ﴿ وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ أى : وإذا مس الشر هذا الإنسان من فقر أو مرض ، كان يئوسا وقنوطًا من رحمه الله - تعالى - .

فهو فى حالة الصحة والغنى يبطر ويتكبر ويطغى . وفى حالة الفقر والمرض ييئس ويقنط ويستولى عليه الحزن والهم .

والمراد بالإنسان هنا جنسه ، إذ ليس جميع الناس على هذه الحالة ، وإنما منهم المؤمنون الصادقون الذين يشكرون الله - تعالى - على نعمه ، ويذكرونه ويطيعونه فى السراء والضراء .

قال - تعالى - : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[1] .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد استثنى الذين صبروا وعملوا الصالحات ، من رذيلة الجحود عند اليسر ، واليأس عند العسر .

قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ... ﴾ جنسه ، إذ يكفى فى صحة الحكم وجوده فى بعض الأفراد ، ولا يضر وجود نقيض فى البعض الآخر ، وقيل : المراد به الوليد بن المغيرة » .

وفى إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضميره - تعالى - إيذان بأن الخير مراد بالذات ، والشر ليس كذلك لأن ذلك هو الذى يقتضيه الكرم المطلق ، والرحمة الواسعة ، وإلى

---

(١) سورة هود الآيات من ٩ - ١١ .

ذلك الإشارة بقوله - ﷺ - : « اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك »[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾[3] .

ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس وأعمالهم فقال : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ .

والتنوين فى قوله ﴿ كل ﴾ عوض عن المضاف إليه . أى : كل فرد .

وقوله : ﴿ شاكلته ﴾ : أى : طريقته ومذهبه الذى يشاكل ويناسب حاله فى الهداية أو الضلالة . مأخوذ من قولهم : طريق ذو شواكل ، وهى الطرق التى تتشعب منه وتتشابه معه فى الشكل ، فسميت عادة المرء بها ، لأنها تشاكل حاله .

قال القرطبى قوله ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ قال ابن عباس : على ناحيته . وقال مجاهد : على طبيعته .

وقال قتادة : على نيته وقال ابن زيد : على دينه . وقال الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جبل عليه ..

وقيل : هو مأخوذ من الشكل . يقال : لست على شكلى ولا شاكلتى . فالشكل : هو المثل والنظير ، كقوله - تعالى - : ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ .

والشكل - بكسر الشين - الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . أى الهيئة . وهذه الأقوال كلها متقاربة[4] .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : كل واحد منكم - أيها الناس - يعمل على شاكلته وطريقته التى تشاكل حاله ، وتناسب اتجاهه ، وتتلاءم مع سلوكه وعقيدته ، فربكم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٤٧ .
(٢) سورة فصلت الآية ٤٩ .
(٣) سورة الروم الآية ٣٦ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٢ .

الذى خلقكم وتعهدكم بالرعاية ، أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، وأقوم طريقًا ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فالآية الكريمة تبشر أصحاب النفوس الطاهرة والأعمال الصالحة ، بالعاقبة الحميدة ، وتهدد المنحرفين عن طريق الحق ، المتبعين لخطوات الشيطان ، بسوء المصير ، لأن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من الأسئلة التى كانت توجه إلى الرسول - ﷺ - ، كما ذكر الإجابة عليها لكى يجابه النبى - ﷺ - بها السائلين ، فقال - تعالى - :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ روايات منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : بينما أنا أمشى مع النبى - ﷺ - فى حرث وهو متوكىء على عسيب - أى على عصا - إذ مر اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فأمسك النبى - ﷺ - فلم يرد عليهم شيئًا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل

الروح من أمر ربى ... ﴾ .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى ، أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية : ﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾ .

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود . أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه فنزلت : ويسألونك عن الروح .. الآية »[١] .

وكلمة الروح تطلق فى القرآن الكريم على أمور منها :

الوحى ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ... ﴾[٢] .

ومنها : القوة والثبات كما فى قوله - تعالى - : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ... ﴾[٣] .

ومنها : جبريل ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ... ﴾[٤] .

ومنها : القرآن كما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ... ﴾[٥] .

ومنها : عيسى ابن مريم ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ... ﴾[٦] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٦٠ .
(٢) سورة غافر الآية ١٥ .
(٣) سورة المجادلة الآية ٢٢ .
(٤) سورة الشعراء الآية ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٥) سورة الشورى الآية ٥٢ .
(٦) سورة النساء الآية ١٧١ .

وجمهور العلماء على أن المراد بالروح فى قوله - تعالى - : ﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾ ما يحيا به بدن الإنسان ، وبه تكون حياته ، وبمفارقته للجسد يموت الإنسان ، وأن السؤال إنما هو عن حقيقة الروح ، إذ معرفة حقيقة الشىء . تسبق معرفة أحواله .

وقيل المراد بالروح هنا : القرآن الكريم ، وقيل : جبريل ، وقيل : عيسى إلى غير ذلك من الأقوال التى أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرة أقوال .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه جمهور المفسرين ، أولى بالاتباع ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ يؤيد هذا الاتجاه .

قال الآلوسى : الظاهر عند المنصف ، أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته ، لأن ذلك من أدق الأمور التى لا يسع أحدًا إنكارها ، ويشرئب الجميع إلى معرفتها ، وتتوفر دواعى العقلاء إليها ، وَتَكِلُّ الأذهان عنها ، ولا تكاد تعلم إلا بوحى .. »[1] .

و ﴿ من ﴾ فى قوله : ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ بيانية . والمراد بالأمر هنا . الشأن .

والمعنى : ويسألك بعض الناس - أيها الرسول - عن حقيقة الروح ، قل لهم على سبيل الإرشاد والزجر : الروح شىء من جنس الأشياء التى استأثر الله - تعالى - وحده بعلم حقيقتها وجوهرها .

وقال - سبحانه - : ﴿ قل الروح ﴾ بالإظهار ، لكمال العناية بشأن المسئول عنه .

وإضافة كلمة ﴿ أمر ﴾ إلى لفظ الرب - عز وجل - ، من باب الاختصاص العلمى ، إذ الرب وحده هو العليم بشأنها ، وليس من باب الاختصاص الوجودى ، لأن الروح وغيرها من مخلوقات الله - تعالى - .

وفى هذه الإضافة ما فيها من تشريف المضاف ، حيث أضيف هذا الأمر إلى الله - تعالى - وحده .

قال القرطبى : وقوله - تعالى - ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ دليل على خلق الروح ، أى : هو أمر عظيم ، وشأن كبير من أمر الله - تعالى - ، مبهمًا له وتاركًا تفصيله ، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٥١ .

معرفة نفسه هكذا ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز[١] .

وقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ من جملة الجواب الذى أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يرد به على السائلين عن حقيقة الروح .

أى : وما أوتيتم - أيها السائلون عن الروح - من العلم إلا علمًا قليلاً ، بالنسبة إلى علمه - تعالى - الذى وسع كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

وإن علمكم مهما كثر فإنه لا يمكنه أن يتعلق بحقيقة الروح وأحوالها ، لأن ذلك شيء استأثر الله - تعالى - به وحده ، واقتضت حكمته - عز وجل - أن يجعله فوق مستوى عقولكم .

قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية : والمنهج الذى سار عليه القرآن - وهو المنهج الأقوم - أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه ، وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفته ، فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفى غير مجالها الذى تملك وسائله ، وبعضهم عندما سأل النبى - ﷺ - عن الروح ، أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمره - سبحانه - ...

وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل ، ولكن فيه توجيهًا لهذا العقل أن يعمل فى حدوده ، وفى مجاله الذى يدركه .

والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه .. ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ما أبدع ، ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف - الروح - لا يدرى ما هو ؟ ولا كيف جاء ؟ ولا كيف يذهب ؟ ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير فى التنزيل »[٢] .

وقال بعض العلماء : وفى هذه الآية ما يزجر الخائضين فى شأن الروح ، المتكلفين لبيان ماهيته ، وإيضاح حقيقته ، أبلغ زجر ، ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال فى هذا البحث ، بما لا يتسع له المقام ، وغالبه ، بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين أو دنيا ..

فقد استأثر الله - تعالى - بعلم الروح ، ولم يطلع عليه أنبياءه ، ولم يأذن لهم بالسؤال عنه ،

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٤ .
(٢) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٣٥٧ . للاستاذ سيد قطب - رحمه الله - .

ولا البحث عن حقيقته ، فضلًا عن أمهم المقتدين بهم ... »[1] .

ثم بين - سبحانه - مظهرًا من مظاهر قدرته ، بعد أن بين أن الروح من أمره ، فقال - تعالى - : ﴿ ولن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلًا ﴾ .

واللام فى قوله ﴿ ولئن شئنا ... ﴾ موطئة لقسم محذوف ، جوابه ﴿ لنذهبن ﴾ .

أى : والله لئن شئنا لنذهبن بهذا القرآن الذى أوحيناه إليك - أيها الرسول الكريم - ، بحيث نزيله عن صدرك ، ومن صدور أتباعك ، ونمحوه من الصحف حتى لا يبقى له أثر إذ أن قدرتنا لا يعجزها ، ولا يحول دون تنفيذ ما نريده حائل ..

ثم لا تجد لك بعد ذلك من يكون وكيلًا عنا فى رد القرآن إليك بعد ذهابه ومحوه ، ومن يتعهد بإعادته بعد رفعه وإزالته .

قال الآلوسى : وعبر عن القرآن بالموصول فى قوله ﴿ بالذى أوحينا إليك ﴾ ، تفخيمًا لشأنه ، ووصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء ، إعلامًا بحاله من أول الأمر ، وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق ... »[2] .

وقوله : ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ استثناء واستدراك على قوله : ﴿ لنذهبن بالذى أوحينا إليك .. ﴾ .

أى : والله إن شئنا إذهاب القرآن من صدرك لأذهبناه ، دون أن تجد أحدًا يرده عليك ، لكننا لم نشأ ذلك بل أبقيناه فى صدرك رحمة من ربك .

قال الجمل : وفى هذا الاستثناء قولان : أحدهما : أنه استثناء متصل : لأن الرحمة تندرج فى قوله ﴿ وكيلا ﴾ .

أى : إلا رحمة منا فإنها إن نالتك فلعلها تسترده عليك والثانى : أنه منقطع ، فيتقدر بلكن أو ببل ، و ﴿ من ربك ﴾ يجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لرحمة - أى لكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به[3] .

وقوله ﴿ إن فضله كان عليك كبيرًا ﴾ بيان لما امتن الله به على نبيه - ﷺ - .
أى : إن فضله كان عليك كبيرًا ، حيث أنزل القرآن عليك ، وأبقاه فى صدرك دون أن

---

(١) تفسير فتح البيان للشيخ صديق حسن خان جـ ٥ ص ٤٠١ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٦٤ .
(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٦ .

يزيله منه ، وجعلك سيد ولد آدم ، وخاتم رسله ، وأعطاك المقام المحمود يوم القيامة .

قال صاحب الكشاف : وهذا امتنان عظيم من الله - تعالى - ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما . وهمامتة الله عليه بحفظه العلم ، ورسوخه فى صدره ، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه أن يتحدى المشركين بهذا القرآن فقال - تعالى - : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين قالوا - كما حكى الله عنهم - ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ ، قل لهم على سبيل التحدى والتعجيز : والله لئن اجتمعت الإنس والجن ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، الذى أنزله الله - تعالى - من عنده على قلبى .. لا يستطيعون ذلك . ولو كان بعضهم لبعض مظاهرًا ومعينًا ومناصرًا ، فى تحقيق ما يتمنونه من الإتيان بمثله .

وخص - سبحانه - « الإنس والجن » بالذكر ، لأن المنكر كون القرآن من عند الله ، من جنسها لا من جنس غيرهما كالملائكة - مثلاً - ، فإنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولأن التحدى إنما هو للإنس والجن الذين أرسل الرسول - ﷺ - إليهم ، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

وقال - سبحانه - : ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ فأظهر فى مقام الإضمار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به ، لدفع توهم أن يتبادر إلى الذهن أن له مثلاً معينا ، وللإشعار بأن المقصود نفى المثل على أى صفة كانت هذه المثلية ، سواء أكانت فى بلاغته ، أم فى حسن نظمه ، أم فى إخباره عن المغيبات ، أم فى غير ذلك من وجوه إعجازه .

وقوله : ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ معطوف على مقدر ، أى : لا يستطيعون الإتيان بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض ، ولو كان بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض لما استطاعوا أيضًا .

والمقصود أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله على أية حال من الأحوال ؛ وبأية صورة من

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٩١ .

الصور ، لأنه متى انتفى إتيانهم بمثله مع المظاهرة والمعاونة ، انتفى من باب الأولى الإتيان بمثله مع عدمها . وقوله : ﴿ لبعض ﴾ متعلق بقوله ﴿ ظهيرا ﴾ .

ولقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أنهم لن يستطيعوا الإتيان بعشر سور من مثله ، بل بسورة واحدة من مثله .

قال - تعالى - : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[1] .

وقال - سبحانه - : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[2] .

ومع عجز المشركين عن الإتيان بسورة من مثل القرآن الكريم إلا أنهم استمروا فى طغيانهم يعمهون ، وأبوا التذكر والتدبر ، ولقد صور - سبحانه - أحوالهم أكمل تصوير فقال : ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ .

أى : ولقد صرفنا وكررنا ونوعنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، أى : من كل معنى بديع ، هو كالمثل فى بلاغته ، وإقناعه للنفوس ، وشرحه للصدور ، واشتماله على الفوائد الجمة ...

ومفعول : ﴿ صرفنا ﴾ محذوف ، والتقدير : ولقد صرفنا الهدايات والعبر بوجوه متعددة ..

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ بيان لموقف الفاسقين عن أمر ربهم من هدايات القرآن الكريم وتوجيهاته ، وأوامره ونواهيه .

أى : فأبى أكثر الناس الاستجابة لهديه ، وامتنعوا عن الإيمان بأنه من عند الله - تعالى - وجحدوا آياته وإرشاداته ، وعموا وصموا عن الحق الذى جاءهم به من نُزِّل عليه القرآن ، وهو رسول الله - ﷺ - .

وقال - سبحانه - : ﴿ فأبى أكثر الناس ﴾ بالإظهار فى مقام الإضمار ، للتأكيد والتوضيح .

والمراد بأكثر الناس : أولئك الذين بلغهم القرآن الكريم ، واستمعوا إلى آياته وتوجيهاته وتشريعاته وآدابه ، ولكنهم استحبوا الكفر على الإيمان ، وآثروا الضلالة على الهداية .

---

(١) سورة هود الآية ١٣ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٣ .

وعبر – سبحانه – بالأكثر ، إنصافًا للقلة المؤمنة التى فتحت صدورها للقرآن ، فآمنت به ، وعملت بما فيه من أوامر ونواه ..

قال الجمل : فإن قيل : كيف جاز قوله ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ حيث وقع الاستثناء المفرغ فى الإثبات . مع أنه لا يصح ، إذ لا يصح أن تقول : ضربت إلا زيدا . فالجواب : أن لفظة ﴿ أبى ﴾ تفيد النفى ، فكأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفورا[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت ما يدل على وحدانية الله – تعالى – وقدرته ، وعلمه ، وفضله على نبيه – ﷺ – وعلى الناس ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا .

ثم حكى – سبحانه – بعض المطالب المتعنتة التى طلبها المشركون من النبى – ﷺ – ، فقال – تعالى – :

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات رواية طويلة ملخصها : أن نفرا من زعماء قريش اجتمعوا عند الكعبة ، وطلبوا رسول الله – ﷺ – فجاءهم ، فقالوا له يا محمد : إنا قد بعثنا

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٧ .

إليك لنعذر فيك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك !! لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين . وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ...

فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تطلب شرفا فينا ، سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ...

فقال لهم رسول الله - ﷺ - ما بى شىء مما تقولون ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل على كتابًا ، وأمرنى أن أكون بشيرًا ونذيرًا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم .

فقالوا له يا محمد : فإن كنت صادقًا فيما تقول ، فسل لنا ربك الذى بعثك ، فليسير عنا هذا الجبل الذى قد ضيق علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، ويفجر فيها الأنهار ، ويبعث من مضى من آبائنا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ..

وسله أن يبعث معك ملكا يصدقك ، واسأله أن يجعل لك جنانا وقصورًا أو كنوزًا من ذهب وفضة . تعينك على معاشك .

فقال - ﷺ - ما بعثت بهذا . فقالوا : فأسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا ...

وقال أحدهم : لا أومن بك أبدًا ، حتى تتخذ لك سلمًا إلى السماء ترقى فيه ، ونحن ننظر إليك ..

فانصرف - ﷺ - عنهم حزينًا ، لما رأى من تباعدهم عن الهدى ، فأنزل الله عليه هذه الآيات تسلية له ... »[1] .

والمعنى : وقال المشركون الذين لا يرجون لقاءنا لرسولنا - ﷺ - يا محمد : ﴿ لن نؤمن لك ﴾ ونتبعك فيما تدعونا إليه .

﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا ﴾ أى : حتى تخرج لنا من أرض مكة القليلة المياه ، ﴿ ينبوعًا ﴾ أى : عينا لا ينضب ماؤها ولا يغور .

يقال : نبع الماء من العين ينبع - بتثليث الباء فيهما - إذا خرج وظهر وكثر .

وقرأ بعض السبعة ﴿ تفجر ﴾ بالتخفيف - من باب نصر - وقرأ البعض الآخر ﴿ تفجر ﴾ بتشديد الجيم ، من فجر بالتشديد ، والتضعيف للتكثير .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١١٠ وتفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١١٥ وتفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٢٨ .

والتعريف فى لفظ ﴿ الأرض ﴾ للعهد ، لأن المراد بها أرض مكة .

وعبر بكلمة ﴿ ينبوعًا ﴾للإشعار بأنهم لا يريدون من الماء ما يكفيهم فحسب ، وإنما هم يريدون ماء كثيرًا لا ينقص فى وقت من الأوقات ، إذ الياء زائدة للمبالغة .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا ﴾ بيان لاقتراح آخر من مقترحاتهم السخيفة .

والمعنى : أو تكون لك بصفة خاصة يا محمد ، ﴿ جنة ﴾ أى : حديقة ملتفة الأغصان ، مشتملة على الكثير من أشجار النخيل والأعناب : تجرى الأنهار فى وسطها جريا عظيمًا هائلاً ..

وخصوا النخيل والأعناب بالذكر - كما حكى القرآن عنهم - ، لأن هذين الصنفين يعتبران من أهم الثمار عندهم ، ولأنهما على رأس الزروع المنتشرة فى أراضيهم ، والتى لها الكثير من الفوائد .

وقوله : ﴿ خلالها ﴾ منصوب على الظرفية ، لأنه بمعنى وسطها وبين ثناياها .

والتنوين فى قوله ﴿ تفجيرا ﴾ للتكثير ، أى : تفجيرا كثيرا زاخرا ، بحيث تكون تلك الجنة الخاصة بك ، غنية بالمياه التى تنفعها وترويها .

وقوله - عز وجل - : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ... ﴾ اقتراح ثالث من مقترحاتهم الفاسدة .

ولفظ ﴿ كسفا ﴾ أى : قطعًا جمع كسفة - بكسر الكاف وسكون السين ، يقال : كسفت الثوب أى : قطعته وهو حال من السماء ، والكاف فى قوله : ﴿ كما ﴾ صفة لموصوف محذوف .

والمعنى : أو تسقط أنت علينا السماء إسقاطا مماثلاً لما هددتنا به ، من أن فى قدرة ربك - عز وجل - أن ينزل علينا عذابًا متقطعًا من السماء .

ولعلهم يعنون بذلك قوله - تعالى - : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، إن نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفا من السماء ... ﴾[1] .

وقيل : يعنون بذلك ، أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، فعجل لنا ذلك فى

---

(١) سورة سبأ الآية ٩ .

الدنيا ، وأسقطها علينا ، كما حكى عنهم القرآن ذلك فى قوله - تعالى - ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ... ﴾[1] .

فهم يتعجلون العذاب ، والرسول - ﷺ - ، يرجو لهم من الله - تعالى - الرحمة والهداية وتأخير العذاب عنهم ، لعله - سبحانه - أن يخرج من أصلابهم من يخلص له العبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - ﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلًا ﴾ تسجيل لمطلب رابع من مطالبهم القبيحة .

قال الآلوسى : ﴿ قبيلا ﴾ أى : مقابلًا ، كالعشير والمعاشر ، وأرادوا - كما جاء عن ابن عباس - عِيانًا .

وهذا كقولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ ، وفى رواية أخرى عنه وعن الضحاك تفسير القبيل بالكفيل ، أى : كفيلا بما تدعيه . يعنون شاهدا يشهد لك بصحة ما قلته .

وهو على الوجهين حال من لفظ الجلالة .. وعن مجاهد : القبيل الجماعة كالقبيلة ، فيكون حالًا من الملائكة - أى : أو تأتى بالله وبالملائكة قبيلة قبيلة[2] .

ثم حكى - سبحانه - بقية مطالبهم التى لا يقرها عقل سليم فقال : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ .

أى : من ذهب ، والزخرف يطلق فى الأصل على الزينة ، وأطلق هنا على الذهب لأن الذهب أثمن ما يتزين به فى العادة .

﴿ أو ترقى فى السماء ﴾ أى : تصعد إليها . يقال : رقى فلان فى السلم يرقى رقيا ورقيا أى صعد ، ﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ وصعودك إليها مع مشاهدتنا لذلك ﴿ حتى تنزل علينا ﴾ منها ﴿ كتابًا نقرؤه ﴾ ونفهم ما فيه ، أى : يكون هذا الكتاب بلغتنا التى نفهمها وبأسلوب مخاطباتنا ، وفيه ما يدل دلالة قاطعة على أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وما يدعونا إلى الإيمان بك .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ، بأن أمر نبيه محمدًا - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، فقال : ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولًا ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال من ٣٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٦٩ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التعجب من سوء تفكير هؤلاء الجاحدين : ياسبحان الله هل أنا إلا بشر كسائر البشر ، ورسول كسائر الرسل ، وليس من شأن من كان كذلك أن يأتى بتلك المطالب المتعنتة التى طلبتموها ، وإنما من شأنه أن يبلغ ما أمره الله بتبليغه من هدايات . تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهل . إلى نور الإيمان والعلم .

فالاستفهام فى قوله ﴿ هل كنت ... ﴾ للنفى ، أى : ما كنت إلا رسولاً كسائر الرسل ، وبشرًا مثلهم .

وقوله ﴿ سبحان ربى ﴾ يفيد التعجيب من فرط حماقتهم ، ومن بالغ جهلهم ، حيث طلبوا تلك المطالب ، التى تضمنت ما يعتبر من أعظم المستحيلات ، كطلبهم إتيان الله - عز وجل - والملائكة إليهم ، ورؤيتهم لذاته - سبحانه - ، على سبيل المعاينة والمقابلة .

وهذا التعنت والعناد الذى حكاه الله - تعالى - عن هؤلاء الجاحدين ، قد جاء ما يشبهه فى آيات أخرى . كما جاء ما يدل على أنهم حتى لو أعطاهم الله - تعالى - مطالبهم . لما آمنوا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[2] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[3] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من شبهاتهم الفاسدة والمتعددة ، وهى زعمهم أن الرسول لا يكون من البشر بل يكون ملكًا . وقد أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بأن يرد عليهم بما يبطل مدعاهم فقال :

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١١ .
(٢) سورة يونس الآية ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) سورة الحجر الآية ١٤ ، ١٥ .

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما حكى شبهة القوم فى اقتراح المعجزات الزائدة ، وأجاب عنها ، حكى عنهم شبهة أخرى ، وهى أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولاً من البشر ، بل اعتقدوا أن الله - تعالى - لو أرسل رسولاً إلى الخلق ، لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة ، فأجاب الله - تعالى - عن هذه الشبهة فقال : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ... ﴾[1] .

والمراد بالناس هنا : المشركون منهم ، الذين استبعدوا واعتقدوا أن الرسول لا يكون من البشر ، ويدخل فيهم دخولاً أوليًا كفار مكة .

وجملة ﴿ أن يؤمنوا ﴾ فى محل نصب ، لأنها مفعول ثان لمنع .

وقوله : ﴿ إلا أن قالوا ﴾ هو الفاعل ، و « إذ » ظرف للفعل منع ، أو لقوله : ﴿ أن يؤمنوا ﴾ .

والمعنى : وما صرف المشركين عن الإيمان بالدين الحق وقت أن جاءتهم به الرسل ، إلا اعتقاد هؤلاء المشركين أن الله - تعالى - لا يبعث إليهم رجلاً من البشر لكى يبلغهم وحيه ، وإنما يبعث إليهم ملكًا من الملائكة لكى يبلغهم ذلك .

وعبر عن اعتقادهم الباطل هذا بالقول فقال : ﴿ إلا أن قالوا .. ﴾ للإشعار بأنه مجرد قول لاكته ألسنتهم ، دون أن يكون معهم أى مستند يستندون إليه لإثبات قبوله عند العقلاء .

وجاء التعبير عن اعتقادهم الباطل هذا بصيغة الحصر ، لبيان أنه مع بطلانه - هو من أهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢١ ص ٥٨ .

الموانع والصوارف ، التى منعتهم وصرفتهم عن الدخول فى الدين الحق ، الذى جاءتهم به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، وهذا لا يمنع أن هناك صوارف أخرى حالت بينهم وبين الإيمان كالحسد والعناد .

قال صاحب الكشاف : والمعنى . وما منعهم من الإيمان بالقرآن ، وبنبوة النبى - ﷺ - إلا شبهة تلجلجت فى صدورهم ، وهى إنكارهم أن يرسل الله البشر . والهمزة فى ﴿ أبعث الله ﴾ للإنكار ، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله - تعالى - لأن قضية حكمته ، أن لا يرسل ملك الوحى إلا إلى أمثاله ، أو إلى الأنبياء »[1] .

والمتدبر فى القرآن الكريم ، يرى أن هذه الشبهة - وهى إنكار المشركين كون الرسول بشرًا - قد حكاها فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ... ﴾[2] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ، فكفروا وتولوا، واستغنى الله ، والله غنى حميد ﴾[3] .

ومما لا شك فيه أن هذه الشبهة تدل ، على أن هؤلاء الكافرين ، لم يدركوا قيمة بشريتهم وكرامتها عند الله - تعالى - ، وذلك بسبب انطماس بصائرهم ، وكثرة جهلهم ، وعكوفهم على موروثاتهم الفاسدة .

ولذا أمر الله - تعالى - بأن يرد عليهم بما يزهق هذه الشبهة فقال - سبحانه - ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً ﴾ .

والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاهلين : لو ثبت ووجد ملائكة فى الأرض ، يمشون على أقدامهم كما يمشى الإنس ، ويعيشون فوقها ﴿ مطمئنين ﴾ أى : مستقرين فيها مقيمين بها .

لو ثبت ذلك ، لاقتضت حكمتنا أن نرسل إليهم من السماء ملكًا رسولاً ، يكون من جنسهم ، ويتكلم بلسانهم ، وبذلك يتمكنون من مخاطبته ، ومن الأخذ عنه ، ومن التفاهم معه لأن الجنس إلى الجنس أميل ، والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم ، فلو كان المرسل إليهم ملائكة ، لكان الرسول إليهم ملكًا مثلهم ، ولو كان المرسل إليهم من البشر ، لكان الرسول إليهم بشرًا مثلهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٩٩ .
(٢) سورة يونس الآية ٢ .
(٣) سورة التغابن الآية ٦ .

فكيف تطلبون أيها الجاهلون - أن يكون الرسول إليكم ملكًا ، وتستبعدون أن يكون بشرًا مع أنكم من البشر ؟!!

قال الآلوسى : قوله : ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً ﴾ أى : يعلمهم ما لا تستقل عقولهم بعلمه ، وليسهل عليهم الاجتماع به ، والتلقى منه ، وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك ، لبعد ما بين الملك وبينهم ... »[1] .

وهذا المعنى الذى وضحته الآية الكريمة - وهو أن الرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم - قد جاء ما يشبهه ويؤكده فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[3] .

وقوله - عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... ﴾[4] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - للمرة الثانية ، أن يحسم الجدال معهم ، بتفويض أمره وأمرهم إلى الله - عز وجل - ، فهو خير الحاكمين فقال : ﴿ قل كفى بالله شهيدًا بينى وبينكم ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ .

أى : قل لهم فى هذه المرة من جهتك ، بعد أن قلت لهم فى المرة السابقة من جهتنا : قل لهم - أيها الرسول الكريم - يكفينى ويرضينى ويسعدنى ، أن يكون الله - تعالى - هو الشهيد والحاكم بينى وبينكم يوم نلقاه جميعًا فهو - سبحانه - يعلم أنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، إنه - تعالى - كان وما زال خبيرًا بصيرًا . أى : محيطًا إحاطة تامة بظواهرهم وبواطنهم ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وفى هذه الآية الكريمة تسلية للرسول - ﷺ - عما أصابه منهم من أذى ، وتهديد لهم بسوء المصير ، حيث آذوا نبيهم الذى جاء لهدايتهم وسعادتهم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت بعض الشبهات الفاسدة التى تذرع بها الكافرون

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٧٣ .
(٢) سورة الأنعام الآيتان ٨ ، ٩ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٧ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٤ .

فى البقاء على كفرهم ، كما حكت ما اقتضته حكمته - سبحانه - فى إرسال الرسل ، وهددت المصرين على كفرهم بسوء العاقبة .

ثم ساق - سبحانه - شبهة أخرى من شبهات المشركين التى حكاها عنهم كثيرًا ، ورد عليها بما يبطلها ، وبين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، بعد أن بين أن الهداية والإضلال من شأنه وحده فقال - تعالى - :

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ كلام مستأنف منه - تعالى - لبيان نفاذ قدرته ومشيئته .

أى : ومن يهده الله - تعالى - إلى طريق الحق ، فهو الفائز بالسعادة ، المهدى إلى كل مطلوب حسن ، ﴿ ومن يضلل ﴾ أى : ومن يرد الله - تعالى - إضلاله ﴿ فلن تجد لهم ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ أولياء ﴾ أى : نصراء ينصرونهم ويهدونهم إلى طريق الحق ﴿ من دونه ﴾ عز وجل ، إذ أن الله - تعالى - وحده هو الخالق للهداية والضلالة ، على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته .

وجاء قوله - تعالى - ﴿ فهو المهتد ﴾ بصيغة الإفراد حملا على لفظ ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ ومن يهد الله ﴾ وجاء قوله : ﴿ فلن نجد لهم ﴾ بصيغة الجمع حملا على معناها فى قوله : ﴿ ومن يضلل ﴾ .

قالوا : ووجه المناسبة فى ذلك - والله أعلم - أنه لما كان الهدى شيئًا واحدًا غير متشعب السبل ، ناسبه الإفراد ، ولما كان الضلال له طرق متشعبة ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ناسبه الجمع[1] .

ثم بين - سبحانه - الصورة الشنيعة التى يحشر عليها الضالون يوم القيامة فقال : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ، عميا وبكما وصما .. ﴾ .

والحشر : الجمع . يقال : حشرت الجند حشرًا . أى جمعتهم . وقوله : ﴿ على وجوههم ﴾ حال من الضمير المنصوب فى نحشرهم . وقوله : ﴿ عميا ، وبكما وصما ﴾ أحوال من الضمير المستكن فى قوله ﴿ على وجوههم ﴾ . أى : نجمع هؤلاء الضالين يوم القيامة ، حين يقومون من قبورهم ، ونجعلهم - بقدرتنا - يمشون على وجوههم ، أو يسحبون عليها ، إهانة لهم وتعذيبًا ، ويكونون فى هذه الحالة عميا لا يبصرون ، وبكما لا ينطقون ، وصما لايسمعون .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ نحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ إما مشيا ، بأن يزحفوا منكبين عليها . ويشهد له ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : قيل لرسول الله - ﷺ - : كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « الذى أمشاهم على أرجلهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم » ..

وإما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها ، كقوله - تعالى - : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ ويشهد له ما أخرجه أحمد والنسائى والحاكم - وصححه - عن أبى ذر ، أنه تلا هذه الآية . ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ فقال : حدثنى الصادق المصدوق - ﷺ - أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج طاعمين كاسين راكبين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم .

وجائز أن يكون الأمران فى حالين : الأول : عند جمعهم وقبل دخولهم النار ، والثانى عند دخولهم فيها ...

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٤٩ .

ثم قال : وزعم بعضهم أن الكلام على المجاز ، وذلك كما يقال للمنصرف عن أمر وهو خائب مهموم : انصرف على وجهه .. وإياك أن تلتفت إلى - هذا الزعم - أو إلى تأويل نطقت السنة النبوية بخلافه ، ولا تعبأ بقوم يفعلون ذلك »[١] .

فإن قيل : كيف نوفق بين هذه الآية التى تثبت لهؤلاء الضالين يوم حشرهم العمى والبكم والصمم ، وبين آيات أخرى تثبت لهم فى هذا اليوم الرؤية والكلام والسمع ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ورأى المجرمون النار .. ﴾ .

وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ وكما فى قوله - عز وجل - : ﴿ سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا ﴾ ؟

فالجواب : أن المراد فى الآية هنا أنهم يحشرون عميا لا يرون ما يسرهم ، وبكما لا ينطقون بحجة تنفعهم ، وصمًا لا يسمعون ما يرضيهم ..

أو أنهم يحشرون كذلك ، ثم تعاد لهم حواسهم بعد ذلك عند الحساب وعند دخولهم النار .

أو أنهم عندما يحشرون يوم القيامة ، ويرون ما يرون من أهوال ، تكون أحوالهم كأحوال العمى الصم البكم ، لعظم حيرتهم ، وشدةخوفهم ، وفرط ذهولهم .

ثم بين - سبحانه - مآلهم بعد الحشر والحساب فقال : ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ .

ومعنى : ﴿ خبت ﴾ هدأت وسكن لهيبها . يقال : خبت النار تخبو إذا هدأ لهيبها .

أى : أن هؤلاء المجرمين مأواهم ومسكنهم ومقرهم جهنم ، كلما سكن لهيب جهنم وهدأ ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، زدناهم توقدا ، بأن تبدل جلودهم ولحومهم بجلود ولحوم أخرى ، فتعود النار كحالتها الأولى ملتهبة مستعرة .

وخبو النار وسكونها لا ينقص شيئًا من عذابهم ، وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله - عز وجل - ﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾[٢] .

وفى هذه الآية ما فيها من عذاب للكافرين تقشعر من هوله الأبدان ، وترتجف من تصويره النفوس والقلوب ، نسأل الله - تعالى - بفضله ورحمته أن يجنبنا هذا المصير المؤلم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٧٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٢ .

وقوله - عز وجل - : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا : أئذا كنا عظامًا ورفاتًا أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا ﴾ بيان للأسباب التى أفضت بهم إلى تلك العاقبة السيئة .

أى : ذلك الذى نزل بهم من العذاب الشديد ، المتمثل فى حشرهم على وجوههم وفى اشتعال النار بهم ، سببه أنهم كفروا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وقالوا بإنكار وجهالة : أئذا كنا عظامًا نخرة ، ورفاتًا أى وصارت أجسادنا تشبه التراب فى تفتتها وتكسرها ، أئنا بعد ذلك لمعادون إلى الحياة ومبعوثون على هيئة خلق جديد .

فالآية الكريمة تحكى تصميمهم على الكفر ، وإنكارهم للبعث والحساب إنكارًا لا مزيد عليه ، لذا كانت عقوبتهم شنيعة ، وعذابهم أليمًا . فقد سلط الله - تعالى - عليهم النار تأكل أجزاءهم ، وكلما سكن لهيبها ، أعادها الله - تعالى - ملتهبة مشتعلة على جلود أخرى لهم ، كما قال - تعالى - ﴿ إن الذين كفرواْ بآياتنا سوف نصليهم نارًا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب ... ﴾[1]

ثم رد - سبحانه - على ما استنكروه من شأن البعث ردًا يقنع كل ذى عقل سليم ، فقال - تعالى - ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ... ﴾ .

والهمزة للاستفهام التوبيخى ، وهى داخلة على محذوف ، والمراد بمثلهم إياهم ، فيكون المعنى : أعموا عن الحق ، ولم يعلموا كما يعلم العقلاء ، أن الله - تعالى - الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، وهما أعظم من خلق الناس ، قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم ، لكى يحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .

إن عدم علمهم بذلك ، وإنكارهم له ، لمن أكبر الأدلة على جهلهم وانطماس بصيرتهم ، لأن من قدر على خلق ما هو أعظم وأكبر - وهو السموات والأرض فهو على إعادة ما هو دونه - وهو الناس - أقدر .

قال الشيخ الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿ أو لم يروا .. ﴾ هذا رد لإنكارهم البعث ، ولما استبعدوه من شأنه ، يعنى أن من خلق السموات والأرض ، كيف يستبعد منه أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم .. وأراد - سبحانه - .. بمثلهم : إياهم ، فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين : إن الإعادة مثل الابتداء ، وذلك أن مثل الشىء مساو له فى حاله ، فجاز أن يعبر به عن الشىء نفسه يقال : مثلك لا يفعل كذا ، أى : أنت لا تفعله .

ويجوز أن يكون المعنى أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق عبيدًا غيرهم يوحدونه ويقرون

---

(١) سورة النساء الآية ٥٦ .

بكمال حكمته ، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ والأول أشبه بما قبله[١] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى إنه على كل شىء قدير ﴾[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ... ﴾[٣] .

وبعد أن أقام - سبحانه - الدليل الواضح على أن البعث حق ، وعلى أن إعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن ، أتبع ذلك ببيان أن لهذه الإعادة وقتًا معلومًا يجريه حسب حكمته - تعالى - فقال : ﴿ وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ﴾ .

أى : وجعل لهم ميقاتًا محددا لا شك فى حصوله ، وعند حلول هذا الميقات يخرجون من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد ﴾[٤] .

والجملة الكريمة وهى قوله : ﴿ وجعل لهم ... ﴾ معطوفة على قوله ﴿ أو لم يروا .. ﴾ لأنه فى قوة قولك قد رأوا وعلموا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ؛ علام عطف قوله : ﴿ وجعل لهم أجلًا ﴾ ؟

قلت : على قوله : ﴿ أو لم يروا ﴾ لأن المعنى : قد علموا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ، فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس لأنهم ليسوا بأشد خلقًا منهن ، كما قال : ﴿ أأنتم أشد خلقًا أم السماء ﴾[٥] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأبى الظالمون إلا كفورًا ﴾ بيان لإصرارهم على جحود الحق مع علمهم بأنه حق .

أى : فأبى هؤلاء الظالمون المنكرون للبعث ، إلا جحودًا له وعنادًا لمن دعاهم إلى الإيمان به ، شأن الجاهلين المغرورين الذين استحبوا العمى على الهدى .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٥١ .
(٢) سورة الأحقاف الآية ٣٣ .
(٣) سورة يس الآية ٨١ .
(٤) سورة هود الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٥) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٦٧ .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بأمر النبى - ﷺ - بأن يجابه هؤلاء الظالمين بما جبلوا عليه من بخل وشح ، بعد أن طلبوا منه ما طلبوا من مقترحات متعنتة ، فقال - تعالى - : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتورًا ﴾ .

والمراد بخزائن رحمة ربى : أرزاقه التى وزعها على عباده ، ونعمه التى أنعم بها عليهم .

﴿ وقتورًا ﴾ من التقتير بمعنى البخل . يقال : قتر فلان يقتر - بضم التاء وكسرها - إذا بالغ فى الإمساك والشح .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الظالمين الذين أعرضوا عن دعوتك ، وطالبوك بما ليس فى وسعك من تفجير الأرض بالأنهار ، ومن غير ذلك من مقترحاتهم الفاسدة ، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت : لو أنكم تملكون - أيها الناس - التصرف فى خزائن الأرزاق التى وزعها الله على خلقه ، إذًا لبخلتم وأمسكتم فى توزيعها عليهم ، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم فى العطاء ، مع أن خزائن الله لا تنفد أبدًا ، ولكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك .

قال بعضهم : وقوله : ﴿ لو أنتم تملكون ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن المسألة من باب الاشتغال . فأنتم مرفوع بفعل مقدر يفسره هذا الظاهر ، لأن لو لا يليها إلا الفعل ظاهرًا أو مضمرا . فهى كإن فى قوله - تعالى - : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ﴾ .. والأصل : لو تملكون ، فحذف الفعل لدلالة ما بعده عليه - والثانى : أنه مرفوع بكان ، وقد كثر حذفها بعد لو ، والتقدير : لو كنتم تملكون ...[1] .

والمقصود بالإمساك هنا : إمساكهم عن العطاء فى الدنيا ، وهذا لا ينافى قوله - تعالى - : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به ... ﴾ لأن ذلك حكاية عن أحوالهم فى الآخرة عندما يرون العذاب ، ويتمنون أن يفتدوا أنفسهم منه بأى شىء .

وقوله ﴿ إذًا ﴾ ظرف لتملكون . وقوله ﴿ لأمسكتم ﴾ جواب لو ، وقوله ﴿ خشية الإنفاق ﴾ علة للإمساك والبخل .

وقوله : ﴿ وكان الإنسان قتورًا ﴾ أى : مبالغًا فى البخل والإمساك .

قال الإمام ابن كثير : والله - تعالى - يصف الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٥١ .

وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعًا . إذا مسه الشر جزوعًا . وإذا مسه الخير منوعًا . إلا المصلين ﴾ .

ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، وهذا يدل على كرمه - تعالى - وإحسانه . وقد جاء فى الصحيحين : يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يمينه[1] .

وقال الآلوسى : وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى التى لا يبلغها الوهم ، حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله - تعالى - التى لا تتناهى ، وانفردوا بملكها من غير مزاحم ، لأمسكوا عن النفقة من غير مقتض إلا خشية الفقر . وإن شئت فوازن بقول الشاعر :

ولو أن دارك أنبتت لك أرضها ... إبـرًا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ... ليخيط قد قميصه لم تفعل

مع أن فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة ، ترى التفاوت الذى لا يحصر ... »[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على أن العبرة فى الإيمان ، ليست بعظم الخوارق ووضوحها ، وإنما العبرة بتفتح القلوب للحق ، واستعدادها لقبوله ، وساق - سبحانه - مثلاً لذلك من قصة موسى - عليه السلام - فقد أعطاه من المعجزات البينة ما يشهد بصدقه ، ولكن فرعون وجنده لم تزدهم تلك المعجزات إلا كفرًا وعنادًا ، فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٨١ .

فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

والمراد بالآيات التسع فى قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ﴾ : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ؛ والدم . قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .

وقد جاء الحديث عن هذه الآيات فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ... ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾[3] .

وقوله - عز وجل - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين ﴾[4] .

والمعنى : لا تظن - أيها الرسول الكريم - أن إيمان هؤلاء المشركين من قومك ، متوقف على إجابة ما طلبوه منك . وما اقترحوه عليك من أن تفجر لهم من الأرض ينبوعًا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب .. إلخ . لا تظن ذلك :

فإن الخوارق مهما عظمت لا تنشئ . الإيمان فى القلوب الجاحدة الحاقدة ، بدليل أننا قد أعطينا أخاك موسى تسع معجزات ، واضحات الدلالة على صدقه فى نبوته ، ولكن هذه المعجزات لم تزد المعاندين من قومه إلا كفرًا على كفرهم ورجسًا على رجسهم . فاصبر - أيها الرسول - على تعنت قومك وأذاهم ، كما صبر أولو العزم من الرسل قبلك .

وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفى أن هناك معجزات أخرى أعطاها الله - تعالى -

(١) سورة الشعراء الآيتان: ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .
(٣) سورة الشعراء الآية ٦٣ .
(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٢ .

لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول ، أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفى الزائد عنه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا القول - المروى عن ابن عباس وغيره - ظاهر جلى حسن قوى .. فهذه الآيات التسع ، التى ذكرها هؤلاء الأئمة ، هى المرادة هنا ...

وقد أوتى موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه .. وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا .

ثم قال : وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة ، قال : سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادى قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى حتى نسأله عن هذه الآية : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... ﴾ فسألاه : فقال النبى - ﷺ - : « لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسخروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفروا من الزحف » .. فقبَّلا يديه ورجليه .. .

ثم قال : « أما هذا الحديث فهو حديث مشكل . وعبد الله بن سلمة فى حفظه شىء ، وتكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات ، بالعشر الكلمات ، فإنها وصايا فى التوراة ، لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون ... »[1] .

والحق أن ما رجحه الإمام ابن كثير من أن المراد بالآيات التسع هنا : ما آتاه الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - من العصا ، واليد ... هو االذى تسكن إليه النفس ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ... ﴾ يؤيد أن المراد بها ما تقدم من العصا ، واليد ، والسنين .. ولأنها هى التى فيها الحجج ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - . أما تلك الوصايا التى وردت فى الحديث فلا علاقة لها بقيام الحجة على فرعون - كما قال الإمام ابن كثير - .

هذا ، والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ﴾ يرى بعضهم أنه

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٣ .

للنبى - ﷺ - والمسئولون هم المؤمنون من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .

وعلى هذا التفسير يكون قوله ﴿ إذ جاءهم ﴾ظرف لقوله ﴿ آتينا ﴾ وجملة ﴿ فاسأل بنى إسرائيل ﴾ معترضة بين العامل والمعمول .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، وقت أن أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه ، فاسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بنى إسرائيل عن ذلك ، فستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ما طالعوه فى التوراة .

والمقصود بسؤالهم : الاستشهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم ، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت ، أن تكون أقوى وأثبت فى تأييد المدعى .

قال الآلوسى : والمعنى : فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب عن ذلك ، إما لأن تظاهر الأدلة أقوى - فى التثبيت - ، وإما من باب التهييج والإلهاب ، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت فى كتابهم . وليس المقصود حقيقة السؤال . بل كونهم - أعنى المسئولين - من أهل علمه ، ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم »[1] .

ويرى آخرون أن الخطاب لموسى - عليه السلام - ، وعليه يكون السؤال إما بمعناه المشهور أو بمعنى الطلب ، ويكون قوله ﴿ إذ جاءهم ﴾ ظرفًا لفعل مقدر .

والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فقلنا له حين مجيئه إلى بنى إسرائيل : اسألهم عن أحوالهم مع فرعون ، أو اطلب منهم أن يؤمنوا بك ويصدقوك ، ويخرجوا معك حين تطلب من فرعون ذلك .

والفاء فى قوله : ﴿ فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورًا ﴾ هى الفصيحة . إذ المعنى : فامتثل موسى أمرنا ، وسأل بنى إسرائيل عن أحوالهم ، وطلب من فرعون أن يرسلهم معه ، بعد أن أظهر له من المعجزات ما يدل على صدقه ، فقال فرعون لموسى على سبيل التعالى والتهوين من شأنه - عليه السلام - : يا موسى إنى لأظنك مسحورًا .

أى : سُحرت فخولط عقلك واختل ، وصرت تتصرف تصرفًا يتنافى مع العقل السليم ، وتدعى دعاوى لا تدل على تفكير قويم .

فقوله ﴿ مسحورا ﴾ اسم مفعول . يقال : سحر فلان فلانًا يسحره سحرًا فهو مسحور ، إذا اختلط عقله .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٨٤ .

ويجوز أن يكون قوله ﴿ مسحورًا ﴾ بمعنى ساحر ، فيكون المعنى : إنى لأظنك يا موسى ساحرًا ، عليمًا بفنون السحر فقد أتيت بأشياء عجيبة يشير بذلك إلى انقلاب العصا حية بعد أن ألقاها - عليه السلام - .

وهذا شأن الطغاة فى كل زمان ومكان ، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم ، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم ... يرمون أهله - زورا وبهتانًا - بكل نقيصة .

وعندما يحكى القرآن الكريم ما رد به موسى على فرعون فيقول : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ .

أى : قال موسى لفرعون ردًا على كذبه وافترائه : لقد علمت يا فرعون أنه ما أوجد هذه الآيات التسع إلا الله - تعالى - خالق السموات والأرض ، وقد أوجدها - سبحانه - بصورة واضحة جلية ، حتى لكأنها البصائر فى كشفها للحقائق وتجليتها .

فقوله ﴿ بصائر ﴾ حال من ﴿ هؤلاء ﴾ أى : أنزل هذه الآيات حال كونها بينات واضحات تدلك على صدقى .

وفى هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق ، حيث كان يعلم علم اليقين أن موسى - عليه السلام - ليس مسحورًا ولا ساحرًا ، وأن الآيات التى جاء بها إنما هى من عند الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه - : مخاطبًا موسى : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قومًا فاسقين . فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ، قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾ توبيخ آخر لفرعون ، وتهديد له لأنه وصف نبيًا من أنبياء الله - تعالى - بأنه مسحور .

ومثبورًا بمعنى مهلك مدمر . يقال : ثبر الله - تعالى - الظالم يثبره ثبورًا ، إذا أهلكه .

أو بمعنى مصروفًا عن الخير . مطبوعًا على الشر من قولهم : ما ثبرك يا فلان عن هذا الأمر ؟ أى : ما الذى صرفك ومنعك عنه .

والظن هنا بمعنى اليقين ، والمعنى : وإنى لأعتقد يا فرعون أن مصيرك إلى الهلاك والتدمير ،

---

(١) سورة النمل الآيات ١٢ - ١٤ .

بسبب إصرارك على الكفر والطغيان ، من بعد إتيانى بالمعجزات الدالة على صدقى فيما أبلغه عن ربى الذى خلقنى وخلقك وخلق كل شىء .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما هم به فرعون ، بعد أن أخرسه موسى - عليه السلام - بقوة حجته ، وثبات جنانه فقال : ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ ..

والاستفزاز : الإزعاج والاستخفاف ، والمراد - به هنا : الطرد والقتل .

والضمير المنصوب فى ﴿ يستفزهم ﴾ يعود إلى موسى وقومه بنى إسرائيل .

أى : فأراد فرعون بعد أن وبخه موسى وهدده ، أن يطرده وقومه من أرض مصر التى يسكنون معه فيها . وأن يقطع دابرهم ، كما أشار إلى ذلك - سبحانه - فى قوله : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما ترتب على ما أراده فرعون من استفزاز لموسى وقومه فقال : ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعًا . وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ... ﴾ .

أى : أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر ، وأن يهلكهم .. فكانت النتيجة أن عكسنا عليه مكره وبغيه ، حيث أهلكناه هو وجنده بالغرق ، دون أن نستثنى منهم أحدًا .

وقلنا من بعد هلاكه لبنى إسرائيل على لسان نبينا موسى - عليه السلام - : اسكنوا الأرض التى أراد أن يستفزكم منها فرعون وهى أرض مصر .

قال الآلوسى : وهذا ظاهر إن ثبت أنهم دخلوها بعد أن خرجوا منها ، وبعد أن أغرق الله فرعون وجنده . وإن لم يثبت فالمراد من بنى إسرائيل ذرية أولئك الذين أراد فرعون استفزازهم ، واختار غير واحد أن المراد من الأرض . الأرض المقدسة ، وهى أرض الشام[2] .

وعلى أية حال فالآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الظالمين ، وفى توريث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم .

ورحم الله الإمام ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية . وفى هذا بشارة لمحمد - ﷺ - بفتح مكة . مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة هموا

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٨٦ .

بإخراج الرسول - ﷺ - منها ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ... ﴾ ولهذا أورث الله - تعالى - رسوله مكة ، فدخلها ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا ، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين من بنى إسرائيل ، مشارق الأرض ومغاربها . وأورثهم بلاد فرعون ... »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بقوله : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ .

أى : فإذا جاء وعد الدار الآخرة ، أى : الموعد الذى حدده الله - تعالى - لقيام الساعة ، أحييناكم من قبوركم ، وجئنا بكم جميعًا أنتم وفرعون وقومه مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم بحكمنا العادل .

واللفيف : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومعناه الجماعة التى اجتمعت من قبائل شتى .

يقال : هذا طعام لفيف ، إذا كان مخلوطًا من جنسين فصاعدا .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبًا مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون من محاورات ومجادلات ، وبينت لنا سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تتخلف فى نصرة المؤمنين ، ودحر الكافرين .

ثم عادت السورة الكريمة إلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وأثنت على المؤمنين من أهل الكتاب الذين تأثروا تأثرا بليغًا عند سماعه ، فقال - تعالى - :

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٤ .

وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل .. ﴾ عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله .. ﴾ وهكذا طريقة العرب فى كلامها ، تأخذ فى شىء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً ، والحديث شجون ... »[1] .

والمراد بالحق الأول : الحكمة الإلهية التى اقتضت إنزاله ، والمراد بالحق الثانى : ما اشتمل عليه هذا القرآن من عقائد وعبادات وآداب وأحكام ومعاملات ...

والباء فى الموضعين للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير القرآن الذى دل الكلام على أن الحديث عنه .

والمعنى : وإن هذا القرآن ما أنزلناه إلا ملتبسًا بالحق الذى تقتضيه حكمتنا ، وما أنزلناه إلا وهو مشتمل على كل ما هو حق من العقائد والعبادات وغيرهما . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته .

قال بعض العلماء : بين - جل وعلا - فى هذه الآية الكريمة ، أنه أنزل هذا القرآن بالحق ، أى : ملتبسًا به متضمنًا له ، فكل ما فيه حق ، فأخباره صدق . وأحكامه عدل ، كما قال - تعالى - : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته ... ﴾ وكيف لا ، وقد أنزله - سبحانه - بعلمه ، كما قال - تعالى - ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا ﴾ .

وقوله ﴿ وبالحق نزل ﴾ يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل فى طريق إنزاله ، لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوى لا يغلب عليه ، حتى يغير فيه ، أمين لا يغير ولا يبدل ، كما أشار إلى هذا - سبحانه - بقوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين ﴾[2] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٠ ص ١٨٧ .
(٢) أضواء البيان جـ ص ٥٧٥ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله .

وقوله - سبحانه -: ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرًا ﴾ ثناء على الرسول - ﷺ - الذى نزل عليه القرآن ، بعد الثناء على القرآن فى ذاته .

أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا مبشرًا لمن أطاعنا بالثواب ، وإلا منذرًا لمن عصانا بالعقاب . ولم نرسلك لتخلق الهداية فى القلوب ، فإن ذلك من شأن الله تعالى .

ثم بين - سبحانه - الحكم التى من أجلها أنزل القرآن مفصلاً ومنجمًا ، فقال : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾ .

ولفظ : ﴿ قرآنا ﴾ منصوب بفعل مضمر أى : وآتيناك قرآنا .

وقوله : ﴿ فرقناه ﴾ أى : فصلناه . أو فرقنا فيه بين الحق والباطل . أو أنزلناه منجمًا مفرقًا .

قال الجمل : وقراءة العامة ﴿ فرقناه ﴾ بالتخفيف . أى : بينا حلاله وحرامه ...

وقرأ على وجماعة من الصحابة وغيرهم بالتشديد وفيه وجهان : أحدهما : أن التضعيف للتكثير . أى : فرقنا آياته بين أمر ونهى وحكم وأحكام . ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار . والثانى : أنه دال على التفريق والتنجيم »[1] .

وقوله ﴿ على مكث ﴾ أى : على تؤدة وتمهل وحسن ترتيل ، إذ المكث التلبث فى المكان ، والإقامة فيه انتظارًا لأمر من الأمور .

والمعنى : « ولقد أنزلنا إليك - أيها الرسول - هذا القرآن ، مفصلاً فى أوامره ونواهيه ، وفى أحكامه وأمثاله ... ومنجما فى نزوله لكى تقرأه على الناس على تؤدة وتأن وحسن ترتيل ، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة ، وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقًا عمليًا دقيقًا .

وهكذا فعل الصحابة - رضى الله عنهم - : فإنهم لم يكن القرآن بالنسبة لهم متعة عقلية ونفسية فحسب ، وإنما كان القرآن بجانب حبهم الصادق لقراءته وللاستماع إليه منهجًا لحياتهم ، يطبقون أحكامه وأوامره ونواهيه وآدابه ... فى جميع أحوالهم الدينية والدنيوية .

قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، أنهم كانوا يستقرئون عن النبى - ﷺ - ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها « فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا » .

---

(١) حاشية الجمل جـ ٢ ص ٦٥١ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أى : ونزلناه تنزيلاً مفرقًا منجمًا عليك يا محمد فى مدة تصل إلى ثلاث وعشرين سنة ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وعلى حسب الحوادث والمصالح ، وليس من أجل تيسير حفظه فحسب .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - أن يخاطب المشركين بما يدل على هوان شأنهم . وعلى عدم المبالاة بهم ، فقال - تعالى - : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا ... ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين . الذين طلبوا منك ما هو خارج عن رسالتك ، والذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين : قل لهم : آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به ، لأن إيمانكم به ، لا يزيده كمالاً ، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئًا ، فإن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم الله العلم قبل نزول هذا القرآن ، وميزوا بين الحق والباطل ، كانوا إذا تلى عليهم هذا القرآن ، - كأمثال عبد الله بن سلام وأصحابه « يخرون للأذقان سجدًا » أى : يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - شكرًا له على إنجاز وعده ، بإرسالك - أيها الرسول الكريم - وبإنزال القرآن عليك ، كما وعد بذلك - سبحانه - فى كتبه السابقة .

فالجملة الكريمة : ﴿ إن الذين أوتوا العلم .. ﴾ تعليل لعدم المبالاة بهؤلاء المشركين الجاهلين ، والضمير فى قوله : ﴿ من قبله ﴾ يعود إلى القرآن الكريم .

وقوله : ﴿ يخرون للأذقان سجدًا ﴾ يدل على قوة إيمانهم ، وعلى سرعة تأثرهم بهذا القرآن ، فهم بمجرد تلاوته عليهم ، يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى - .

وخصت الأذقان بالذكر ، لأن الذقن أول جزء من الوجه يقرب من الأرض عند السجود ، ولأن ذلك يدل على نهاية خضوعهم لله - تعالى - وتأثرهم بسماع القرآن الكريم :

ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه فى سجودهم فقال : ﴿ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ .

أى : ويقولون فى سجودهم ، ننزه ربنا - عز وجل - عن كل ما يقوله الجاهلون بشأنه ، إنه - تعالى - كان وعده منجزًا ومحققا لا شك فى ذلك .

ثم كرر - سبحانه - مدحه لهم فقال : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ، ويزيدهم ﴾ أى سماع القرآن ﴿ خشوعًا ﴾ وخضوعًا لله - عز وجل .

وكرر - سبحانه - خرورهم على وجوههم ساجدين لله - تعالى - لاختلاف السبب ، فهم أولا أسرعوا بالسجود لله تعظيمًا له - سبحانه - وشكرًا له على إنجازه لوعده .

وهم ثانيًا أسرعوا بالسجود ، لفرط تأثرهم بمواعظ القرآن الكريم .

فأنت ترى هاتين الآيتين قد أمرتا النبى - ﷺ - بالإعراض عن المشركين ، وباحتقارهم وبازدراء شأنهم ، فإن الذين هم خير منهم وأفضل وأعلم قد آمنوا .

وفى ذلك ما فيه من التسلية لرسول الله - ﷺ - فكأن الله - تعالى - يقول له : يا محمد تَسلَّ عن إيمان هؤلاء الجهلاء ، بإيمان العلماء .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين أن البكاء من خشية الله ، يدل على صدق الإيمان ، وعلى نقاء النفس ، ومن الأحاديث التى وردت فى فضل ذلك ، ما أخرجه الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بآيتين دالتين على تفرده - سبحانه - بالتقديس والتعظيم والتمجيد والعبادة ، فقال - تعالى - :

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى .. ﴾ ذكروا روايات منها : ما أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : وصلّى رسول الله - ﷺ - بمكة ذات يوم فدعا الله - تعالى - فقال : يا الله ، يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو

إلهين فنزلت[١] .

ومعنى : ادعوا ، سموا ، و ﴿ أو ﴾ للتخيير . و ﴿ أيا ﴾ اسم شرط جازم منصوب على المفعولية بقوله : ﴿ ادعوا ﴾ والمضاف إليه محذوف ، أى : أى الاسمين . ﴿ وتدعو ﴾ مجزوم على أنه فعل الشرط لأيًّا ، وجملة ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ واقعة موقع جواب الشرط ، و ﴿ ما ﴾ مزيدة للتأكيد . والحسنى : مؤنث الأحسن الذى هو أفعل تفضيل .

والمعنى : قل يا محمد للناس : سموا المعبود بحق بلفظ الله أو بلفظ الرحمن بأى واحد منهما سميتموه فقد أصبتم ، فإنه - تعالى - له الأسماء الأحسن من كل ما سواه ، وقال - سبحانه - : ﴿ فله الأسماء الحسنى ﴾ للمبالغة فى كمال أسمائه - تعالى - وللدلالة على أنه ما دامت أسماؤه كلها حسنة ، فلفظ الله ولفظ الرحمن كذلك ، كل واحد منهما حسن .

وقد ذكر الجلالان عند تفسيرهما لهذه الآية ، أسماء الله الحسنى ، فارجع إليها إن شئت[٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ تعليم من الله - تعالى - لنبيه كيفية أفضل طرق القراءة فى الصلاة .

فالمراد بالصلاة هنا : القراءة فيها . والجهر بها : رفع الصوت أثناءها ، والمخافتة بها : خفضه بحيث لا يسمع . يقال : خفت الرجل بصوته إذا لم يرفعه ، والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : ولا تجهر يا محمد فى قراءتك خلال الصلاة ، حتى لا يسمعها المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها ، حتى لا يسمعها من يكون خلفك ، بل أسلك فى ذلك طريقا وسطا بين الجهر والمخافتة .

ومما يدل على أن المراد بالصلاة هنا : القراءة فيها ، ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس .

قال : نزلت ورسول الله - ﷺ - مختف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون ، سبوا القرآن ، ومن أنزله ، ومن جاء به ، فأمره الله بالتوسط .

وقيل : المراد بالصلاة هنا : الدعاء . أى : لا ترفع صوتك وأنت تدعو الله ، ولا تخافت به . وقد روى ذلك عن عائشة ، فقد أخرج الشيخان عنها أنها نزلت فى الدعاء .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٩١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٦٥٦ .

ويبدو لنا أن التوجيهات التى بالآية الكريمة تتسع للقولين ، أى : أن على المسلم أن يكون متوسطًا فى رفع صوته بالقراءة فى الصلاة ، وفى رفع صوته حال دعائه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ... ﴾ .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - : الحمد الكامل ، والثناء الجميل ، لله - تعالى - وحده ، الذى لم يتخذ ولدًا ؛ لأنه هو الغنى ، كما قال - تعالى - : ﴿ قالوا اتخذ اللهولدًا ، سبحانه هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض .. ﴾[1] .

ولم يكن له ، - سبحانه - ﴿ شريك فى الملك ﴾ بل هو المالك لكل شىء ، ليس له فى هذا الكون من يزاحمه أو يشاركه فى ملكه أو فى عبادته . كما قال - تعالى - : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾[2] .

وكما قال - عز وجل - : ﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذًا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾[3] .

﴿ ولم يكن له ولى من الذل ﴾ أى : ولم يكن له - سبحانه - ناصر ينصره من ذل أصابه أو نزل به ، لأنه - عز وجل - هو أقوى الأقوياء ، وقاهر الجبابرة ، ومذل الطغاة ، ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

﴿ وكبره تكبيرا ﴾ أى : وعظمه تعظيمًا تامًا كاملاً ، يليق بجلاله عز وجل .

قال الإمام ابن كثير : عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن النبى - ﷺ - كان يعلم أهله كبيرهم وصغيرهم هذه الآية . ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ... ﴾ .

ثم قال ابن كثير : وقد جاء فى حديث أن رسول الله - ﷺ - سماها آية العز[4] .

---

(١) سورة يونس الآية ٦٨ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٤٢ ، ٤٣ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ٩١ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٢٩ .

وبعد : فهذا تفسير لسورة الإسراء نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصًا لوجهه ، ونافعًا لعباده ، وشافعًا لنا يوم نلقاه ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجى عفو ربه

د . محمد سيد طنطاوى

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤ هـ

الموافق ١٦ من فبراير سنة ١٩٨٤ م

تفسير

سُورَةُ الكهفِ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فقد كان من فضل الله - عز وجل - على ، أن أعارتنى جامعة الأزهر إلى قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وقد امتدت هذه الإعارة لمدة أربع سنوات ، من سنة ١٤٠٠ إلى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٠ - ١٩٨٤ م .

وقد وفقني الله - تعالى - خلال هذه المدة ، أن أكتب - وأنا فى الجوار الطيب - تفسيراً محرراً ونافعاً - إن شاء الله - لسور : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والنحل ، والإسراء .

وهأنذا - وأنا فى الأشهر الأخيرة من الإعارة - انتهى من كتابة تفسير سورة الكهف .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، وأن يعيننى على خدمة كتابه الكريم ، وعلى السير فى تفسيره حتى النهاية ، وأن يزيل من طريقى كل عقبة تمنعنى من ذلك .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ .

١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

تمهيد

١ - سورة الكهف هى السورة الثامنة عشرة فى ترتيب سور المصحف ، فقد سبقتها فى الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران .. إلخ .

أما ترتيبها فى النزول ، فهى السورة الثامنة والستون ، فقد ذكر قبلها صاحب الاتقان سبعا وستين سورة ، كما ذكر أن نزولها كان بعد سورة الغاشية(١) .

ومما ذكره صاحب الاتقان يترجح لدينا ، أن سورة الكهف من أواخر السور المكية التى نزلت على النبى - ﷺ - قبل الهجرة ، إذ من المعروف عند العلماء أن السور المكية زهاء اثنتين وثمانين سورة .

قال الآلوسى : سورة الكهف ، ويقال لها سورة أصحاب الكهف .. وهى مكية كلها فى المشهور ، واختاره الدانى .. وعدها بعضهم من السور التى نزلت جملة واحدة .

وقيل : مكية إلا قوله - تعالى - ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى .. ﴾ الآية .

وقيل هى مكية إلا أولها إلى قوله - تعالى - ﴿ جرزا ﴾ وقيل : مكية إلا قوله - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا .. ﴾ إلى آخر السورة .

وهى مائة وإحدى عشرة آية عند البصريين ، ومائة وعشر آيات عند الكوفيين ...(٢) .

والذين تطمئن إليه النفس أن سورة الكهف كلها مكية ، وقد ذكر ذلك دون أن يستثنى منها شيئا الإمام ابن كثير ، والزمخشرى ،وأبو حيان ، وغيرهم ، وفضلا عن ذلك فالذين قالوا بأن فيها آيات مدنية ، لم يأتوا بما يدل على صحة قولهم ، كما سيتبين لنا عند تفسير الآيات التى قيل بأنها مدنية .

٢ - وقد صدر الامام ابن كثير تفسيره لهذه السورة ، بذكر الأحاديث التى وردت فى فضلها فقال ما ملخصه : ذكر ما ورد فى فضلها ، والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وأنها عصمة من الدجال .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٧ السيوطى .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ١٩٩ .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن معدان بن أبى طلحة ، عن أبى الدرداء عن النبى - ﷺ - قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ، عُصِم من الدجال » .

وفى رواية عن أبى الدرداء ، عن النبى - ﷺ - : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » .

وأخرج الحاكم عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة ، أضاء له من النور مابينه وبين الجمعتين[1] » .

٣ - عرض إجمالى لسورة الكهف :

(أ) عندما نقرأ سورة الكهف ، نراها فى مطلعها تفتتح بالثناء على الله - تعالى - وبالتنويه بشأن النبى - ﷺ - وبالقرآن الذى نزل عليه ثم تنذر الذين نسبوا إلى الله - عز وجل - مالا يليق به ، وتصمهم بأقبح ألوان الكذب ، ثم تنهى النبى - ﷺ - عن التأسف عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

قال - تعالى - : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديداً من لدنه ،ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا . ماكثين فيه أبدا . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . مالهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ .

(ب) ثم ساقت السورة بعد ذلك فيما يقرب من عشرين آية قصة أصحاب الكهف ، فحكت أقوالهم عندما التجأوا إلى الكهف ، وعندما استقروا فيه واتخذوه مأوى لهم ، كما حكت جانبا من رعاية الله ، تعالى ، لهم ،ورحمته بهم .. ثم صورت أحوالهم وهم رقود ، وذكرت تساؤلهم فيما بينهم بعد أن بعثهم الله - تعالى - من رقادهم الطويل ، وإرسالهم أحدهم إلى المدينة لإحضار بعض الأطعمة ، وإطلاع الناس عليهم . وتنازعهم فى أمرهم ، ونهى الله - تعالى - عن الجدال فى شأنهم ، كما ذكرت المدة التى لبثوها فى كهفهم .

قال - تعالى - ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض . أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحداً ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٣٠ طبعة دار الشعب .

(جـ) ثم أمرت السورة الكريمة النبى - ﷺ - برعاية الفقراء من أصحابه . ومدحتهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه .. كما أمرته بأن يجهر بكلمة الحق ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فإن الله - تعالى - قد أعد لكل فريق ما يستحقه من ثواب أو عقاب .

قال - تعالى - ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

(د) ثم ضربت السورة الكريمة مثلا للشاكرين والجاحدين ، وصورت بأسلوب بليغ مؤثر تلك المحاورة الرائعة التى دارت بين صاحب الجنتين الغنى المغرور ، وبين صديقه الفقير المؤمن الشكور ، وختمت هذه المحاورة ببيان العاقبة السيئة لهذا الجاهل الجاحد .

استمع إلى القرآن وهو يبين ذلك بأسلوبه فيقول : ﴿ وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا ﴾ .

(هـ) ثم أتبعت السورة هذاالمثل للرجلين ، بمثال آخر لزوال الحياة الدنيا وزينتها ، وببيان أحوال الناس يوم القيامة ، وأحوال المجرمين عندما يرون صحائف أعمالهم وقد خلت من كل خير .

قال - تعالى - : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾.

(و) وبعد أن ذكرت السورة الكريمة طرفا من قصة آدم وإبليس ، وبينت أن هذا القرآن قد صرف الله فيه للناس من كل مثل ، وحددت وظيفة المرسلين عليهم الصلاة والسلام .

بعد كل ذلك ساقت فى أكثر من عشرين آية قصة موسى مع الخضر - عليهما السلام - وحكت ما دار بينهما من محاورات . انتهت بأن قال الخضر لموسى : ﴿ وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا ﴾.

(ز) ثم جاءت بعد قصة موسى والخضر - عليهما السلام - قصة ذى القرنين فى ست

عشرة آية ، بين الله ، تعالى ، فيها جانبا من النعم التى أنعم بها على ذى القرنين ، ومن الأعمال العظيمة التى مكنه - سبحانه - من القيام بها .

قال - تعالى - ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ﴾.

(ح) ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ما أعده - سبحانه - للكافرين من سوء العذاب وما أعده للمؤمنين من جزيل الثواب ، وببيان مظاهر قدرته ، - عز وجل - التى توجب على كل عاقل أن يخلص له العبادة والطاعة .

قال - تعالى - : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا . قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددا . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾.

٤ - وبعد : فهذا عرض إجمالى لأهم الموضوعات التى اشتملت عليها سورة الكهف ، ومن هذا العرض نرى :

(أ) أن القصص قد اشتمل على جانب كبير من آياتها ، ففى أوائلها نرى قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب . ثم بعد ذلك جاء طرف من قصة آدم وإبليس ، ثم جاءت قصة موسى والخضر - عليهما السلام - ثم ختمت بقصة ذى القرنين .

وقد وردت هذه القصص فى أكثر من سبعين آية ، من سورة الكهف المشتملة على عشر آيات بعد المائة .

(ب) اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عنه ، وعلى إثبات أن هذا القرآن من عنده - تعالى .

نرى ذلك فى أمثال قوله - تعالى - ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾.

وفى غير ذلك من الآيات التى حكت لنا تلك القصص المتعددة .

(جـ) برز فى السورة عنصر الموازنة والمقارنة بين حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار ، ترى ذلك فى قصة أصحاب الكهف ، وفى قصة الرجلين وفى قصة ذى القرنين .

وفى الآيات التى ذكرت الكافرين وسوء مصيرهم ، ثم أعقبت ذلك بذكر المؤمنين وحسن مصيرهم كما برز فيها عنصر التسلية للرسول - ﷺ - والتهوين من شأن أعدائه ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾.

كما برز فيها التصوير المؤثر لأهوال يوم القيامة كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾.

والخلاصة : أن سورة الكهف قد - ساقت - بأسلوبها البليغ الذى يغلب عليه طابع القصة - ألوانا من التوجيهات السامية ، التى من شأنها أنها تهدى إلى العقيدة الصحيحة ، وإلى السلوك القويم . وإلى الخلق الكريم ، وإلى التفكير السليم الذى يهدى إلى الرشد ، وإلى كل ما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

قال - تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

سورة الكهف هى إحدى السور الخمس ، التى افتتحت بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء التام ، هو الله رب العالمين .

والسور الأربع الأخرى التى افتتحت بقوله - تعالى - : ﴿ الحمد لله ﴾ هى : الفاتحة ، والأنعام ، وسبأ ، وفاطر .

وقد بينا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أن هذه السور وإن كانت قد اشتركت فى هذا

الافتتاح ، إلا أن لكل سورة طريقتها فى بيان الأسباب التى من شأنها أن تقنع الناس ، بأن المستحق للحمد المطلق هو الله - تعالى - وحده[1] .

وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة على الله - تعالى - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ؛ إذ هو الخالق لكل شىء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو فى الحقيقة حمد لله ، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .

وقد بين بعض المفسرين الحكمة فى افتتاح بعض السور بلفظ الحمد دون المدح أو الشكر فقال ما ملخصه : « أعلم أن المدح أعم من الحمد ، وأن الحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل ، فقد يمدح الرجل لعقله ، ويمدح اللؤلؤ لحسن شكله .

وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، على ما يصدر منه من الإنعام ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام ، سواء أكان ذلك الإنعام واصلا إليك أو إلى غيرك ، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحدك ، فثبت أن الحمد أعم من الشكر .

وكان قوله ﴿ الحمد لله ﴾ تصريحا بأن المؤثر فى وجود العالم هو الفاعل المختار ، الذى وصلت نعمه إلى جميع خلقه ، لا إلى بعضهم .. »[2] .

وقوله : ﴿ الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما .. ﴾ بيان للأسباب التى توجب على الناس أن يجعلوا حمدهم وعبادتهم لله - تعالى - وحده ، إذ الوصف بالموصول ، يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله .

والعوج - بكسر العين - أكثر ما يكون استعمالا فى المعانى ، تقول ، هذا كلام لا عوج فيه ، أى : لاميل فيه .

أما العوج - بفتح العين - فأكثر ما يكون استعمالا فى الأعيان تقول : هذا حائط فيه عوج .

وقوله : ﴿ قيما ﴾ أى : مستقيما معتدلا لا ميل فيه ولا زيغ وهما - أى : عوجا وقيما -

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٢٧ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى لأول سورة الأنعام جـ ٤ ص ٣ . طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٣٤ هـ .

حالان من الكتاب ويصح أن يكون قوله ﴿ قيما ﴾ منصوبا بفعل محذوف أى : جعله قيما .

والمعنى : الحمد الكامل ، والثناء الدائم ، لله - تعالى - وحده ، الذى أنزل على عبده محمد - ﷺ - القرآن الكريم ، ولم يجعل فيه شيئا من العوج أو الاختلاف أو التناقض ، لا فى لفظه ، ولا فى معناه ، وإنما جعله فى أسمى درجات الاستقامة والإحكام .

وإنما أمر الله - تعالى - الناس بأن يحمدوه لإنزال الكتاب على عبده محمد - ﷺ - لأن فى هذا الكتاب من الهدايات ما يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وما يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وفى التعبير عن الرسول - ﷺ - بالعبد ، مضافا إلى ضميره - تعالى - ، تعظيم وتشريف له - ﷺ - وإشعار بأنه مهما سمت منزلته ، وعلت مكانته « فهو عبد الله - تعالى - ، وأن الذين عبدوا أو أشركوا مع الله - تعالى - بعض مخلوقاته ، قد ضلوا ضلالا بعيدا .

والتعبير عن القرآن الكريم بالكتاب ، إشارة إلى كماله وشهرته ، أى : أنزل - سبحانه - على عبده محمد - ﷺ - الكتاب الكامل فى بابه ، الغنى عن التعريف ، الحقيق باختصاص هذا الاسم به ، المعروف بهذا الاسم من بين سائر الكتب .

والمراد به إما جميع القرآن الكريم سواء منه ما نزل فعلا وما هو مترقب النزول ، وإما ما نزل منه فقط حتى نزول هذه الآية فيكون من باب التعبير عن البعض بالكل تحقيقا للنزول للجميع .

وجاء لفظ « عوجا » بصيغة التنكير ، ليشمل النفى جميع أنواع الميل والعوج ، إذ النكرة فى سياق النفى تعم ، أى : لم يجعل له - سبحانه - أى شئ من العوج . وقوله : ﴿ قيما ﴾ تأكيد فى المعنى لقوله - سبحانه - : ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ لأنه قد يكون الشىء مستقيما فى الظاهر ، إلا أنه لا يخلو عن أعوجاج فى حقيقة الأمر ، ولذا جمع - سبحانه - بين نفى العوج ، وإثبات الاستقامة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة ، وفى أحدهما غنى عن الآخر ؟

قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح ، وقيل : قيما على سائر الكتب ، مصدقا لها ، شاهدا بصحتها ، وقيل : قيما بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع[1] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٢ .

وشبيه بهذه الآية فى مدح القرآن الكريم قوله - تعالى - : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - . ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم .. ﴾[2] .

وقوله - عز وجل : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾[3] .

وقوله - تعالى - : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[4] .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان وظيفة القرآن الكريم ، بعد أن وصفه بالاستقامة والإحكام ، فقال : ﴿ لينذر بأسا شديدا من لدنه ... ﴾ .

والإنذار : الإعلام المقترن بتخويف وتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

واللام فى قوله ﴿ لينذر ﴾ متعلقة بأنزل ، والبأس : العذاب ، وهو المفعول الثانى للفعل ينذر ، ومفعوله الأول محذوف .

والمعنى : أنزل - سبحانه - على عبده الكتاب حالة كونه لم يجعل له عوجا بل جعله مستقيما ، لينذر الذين كفروا عذابا شديدا ، صادرا من عنده - تعالى - .

والتعبير بقوله ﴿ من لدنه ﴾ يشعر بأنه عذاب ليس له دافع ، لأنه من عند الله تعالى - القاهر فوق عباده .

أما وظيفة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، فقد بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا . ماكثين فيه أبدا ﴾ .

أى : أنزل الله هذا القرآن ، ليخوف به الكافرين من عذابه ، وليبشر به المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات ، أن لهم من خالقهم - عز وجل - أجراً حسنا هو الجنة ونعيمها ، ﴿ ماكثين فيه أبدا ﴾ أى : مقيمين فيه إقامة باقية دائمة لا انتهاء لها ، فالضمير فى قواله ﴿ فيه ﴾ يعود إلى الأجر الذى يراد به الجنة .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩ .
(٣) سورة الزمر الآية ٢٧ ، ٢٨ .
(٤) سورة النساء الآية ٨٢ .

قال - تعالى - : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾[1] .

ثم خص - سبحانه - بالإنذار فرقة من الكافرين ، نسبوا إلى الله - تعالى - ما هو منزه عنه ، فقال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم : كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ .

فقوله - سبحانه - هنا : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا .. ﴾ معطوف على قوله قبل ذلك ﴿ لينذر بأسا شديدا من لدنه ﴾ من باب عطف الخاص على العام لأن الانذار فى الآية الأولى يشمل جميع الكافرين ومن بينهم الذين نسبوا إلى الله - تعالى - الولد .

والمراد بهم اليهود والنصارى ، وبعض مشركى العرب ، قال - تعالى - ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾[2] .

وقال - سبحانه - : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾[3] .

قال الألوسى : وترك - سبحانه - إجراء الموصول على الموصوف هنا ، حيث لم يقل وينذر الكافرين الذين قالوا .. كما قال فى شأن المؤمنين : ويبشر المؤمنين الذين .. للإيذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه . وإيثار صيغة الماضى فى الصلة ، للدلالة ، على تحقيق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق[4] .

وقوله - تعالى - : ﴿ مالهم به من علم ولا لآبائهم ﴾ توبيخ لهم على تفوههم بكلام يدل على إيغالهم فى الجهل والبهتان .

أى : ما نسبوه إلى الله - تعالى - من الولد ، ليس لهم بهذه النسبة علم ، وكذلك ليس لآبائهم بهذه النسبة علم ، لأن ذلك مستحيل له - تعالى - ، كما قال - عز وجل - : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ﴾[5] .

و « من» فى قوله : ﴿ ما لهم به من علم ﴾ مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة مستأنفة ،

---

(١) سورة مريم الآية ٩٧ .
(٢) سورة التوبة الآية ٣٠ .
(٣) سورة النحل الآية ٥٧ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٠٣ .
(٥) سورة الأنعام الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ .

و « لهم » خبر مقدم ، و « من علم » مبتدأ مؤخر ، وقوله ﴿ ولا لآبائهم ﴾ معطوف على الخبر .

أى : مالهم بذلك شىء من العلم أصلا ، وكذلك الحال بالنسبة لآبائهم ، فالجملة الكريمة تنفى ما زعموه نفيا يشملهم ويشمل الذين سبقوهم وقالوا قولهم .

قال الكرخى : فإن قيل : اتخاذ الولد محال فى نفسه ، فكيف قال : ﴿ ما لهم به من علم ؟ ﴾ فالجواب أن انتفاء العلم بالشىء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد يكون لأنه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ، ونظيره قوله - تعالى - : ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ ذم شديد لهم على ما نطقوا به من كلام يدل على فرط جهلهم ، وعظم كذبهم .

وكبر : فعل ماض لإنشاء الذم ، فهو من باب نعم وبئس ، وفاعله ضمير محذوف ، مفسّر بالنكرة بعده وهى قوله ﴿ كلمة ﴾ المنصوبة على أنها تمييز ، والمخصوص بالذم محذوف .

والتقدير : كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة الشنعاء التى تفوهوا بها ، وهى قولهم : اتخذ الله ولدا فإنهم ما يقولون إلا قولا كاذبا محالا على الله - تعالى - ومخالفا للواقع ؛ ومنافيا للحق والصواب .

وفى هذا التعبير ما فيه من استعظام قبح ما نطقوا به ، حيث وصفه - سبحانه - بأنه مجرد كلام لاكته ألسنتهم ، ولا دليل عليه سوى كذبهم وافترائهم .

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿ كبرت كلمة ﴾ قرئ ، كبرت كلمة بالرفع على الفاعلية ، وبالنصب على التمييز ، والنصب أقوى وأبلغ ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أكبرها كلمة .

وقوله ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ صفة للكلمة تفيد استعظاما لا جترائهم على النطق به ، وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس ويحدثون أنفسهم به من المنكرات ، لايتمالكون أن يتفوهوا به ، ويطلقوا به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه تشوّرا من إظهاره ؛ فكيف بهذا المنكر ؟

فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى « كبرت » ؟ قلت : إلى قولهم اتخذ الله ولدا . وسميت

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٤ .

كلمة كما يسمون القصيدة بها[١] .

وشبيه بهذه الآية فى استعظام ما نطقوا به من قبح قوله - تعالى - : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾[٢] .

ثم ساق - سبحانه - ما يسلى الرسول - ﷺ - عما أصابه من حزن بسبب إعراض المشركين عن دعوة الحق ، فقال - تعالى - : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم - أولا - أن لفظة ﴿ لعل ﴾ تكون للترجى فى المحبوب ، وللإشفاق فى المحذور . واستظهر أبو حيان أن ﴿ لعل ﴾ هنا للإشفاق عليه - ﷺ - أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم .

وقال بعضهم إن ﴿ لعل ﴾ هنا للنهى . أى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم .. وهو الأظهر ، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك ، قال - تعالى - : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .. ﴾[٣] .

وقوله ﴿ باخع ﴾ من البخع ، وأصله أن تبلغ بالذبح البخاع - بكسر الباء - وهو عرق يجرى فى الرقبة . وذلك أقصى حد الذبح . يقال : بخع فلان نفسه بخعا وبخوعا . أى : قتلها من شدة الغيظ والحزن ، و قوله : ﴿ على آثارهم ﴾ أى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك ، وقوله ﴿ أسفا ﴾ أى : هما وغما مع المبالغة فى ذلك ، وهو مفعول لأجله .

والمعنى : لا تهلك نفسك - أيها الرسول الكريم - هما وغما ، بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين . وبسبب إعراضهم عن دعوتك ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ ، و ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ .

قال الزمخشرى : شبهه - سبحانه - وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به ، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم ، برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ؛ ويبخع نفسه وجدا عليهم ، وتلهفا على فراقهم[٤] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٢ .

(٢) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٢ .

(٣) أضواء البيان جـ ٤ ص ١٤ الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٤) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ تعليل للنهى المقصود من الترجى فى قوله : ﴿ فلعلك باخع ... ﴾ وزيادة فى تسليته - ﷺ - عما أصابه من غم وحزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

أى : إنا بمقتضى حكمتنا - أيها الرسول الكريم - قد جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات وأنهار وبنيان .. زينة لها ولأهلها ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ أى: لنختبرهم عن طريق ما جعلنا زينة للأرض ولأهلها : أيهم أتبع لأمرنا ونهينا ، وأسرع فى الاستجابة لطاعتنا ، وأبعد عن الاغترار بشهواتها ومتعها . وإنا - أيضا - بمقتضى حكمتنا ، لجاعلون ما عليهم من هذه الزينة فى الوقت الذى نريده لنهاية هذه الدنيا ، « صعيدا » ، أى : ترابا « جرزا » أى : لا نبات فيه ، يقال أرض جرز ، أى : لاتنبت ، أو كان بها نبات ثم زال .

ويقال : جُرِزَت الأرض : إذا ذهب نباتها بسبب القحط ، أو الجراد الذى أتى على نباتها قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾[1] .

والمقصود من الآيتين : الزيادة فى تثبيت قلب النبى - صلى الله علية وسلم - وفى تسليته عما لحقه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

فكأنه - سبحانه - يقول له : إمض أيها الرسول الكريم فى تبليغ ماأوحيناه إليك ، ولاتبال بإصرار الكافرين على كفرهم ، ولاتذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن حكمتنا قد اقتضت أن نجعل ما على الأرض من كل مايصلح أن يكون زينة لها ولهم ؛ موضع ابتلاء واختبار للناس ، ليتميز المحسن من المسىء ، كما اقتضت حكمتنا - أيضاً أن نصير ما على هذه الأرض عند انقضاء عمر الدنيا ترابا قاحلا لا نبات فيه ، ويعقب ذلك الجزاء على الأعمال ، وسننتقم لك من أعدائك ﴿ فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ﴾ .

وفى التعبير عما على الأرض بالزينة ، إشارة إلى أن ما عليها مهما حسن شكله ، وعظم ثمنه .. فهو إلى زوال ، شأنه فى ذلك شأن ما يتزين به الرجال والنساء من ملابس وغيرها ، يتزينون بها لوقت ما ثم يتركونها وتتركهم .

وقوله ﴿ لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ تعليل لما اقتضته حكمته من جعل ما على الأرض زينة لها .

---

(١) سورة السجدة . الآية ٢٧ .

أى : فعلنا ذلك لنختبر الناس على ألسنة رسلنا ، أيهم أحسن عملا ، بحيث يكون عمله مطابقا لما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، وخالصا لوجهنا ، ومبنيا على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة .

قال تعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ .

وفى الحديث الشريف : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، واتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ زيادة فى التزهيد فى زينتها ، حيث إن مصيرها إلى الزوال ، وحض على التزود من العمل الصالح الذى يؤدى بالإنسان إلى السعادة الباقية الدائمة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد قررت أن الثناء الكامل إنما هو لله - عز وجل - ، وأن الكتاب الذى أنزله على عبده ونبيه - ﷺ - لا عوج فيه ولا ميل ، وأن وظيفة هذاالكتاب إنذار الكافرين بالعقاب ، وتبشير المؤمنين بالثواب ، كما أن من وظيفته تثبيت قلبه - ﷺ - وتسليته عما أصابه من أعدائه ، ببيان أن الله - تعالى - قد جعل هذه الدنيا بما فيها من زينة ، دار اختبار وامتحان ليتبين المحسن من المسىء ، وليجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك قصة أصحاب الكهف ، وبين أن قصتهم ليست عجيبة بالنسبة لقدرته - عز وجل - فقد أوجد - سبحانه - ما هو أعجب وأعظم من ذلك ، فقال - تعالى - :

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى

ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول - ﷺ - ، على سبيل الامتحان ، فقال - تعالى - : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ﴾ ؟ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب فإن من كان قادرا على خلق السموات والأرض ، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن ، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية من الكل ، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فى النوم .. »[1] .

وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة ، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئاً عجبا بالنسبة لقدرة الله - تعالى - .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات ملخصها : أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد - ﷺ - ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول . وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله - ﷺ - ووصفوا لهم أمره - ﷺ - فقالوا لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن ، فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من خبرهم . فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره ؟ وسلوه عن الروح ، ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش . فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ٨٢ .

ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور .

ثم جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا يا محمد أخبرنا ، ثم سألوه عما قالته لهم يهود .

فقال لهم رسول الله - ﷺ - سأجيبكم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن - : أى . ولم يقل إن شاء الله - فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة . لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه . وحتى أَحْزَن رسول الله - ﷺ - مُكْثُ الوحى عنه ، وشق عليه ماتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله - تعالى - ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

والخطاب فى قوله - تعالى - ﴿ أم حسبت .. ﴾ للرسول - ﷺ - ويدخل فيه غيره من المكلفين .

و « أم » فى هذه الآية هى المنقطعة ، وتفسر عند الجمهور بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أحسبت ، وعند بعض العلماء تفسر بمعنى بل ، فتكون للانتقال من كلام إلى آخر ، أى : بل حسبت . ويرى بعضهم أنها هنا بمعنى الهمزة التى للاستفهام الإنكارى أى : أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم .

والكهف : هو النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن فيه سعة فهو غار ، وجمعه كهوف .

والمراد به هنا : ذلك الكهف الذى اتخذه هؤلاء الفتية مستقرا لهم .

وأما الرقيم فقد ذكروا فى المراد به أقوالا متعددة منها : أنه اسم كلبهم ، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادى الذى كان فيه الكهف ، ومنها أنه اسم القرية التى خرج منها هؤلاء الفتية .

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن المراد به اللوح الذى كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم ، فيكون الرقيم بمعنى المرقوم - فهو فعيل بمعنى مفعول - ومأخوذ من رقمت الكتاب إذا كتبته .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٣٢ .

ومنه قوله - تعالى - ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين . وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم ﴾[١] . أى مكتوب .

قال بعض العلماء : والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم : طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين : أحدهما : معطوف على الآخر ، خلافا لمن قال أن أصحاب الكهف طائفة ، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى ، وأن الله قص على نبيه فى هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ، ولم يذكر له شيئا عن أصحاب الرقيم . وخلافا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدّت عليهم باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفرجت ، وهم البار بوالديه ، والعفيف ، والمستأجر ، وقصتهم مشهورة ثابتة فى الصحيح ، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى »[٢] .

والمعنى : أظننت - أيها الرسول الكريم - أن ما قصصناه عليك من شأن هؤلاء الفتية ، كان من بين آياتنا الدالة على قدرتنا شيئا عجبا ؟ لا ، لا تظن ذلك فإن قدرتنا لا يعجزها شىء .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه عندما حطوا رحالهم فى الكهف فقال : إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة . وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾ .

و « إذ » هنا ظرف منصوب بفعل تقديره : اذكر .

و « أوى » فعل ماض - من باب ضرب - تقول : أوى فلان إلى مسكنه يأوى ، إذا نزله بنفسه . واستقر فيه .

و « الفتية » : جمع قلة لفتى . وهو وصف للإنسان عندما يكون فى مطلع شبابه .

وقوله : ﴿ وهيئ لنا من أمرنا ﴾ : من التهيئة بمعنى : تيسير الأمر وتقريبه وتسهيله حتى لا يخالطه عسر أو مشقة .

والمراد بالأمر هنا : ما كانوا عليه من تركهم لأهليهم ومساكنهم ، ومن مفارقتهم لما كان عليه أعداؤهم من عقائد فاسدة .

---

(١) سورة المطففين الآيات ١٨ - ٢٠ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٢٠ .

والرشد : الاهتداء إلى الطريق المستقيم مع البقاء عليه . وهو ضد الغي . يقال : رشد فلان يرشد رشدا ورشادا ، إذا أصاب الحق .

أى : واذكر – أيها الرسول الكريم – للناس ليعتبروا ، وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم ، تاركين كل شىء خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى لهم ، وتضرعوا إلى خالقهم قائلين : يا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، تهدى بها قلوبنا ، وتصلح بها شأننا ، وتردُّ بها الفتن عنا ، كما نسألك ياربنا أن تهيىء لنا من أمرنا الذى نحن عليه – وهو : فرارنا بديننا . وثباتنا على إيماننا – ما يزيدنا سدادا وتوفيقا لطاعتك .

وقال – سبحانه – : ﴿ إذ أوى الفتية .. ﴾ بالإظهار – مع أنه قد سبق الحديث عنهم بأنهم أصحاب الكهف لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة ، وللتنصيص على وصفهم الدال على قلتهم ، وعلى أنهم شباب فى مقتبل أعمارهم ، ومع ذلك ضحوا بكل شىء فى سبيل عقيدتهم .

والتعبير بالفعل ﴿ أوى ﴾ يشعر بأنهم بمجرد عثورهم على الكهف . ألقوا رحالهم فيه واستقروا به استقرار من عثر على ضالته ، وآثروه على مساكنهم المريحة ، لأنه واراهم عن أعين القوم الظالمين .

والتعبير بالفاء فى قوله – سبحانه – ﴿ فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة .. ﴾ يدل على أنهم بمجرد استقرارهم فى الكهف ابتهلوا إلى الله – تعالى – بهذا الدعاء الجامع لكل خير .

والتنوين فى قوله : ﴿ رحمة ﴾ : للتهويل والتنويع . أى : آتنا ياربنا من عندك وحدك لا من غيرك . رحمة عظيمة شاملة لجميع أحوالنا وشئوننا . فهى تشمل الأمان فى المنزل ، والسعة فى الرزق ؛ والمغفرة للذنب .

قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية صريحة فى الفرار بالدين وهجرة الأهل والأوطان .. خوف الفتنة ، ورجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين ..[1] .

ثم بين – سبحانه – ما حدث لهؤلاء الفتية بعد أن لجأوا إلى الكهف ، وبعد أن دعوا الله بهذا الدعاء الشامل لكل خير . فقال : ﴿ فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ﴾ .

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٦٠ .

يقال : ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها بشدة ، وتفرعت عن هذا المعنى معان أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذى غشاهم الله - تعالى - به فصاروا لا يحسون شيئا مما حولهم ، ومفعول ضربنا محذوف .

والمعنى : بعد أن استقر هؤلاء الفتية فى الكهف ، وتضرعوا إلينا بهذا الدعاء العظيم ، ضربنا على آذانهم وهم فى الكهف حجابا ثقيلا مانعا من السماع ، فصاروا لا يسمعون شيئا يوقظهم ، واستمروا فى نومهم العميق هذا ﴿ سنين ﴾ ذات عدد كثير ، بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ .

وخص - سبحانه - الآذان بالضرب ، مع أن مشاعرهم كلها كانت محجوبة عن اليقظة ، لأن الآذان هى الطريق الأول للتيقظ . ولأنه لا يثقل النوم إلا عندما تتعطل وظيفة السمع .

وقد ورد أن النبى - ﷺ - عندما علم أن رجلا لا يستيقظ مبكرا أن قال فى شأنه : « ذلك رجل قد بال الشيطان فى أذنه » أى : فمنعها من التبكير واليقظة قبل طلوع الشمس .

والتعبير بالضرب - كما سبق أن أشرنا - للدلالة على قوة المباشرة ، وشدة اللصوق واللزوم ، ومنه قوله تعالى - ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أى : التصقتا بهم التصاقا لا فكاك لهم منه ، ولا مهرب لهم عنه .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ .

وأصل البعث فى اللغة : إثارة الشىء من محله وتحريكه بعد سكون . ومنه قولهم : بعث فلان الناقة - إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله : ﴿ بعثناهم ﴾ أى : أيقظناهم بعد رقادهم الطويل .

وقوله ﴿ لنعلم أى الحزبين ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أيقظهم الله من نومهم .

وكثير من المفسرين على أن الحزبين أحدهما : أصحاب الكهف والثانى : أهل المدينة الذين أيقظ الله أهل الكهف من رقادهم فى عهدهم ، وكان عندهم معرفة بشأنهم .

وقيل : هما حزبان من أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية فى زمانهم ، إلا أن أهل هذه المدينة كان منهم حزب مؤمن وآخر كافر .

وقيل : هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين فى زمن بعث هؤلاء الفتية ، وهذان الحزبان اختلفوا فيما بينهم فى المدة التى مكثها هؤلاء الفتية رقوداً .

والذى تطمئن إليه النفس أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف ، لأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك - ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ أى الفتية ﴿ ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم .. ﴾ .

قال الآلوسى : ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أى : أيقظناهم وأثرناهم من نومهم ﴿ لنعلم أى الحزبين ﴾ أى : منهم ، وهم القائلون ﴿ لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾ والقائلون ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ .

وقيل : أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثانى أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم .. والظاهر الأول لأن اللام للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت[1] .

والمراد بالعلم فى قوله ﴿ لنعلم .. ﴾ إظهار المعلوم ، أى ثم بعثناهم لنعلم ذلك علما يظهر الحقيقة التى لا حقيقة سواها للناس .

ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، أى : ثم بعثناهم لنميز أى الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا .

فهو من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، إذ العلم سبب للتمييز .

ولفظ « أحصى » يرى صاحب الكشاف ومن تابعه أنه فعل ماض ، ولفظ « أمدا » مفعوله ، و « ما » فى قوله ﴿ لما لبثوا ﴾ مصدرية ، فيكون المعنى ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أضبط أمدا - أى مدة - للبثهم فى الكهف .

قال صاحب الكشاف : و « أحصى » فعل ماض ، أى : أيهم أضبط « أمدا » لأوقات لبثهم .

فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس .. والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به ..[2] .

وبعضهم يرى أن لفظ « أحصى » صيغة تفضيل ، وأن قوله « أمدا » منصوب على أنه تمييز وفى إظهار هذه الحقيقة للناس ، وهى أن الله - تعالى - قد ضرب النوم على آذان هؤلاء الفتية

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢١٢ .
(٢) راجع الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٤ .

ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم بعد ذلك دون أن يتغير حالهم ، أقول : فى إظهار هذه الحقيقة دليل واضح على قدرة الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى أن البعث بعد الموت حق لا ريب فيه .

وبذلك تكون هذه الآيات قد ساقت لنا قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار ، ثم جاءت آيات بعد ذلك لتحكى لنا قصتهم على سبيل التفصيل والبسط ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - .

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

أى : « نحن » وحدنا يا محمد ، نقص عليك وعلى أمتك خبر هؤلاء الفتية قصصا لحمته وسداه الحق والصدق ، لأنه قصص من ربك الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ كلام مستأنف جواب عن سؤال تقديره ما قصتهم وماشأنهم بالتفصيل ؟

أى : إنهم فتية أخلصوا العبادة لخالقهم ، وأسلموا وجوههم لبارئهم ، وآمنوا بربوبيته -

سبحانه - إيمانا عميقاً ثابتاً ، فزادهم الله ببركة هذا الإخلاص والثبات على الحق ، هداية على هدايتهم ، وإيمانا على إيمانهم .

وقوله - سبحانه - ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ إيماء إلى أن قصة هؤلاء الفتية كانت معروفة لبعض الناس ، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل .

قال ابن كثير : ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - أنهم كانوا فتية - أى شبابا - ، وهم أقبل للحق من الشيوخ ، الذين عتوا فى دين الباطل ، ولهذا كان اكثر المستجيبين لله ولرسوله شبابا ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

واستدل غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره بقوله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ إلى أن الإيمان يزيد وينقص ..[1] .

ثم حكى - سبحانه - جانبا من مظاهر هدايته لهم فقال : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ﴾ .

وأصل الربط : الشد ، يقال ، ربطت الدابة ، أى : شددتها برباط ، والمراد به هنا : ما غرسه الله فى قلوبهم من قوة ، وثبات على الحق ، وصبر على فراق أهليهم ، ومنه قولهم : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا يفزع عند الشدائد والكروب .

والمراد بقيامهم : عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل ، وتصميمهم على ذلك تصميما لا تزحزحه الخطوب مهما كانت جسيمة .

ويصح أن يكون المراد بقيامهم : وقوفهم فى وجه ملكهم الجبار بثبات وقوة ، دون أن يبالوا به عندما أمرهم بعبادة ما يعبده قومهم ، وإعلانهم دين التوحيد ، ونبذهم لكل ما سواه من شرك وضلال .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ﴿ إذ قاموا ﴾ يحتمل ثلاثة معان . أحدها : أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدى الملك الكافر ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا ما دعاهم إليه .

والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة فخرجوا واجتمعوا وراءها من غير ميعاد ، وتعاهدوا على عبادة الله وحده .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٣٦ .

والمعنى الثالث : أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله – تعالى – ومنابذة الناس ، كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا ، إذا عزم عليه بغاية الجد[1] .

وعلى أية حال فالجملة الكريمة تفيد أن هؤلاء الفتية كانت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذى اهتدت إليه ، معتزة بالإيمان الذى أشربته ، مستبشرة بالإخاء الذى جمع بينها على غير ميعاد ، وصدق رسول الله – ﷺ – إذ يقول : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

ثم حكى – سبحانه – ما قالوه بعد أن استقر الإيمان فى نفوسهم فقال : ﴿ فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها .. ﴾ .

أى : أعلنوا براءتهم من كل خضوع لغير الله – عز وجل – حين قاموا فى وجه أعدائهم ، وقالوا بكل شجاعة وجرأة : ربنا – سبحانه – هو رب السموات والأرض ، وهو خالقهما وخالق كل شىء ، ولن نعبد سواه أى معبود آخر .

ونفوا عبادتهم لغيره – سبحانه – بحرف – « لن » للإشعار بتصميمهم على ذلك فى كل زمان وفى كل مكان ، إذ النفى بلن أبلغ من النفى بغيرها .

قال الآلوسى : وقد يقال ؛ إنهم أشاروا بالجملة الأولى – وهى : ربنا رب السموات والأرض – إلى توحيد الربوبية ، وأشاروا بالجملة الثانية – لن ندعو من دونه إلها – إلى توحيد الألوهية ، وهما أمران متغايران ، وعبدة الأوثان لا يقولون بهذا ، ويقولون بالأول : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولون الله ﴾ وحكى – سبحانه – عنهم أنهم يقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وصح أنهم كانوا يقولون : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك[2] .

وقوله – سبحانه – ﴿ لقد قلنا إذا شططا ﴾ تأكيد لبراءتهم من كل عبادة لغير الله – تعالى – .

والشطط : مصدر معناه مجاوزة الحد فى كل شىء ، ومنه : أشط فلان فى السَّوْمْ إذا جاوز الحد ، وأشط فى الحكم إذا جاوز حدود العدل : وهو صفة لموصوف محذوف ، وفى الكلام قسم مقدر ، واللام فى « لقد » واقعة فى جوابه ، و « إذا » حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٦٥ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢١٩ .

أى : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها . ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلها آخر ، والله لنكونن فى هذه الحالة قد قلنا إذا قولا شططا ، أى : بعيدا بعدا واضحا عن دائرة الحق والصواب .

والأية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية ، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله - تعالى - قلبه ، وقواه على تحمل الشدائد ، كما تدل على أن من أشرك مع الله - تعالى - إلها آخر ، يكون بسبب هذا الإشراك ، قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب وصدق الله إذ يقول : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[1] .

ثم حكى - سبحانه - عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتفوا بإعلان إيمانهم الصادق ، بل أضافوا إلى ذلك استنكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال : ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين .. ﴾ .

و « هؤلاء » مبتدأ ، و « قومنا » عطف بيان ، وجملة « اتخذوا من دونه آلهة » هى الخبر .

و« لولا » للتحضيض ، وهو الطلب بشدة والمقصود بالتحضيض هنا : الإنكار والتعجيز ، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل على صحة ما هم عليه من شرك .

والمراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .

أى : أن أولئك الفتية بعد أن اجتمعوا ، وتعاهدوا على عبادة الله - تعالى - وحده ، ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار والاحتقار لما عليه قومهم : هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم اتخذوا مع الله - تعالى - أصناما يشركونها معه فى العبادة ، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهة لاشك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال ، وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لابد فى الدين من حجة حتى يصح ويثبت ﴾[2] .

---

(١) سورة الحج الآية ٣١ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٧٤ .

وشبيه بهذه الآية فى تعجيز المشركين وتجهيلهم قوله تعالى : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾[2] :

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم ، ووصفهم إياهم بالظلم فقال : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ .

أى : لا أحد أشد ظلماً من قوم افتروا على الله - تعالى - الكذب ، حيث زعموا أن له شريكا فى العبادة والطاعة ، مع انه - جل وعلا - منزه عن الشريك والشركاء : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما تناجوا به فيما بينهم ، بعد أن وضح موقفهم وضوحا صريحا حاسما ، وبعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة .. فقال - تعالى - : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ .

و « إذ » يبدو أنها هنا للتعليل . والاعتزال : تجنب الشىء سواء أكان هذا التجنب بالبدن أم بالقلب . و « ما » فى قوله ﴿ وما يعبدون إلا الله ﴾ اسم موصول فى محل نصب معطوف على الضمير فى قوله ﴿ اعتزلتموهم ﴾ وقوله : ﴿ إلا الله ﴾ استثناء متصل ، بناء على أن القوم كانوا يعبدون الله - تعالى - ويشركون معه فى العبادة الأصنام . و « من » قالوا إنها بمعنى البدلية .

وقوله : ﴿ مرفقاً ﴾ من الارتفاق : بمعنى الانتفاع ، وقرأ نافع وابن عامر مرفقا - بفتح الميم وكسر الفاء .

والمعنى : أن هؤلاء الفتية بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد ، وعقدوا العزم على مفارقة قومهم المشركين تناجوا فيما بينهم وقالوا : ولأجل ما أنتم مقدمون عليه من اعتزالكم لقومكم الكفار ، واعتزالكم الذى يعبدونه من دون الله ؛ لأجل ذلك فالجأوا إلى الكهف ، واتخذوه

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .
(٢) سورة الأحقاف الآية ٤ .

مأوى ومستقراً لكم ، ينشر لكم ربكم الكثير من الخير بفضله ورحمته ، ويهيئ لكم بدلا من أمركم الصعب . أمراً آخر فيه اليسر والنفع .

وفى التعبير بقولهم - كما حكى القرآن عنهم .. ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته .. ﴾ دلالة واضحة على صدق إيمانهم وحسن ظنهم الذى لا حدود له ، بربهم - عز وجل - فهم عندما فارقوا أهليهم وأموالهم وزينة الحياة ، وقرروا اللجوء إلى الكهف الضيق الخشن المظلم .. لم ييأسوا من رحمة الله ، بل أيقنوا أن الله - تعالى - سيرزقهم فيه الخير الوفير ، وييسر لهم ما ينتفعون به ، ببركة إخلاصهم وصدق إيمانهم .

وهكذا الإيمان الصادق ، يجعل صاحبه يفضل المكان الخالى من زينة الحياة ، من أجل سلامة عقيدته ، على المكان الملىء باللين والرخاء الذى يحس فيه بالخوف على عقيدته .

فالآية الكريمة تدل على أن اعتزال الكفر والكافرين من أجل حماية الدين ، يؤدى إلى الظفر برحمة الله وفضله وعطائه العميم وصدق الله إذ يقول فى شأن إبراهيم - عليه السلام - ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾[1] .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال هؤلاء الفتية بعد أن استقروا فى الكهف وبعد أن ألقى الله - تعالى - عليهم بالنوم الطويل فتقول :

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم

(١) سورة مريم الآيات ٤٨ - ٥٠ .

بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وترى الشمس .. ﴾ بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف .. والخطاب لرسول الله - ﷺ - أو لكل أحد ممن يصلح ، وهو للمبالغة فى الظهور ، وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية ، بل المراد الإخبار بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ... »[1] .

وقوله ﴿ تزاور ﴾ من الزور بمعنى الميل . ومنه قولهم : زار فلان صديقه ، أى : مال إليه . ومنه شهادة الزور ، لأنها ميل عن الحق إلى الباطل . ويقال : فلان أزور ، إذا كان مائل الصدر ، ويقال : تزاور فلان عن الشىء ، إذا انحرف عنه .

وفى هذا اللفظ ثلاث قراءات سبعية . فقد قرأ ابن عامر « تزور » بزنة تحمر . وقرأ الكوفيون - عاصم وحمزة والكسائى - « تزاور » بفتح الزاى - وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « تزَّاور » بتشديد الزاى - . وأصله تتزاور فحذفت إحدى التاءين تخفيفا .

ومعنى : « تقرضهم » تقطعهم وتتجاوزهم وتتركهم ، من القرض بمعنى القطع والصرم ، يقال : قرض المكان ، أى : عدل عنه وتركه .

والمعنى : إنك - أيها المخاطب - لو رأيت أهل الكهف ، لرأيتهم على هذه الصورة ، وهى أن الشمس إذا طلعت من مشرقها ، مالت عن كهفهم جهة اليمين ، وإذا غربت ، تراها عند غروبها ، تميل عنهم كذلك ، فهى فى الحالتين لا تصل إليهم ، حماية من الله - تعالى - لهم ، حتى لا تؤذيهم بحرها ، بأن تغير ألوانهم ، وتبلى ثيابهم .

وقوله : ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ جملة حالية . أى : والحال أنهم فى مكان متسع من الكهف وهو وسطه ، والفجوة : هى المكان المتسع ، مأخوذة من الفجا ، وهو تباعد ما بين الفخذين ، ومنه قولهم : رجل أفجى ، وامرأة فَجْوَاء .

وللمفسرين فى تأويل هذه الآية اتجاهان لخصهما الإمام الرازى فقال : للمفسرين هنا قولان : أولهما : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٢١ - بتصريف يسير .

كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل .

والثانى : يرى أصحابه أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله - تعالى - ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة ، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف .. »[1] .

ومن هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب الرأى الأول ، يرجعون عدم وصول حر الشمس إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية حماهم الله - تعالى - بها ومن بينها أن الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال .

أما أصحاب الرأى الثانى فيردون عدم وصول أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية ، بمعنى أن الفتية كانوا فى متسع من الكهف ، أى : فى مكان تصيبه الشمس ، إلا أن الله - تعالى - بقدرته التى لا يعجزها شىء ، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم ، خرقا للعادة على سبيل التكريم لهم .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن النفس أميل إلى الرأى الثانى ، لأن قوله - تعالى - ﴿ وهم فى فجوة منه ﴾ يشير إلى أنهم مع اتساع المكان الذى ينامون فيه - وهو الفجوة - لا تصيبهم الشمس لا عند الطلوع ولا عند الغروب ، وهذا أمر خارق للعادة ، ويدل على عجيب حالهم ، كما أن قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة ، وليس أمراً عاديا مألوفا .

قال الآلوسى : وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلا ، وإن اختلفوا فى منشأ ذلك وإختار جمع منهم ، أنه لمحض حجب الله - تعالى - الشمس على خلاف ما جرت به العادة ، والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد ، والاستبعاد مما لا يلتفت إليه ، لا سيما فيما نحن فيه ، فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة .. »[2] .

وعلى هذا الرأى الثانى يكون اسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ إلى ما فعله الله - تعالى - معهم ، من حجب ضوء الشمس عنهم مع أنهم فى متسع من الكهف .

أى : ذلك الذى فعلناه معهم من آياتنا الدالة على قدرتنا الباهرة ، وإرادتنا التى لا يعجزها شىء .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ٩٩ .
(٢) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٢٢٣ .

وأما على الرأى الأول فيكون اسم الاشارة مرجعه إلى ما سبق من الحديث عنهم ، كهدايتهم إلى التوحيد ، وإخراجهم من بين عبدة الأوثان ، ولجوئهم إلى الكهف ، وجعل باب الكهف على تلك الكيفية ، إلى غير ذلك مما ذكر - سبحانه - عنهم .

أى : ذلك الذى ذكرناه لك عنهم - أيها الرسول الكريم - هو من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ .

أى : من يهده الله إلى طريق الحق ، ويوفقه إلى الصواب ، فهو المهتد ، أى فهو الفائز بالحظ الأوفر فى الدارين ، ومن يضلله الله - تعالى - عن الطريق المستقيم ، فلن تجد له - يا محمد - نصيرا ينصره ، ومرشدا يرشده إلى طريق الحق .

كما قال تعالى - : ﴿ من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾[1] .

وكما قال - سبحانه - : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ... ﴾[2] .

ثم صور - سبحانه - بعد ذلك مشهدا عجيبا من أحوال هؤلاء الفتية فقال : ﴿ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود .. ﴾ .

والحسبان بمعنى الظن ، والأيقاظ جمع يقظ وهو ضد النائم ، والرقود : جمع راقد والمراد به هنا : النائم .

أى : وتظنهم - أيها المخاطب لو قدر لك أن تراهم - أيقاظا منتبهين ، والحال أنهم رقود أى : نيام .

وقالوا : وسبب هذا الظن والحسبان ، أن عيونهم كانت مفتوحة ، وأنهم كانوا يتقلبون من جهة إلى جهة ، كما قال - تعالى - بعد ذلك : ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ .

أى : ونحركهم وهم رقود إلى الجهة التى تلى أيمانهم ، وإلى الجهة التى تلى شمائلهم ، رعاية منا لأجسامهم حتى لا تأكل الأرض شيئا منها بسبب طول رقادهم عليها .

وعدد مرات هذا التقليب لا يعلمه إلا الله - تعالى - وما أورده المفسرون فى ذلك لم يثبت

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٧ .

عن طريق النقل الصحيح ، لذا ضربنا صفحا عنه .

ثم بين - سبحانه - حالة - كلبهم فقال : ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ .

والمراد بالوصيد - على الصحيح - فناء الكهف قريبا من الباب ، أو هو الباب نفسه ، ومنه قول الشاعر : بأرض فضاء لا يسد وصيدها . أى : لا يسد بابها .

أى : وكلبهم الذى كان معهم فى رحلتهم ماد ذراعيه بباب الكهف حتى لكأنه يحرسهم ويمنع من الوصول إليهم .

وما ذكره بعض المفسرين هنا عن اسم الكلب وصفاته ، لم نهتم بذكره لعدم فائدته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ .

أى . لو عاينتهم وشاهدتهم - أيها المخاطب - لأعرضت بوجهك عنهم من هول ما رأيت . ولملئ قلبك خوفا ورعبا من منظرهم .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاماً منها : أن صحبة الأخيار لها من الفوائد مالها .

قال ابن كثير - رحمه الله - ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب . لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب - كما ورد فى الصحيح .. وشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن[1] .

وقال القرطبى - رحمه الله - ما ملخصه : قال ابن عطية : وحدثنى أبى قال : سمعت أبا الفضل الجوهرى فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت - أى القرطبى - : إذا كان بعض الكلاب نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك فى كتابه ، فماظنك بالمؤمنين المخالطين المحبين للأولياء . والصالحين !! بل فى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكلمات : المحبين للنبى - ﷺ - وآله خير آل .

روى فى الصحيح عن أنس قال : بينا أنا ورسول الله - ﷺ - خارجان من المسجد ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤١ .

فلقينا رجل عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله . متى الساعة ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « ما أعدَدْتَ لها ؟ قال : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحببت الله ورسوله : قال - ﷺ - : « فأنت مع من أحببت » . وفى رواية قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبى - ﷺ - « فأنت مع من أحببت » .

قال أنس . فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك ، وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن ، وإن كنا غير مستأهلين .[1] .

ثم حكى - سبحانه - حال هؤلاء الفتية بعد أن أعاد إليهم الحياة ، فذكر بعض أقوالهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

وقوله - سبحانه - : وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، بيان للعلة التى من أجلها بعث أصحاب الكهف من نومهم الطويل .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٧٢ .

أى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة ، بعثناهم من نومهم بعدها ، ليسأل بعضهم بعضا ، وكأنهم قد أحسوا بأن نومهم قد طال .

والاقتصار على التساؤل الذى حصل الإيقاظ من أجله ، لا ينفى أن يكون هناك أسباب أخرى غيره حصل من أجلها إيقاظهم ، وإنما أفرده - سبحانه - بالذكر لاستتباعه لسائر الآثار الأخرى .

ثم حكى - سبحانه - بعض تساؤلهم فقال : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ أى : كم مكثتم مستغرقين فى النوم فى هذا الكهف .

فأجابه بعضهم بقوله : ﴿ لبثنا يوماً ﴾ لظنهم أن الشمس قد غربت ، فلما رأوها لم تغرب بعد قالوا : ﴿ أو بعض يوم ﴾ أى : مكثنا نائمين بعض ساعات اليوم .

ويصح أن تكون أو للشك . أى قال بعضهم فى الرد على سؤال السائل كم لبثتم ، لبثنا فى النوم يوما أو بعض يوم ، لأننا لا ندرى على الحقيقة كم مكثنا نائمين .

ثم حكى القرآن أن بعضهم رد عِلْمَ مقدار مدة نومهم على جهة اليقين إلى الله - تعالى - فقال : ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أى : ربكم وحده هو العليم بمقدار الزمن الذى قضيتموه نائمين فى هذا الكهف .

قال الآلوسى : وهذا رد منهم على الأولين ، على أحسن ما يكون من مراعاة حسنَ الأدب ، وبه كما قيل يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق فى قوله - تعالى - ﴿ لنعلم أى الحزبين ﴾[1] .

وقال بعضهم : وقد استدل ابن عباس على أن عدد الفتية سبعة بهذه الآية ، لأنه قد قال فى الآية : قال قائل منهم ، وهذا واحد ، وقالوا فى جوابه : لبثنا يوما ، أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ، ثم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة[2] .

ثم بين - سبحانه - ما قالوه بعد أن تركوا الحديث فى مسألة الزمن الذى قضوه نائمين فى الكهف فقال - تعالى - : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً ﴾ .

أى : كفوا عن الحديث فى مسألة المدة التى نمتموها ، فعلمها عند الله ، وابعثوا أحدكم

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٢٩ .
(٢) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٥٣٤ .

« بورقكم » . أى : بدراهمكم المضروبة من الفضة ، ﴿ إلى المدينة ﴾ التى يوجد بها الطعام الذى نحن فى حاجة إليه ، والتى هى أقرب مكان إلى الكهف .

قالوا : والمراد بها مدينتهم التى كانوا يسكنونها قبل أن يلجأوا إلى الكهف فراراً بدينهم .

﴿ فلينظر أيها أزكى طعاما ﴾ أى : ومتى وصل إلى المدينة ، فليتفقد أسواقها ، وليتخير أى أطعمتها أحل وأطهر وأجود وأكثر بركة .

﴿ فليأتكم برزق منه وليتلطف ﴾ أى : فليأتكم بما يسد جوعكم من ذلك الأزكى طعاما ، فيكون الضمير فى « منه » للطعام الأزكى .

ويصح أن يكون للدراهم المضروبة المعبر عنها « بورقكم » ، أى : فليأتكم بدلا منها بطعام تأكلونه ، وليتلطف ، أى : وليتكلف اللطف فى الاستخفاء ، والدقة فى استعمال الحيل حال دخوله وخروجه من المدينة ، حتى لا يعرفه أحد من أهلها .

﴿ ولا يشعرن بكم أحدا ﴾ أى : ولا يفعلن فعلا يؤدى إلى معرفة أحد من أهل المدينة بنا .

وقوله : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا ﴾ تعليل للأمر والنهى السابقين .

أى : قولوا لمن تختارونه لشراء طعامكم من المدينة : عليه أن يتخير أزكى الطعام ، وعليه كذلك أن لا يخبر أحدا بأمركم من أهل المدينة ، لأنهم ﴿ إن يظهروا عليكم ﴾ أى : يطلعوا عليكم . أو يظفروا بكم .

وأصل معنى ظهر . أى : صار على ظهر الأرض . ولما كان ما عليها مشاهدا متمكنا منه ، استعمل تارة فى الاطلاع ، وتارة فى الظفر والغلبة ، وعدى بعلى .

﴿ يرجموكم ﴾ أى إن يعرفوا مكانكم ، يرجموكم بالحجارة حتى تموتوا ﴿ أو يعيدوكم فى ملتهم ﴾ الباطلة التى نجاكم الله - تعالى - منها .

﴿ ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾ أى : وإن عدتم إليها بعد إذ نجاكم الله - تعالى - منها وعصمكم من اتباعها ، فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وهكذا نجد هاتين الآيتين تصوران لنا بأسلوب مؤثر بليغ حال الفتية وهم يتناجون فيما بينهم ، بعد أن استيقظوا من رقادهم الطويل .

ونراهم فى تناجيهم - بعد أن تركوا الحديث عن المدة التى لبثوها فى نومهم - نراهم حذرين خائفين ، ولا يدرون أن الأعوام قد كرت . وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها . وأن أعداءهم الكافرين قد زالت دولتهم .

ثم تمضى السورة الكريمة لتحدثنا عن مشهد آخر من أحوال هؤلاء الفتية . مشهد تتجلَّى فيه قدرة الله - تعالى - على أبلغ وجه ، كما تتجلى فيه حكمته ووحدانيته ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن ذلك فيقول :

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أطلع الله - تعالى - الناس على هؤلاء الفتية .

قال الآلوسى ما ملخصه : وأصل العثور السقوط للوجه ، يقال : عثُر عثورا وعِثارا إذا سقط لوجهه ، ومنه قولهم فى المثل : الجواد لا يكاد يعثر . ثم تجوز به فى الاطلاع على أمر من غير طلبه .

وقال بعضهم : لما كان كل عاثر ينظر إلى موضع عثرته ، ورد العثور بمعنى الاطلاع والعرفان ، فهو فى ذلك مجاز مشهور بعلاقة السببية .

ومفعول « أعثرنا » محذوف لقصد العموم ، أى : وكذلك أطلعنا الناس عليهم ،[1] .

والمعنى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة ، وبعثناهم هذا البعث الخاص ، أطلعنا الناس

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٣٢ .

عليهم ليعلم هؤلاء الناس عن طريق المعاينة والمشاهدة ، ﴿ أن وعد الله ﴾ بالبعث ﴿ حق ﴾ وصدق وليعلموا كذلك أن الساعة ، أى القيامة ، آتية لا ريب فيها ، ولا شك فى حصولها ، فإن من شاهد أهل الكهف ، وعرف أحوالهم ، أيقن بأن من كان قادراً على إنامتهم تلك المدة الطويلة ثم على بعثهم بعد ذلك . فهو قادر على إعادة الحياة إلى الموتى ، وعلى بعث الناس يوم القيامة للحساب والجزاء .

وقد ذكروا فى كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصها : أن زميلهم الذى أرسلوه بالدراهم إلى السوق ليشترى لهم طعاما عندما وصل إلى سوق المدينة ، عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من نقود لكى يأخذ فى مقابلها طعاما ، فلما رأى البائع النقود أنكرها - لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد - وأخذ يطلع عليها بقية التجار ، فقالوا له : أين وجدت هذه الدراهم ؟ فقال لهم : بعت بها أمس شيئا من التمر ، وأنا من أهل هذه المدينة ، وقد خرجت أنا وزملائى إلى الكهف خوفا من إيذاء المشركين لنا ، فأخذوه إلى ملكهم وقصوا عليه قصته . فسر الملك به ، وذهب معه إلى الكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم .. ثم أماتهم الله - تعالى - »[1] .

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمرهم بعد وفاتهم واختلاف الناس فى شأنهم ، فقال : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ﴾ .

والظرف « إذ » متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، و « يتنازعون » من التنازع بمعنى التخاصم والاختلاف ، والضمير فى « أمرهم » يعود إلى الفتية .

والمعنى : لقد قصصنا عليك - أيها الرسول الكريم - قصة هؤلاء الفتية . وبينا لك أحوالهم عند رقادهم ، وبعد بعثهم من نومهم ، وبعد الإعثار عليهم ، وكيف أن الذين عثروا عليهم صاروا يتنازعون فى شأنهم . فمنهم من يقول إنهم وجدوا فى زمن كذا ، ومنهم من يقول إنهم مكثوا فى كهفهم كذا سنة ، ومنهم من يقول نبنى حولهم بنيانا صفته كذا .

ويجوز أن يكون الضمير فى « أمرهم » يعود إلى الذين أطلعهم الله على الفتية ، فيكون المعنى : اذكر وقت تنازع هؤلاء الذين عثروا على الفتية وتخاصمهم فيما بينهم ، حيث إن بعضهم كان مؤمنا . وبعضهم كان كافرا ، وبعضهم كان يؤمن يبعث الأرواح والأجساد ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأجساد فقط .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٢ .

وقوله - تعالى - : ﴿ فقالوا ابنُوا عليهم بنيانا ﴾ تفسير للمتنازع فيه ، وبيان لما قاله بعض الذين اطلعوا على أمر الفتية .

أى اختلف الذين عثروا على الفتية فقال بعضهم : ابنوا على باب كهفهم بنيانا . حتى لا يصل الناس إليهم ، وحتى نصونهم من الأذى .

وقوله - تعالى - : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ يحتمل أنه حكاية لكلام طائفة من المتنازعين فى شأن أصحاب الكهف ، وقد قالوه ليقطعوا النزاع فى شأنهم ، وليفوضوا أمرهم إلى الله - تعالى - .

ويحتمل أن يكون من كلام الله - تعالى - ردا للخائضين فى شأنهم .

أى : اتركوا أيها المتنازعون ما أنتم فيه من تنازع ، فإنى أعلم منكم بحال أصحاب الكهف .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ .

أى : أن الذين أعثرهم الله على أصحاب الكهف قال بعضهم : ابنوا على هؤلاء الفتية بنيانا يسترهم .. وقال الذين غلبوا على أمرهم ، وهم أصحاب الكلمة النافذة ، والرأى المطاع ، لنتخذن على هؤلاء الفتية مسجدا ، أى : معبدا تبركا بهم .

قال الآلوسى : واستدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء ، واتخاذ مسجد عليها ، وجواز الصلاة فى ذلك وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجى فى حواشيه على البيضاوى . وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد . فقد روى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .

وزاد مسلم : « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .. »[1] .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٣٧ .

ثم حكت السورة بعد ذلك ما أثير من جدل حول عدد أصحاب الكهف وأمرت النبى - ﷺ - أن يكل ذلك إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه - :

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

أى : سيختلف - الناس فى عدة أصحاب الكهف - أيها الرسول الكريم - فمن الناس من سيقول إن عدتهم ثلاثه رابعهم كليهم ، ومنهم من يقول : إنهم خمسة سادسهم كلبهم .

فالضمير فى قوله ﴿ سيقولون ﴾ وفى الفعلين بعده . يعود لأولئك الخائضين فى قصة أصحاب الكهف وفى عددهم ، على عهد النبى - ﷺ - .

قال الجمل : قيل إنما أتى بالسين فى هذا لأن فى الكلام طيا وإدماجا تقديره : فإذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف ، فسلهم عن عددهم فإنهم سيقولون ثلاثة .

ولم يأت بها فى بقية الأفعال ، لأنها معطوفة على ما فيه السين فأعطيت حكمه من الاستقبال[١] .

وقال صاحب الكشاف ، فإن قلت : لماذا جاء بسين الاستقبال فى الأول دون الآخرين ؟ .

قلت : فيه وجهان : أن تدخل الآخرين فى حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم . تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعا ، وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له[٢] .

وقوله ، ثلاثة . خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هم ثلاثة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ١٦ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٨ .

وقوله - تعالى - : ﴿ رجما بالغيب ﴾ رد على القائلين بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وعلى القائلين بأنهم خمسة سادسهم كلبهم .

وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، والمراد به هنا : القول بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان .

قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ رجما بالغيب ﴾ ، أى : رميا بالخبر الخفى وإتيانا به . كقوله ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ أى : يأتون به . أو وضع الرجم ، موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب . لأنهم أكثروا أن يقولوا : رجم بالظن ، مكان قولهم : ظن . حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير : وما هو عنها بالحديث المرجم .. أى : المظنون »[١] .

وقوله : ﴿ رجما ﴾ منصوب بفعل مقدر . والباء فى ﴿ بالغيب ﴾ للتعدية .

أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذى لا اطلاع لهم على حقيقته ، شأنهم فى ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى المقصود .

ثم حكى - سبحانه - القول الذى هو أقرب الأقوال إلى الصواب فقال : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ .

أى : وبعض الناس - وهم المؤمنون - يقولون إن عدد أصحاب الكهف سبعة أفراد وثامنهم كلبهم .

قال ابن كثير : - يقول - تعالى - مخبرا عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف . فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع . ولما ضعف القولين الأولين بقوله : « رجما بالغيب » .

أى : قول بلا علم ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب . وإذا أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ دل على صحته ، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر »[٢] .

وقال الآلوسى ما ملخصه : والجملة الواقعة بعد العدد فى قوله - تعالى - : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ فى موضع الصفة له ، والواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٨ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٣ .

كما تدخل فى الواقعة حالا عن المعرفة فى قولك : جاءنى رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفى يده سيف ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ .

وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر وهى التى أذنت هنا بأن قائلى ما ذكر ، قالوه عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس ، ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم فهو الحق دون القولين الأولين ..."[1] .

ثم أمر الله - تعالى - النبى - ﷺ - أن يخبر الخائضين فى عدة أصحاب الكهف ، بما يقطع التنازع الذى دار بينهم فقال : ﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خاضوا فى عدة أصحاب الكهف : ربى - عز وجل - أقوى علما منكم بعدتهم - أيها المتنازعون ، فإنكم إن علمتم عنهم شيئا علما ظنيا . فإن علم ربى بهم هو علم تفصيلى يقينى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم أثبت - سبحانه - علم عددهم لقليل من الناس فقال : ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ أى : ما يعلم عدة أصحاب الكهف إلا عدد قليل من الناس .

ولا تعارض بين هذه الجملة وبين سابقتها ، لأن علم هذا العدد القليل من الناس بعدة أصحاب الكهف ، هو علم إجمالى ظنى .. أما علم الله - تعالى - فهو علم تفصيلى يقينى شامل لجميع الأزمنة .

فضلا عن أن علم هؤلاء القلة من الناس بعدة أصحاب الكهف ، نابع من إعلام الله - تعالى - لهم عن طريق الوحى كالرسول - ﷺ - أو من يطلعه الرسول - ﷺ - على عدتهم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أنا من أولئك القليل ، كانوا سبعة ، ثم ذكر أسماءهم .

ثم نهى الله - تعالى - رسوله - ﷺ - عن الجدال المتعمق فى شأنهم ، كما نهاه عن استفتاء أحد فى أمرهم فقال - تعالى - : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مِراءً ظاهرا . ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ .

والمراء : هو الجدال والمحاجة فيما فيه مرية ، أى : تردد . مأخوذ من مريت الناقة إذا كررت مسح ضرعها للحلب .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٢٤١ .

والاستفتاء : طلب الفتيا من الغير . والفاء فى قوله ﴿ فلا تمار ﴾ للتفريع .

أى : إذا كان الشأن كما أخبرناك عن حال أصحاب الكهف ، فلا تجادل فى أمرهم أحداً من الخائضين فيه إلا جدالا واضحا لا يتجاوز حدود ما قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - ولا تطلب الفتيا فى شأنهم من أحد ، لأن ما قصصناه عليك من خبرهم ، يغنيك عن السؤال . وعن طلب الإيضاح من أهل الكتاب أو من غيرهم .

ثم نهى الله - تعالى - نبيه - ﷺ - عن الإخبار عن فعل شىء فى المستقبل إلا بعد تقديم مشيئة الله - عز وجل - فقال :

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

قال القرطبى : قال العلماء : عاتب الله - تعالى - نبيه - ﷺ - على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن فى ذلك .

فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرِّجة . وأُمِر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله - عز وجل - حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل : كان كاذبا ، وإذا قال ، لأفعلن ذلك - إن شاء الله - خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه[١] .

والمراد بالغد : ما يستقبل من الزمان ، ويدخل فيه اليوم الذى يلى اليوم الذى أنت فيه دخولا أوليا . وعبر عما يستقبل من الزمان بالغد للتأكيد .

أى : ولا تقولن - أيها الرسول الكريم - لأجل شىء تعزم على فعله فى المستقبل : إنى فاعل ذلك الشىء غدا ، إلا وأنت مقرن قولك هذا بمشيئة الله - تعالى - وإذنه ، بأن تقول :

(١) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٨٥ .

سأفعل هذا الشيء غدا بإذن الله ومشيئته ، فإن كل حركة من حركاتك - ومن حركات غيرك - مرهونة بمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، وما يتعلق بمستقبلك ومستقبل غيرك من شئون ، هو فى علم الله - تعالى - وحده .

وليس المقصود من الآية الكريمة نهى الإنسان عن التفكير فى أمر مستقبله ، وإنما المقصود نهيه عن الجزم بما سيقع فى المستقبل ، لأن ما سيقع علمه عند الله - تعالى - وحده .

والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضى أم بالحاضر أم بالمستقبل ، ثم يقرن كل ذلك بمشيئة الله - تعالى - وإرادته . فلا يقول : سأفعل غدا كذا وكذا لأننى أعددت العدة لذلك ، وإنما يقول : سأفعل غدا كذا وكذا إذا شاء الله - تعالى - ذلك وأراد ، وأن يوقن بأن إرادة الله فوق إرادته ، وتدبيره - سبحانه - فوق كل تدبير .

وكم من أمور أعد الإنسان لها أسبابها التى تؤدى إلى قضائها .. ثم جاءت إرادة الله - تعالى - فغيرت ما أعده ذلك الإنسان ، لأنه لم يستشعر عند إعداده للأسباب أن . إرادة الله - تعالى - فوق إرادته ، وأنه - سبحانه - القادر على خرق هذه الأسباب ، وخرق ما تؤدى إليه ، ولأنه لم يقل عندما يريد فعله فى المستقبل ، إن شاء الله .

وقوله : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ تأكيد لما قبله أى : لا تقولن أفعل غدا إلا ملتبسا بقول : إن شاء الله ، واذكر ربك - سبحانه - إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، أى : عند تذكرك بأنك لم تقرن قولك بمشيئة الله ، فأت بها .

قال الآلوسى : قوله ﴿ واذكر ربك ﴾ أى : مشيئة ربك ، فالكلام على حذف مضاف ، إذا نسيت ، أى : إذا فرط منك نسيان ذلك ثم تذكرته . فهو أمر بالتدارك عند التذكر ..[1] .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : للمفسرين فى تفسير قوله - تعالى - : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ قولان :

الأول - أن هذه الجملة مرتبطة ومتعلقة بما قبلها : والمعنى : إنك إن قلت سأفعل غدا كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله ، ثم تذكرت بعد ذلك فقل : إن شاء الله .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٤٩ .

أى : اذكر ربك معلقا على مشيئته ما تقول إنك ستفعله غدا إذا تذكرت بعد النسيان .

وهذا القول هو الظاهر ، لأنه يدل عليه ما قبله ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ وهو قول الجمهور .

الثانى : أن هذه الجملة لا تعلق لها بما قبلها ، وأن المعنى : إذا وقع منك النسيان لشىء فاذكر ربك ، لأن النسيان من الشيطان ، كما قال - تعالى - عن فتى موسى : ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره .... ﴾[1] .

وعلى هذا القول يكون المراد بالذكر : التسبيح والاستغفار ، وعلى الأول المراد به أن تقول : إن شاء الله أو ما يشبه ذلك .

والمقصود من هذه الآية الكريمة بيان أن تعليق الأمور بمشيئة الله - تعالى - هو الذى يجب أن يفعل ، لأنه - تعالى - لا يقع شىء إلا بمشيئته فإذا نسى المسلم ثم تذكر ، فإنه يقول : إن شاء الله ، ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة ، وبذلك يكون قد فوض أمره إلى الله - تعالى - .

وليس المقصود بها التحلل من يمين قد وقعت ، لأن تداركها قد فات بالانفصال ، ولأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا ﴾ أى : قدم - أيها الرسول الكريم - مشيئة ربك عند إرادة فعل شىء ، وأت بها إذا نسيت ذلك عند التذكر ، وقل عسى أن يوفقنى ربى ويهدينى ويدلنى على شىء أقرب فى الهداية والإرشاد من هذا الذى قصصته عليكم من أمر أصحاب الكهف .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ لأقرب من هذا .. ﴾ اسم الإشارة يعود إلى نبأ أصحاب الكهف : ومعناه : لعل الله يؤتينى من البينات والحجج على أنى نبى صادق ، ما هو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف .

وقد فعل - سبحانه - ذلك ، حيث آتاه من قصص الأنبياء ، والإخبار بالغيوب ، ما هو أعظم من ذلك وأدل »[2] .

---

(١) أضواء البيان جـ ٤ ص ٧٧ .

(٢) تفسير الكشف جـ ٢ ص ٤٨٠ .

ثم بين - سبحانه - على وجه اليقين ، المدة التى قضاها أصحاب الكهف راقدين فى كهفهم ، فقال - تعالى - :

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

أى : أن أصحاب الكهف مكثوا فى كهفهم راقدين ثلاثمائة سنين ، وازدادوا فوق ذلك تسع سنين .

فالآية الكريمة إخبار منه - سبحانه - عن المدة التى لبثها هؤلاء الفتية مضروبا على آذانهم .

وقوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ تقرير وتأكيد لكون المدة التى لبثوها هى ما سبق بيانه فى الآية السابقة .

فكأنه - سبحانه - يقول : هذا هو فصل الخطاب فى المدة التى لبثوها راقدين فى كهفهم ، وقد أعلمك الله - تعالى - بذلك - أيها الرسول الكريم - ، وما أعلمك به فهو الحق الصحيح الذى لا يحوم حوله شك ، فلا تلتفت إلى غيره من أقوال الخائضين فى أمر هؤلاء الفتية ، فإن الله - تعالى - هو الأعلم بحقيقة ذلك .

ويرى بعضهم أن قوله - تعالى - : ﴿ ولبثوا فى كهفهم ﴾ حكاية لكلام أهل الكتاب فى المدة التى لبثها أهل الكهف نياما فى كهفهم ، وأن قوله ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ للرد عليهم .

وقد حكى الإمام ابن كثير القولين . ورجح الأول منهما فقال : هذا خبر من الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - بمقدار مالبث أصحاب الكهف فى كهفهم ، منذ أن أرقدهم الله إلى أن بعثهم

وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان . كان مقداره ثلاثمائة سنين وتسع سنين بالهلالية وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة ﴿ وازدادوا تسعا ﴾ .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ ولبثوا فى كهفهم .. ﴾ وهذا قول أهل الكتاب وقد رده الله - تعالى - بقوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ .

وفى هذا الذى قاله قتادة نظر ، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع ولو كان الله - تعالى - قد حكى قولهم لما قال : ﴿ وازدادوا تسعا ﴾ ، وظاهر الآية أنه خبر عن الله لا حكاية عنهم ..[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ تأكيد لا ختصاصه - عز وجل - بعلم المدة التى لبثوها ، أى : له - سبحانه - وحده علم ما خفى وغاب من أحوال السموات والأرض ، وأحوال أهلها ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ صيغتا تعجب : أى : ما أبصره وما أسمعه - تعالى - والمراد أنه - سبحانه - لا يغيب عن بصره وسمعه شىء .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره - تعالى - فى الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسامعين . إذ لا يحجبه شىء ، ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف ، وصغير وكبير ، وجلى وخفى .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ .

أى : ليس لأهل السموات ولا لأهل الأرض ولا لغيرهما غير الله - تعالى - نصير ينصرهم ، أو ولى يلى أمرهم . ولا يشرك - سبحانه - فى حكمه أو قضائه أحدا كائنا من كان من خلقه . كما قال - تعالى - ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات مسائل منها .

(أ) مكان الكهف الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والزمن الذى ظهروا فيه ، أما مكان الكهف فللعلماء فيه أقوال : من أشهرها أنه كان بالقرب من مدينة تسمى « أفسوس » وهى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٦ .

من مدن تركيا الآن ، قالوا إنها تبعد عن مدينة « أزمير » بحوالى أربعين ميلا ، وتعرف الآن باسم : « أيازبوك » .

وقيل : إنه كان ببلدة تدعى « أبسس » - بفتح الهمزة وسكون الباء وضم السين - وهذه البلدة من ثغور « طرسوس » بين مدينة حلب بسوريا ، وبلاد أرمينية وأنطاكية .

وقيل : إنه كان ببلدة تسمى « بتراء » بين خليج العقبة وفلسطين .. إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة ، التى لا نرى داعيا لذكرها ، لقلة فائدتها .

وأما الزمن الذى ظهروا فيه ، فيرى كثير من المفسرين أنه كان فى القرن الثالث الميلادى فى عهد الإمبراطور الرومانى « دقيانوس » الذى كان يحمل الناس حملا على عبادة الأصنام ، ويعذب من يخالف ذلك .

(ب) العبر والعظات والأحكام التى تؤخذ من هذه القصة - ومن أهمها :

١ - إثبات صدق الرسول - ﷺ - فيما يبلغه عن ربه ، حيث أخبر - عن طريق ما أوحاه الله إليه من قرآن - عن قصة هؤلاء الفتية ، وبين وجه الحق فى شأنهم ورد على ما خاضه الخائضون فى أمرهم ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ... ﴾ .

٢ - الكشف عن جانب من بلاغة القرآن الكريم فى قصصه ، حيث ساق هذه القصة مجملة فى الآيات الأربع الأولى منها ، ثم ساقها مفصلة بعد ذلك تفصيلا حكيما . وفى ذلك ما فيه من تمكن أحداثها وهداياتها فى القلوب .

والمرشد العاقل هو الذى ينتفع بهذا الأسلوب القرآنى فى وعظه وإرشاده .

٣ - بيان أن الإيمان متى استقر فى القلوب ، هان كل شىء فى سبيله . فهؤلاء الفتية آثروا الفرار بدينهم ، على البقاء فى أوطانهم ، لكى تسلم لهم عقيدتهم .. فهم كما قال - سبحانه - فى شأنهم : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ .

٤ - بيان أن على المؤمن أن يلجأ إلى الله بالدعاء - لاسيما عند الشدائد والكروب ، وأنه متى اتقى الله - تعالى - وأطاعه ، جعل له - سبحانه - من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وصانه من السوء .

فهؤلاء الفتية عندما لجأوا إلى الكهف ، تضرعوا إلى الله بقولهم : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً ﴾ .

فأجاب الله دعاءهم ، حيث ضرب على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، وجعل الشمس

لا تصل إليهم مع أنهم فى فجوة من الكهف ، وصان أجسادهم من البلى والتعفن بأن قلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وأنام كلبهم بعتبة باب الكهف حتى لكأنه حارس لهم : وألقى الهيبة عليهم بحيث لو رآهم الرائى لولى منهم فرارا . ولملئ قلبه رعبا من منظرهم .

وسخر أصحاب النفوذ والقوة للدفاع عنهم . وللتعبير عن تكريمهم لهم بقولهم : ﴿ لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ .

٥ - بيان أن التفكير السليم - المصحوب بالنية الطيبة والعزيمة الصادقة ، يؤدى إلى الاهتداء إلى الحق ، وأن القلوب النقية الطاهرة تتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . وأن فضح الباطل والكشف عن زيفه .. دليل على سلامة اليقين .

فهؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، وربط الله على قلوبهم إذ قاموا للوقوف فى وجه الباطل ، وهداهم تفكيرهم السليم إلى أن المستحق للعبادة هو ربهم رب السموات والأرض ، وأن من يعبد غيره يكون قد افترى على الله كذبا .

وأن اعتزال الكفر . يوصل إلى نشر الرحمة ، والظفر بالسداد والتوفيق . ولذا تواصوا فيما بينهم بقولهم : ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ .

٦ - بيان أن مباشرة الأسباب المشروعة لا تنافى التوكل على الله .

فهؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم ، أخذوا معهم بعض النقود ، وبعد بعثهم من رقادهم أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعاما طاهرا حلالا ، وأوصوه بالتلطف فى أخذه وعطائه وبكتمان أمره وأمرهم حتى لا يعرف الأعداء مكانهم .

وهكذا العقلاء ، لا يمنعهم توكلهم على الله - تعالى - من أخذ الحيطة والحذر فى كل شئونهم التى تستدعى ذلك .

٧ - إقامة أوضح الأدلة وأعظمها على أن البعث حق . فقد أطلع الله - تعالى - الناس على هؤلاء الفتية ، ليوقنوا بأنه - سبحانه - قادر على إحياء الموتى .. لأن من يقدر على بعث الراقدين من رقادهم بعد مئات السنين ، فهو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

٨ - بيان أن من الواجب على المؤمن إذا أراد فعل شىء أن يقرن ذلك بمشيئة الله - تعالى - لأنه - سبحانه - بيده الأمر كله ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ .

هذه بعض العظات والأحكام التى ترشدنا إليها هذه القصة ، وقد ذكرنا جانبا آخر منها

خلال تفسيرنا للآيات التى اشتملت عليها . ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المفسرون فى ذلك[1] .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - بمداومة التلاوة لما أوحاه إليه - سبحانه - ، فإن فيه فصل الخطاب وبالحفاوة بالمؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، وبإعلان كلمة الحق فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فقال - تعالى - :

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ٨١ ، وتفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٥٦ وتفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٠٩ ، وتفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ١٨ .

مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ واتل ما أوحى إليك ..﴾ اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى - عليه السلام - والخضر ، كلام واحد فى قصة واحدة وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله - ﷺ - : إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء .. فنهاه الله عن طردهم لأنه مطلوب فاسد .. ثم إنه - سبحانه - أمره بالمواظبة على تلاوة كتابه ، وأن لا يلتفت إلى اقتراح المقترحين ، وتعنت المتعنتين[1] .

قوله - سبحانه - : ﴿ واتل ﴾ ... فعل أمر من التلاوة بمعنى القراءة .

أى : وعليك ه أيها الرسول الكريم - أن تواظب وتداوم على قراءة ما أوحيناه إليك من هذا القرآن الكريم ، وأن تتبع إرشاداته وتوجيهاته ، فإن فى ذلك ما يهديك إلى الطريق الحق ، وما يغنيك عن السؤال والاستفتاء ، قال - تعالى - : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور ﴾[2] .

وصيغة الأمر فى قوله - سبحانه - : ﴿ واتل .. ﴾ لإبقاء الفعل لا لإيجاده ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ .

و « من » فى قوله ﴿ من كتاب ربك ﴾ بيانية .

وقوله : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أى : ليس فى هذا الكون أحد فى إمكانه أن يغير أو يبدل شيئا من الكلمات التى أوحاها الله - تعالى - إليك - أيها الرسول الكريم - ، لأننا قد تكفلنا بحفظ هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك .

قال - تعالى - : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[3] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١١٤ .
(٢) سورة فاطر الآية ٢٩ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١١٥ .

وقال - سبحانه - ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

فالجملة الكريمة وهى قوله - سبحانه - ﴿ لامبدل لكلماته ﴾ نفت قدرة أحد على تبديل كلمات الله ، لأن أخبارها صدق ، وأحكامها عدل ، وإنما الذى يقدر على التغيير والتبديل هو الله - تعالى - وحده .

والضمير فى « كلماته » يعود على الله - تعالى - ، أو على الكتاب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾ .

وأصل الملتحد : مكان الالتحاد وهو افتعال من اللحد بمعنى الميل . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه ميل فى الحفر . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا .. ﴾ أى : يميلون فى آياتنا .

فالمراد بالملتحد : المكان الذى يميل فيه إلى ملجأ للنجاة .

والمعنى : وداوم أيها الرسول الكريم على تلاوة ما أوحيناه إليك من كتابنا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واعلم أنك إن خالفت ذلك لن تجد غير الله - تعالى - ملجأ تلجأ إليه ، أو مأوى تأوى إليه ، لكى تنجو مما يريده بك .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير الشديد - فى شخص الرسول - ﷺ - لكل من يقصر فى تلاوة كتاب الله ، أو يحاول التبديل فى ألفاظه ومعانيه .

ثم ساقت السورة الكريمة لونا من الأدب السامى ، والتوجيه العالى ، حيث بينت أن أولى الناس بالرعاية والمجالسة هم المؤمنون الصادقون ، وأمرت النبى - ﷺ - بأن يصبر نفسه معهم ، فقال - تعالى - : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا .. ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى أشراف قريش ، حين طلبوا من النبى - ﷺ - أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال وعمار وان مسعود . وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله - تعالى - عن ذلك .. وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء الفقراء فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ .[2]

---

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٤٨ .

وصبر النفس معناه : حبسها وتثبيتها على الشيء ، يقال : صبرت فُلانا أَصْبِره صَبْرا ، أى : حبسته .

والغداة : أول النهار . والعشى . آخره .

والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تحبس نفسك وتعودها على مجالسة أصحابك ﴿ الذين يدعون ربهم ﴾ أى : يعبدونه ويتقربون إليه بشتى أنواع القربات ، فى الصباح والمساء ، ويداومون على ذلك ، دون أن يريدوا شيئا من وراء هذه العبادة ، سوى رضا الله - تعالى - عنهم ورحمته بهم .

وفى تخصيص الغداة والعشى بالذكر : إشعار بفضل العبادة فيهما : لأنهما محل الغفلة والاشتغال بالأمور الدنيوية غالبا .

ويصح أن يكون ذكر هذين الوقتين المقصود به مداومة العبادة . وإلى هذا المعنى أشار الآلوسى بقوله : قوله : ﴿ يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾ أى : يعبدونه دائما . وشاع استعمال مثل هذه العبارة للدوام . وهى نظير قولهم : ضرب زيد الظهر والبطن . يريدون به ضرب جميع البدن . وأبقى غير واحد اللفظين على ظاهرهما أى : يعبدونه فى طرفى النهار[1] .

وقوله : ﴿ يريدون وجهه ﴾ مدح لهم بالإخلاص والبعد عن الرياء والمباهاة .. فهم لا يتقربون إلى الله - تعالى - بالطاعات من أجل دنيا يصيبونها . أو من أجل إرضاء الناس .

وإنما هم يبتغون بعبادتهم رضا الله - تعالى - وحده ، لا شيئا آخر من حظوظ الدنيا .

وقوله - سبحانه - ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا .. ﴾ نهى له صلى الله عليه وسلم - عن الغفلة عنهم ، بعد أمره بحبس نفسه عليهم .

والفعل ﴿ تَعْدُ ﴾ بمعنى تصرف . يقال عداه عن الأمر عدوا إذا صرفه عنه وشغله .

أى : احبس نفسك مع هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه - سبحانه - ولا تصرف عيناك النظر عنهم ، وتتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء ، طمعا فى إسلامهم .

فالمراد بإرادة الحياة الدنيا الحرص على مجالسة أهل الغنى والجاه حبا فى إيمانهم .

وجملة ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ فى موضع الحال من الضمير المضاف إليه فى قوله

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٦٢ .

﴿ عيناك ﴾ ، وإنما ساغ ذلك لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه .

وقوله - تعالى - ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ نهى آخر مؤكد لما قبله من حبس نفسه - ﷺ - على هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وعدم صرف نظره عنهم إلى غيرهم من المتغطرسين الأغنياء .

والفرط - بضم الفاء والراء - : مجاوزة الحد ، ونبذ الحق والصواب ، واتباع الباطل والضلال . أى : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - فى تنحية المؤمنين الفقراء عن مجلسك أقوال أولئك الغافلين عن طاعتنا وعبادتنا لاستحواذ الشيطان عليها ، والذين اتبعوا أهواءهم فآثروا الغى على الرشد . والذين كان أمرهم . فرطا أى : مخالفا للحق ، ومجاوزاً للصواب ، ومؤديا للضياع والخسران .

قال ابن جرير - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى قوله - تعالى - : ﴿ فرطا ﴾ : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال معناه : ضياعا وهلاكا . من قولهم : أفرط فلان فى هذا الأمر إفراطاً ، إذا أسرف فيه . وتجاوز قدره . وكذلك قوله : ﴿ وكان أمره فرطا ﴾ . معناه : وكان أمر هذا الذى أغفلنا قلبه عن ذكرنا فى الرياء والكبر واحتقار أهل الإيمان سرفا قد تجاوز حده ، فضيع بذلك الحق وهلك »[1] .

فالآية الكريمة تسوق للناس توجيهاً حكيما فى بيان القيم الحقيقية للناس ؛ وهى أنها تتمثل فى الإيمان والتقوى ، لا فى الغنى والجاه .

فالمؤمن الصادق فى إيمانه ، الكريم فى أخلاقه .. هو الذى يحرص على مخالطة أهل الإيمان والتقوى . ولا يمنعه فقرهم من مجالستهم ومصاحبتهم ومؤانستهم والتواضع لهم ، والتقدم إليهم بما يسرهم ويشرح صدورهم .

ولقد ربى النبى - ﷺ - أصحابه على هذا الخلق الكريم ، روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى قال : مر رجل على النبى - ﷺ - فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك فى هذا ؟ فقال : رجل من أشرف الناس ، هذا والله حرىٌّ إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع . فسكت رسول الله - ﷺ - ثم مرّ رجل آخر : فقال له - ﷺ - : « ما رأيك فى

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١٥٦ .

هذا » ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين هذا والله حرى إن خطب أن لا يزوج ، وإن شفع ان لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال : رسول الله - ﷺ - : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا »[1] .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يجهر بكلمة الحق فى وجوه المستكبرين ، فقال . ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. ﴾ .

أى : وقل : أيها الرسول - لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا ، واتبعوا أهواءهم ، وكان أمرهم فرطا ، قل لهم : هذا الذى جئتكم به من قرآن هو الحق من ربكم وخالقكم .. فقوله : ﴿ الحق من ربكم ﴾ خبر لمبتدأ محذوف .

أو أن لفظ ﴿ الحق ﴾ مبتدأ ، والجار والمجرور خبره . أى : الحق الذى جئتكم به فى هذا القرآن العظيم ، كائن مبدؤه من ربكم ، وليس من أحد سواه .

وليس المراد من قوله ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ التخيير بين الايمان والكفر ، بل المراد به التهديد والتخويف ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا ﴾ .. إلخ .

أى : قل لهم جئتكم من ربكم بالحق الذى يجب اتباعه ، فمن شاء أن يؤمن به فليفعل فإن عاقبته الخير والثواب ، ومن شاء أن يكفر به فليكفر فإن عاقبته الخسران والعقاب ، كما بين - سبحانه - ذلك فى قوله : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ﴾ .

والسرادق : كل ما أحاط بغيره ، كالحائط أو السور الذى يحيط بالبناء ، فيمنع من الوصول إلى ما بداخله .

أى : إنا هيأنا وأعددنا للكافرين بهذا الحق نارا مهولة عظيمة ، أحاط بهم سياجها إحاطة تامة ؛ بحيث لا يستطيعون الخروج منه ، وإنما هم محصورون بداخله . كما ينحصر الشىء بداخل ما يحدق به من كل جانب .

وقوله : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب ، وساءت مرتفقا ﴾ بيان لما ينزل بهم من عذاب عندما يطلبون الغوث مما هم فيه من كروب .

والمهل فى اللغة : يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض . كالحديد ، والرصاص ،

---

(١) رياض الصالحين للامام النووى ص ١٣١ باب فضل ضعفة المسلمين .

والنحاس ، ونحو ذلك كما يطلق - أيضا - على الماء الغليظ كدردى الزيت أى : ما تعكر منه . وقيل . هو نوع من القطران أو السم .

والمرتفق : المتكأ ، من الارتفاق وهو الاتكاء على مرفق اليد .

أى : إن هؤلاء الكافرين ، إن يطلبوا الغوث عما هم فيه من كرب وعطش ، يغاثوا بماء كالمهل فى شدة حرارته ونتنه وسواده ، هذا الماء ﴿ يشوى الوجوه ﴾ أى : يحرقها .

﴿ بئس الشراب ﴾ ذلك الماء الذى يغاثون به « وساءت » النار منزلا ينزلون به ، ومتكأ يتكئون عليه .

فالآية الكريمة تصور ما ينزل بهؤلاء الظالمين من عذاب ، تصويرا ترتجف من هوله الأبدان ، ويدخل الرعب والفزع على النفوس .

قال بعضهم : فإن قيل ، أى إغاثة لهم فى ماء كالمهل مع انه من أشد العذاب ، وكيف قال - سبحانه - ، ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ ؟

فالجواب : إن هذا من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ونظيره من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب .

وخيـل قد دلفت لهـا بخيـل ... تحيـة بينهم ضـرب وجيـع

أى : لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع ، وإذا كان هؤلاء الظالمون لا يغاثون إلا بماء كالمهل ، علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم مطلقا »[1] .

والمخصوص بالذم فى قوله : ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ محذوف ، بئس الشراب ذلك الماء الذى يغاثون به ، وساءت النار مكانا للارتفاق والاتكاء .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حسن عاقبة المؤمنين فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ألوان النعيم فقال : ﴿ أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار ﴾ .

ولفظ « عدن » بمعنى إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول . وأصله من عدن فلان بالمكان . إذ أقام به واستقر فيه .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ٩٦ .

أى : أولئك الذين عمروا دنياهم بالإيمان والعمل الصالح لهم جنات يقيمون فيها إقامة دائمة ، تجرى من تحت مساكنهم الأنهار .

﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ والأساور : جمع سوار . وهو نوع من الحلى يلبس بزند اليد .

أى : يلبسون فى تلك الجنات أساور من ذهب على سبيل التزين والتكريم .

ولا مانع من أن يضاف إلى هذه الأساور الذهبية ، أساور أخرى من فضة ، وثالثة من لؤلؤ كما فى قوله - تعالى - : ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا .. ﴾[2] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول - ﷺ - قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

وقوله ﴿ ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ﴾ معطوف على ما قبله .

والسندس : مارق من الحرير واحده سندسة .

والاستبرق : ما غلظ منه وثخن ، واحده إستبرقة .

أى : يتزينون فى الجنات بأساور من ذهب ، ويلبسون فيها ثيابا خضرا من رقيق الحرير ومن غليظه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾ .

والأرائك : جمع أريكة . وهو كل ما يتكأ عليه من سرير أو فراش .

أى : متكئين فى الجنات على الأرائك شأن المتنعمين المترفهين « نعم الثواب » ذلك الذى وعدهم الله - تعالى - به وهو الجنة « وحسنت » تلك الأرائك فى الجنات « مرتفقا » .

أى : متكأ ومقرا ومجلسا ومسكنا .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد اشتملت على ألوان متعددة من التكريم والثواب لأولئك المؤمنين الذين عمروا دنياهم بالعمل الصالح .

---

(١) سورة الدهر الآية ٢١ .

(٢) سورة الحج الآية ٢٣ .

فقد بشرهم - سبحانه - بجنات عدن ، ثم بشرهم ثانيا بأن الأنهار تجرى من تحتهم ، ثم بشرهم ثالثا بأنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ، ثم بشرهم رابعا بأنهم يلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، ثم بشرهم خامساً ، بأنهم يتكئون فى تلك الجنات على الأرائك .

وفى هذه البشارات ما فيها من الحض على المسارعة إلى العمل الصالح ، الذى يرفع درجات المؤمن إلى أعلى عليين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا هذا الفضل ، فهو أكرم مسئول ، وأعظم مأمول .

ثم ساقت السورة الكريمة مثلا للنفس الإنسانية المغرورة المتفاخرة بزينة الحياة الدنيا ، الجاحدة لنعم الله ... وللنفس الإنسانية المتواضعة ، المعتزة بعقيدتها السليمة ، الشاكرة لربها ... لكى يكون فى هذا المثل عبرة وعظة لمن كان له قلب ، فقال - تعالى - :

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

والمثل فى اللغة : الشبيه والنظير ، وهو فى عرف القرآن الكريم : الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع .

وضرب المثل : إيراده ، وعبر عن إيراده بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه من التأثير فى نفس السامع .

أى : واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

قال الآلوسى : والمراد بالرجلين : إما رجلان مقدران على ماقيل ، وضرب المثل لا يقتضى وجودهما . وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه . فقيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما : كافر .. والآخر : مؤمن .

ثم قال : والمراد ضربها مثلا للفريقين المؤمنين والكافرين ، لا من حيث أحوالها المستفادة مما ذكر آنفا ، بل من أن للمؤمنين فى الآخرة كذا ، وللكافرين فيها كذا ، من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم فى نعم الله ، وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر »[1] .

أى : واضرب لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة ، والطاعة مع الفقر ، حال رجلين : ﴿ جعلنا لأحدهما ﴾ وهو الكافر ﴿ جنتين ﴾ أى : بستانين ، ولم يعين - سبحانه - مكانهما ، لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض .

ثم بين ما اشتملت عليه هاتان الجنتان من خيرات فقال : ﴿ من أعناب ﴾ جمع عِنَب ، والعنبة الحبة منه . والمراد : من كروم متنوعة .

وقوله : ﴿ وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ﴾ بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر تزيدهما بهجة وفائدة .

والحف بالشىء : الإحاطة به . يقال : فلان حفه القوم ، أى : أحاطوا به ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ... ﴾ .

أى : جعلنا لأحد الرجلين ، وهو الكافر منهما جنتين من أعناب ، وأحطناهما بنخل ليكون كالحماية النافعة لهما ، وجعلنا فى وسطهما زرعا وبذلك تكون الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه ، مشتملتين على ما من شأنه أن يشرح الصدر ، ويفيد الناس .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد من جودة الجنتين ، ومن غزارة خيرهما فقال : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهرا ﴾ وكلتا : اسم مفرد اللفظ مثنى المعنى عند البصريين ، وهو المذهب المشهور ، ومثنى لفظا ومعنى عند غيرهم .

أى : أن كل واحدة من الجنتين ﴿ آتت أكلها ﴾ أى : أعطت ثمارها التى يأكلها الناس

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٧٣ .

من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع ﴿ ولم تظلم منه شيئا ﴾ أى ولم تنقص من هذا المأكول شيئا فى سائر السنين ، بل كان أكل كل واحدة منهما وافيا كثيرا فى كل سنة ، على خلاف ما جرت به عادة البساتين ، فإنها فى الغالب تكثر ثمارها فى أحد الأعوام وتقل فى عام اخر .

وفى التعبير بكلمة ﴿ تظلم ﴾ بمعنى تنقص وتمنع ، مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذى ظلم نفسه بجحوده لنعم الله - تعالى - واستكباره فى الأرض .

وقوله ﴿ وفجرنا خلالهما نهرا ﴾ أى : وشققنا فى وسطهما نهرا ليمدهما بما يحتاجان إليه من ماء بدون عناء وتعب .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنتين بما يدل على جمال منظرهما ، وغزارة عطائهما ، وكثرة خيراتهما ، واشتمالهما على ما يزيدهما بهجة ومنفعة .

ثم بين - سبحانه - أن صاحب هاتين الجنتين كانت له أموال أخرى غيرهما فقال : ﴿ وكان له ثمر ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ وكان له ﴾ أى : للأحد المذكور وهو صاحب الجنتين « ثمر » أى أنواع أخرى من المال .. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى .. « ثُمُر » بضم الثاء والميم ، وهو جمع ثمار - بكسر الثاء - .. أى : أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، وبذلك فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما .. »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ حكاية لما تفوه به هذا الكافر من ألفاظ تدل على غروره وبطره .

والمحاورة : المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر . يقال : تحاور القوم ، إذا تراجعوا الكلام فيما بينهم . ويقال : كلمته فما أحار إلى جواباً ، أى : مارد جوابا .

والنفر : من ينفر - بضم الفاء - مع الرجل من قومه وعشيرته لقتال عدوه .

أى : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر : أنا أكثر منك مالا وأعز منك عشيرة وحشما وأعوانا .

وهذا شأن المطموسين المغرورين ، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها .. بطرا وفسادا فى الأرض .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٧٤ .

وما أصدق قول قتادة - رضى الله عنه - : « تلك - والله - أمنية الفاجر : كثرة المال وعزة النفر » ، ثم انتقل صاحب الجنتين من غروره هذا إلى غرور أشد . حكاه القرآن فى قوله : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ .

أى : أن هذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن ، بل سار به نحو جنته حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم أفرد الجنة بعد التثنية ؟ قلتُ : معناه ودخل ما هو جنته ، ماله جنة غيرها : يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعدها الله للمؤمنين ، فما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما .

وقوله ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ أى : وهو معجب بما أوتى مفتخر به ، كافر لنعمة ربه ، معرض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظلم ..[1] .

وقوله : ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ أى : قال هذا الكافر لصاحبه : ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو تهلك أبدا .

يقال : باد الشىء يبِيدُ بَيْدا وبُيُودًا : إذا هلك وفنى .

ثم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أى : كائنة ومتحققة . فهو قد أنكر البعث وما يترتب عليه من حساب بعد إنكاره لفناء جنته ، ثم أكد كلامه بجملة قسمية فقال : ﴿ ولئن رددت إلى ربى ﴾ أى : والله لئن رددت إلى ربى على سبيل الفرض والتقدير كما أخبرتنى يا صاحبى بأن هناك بعثا وحسابا ﴿ لأجدن خيرا منها ﴾ أى : من هذه الجنة ﴿ منقلبا ﴾ أى : مرجعاً وعاقبه . اسم مكان من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف عن الشىء إلى غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ .

والمتدبر لحال صاحب الجنتين يراه ، - أولا - قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة ، ويراه - ثانيا - قد بنى حياته على الغرور والبطر ، واعتقاد الخلود لزينة الحياة

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٤ .

الدنيا ، ويراه - ثالثاً - قد أنكر البعث والحساب ، والثواب والعقاب .

ويراه - رابعا - قد توهم أن غناه فى الدنيا سيكون معه مثله فى الآخرة :

قال صاحب الكشاف : وأخبر عن نفسه بالشك فى بيدودة جنته ، لطول أمله ، واستيلاء الحرص عليه ، وتمادى غفلته ، واغتراره بالمهلة ، واطراحه النظر فى عواقب أمثاله ، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم ، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به ، منادية عليه .

وأقسم على أنه إن رد إلى ربه - على سبيل الفرض والتقدير - ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا ، تطمعا وتمنيا على الله .. »[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الرجل المؤمن لصاحب الجنتين ، الذى نطق بأفحش ، وأفجر الفجور ، فقال - تعالى - :

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

أى : قال الرجل الفقير المؤمن ، فى رده على صاحبه الجاحد المغرور ، منكرا عليه كفره قال له على سبيل المحاورة والمجاوبة : يا هذا ﴿ أكفرت ﴾ بالله الذى « خلقك » بقدرته

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٤ .

« من تراب » . أى : خلق أباك الأول من تراب ، كما قال : سبحانه ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[1] .

﴿ ثم من نطفة ﴾ أى : خلق أباك آدم من تراب ، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى .

﴿ ثم سواك رجلا ﴾ أى : ثم صيرك إنسانا كاملا ، ذا صورة جميلة ، وهيئة حسنة . كما قال - سبحانه - : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أكفرت .. ﴾ للإنكار والاستبعاد ، لأن خلق الله - تعالى - له من تراب ثم نطفة ، ثم تسويته إياه رجلا ، يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم ، وإخلاص العبادة له ، وشكره على نعمائه .

قالوا : ولا يستلزم قول صاحب الجنتين قبل ذلك : ﴿ ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ . أنه كان مؤمنا ، لأنه قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الاعتقاد واليقين ، بدليل تردده فى إمكان قيام الساعة ، ولأن اعترافه بوجود الله - تعالى - لا يستلزم الإيمان الحق ، فالكفار كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، ومع هذا يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى .

وجاء التعبير بحرف « ثم » فى الآية ، للاشارة إلى أطوار خلق الإنسان التى فصلها - سبحانه - فى آيات أخرى ، منها قوله - تعالى - : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[2] .

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح ، فيقول لصاحبه صاحب الجنتين : ﴿ لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا ﴾ .

أى : إن كنت أنت ياهذا قد كفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، فإنى لست بكافر ، ولكنى أنا مؤمن ، أعترف له بالعبادة والطاعة وأقول : هو الله -

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٨ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات من ١٣ - ١٤ .

تعالى - وحده ربي ، ولا أشرك معه أحدا من خلقه لا فى الربوبية ، ولا فى الألوهية ، ولا فى الذات ولا فى الصفات .

وقوله - سبحانه - فى هذه الآية ﴿ لكنا ... ﴾ أصله : « لكن أنا » أى : لكن أنا أقول هو الله ربى . فحذفت همزة « أنا » وأدغمت نون « لكن » فى نون أنا بعد حذف الهمزة .

وجمهور القراء يقرءون فى الوصل « لكن » بدون ألف بعد النون المشددة وقرأ أبو عامر فى الوصل « لكنا » بالألف - أما فى حالة الوقف فقد اتفق الجميع على إثبات الألف .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ لكنا هو الله ربى ﴾ أصله : لكن أنا فحذفت الهمزة ، وألقيت حركتها على نون لكن ، فتلاقت النونان فكان الإدغام ، ونحوه قول القائل :

وترمينني بالطَّرف أى أنت مذنب وتقلِينَنى ، لـكنَّ إيـاك لا أقْـلِي

أى : لكن أنا لا أقليك .

و « هو » ضمير الشأن : أى : والشأن أن الله ربى : والجملة خبر أنا . والراجع منها إليه ياء الضمير .

فإن قلت : هو استدراك لأى شيء ؟ قلت : لقوله « أكفرت .. » قال لأخيه أنت كافر بالله ، لكنى مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب لكن عمرا حاضر »[1] .

ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته فقال : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ... ﴾ .

قال الامام ابن كثير : هذا تحضيض وحث على ذلك . أى : هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك وقلت ﴿ ماشاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .. وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة . وقد روى فيه حديث مرفوع .. فعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لاقوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت »[2] .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١٥ ص ١٥٤ .

وقال الآلوسى : وقوله : « ما شاء الله ، أى : الأمر ماشاء الله ، أو ما شاء الله - تعالى - كائن ، على أن « ما » موصولة مرفوعة المحل . إما على أنها خبر مبتدأ محذوف . أو على أنها مبتدأ محذوف الخبر .. وأيا كان فالمراد تحضيضه على الاعتراف بأن جنته وما فيها بمشيئة الله - تعالى - إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها[١] .

وبعد أن حضه على الشكر لله - تعالى - رد على افتخاره وغروره بقوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ﴾ .

أى : إن ترن - أيها المغرور - أنا أقل منك فى المال والولد فإنى أرجو الله الذى لا يعجزه شىء ، أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة .

﴿ ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴾ أى : عذابا من جهة السماء كالصواعق والسموم وغيرها مما يشاء الله - تعالى - إرساله عليها من المهلكات التى تذرها قاعا صفصفا .

قال صاحب الكشاف : والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب . أى : ويرسل عليها مقدارا قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها .

« فتصبح » بعد اخضرارها ونضارتها « صعيدا » أى : أرضا « زلقا » أى : جرداء ملساء لا نبات فيها ، ولا يثبت عليها قدم .

والمراد أنها تصير عديمة النفع من كل شىء حتى من المشى عليها . يقال : مكان زَلَق ، أى : دَحْضٌ ، وهو فى الأصل مصدر زَلِقَتْ رجله تزِلق زلقا ، ومعناه : الزلل فى المشى لوحل ونحوه .

﴿ أو يصبح ماؤها غورا ﴾ أى : غائراً ذاهبا فى الأرض . فالغور مصدر وصف به على سبيل المبالغة وهو بمعنى الفاعل . يقال : غار الماء يغور غورا : أى : سفل فى الأرض وذهب فيها .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ، فمن يأتيكم بماء معين ﴾ .

﴿ فلن تستطيع له طلبا ﴾ أى : فلن تستطيع أن تحصل عليه أو تطلبه بأية حيلة من الحيل ، لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الماء الغائر إلا الله - عز وجل - .

وإلى هنا نجد أن الرجل المؤمن قد رد على صاحبه الكافر ، بما يذكره بمنشئه ، وبما يوجهه إلى الأدب الذى يجب أن يتحلى به مع خالقه ورازقه ، وبما يحذره من سوء عاقبة بطره .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٥ ص ٢٧٩ .

وهكذا الإيمان الحق ، يجعل المؤمن يعتز بعقيدته ، ويتجه إلى الله وحده الذى تعنو له الجباه ، ويرجو منه وحده ما هو خير من بساتين الدنيا وزينتها .

ثم يختتم - سبحانه - هذه القصة ببيان العاقبة السيئة التى حلت بذلك الرجل الجاحد المغرور صاحب الجنتين فيقول .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

أى : وكانت نتيجة جحود صاحب الجنتين لنعم ربه ، أن أهلكت أمواله وأبيدت كلها . فصار يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفا وندما ، على ما أنفق فى عمارتها وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء ، ومن جهد كبير ذهب سدى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ معطوف على مقدر محذوف لدلالة السباق والسياق عليه .

وأصل الإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو بعدوه من جميع جوانبه لإهلاكه واستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحسبان على بستان صاحبه الجاحد المغرور « وأحيط بثمره » بأن هلكت أمواله وثماره كلها .

وجاء الفعل « أحيط » مبنيا للمجهول ، للإشعار بأن فاعله متيقن وهو العذاب الذى أرسله الله - تعالى - أى : وأحاط العذاب بجنته .

وقوله : ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ تصوير بديع لما اعتراه من غم وهم وحسرة وندامة . وتقليب اليدين عبارة عن ضرب إحداهما على الأخرى ، أو أن يبدى ظهرهما ثم بطنهما ويفعل ذلك مرارا ، وأيًّا ما كان ففعله هذا كناية عن الحسرة الشديدة ، والندم العظيم .

« وهى » أى الجنة التى أنفق فيها ما أنفق ﴿ خاوية على عروشها ﴾ أى : ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها .

وأصل الخواء السقوط والتهدم . يقال : خوى البيت إذا سقط . كما يطلق على الخلاء من الشىء . يقال : خوى بطن فلان من الطعام أى : خلا منه ، وخوت الدار إذا خلت من سكانها .

والعروش جمع عرش ، وهو سقف البيت .

والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه ، صارت حطاما وهشيما تذروه الرياح .
وجملة : « ويقول ياليتنى لم أشرك يربى أحدا » معطوفة على جملة « يقلب كفيه .. » .

أى : صار يقلب كفيه حسرة وندامة لهلاك جنته ، ويقول زيادة فى الحسرة والندامة : يا ليتنى اتبعت نصيحة صاحبى فلم أشرك مع ربى - سبحانه - أحدا فى العبادة أو الطاعة .

وهكذا حال أكثر الناس ، يذكرون الله - تعالى - عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والعافية .

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها قد صورت فجيعة الرجل الجاحد فى جنته تصويرا واقعيا بديعا .

فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به ما يدهشه ويؤلمه . ان يعجز عن النطق فى أول وهلة . فإذا ما أفاق من دهشته بدأ فى النطق والكلام .

وهذا ما حدث من ذلك الرجل - كما صوره القرآن الكريم - فإنه عند ما رأى جنته وقد تحطمت أخذ يقلب كفيه حسرة وندامة دون أن ينطق ، ثم بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا .

فياله من تصوير بديع . يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان عظيم قدرته ونفاذ إرادته فقال .

﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا . هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ .

أى : ولم تكن لهذا الجاحد المغرور بعد أن خوت جنته على عروشها ، عشيرة أو أعوان ينصرونه ، أو يدفعون عنه ما حل به ، وإنما القادر على ذلك هو الله - تعالى - وحده ،

وما كان هذا الرجل الذى جحد نعم ربه منتصرا لأنه - سبحانه - قد حجب عنه كل وسيلة تؤدى إلى نصره وعونه ، بسبب إيثاره الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان .

فالآية الكريمة تبين بجلاء ووضوح ، عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل المخذول سوى قوة الله - عز وجل - ، وعجز ذلك الرجل فى نفسه عن رد انتقام الله - تعالى - منه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هنالك الولاية لله الحق .. ﴾ تقرير وتأكيد للآية السابقة . ولفظ هنالك ظرف مكان .

وكلمة « الولاية » قرأها الجمهور بفتح الواو ، بمعنى الموالاة والصلة والنصرة كما قرأ الجمهور كلمة « الحق » بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة .

فيكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية - أى الموالاة والصلة - من كل الناس ، لله - تعالى - وحده إذ الكافر عند ما يرى العذاب يعترف بوحدانية الله - تعالى - كما قال - سبحانه - ﴿ فلما رأو بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾[1] .

ويجوز أن يكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية أى الموالاة لله - تعالى - وحده . فيوالى المؤمنين برحمته ومغفرته وينصرهم على أعدائهم . كما قال - سبحانه - ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[2] .

وقرأ حمزة والكسائى : ﴿ الولاية ﴾ بكسر الواو ، بمعنى الملك والسلطان كما قرأ أبو عمرو والكسائى لفظ ﴿ الحق ﴾ بالرفع على أنه نعت للولاية .

فيكون المعنى : فى ذلك المقام تكون الولاية الحق ، والسلطان الحق ، لله رب العالمين ، كما قال - سبحانه - : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾[3] .

قال بعض العلماء : وقوله « هنالك » يرى بعضهم أنه متعلق بما بعده ، والوقف تام على قوله ﴿ وما كان منتصرا ﴾ .

ويرى آخرون أنه متعلق بما قبله .

فعلى القول الأول يكون الظرف « هنالك » عامله ما بعده أى : الولاية كائنة لله هنالك .

---

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .
(٢) سورة محمد الآية ١١ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٢٦ .

وعلى القول الثانى فالعامل فى الظرف اسم الفاعل الذى هو « منتصرا » . أى : لم يكن انتصاره واقعا هنالك[١] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ أى : هو - عز وجل - خير إثابة وإعطاء لأوليائه ، وخير عاقبة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

وعاقبة الأمر : آخره ومايصير إليه منتهاه . و « ثوابا » و « عقبا » منصوبان على التمييز ، بعد صيغة التفضيل « خير » التى حذفت منها الهمزة تخفيفا لكثرة الاستعمال كما قال ابن مالك - رحمه الله - :

وغالبا أغناهم خير وشر   عن قولهم أخير منه وأشر

وبذلك نرى أن هذه القصة التى ضربها الله - تعالى - مثلا للأخيار والأشرار قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ ، صور عاقبة الجاحدين المغرورين ؛ وحسن عاقبة الشاكرين المتواضعين ، كما بينت لنا الآثار الطيبة التى تترتب على الإيمان والعمل الصالح ، والآثار السيئة التى يفضى إليها الكفر وسوء العمل ، كما بينت لنا أنّ المتفرد بالولاية والقدرة هو الله - عز وجل - فلا قوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره ، ولا مستحق للعبادة أحد سواه ، ولا ثواب أفضل من ثوابه ولا عاقبة لأوليائه خير من العاقبة التى يقدرها لهم ، وصدق - سبحانه - حيث يقول : ﴿ هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾ .

ثم تنتقل السورة الكريمة من ضرب المثل الجزئى الشخصى ، إلى ضرب مثال آخر عام كلى ، فبينت أن الحياة الدنيا فى قصرها وذهاب زينتها .. كتلك الجنة التى أصبحت حطاما ، بعد اخضرارها وكثرة ثمرها ، كما بينت أن هناك زينة فانية ، وأن هنالك أعمالا صالحة باقية قال - تعالى - :

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٥ ص ١٠٨ .

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود : اضرب لهم مثلا آخر يدل على حقارة الدنيا ، وقلة بقائها . والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين .. »[١] .

والمعنى . واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - ما يشبه هذه الحياة الدنيا فى حسنها ونضارتها ، ثم فى سرعة زوال هذا الحسن والنضارة ، لكى لا يركنوا إليها ، ولا يجعلوها أكبر همهم ، ومنتهى آمالهم .

وقوله : ﴿ كماء أنزلناه من السماء .. ﴾ بيان للمثل الذى شبه الله - تعالى - به الحياة الدنيا أى : مثلها فى ازدهارها ثم فى زوال هذا الازدهار ، كهيئة أو كصفة ماء أنزلناه بقدرتنا من السماء ، فى الوقت الذى نريد إنزاله فيه .

﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ والاختلاط والخلط : امتزاج شيئين فأكثر بعضها ببعض .

أى : كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط وامتزج بهذا الماء نبات الأرض ، فارتوى منه ، وصار قويا بهيجا يعجب الناظرين إليه .

وفى التعبير بقوله : ﴿ فاختلط به نبات الأرض ﴾ دون قوله : فاختلط بنبات الأرض إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء ، وإلى أنه السبب الأساسى فى ظهور هذا النبات ، وفى بلوغه قوته ونضارته .

وقوله : ﴿ فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ بيان لما صار إليه هذا النبات من يبوسته وتفتته ، بعد اخضراره وشدته وحسنه .

قال القرطبى ما ملخصه : « هشيما » أى متكسرا متفتتا ، يعنى بانقطاع الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه ، والهشم ، كسر الشىء اليابس . والهشيم من النبات : اليابس المتكسر .. ورجل هشيم : ضعيف البدن .

و « تذروه الرياح » أى تفرقه وتنسفه .. يقال : ذرت الريح الشىء تذروه ذروا ، إذا طارت به وأذهبته »[٢] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٣٠ .

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٤١٣ .

أى : فأصبح النبات بعد اخضراره ، يابسا متفتتا ، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به حيث شاءت وكيف شاءت .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد شبهت حال الدنيا فى حسنها وجمال رونقها ، ثم فى سرعة زوالها وفنائها بعد ذلك ، بحال النبات الذى نزل عليه الماء فاخضر واستوى على سوقه ، ثم صار بعد ذلك يابسا متفتتا تذهب به الرياح حيث شاءت .

والتعبير بالفاء فى قوله - سبحانه - فاختلط . فأصبح .. يزيد الأسلوب القرآنى جمالا وبلاغة ، لأن فاء التعقيب هنا تدل على قصر المدة التى استمر فيها النبات نضرا جميلا ، ثم صار هشيما تذروه الرياح .

وهكذا الحياة تبدو للمتشبثين بها ، جميلة عزيزة ، ولكنها سرعان ما تفارقهم ويفارقونها ، حيث ينزل بهم الموت فيجعل آمالهم تحت التراب .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ، ﴿ وكان الله على كل شىء مقتدرا ﴾ أى : وكان الله - تعالى - وما زال - على كل شىء من الأشياء التى من جملتها الإنشاء والإفناء ؛ كامل القدرة ، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقد ذكر - سبحانه - ما يشبه هذه الآية فى سور كثيرة . ومن ذلك قوله - تعالى - : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] .

ثم بين - سبحانه - القيمة الحقيقية للمال وللبنين فقال : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ .

والمال : اسم لكل ما يتموله الإنسان ويتملكه من النقود والعقار والحرث والأنعام .. إلخ والبنون : جمع ابن .

والزينة : مصدر . والمراد بها هنا ، ما فى الشىء من محاسن ترغب الإنسان فى حبه .

أى : المال والبنون زينة يتزين بها الانسان فى هذه الحياة الدنيا ، ويتباهى بها على غيره .

وإنما كانا كذلك ، لأن فى المال - كما يقول القرطبى - جمالا ونفعا ، وفى البنين قوة ودفعا .

---

(١) سورة يونس الآية ٢٤ .

قال الآلوسى : وتقديم المال على البنين - مع كونهم أعز منه عند أكثر الناس لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك .. ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بغير مال فهو فى أضيق حال .. »[١] .

وفى التعبير بقوله - سبحانه - زينة ، بيان بديع . وتعبير دقيق لحقيقتهما ، فهما زينة وليسا قيمة ، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس ، وإنما توزن أقدار الناس بالإيمان والعمل الصالح ، كما قال - تعالى - ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

ولذا جاء التعقيب منه - سبحانه - بقوله : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ .

أى : المال والبنون زينة يتزين ويتفاخر بها كثير من الناس فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فى عرف كثير منهم . فإن الأقوال الطيبة ، والأعمال الحسنة ، هى الباقيات الصالحات ، التى تبقى ثمارها للإنسان ، وتكون عند الله - تعالى - ﴿ خير ﴾ من الأموال والأولاد ، ثوابا وجزاء وأجرا ﴿ وخير أملا ﴾ حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله ويرجوه فى الدنيا من فوز بنعيم الجنة ، أما المال والبنون فكثيرا ما يكونان فتنة .

وقد ساق الامام ابن كثير جملة من الآثار فى تعيين المراد بالباقيات الصالحات فقال : قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : والباقيات الصالحات : الصلوات الخمس .

وقال عطاء بن أبى رياح وسعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ..[٢] .

ويبدو لنا أن قوله - تعالى - : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ لفظ عام ، يشمل كل قول ، أو عمل يرضى الله - عز وجل - ويدخل فى ذلك دخولا أوليا : الصلوات الخمس وغيرها مما ذكره المفسرون من أقوال .

وسمى - سبحانه - ما يرضيه . من أقوال ، وأعمال بالباقيات الصالحات لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولا فانية ، بخلاف زينة الحياة الدنيا فإنها زائلة فانية .

قال الامام ابن جرير - رحمه الله - وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : هن جميع أعمال الخير .. لأن ذلك كله من الصالحات التى تبقى لصاحبها فى الآخرة ، وعليها يجازى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٨٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٥٧ .

ويثاب . وإن الله - عز وجل - لم يخصص من قوله ﴿ والباقيات الصالحات خير .. ﴾ بعضا دون بعض فى كتاب ، ولا بخبر عن رسوله الله - ﷺ -[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة . ذلك اليوم الذى تنفع فيه الباقيات الصالحات ، وليس الأموال ولا الأولاد ، فقال - تعالى - :

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

والظرف فى قوله : - تعالى - ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره : « اذكر » .

والمراد بتسيير الجبال : اقتلاعها من أماكنها ، وصيرورتها كالعهن المنفوش .

أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، أهوال يوم القيامة ، يوم نقتلع الجبال من أماكنها ، ونذهب بها حيث شئنا ، ونجعلها فى الجو كالسحاب ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ .

وكما قال - عز وجل - : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١٦٧ .

وقوله : ﴿ وترى الأرض بارزة .. ﴾ بيان لحالة ثانية من أهوال يوم القيامة .

أى : وترى - أيها المخاطب - الأرض ظاهرة للأعين دون أن يسترها شىء من جبل ، أو شجر ، أو بنيان .

يقال : برز الشىء بروزا ، أى : خرج إلى البراز - بفتح الباء - أى : الفضاء وظهر بعد الخفاء .

قال - تعالى - : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ .

ثم بين - سبحانه - حالة ثالثة من أهوال يوم القيامة فقال : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾ .

أى : وحشرنا الخلائق جميعا ، بأن جمعناهم فى المكان المحدد لجمعهم ، دون أن نترك منهم أحدا ، بل أخرجناهم جميعا من قبورهم لنحاسبهم على أعمالهم .

والفعل « نغادر » من المغادرة بمعنى الترك ، ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء والأمانة وسمى الغدير من الماء غديرا ، لأن السيل ذهب وتركه .

ثم تذكر السورة الكريمة حالة رابعة من أهوال يوم القيامة ، هى حالة العرض بعد حالة الجمع فتقول : ﴿ وعرضوا على ربك صفا ﴾ .

أى : وأحضروا جميعا إلى ربك مصفوفين فى صف واحد أو فى صفوف متعددة ، ليقضى فيهم - سبحانه - بقضائه العادل .

قال الآلوسى : أخرج ابن منده فى التوحيد عن معاذ بن جبل ، أن النبى - ﷺ - قال : « إن الله - تعالى - ينادى يوم القيامة ، يا عبادى : أنا اللهلا إله إلا أنا أرحم الراحمين . وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين . أحضروا حجتكم ويسروا جوابكم . فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

وفى الحديث الصحيح : « يجمع الله - تعالى - الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعى وينفذهم البصر .. »[1] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة .. ﴾ مقول لقول محذوف ، وجملة « كما خلقناكم » نعت لمصدر محذوف .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٢٨٩ .

والمعنى : ونقول لمنكرى البعث والحساب بعد عرضهم علينا على سبيل التوبيخ والتأنيب : لقد جئتمونا - أيها المكذبون - مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا إياكم أول مرة . أى حفاة عراة لا مال معكم ولا ولد .

وعبر - سبحانه - بالماضى فى قوله : ﴿ لقد جئتمونا .. ﴾ لتحقق الوقوع وتنزيله منزلة الواقع بالفعل .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالانتقال من توبيخهم هذا إلى توبيخ أشد وأقسى فقال : ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾ .

أى : بل زعمتم أيها المكذبون بالبعث - أن لن نجعل لكم زمانا أو مكانا نجازيكم فيه على أعمالكم ، وأنكرتم إنكاراً مصحوبا بقسم أننا لا نبعث من يموت .

قال - تعالى - : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[2] .

ثم صور - سبحانه - أحوال المجرمين عندما يرون مصيرهم السىء فقال - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ .

والمراد بالكتاب : جنسه ، فيشمل جميع الصحف التى كتبت فيها أعمال المكلفين فى دار الدنيا .

أى : وأحضرت صحائف أعمال العباد ، ووضعت فى ميزانهم « فترى » - أيها المخاطب - ، « المجرمين » كافة ، مشفقين ، خائفين ، مما فيه من جرائم وذنوب « ويقولون » على سبيل التفجع والتحسر عند معاينتهم لثقل ميزان سيئاتهم ، وخفة ميزان حسنائهم .

« يا ويلتنا » . والويلة : الهلاك وحلول الشر والقبح والحسرة ، وهو - أى لفظ الويلة - : مصدر لا فعل له من لفظه .

وهذا النداء على التشبيه بشخص يطلب إقباله .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٤ .

(٢) سورة النحل الآية ٣٨ .

أى : ويقولون بأسف وندامة وحسرة : يا هلاكنا أقبل فهذا أوان إقبالك .

ثم يقولون على سبيل التعجب والدهشة من دقة ما اشتمل عليه هذا الكتاب : ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ ؟

أى : أى شىء ثبت لهذا الكتاب ، حيث نراه لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها علينا ، وسجلها فى صحف أعمالنا .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه . ونفاذ قدرته وكمال عدله ، فقال : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

أى : ووجدوا ما عملوه فى الدنيا حاضرا ومسطورا فى صحائف أعمالهم ، ولا يظلم ربك أحدا من العباد ، وإنما يجازى كل إنسان على حسب ما يستحقه من ثواب أو عقاب كما قال – سبحانه – : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾[1] .

وكما قال – عز وجل – : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[2] .

قال الإمام ابن كثير وقوله : ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ أى : فيحكم بين عباده فى أعمالهم جميعها ، ولا يظلم أحدا من خلقه ، بل يغفر ويصفح ويرحم ، ويعذب من يشاء ، بقدرته وحكمته وعدله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحيى ، عن القاسم بن عبد الواحد المكى ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابرٍ بن عبد الله يقول : بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله – ﷺ – فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلى ، فسرت إليه شهرا ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال : ابن عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقنى واعتنقته ، فقلت : حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله – ﷺ – فى القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : يحشر الله – عز وجل – الناس يوم القيامة ، عراة غُرْلاً بُهْماً ، أى : ليس معهم شىء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من

---

(١) سورة الأنبياء آية ٤٧ .

(٢) سورة النساء آية ٤٠ .

بَعُد ، كما يسمعه من قرُب : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق ، حتى أقصه منه ، أى : حتى أمكنه من أخذ القصاص ، وهو أن يفعل به مثل فعله ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، وله عند رجل من أهل النار حق ، حتى أقصه منه ، حتى اللطمة .

قال : قلنا : كيف وإنما نأتى الله - عز وجل - عراة غرلا بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات[1] .

وبعد أن وضح - سبحانه - من أهوال الحشر ما تخشع له النفوس ، وتهتز له القلوب ، أتبع ذلك بالنهى عن اتخاذ إبليس وذريته أولياء ، وببيان جانب من المصير الأليم الذى ينتظر المجرمين وشركاءهم فقال - تعالى - :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ﴾ . تذكير لبنى آدم بالعداوة القديمة بين أبيهم آدم وبين إبليس وذريته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٦٢ .

والمقصود بهذا التذكير تحذيرهم من وساوسه ، وحضهم على مخالفته ، كما قال - تعالى - : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[١] .

والملائكة : جمع ملك . وهم - كما وصفهم الله تعالى - : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[٢] .

وآدم : اسم لأبى البشر ، قيل : إنه اسم عبرانى مشتق من أدمه بمعنى التراب .

والسجود لغة : التذلل والخضوع . وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

وإبليس اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمى . ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة .

والمعنى - واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، سجود تحية واحترام وتوقير ، لا سجود عبادة وطاعة لأن ذلك لا يكون إلا لله رب العالمين . فامتثلوا أمرنا وسجدوا جميعاً ، كما قال - تعالى - : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ .

وجاء العطف فى قوله ﴿ فسجدوا ﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب ، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد ، استجابة لأمر خالقهم - عز وجل .

وقوله - تعالى - ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ بيان لموقف إبليس من أمر الله تعالى ، وهو أنه أبى واستكبر وامتنع عن السجود لآدم . وظاهر الآية يفيد أن سبب فسقه عن أمر ربه : كونه من الجن لا من الملائكة إذ من المقرر فى علم الأصول ؛ أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل ، كما فى قولهم ، سرق فقطعت يده .

والمعنى : امتثل الملائكة جميعاً أمرنا فسجدوا لآدم ، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ولم يسجد ؛ لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة « ففسق عن أمر ربه » أى . فخرج بذلك عن طاعتنا ، واستحق لعنتنا وغضبنا .

وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة مأخوذ من قولهم : فسق الرطب فسوقا إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر ، فيقال للعاصى فاسق ، وللكافر فاسق .

---

(١) سورة فاطر الآية ٦ .

(٢) سورة التحريم الآية ٦ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والخلاف فى كون إبليس من الملائكة أولا مشهور عند أهل العلم .

وحجة من قال إنه ليس منهم أمران : أحدهما : عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذى ارتكبه إبليس ، فهم - كما قال الله عنهم : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ .

والثانى : أن الله - تعالى - صرح فى هذه الآية الكريمة بأنه كان من الجن ، والجن غير الملائكة . قالوا : وهو نص قرآنى فى محل النزاع .

واحتج من قال بأنه منهم ، بما تكرر فى الآيات القرآنية من قوله : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ﴾ قالوا : فإخراجه بالاستثناء من لفظ الملائكة دليل على أنه منهم ، والظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص ومن المعلوم أن الأصل فى الاستثناء الاتصال لا الانقطاع .

قالوا : ولا حجة لمن خالفنا فى قوله - تعالى - ﴿ كان من الجن ﴾ ، لأن الجن قبيلة من الملائكة ، خلقوا من بين الملائكة من نار السموم .

وأظهر الحجج فى المسألة . حجة من قال : إنه ليس من الملائكة ، لأن قوله - تعالى - ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ هو أظهر شىء فى الموضوع من نصوص الوحى ، والعلم عند الله - تعالى -[1] .

ومن المفسرين الذين يدل كلامهم على أن إبليس لم يكن من الملائكة . الإمام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - قوله : ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ أى : خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عائشة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه ، وخانه الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة ، وتشبه بهم ، وتعبد وتنسك فلهذا دخل فى خطابهم ، وعصى بالمخالفة .

ونبه - تعالى - هاهنا على أنه « من الجن » أى : « أنه خلق من نار .. »[2] .

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ١٢٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٦٣ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالإنكار والتوبيخ والتعجيب ممن يتبع خطوات إبليس وذريته فقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا ﴾ .

أى : أفبعد أن ظهر لكم - يا بنى آدم - ما ظهر من فسوق إبليس عن أمر ربه ، تتخذونه وذريته الذين نهجوا نهجه ، أولياء ، وأصفياء من دونى ، فتطيعونهم بدل أن تطيعونى ، والحال أن إبليس وذريته لكم عدو ؟

لاشك أن من يفعل ذلك منكم يكون قد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وآثر الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والفسوق على الإيمان !! .

فالجملة الكريمة تستبعد من كل عاقل ، أن يطيع إبليس وذريته ، بعد أن تبين له عداوتهم إياه ، وحرصهم على إيقاعه فى موارد الهلكة والسوء .

وقوله : ﴿ وذريته ﴾ يدل على أن لإبليس ذرية ، إلا أن الطريقة التى بواسطتها كانت له الذرية ، لم يرد بها نص صحيح يعتمد عليه ، لذا وجب تفويض علمها إلى - الله تعالى - .

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد فتكون الآية دالة على أن له أولادا ، وبذلك قال جماعة .. وعن قتادة أنه قال : إنه ينكح وينسل كما ينسل بنو آدم .

ثم قال الآلوسى : ولا يلزمنا أن نعلم كيفية ولادته ، فكثير من الأشياء مجهول الكيفية عندنا ، ونقول[٢] به .

وقوله - تعالى - : ﴿ بئس للظالمين بدلا ﴾ حكم منه - سبحانه - بسوء التفكير والمصير على المتخذين إبليس وذريته أولياء من دونه - تعالى - وبئس فعل يفيد الذم ، والبدل : العوض عن الشىء .

أى بئس للظالمين ، الواضعين للشىء فى غير موضعه ، ما فعلوه من تركهم طاعة الله - تعالى - وأخذهم فى مقابل ذلك طاعة إبليس وذريته .

والمخصوص بالذم محذوف دل عليه المقام والتقدير : بئس البدل والعوض عن طاعة الله - تعالى - طاعة إبليس وذريته .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وعلى عجز وجهالة المعبودين من دونه ، فقال - تعالى - : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ .

---

(٢) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٢٩٥ .

والضمير فى قوله « ما أشهدتهم » يعود إلى إبليس وذريته ، والإشهاد : بمعنى الإحضار والإعلام .

أى : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، لأنى خلقتها دون أن أستعين فى خلقها بأحد ، أو لأنى خلقتها قبل خلقهم ، ﴿ ولا خلق أنفسهم ﴾ أى : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، لأنى لا أستعين بأحد حين أخلق ما أشاء ، ولا أستشير أحدا حين أقدر ما أشاء .

وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم أولياء وشركاء من دونى وأنا الخالق لكل شىء ، والقاهر فوق كل شىء ؟ .

فالجملة الكريمة استئناف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - ، ولبيان عدم استحقاق إبليس وذريته للاتخاذ المذكور فى أنفسهم ، بعد بيان المواقع والصوارف التى تمنع وتصرف عن اتخاذهم أولياء ، من خباثة أصلهم ، وفسوقهم عن أمر ربهم .

وهذا المعنى الذى صرحت به الآية الكريمة من تفرد الله - تعالى - بالخلق والقدرة . قد جاء فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[1] .

وقوله - سبحانه - ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ مؤكد لما قبله من تفرده - سبحانه - بالخلق والقدرة والعلم .

والعضد - بفتح العين وضم الضاد - فى الأصل ، يطلق على العضد المعروف ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعار للمعين والناصر فيقال : فلان عضدى ، أى : نصيرى .

ومنه قوله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ أى : سنقويك ونعينك بأخيك هارون وذلك لأن اليد قوامها العضد ، فإذا فقدته أصابها العجز .

أى : وما كنت متخذ المضلين عن سبيلى أعوانا وأنصاراً فى شأن من شئونى ، وخص - سبحانه - المضلين بالذكر ، زيادة فى ذمهم وتوبيخهم ، وتقريعا لأمثالهم ، لأنه - عز وجل - ليس له أعوان ولا أنصار فيما يفعله لا من المضلين ولا من المهتدين .

ولم يقل - سبحانه - وماكنت متخذهم .. بالإضمار ، كما قال : ﴿ ما أشهدتهم ﴾ بل

---

(١) سورة لقمان الآية ١١ .

أظهر فى مقام الإضمار ، لتسجيل الضلال عليهم ، حتى ينصرف عنهم كل عاقل ، وللتنبيه على أن الضالين المضلين لا تصح الاستعانة بهم .

ولقد حكى الله - تعالى - عن نبيه موسى - عليه السلام - براءته من المجرمين فقال : ﴿ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾[1] .

والظهير : الناصر والمعين لغيره .

ثم ساقت السورة الكريمة مشهدا من مشاهد القيامة - يكشف عن سوء المصير الذى ينتظر الشركاء وينتظر المجرمين . فقال - تعالى - : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ... ﴾ .

أى : واذكر - أيها العاقل - يوم يقول الله - تعالى - للمجرمين والكافرين على سبيل التوبيخ والتقريع : أيها الكافرون ، نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم فى هذا الموقف العصيب « فدعوهم » أى : فأطاعوا أمر خالقهم ، ودعوا شركاءهم لكى يستغيثوا بهم « فلم يستجيبوا لهم » أى : فلم يجدوا منهم أدنى استجابة فضلا عن النفع أو العون .

وقوله : ﴿ وجعلنا بينهم موبقا ﴾ أى : وجعلنا بين الداعين والمدعوين مهلكا يشتركون فيه جميعا وهو جهنم .

فالموبق : اسم مكان من وبق وبوقا - كوثب وثوبا - أو وبق وبقا كفرح فرحا - إذا هلك . ويقال فلان أو بقته ذنوبه : أى أهلكته . ومنه قوله - تعالى - : ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أى يهلكهن . ومنه الحديث الشريف : « كل يغدو فموبق نفسه » - أى مهلكها - ومنه أيضاً قوله - ﷺ - : « اجتنبوا السبع الموبقات » أى : المهلكات .

وقيل : الموبق اسم واد فى جهنم فرق الله به بينهم ، أى بين الداعين والمدعوين .

وقيل : كل حاجز بين شيئين فهو موبق .

قال ابن جرير - رحمه الله - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، القول الذى ذكرناه من أن الموبق بمعنى المهلك وذلك أن العرب تقول فى كلامها : قد أوبقت فلانا إذا أهلكته .. »[2] .

---

(١) سورة القصص الآية ١٧ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٥ ص ١٧٢ .

ثم بين - سبحانه - حالة المجرمين عندما يبصرون النار فقال : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ .

ورأى هنا بصرية . والظن بمعنى اليقين والعلم ، لأنهم أبصروا الحقائق ، وشاهدوا واقعهم الأليم مشاهدة لا لبس فيها ولا خفاء .

أى : وشاهد المجرمون بأعينهم النار ، فأيقنوا أنهم مخالطوها وواقعون فيها . بسبب سوء أعمالهم ، وانكشاف الحقائق أمامهم ، ولم يجدوا عنها مصرفا أى مكانا ينصرفون إليه ، ويعتصمون به ليتخذوه ملجأ لهم منها .

فالمصرف : اسم مكان للجهة التى ينصرف إليها الإنسان للنجاة من ضر أحاط به .

وعبر - سبحانه - عن رؤيتهم للنار بالفعل الماضى ، لتحقق الوقوع .

وقال - سبحانه - ﴿ ورأى المجرمون ﴾ فوضع المظهر موضع المضمر ، لتسجيل الإجرام عليهم ، ولزيادة الذم لهم .

وقد ذكر - سبحانه - هنا أن المجرمين يرون النار ، وذكر فى آية أخرى أنها تراهم - أيضا - قال - تعالى - : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾[1] .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا فسوق إبليس عن أمر ربه ، وحذرتنا من اتخاذه وليا ، ومن الانقياد لوسوسته وإغراءاته ، كما حكت لنا جانبا من أحوال المشركين وشركائهم ، وكيف أن الشركاء قد تخلوا عن عابديهم فى هذا اليوم العصيب ، بعد أن أحاطت النار بالجميع ، وأيقن المجرمون أنه لا فكاك لهم منها ، ولا نجاة لهم من لهيبها .

نسأل الله - تعالى - بفضله وكرمه أن ينجينا من هذا الموقف الرهيب .

ثم مدحت السورة الكريمة القرآن ، فوصفته بأن الله - تعالى - قد أكثر فيه من ضرب الأمثال ، ونوعها لتشمل جميع الأحوال ، وبينت سنة الله - تعالى - فى الأمم السابقة ، كما بينت وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وسوء عاقبة المكذبين لهم ،ومظاهر رحمة الله - تعالى - بالناس .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى كل هذه المعانى بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

---

(١) سورة الفرقان الآية ١٢ .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ صرفنا ﴾ من التصريف بمعنى التنويع والتكرير .

والمثل : هو القول الغريب السائر فى الآفاق الذى يشبه مضربه مورده .

وقد أكثر القرآن من ضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى وتقريب الأمر المعقول من الأمر المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة الحاضر .

والمعنى : ولقد كررنا ورددنا ونوعنا فى هذا القرآن من أجل هداية الناس ، ورعاية مصلحتهم ومنفعتهم ، من كل مثل من الأمثال التى تهدى النفوس ، وتشفى القلوب ، لعلهم

بذلك يسلكون طريق الحق ، ويتركون طريق الباطل .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة ، الشهادة من الله - تعالى - بأن هذا القرآن الذى أنزله - سبحانه - على نبيه - ﷺ - فيه من الأمثال الكثيرة المتنوعة النافعة ، ما يرشد الناس إلى طريق الحق والخير ، متى فتحوا قلوبهم له . وأعملوا عقولهم لتدبره وفهمه .

ومفعول « صرفنا » محذوف ، و « من » لا بتداء الغاية ، أى : ولقد صرفنا البينات والعبر والحكم فى هذا القرآن ، من أنواع ضرب المثل لمنفعة الناس ليهتدوا ويذكروا .

ثم بين - سبحانه - موقف الإنسان من هذه الأمثال فقال : ﴿ وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ﴾ .

والمراد بالانسان : الجنس ، ويدخل فيه الكافر والفاسق دخولا أوليا .

والجدل : الخصومة والمنازعة مع الغير فى مسألة من المسائل .

أى : وكان الانسان أكثر شىء مجادلة ومنازعة لغيره ، أى : أن جدله أكثر من جدل كل مجادل .

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ولقد بينا للناس فى هذا القرآن ، ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها ، كيلا يضلوا عن الحق .. ومع هذا البيان ، فالانسان كثير المجادلة والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

قال الامام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب . عن الزهرى قال : أخبرنى على بن الحسين ، أن الحسين بن على أخبره ، أن على بن أبى طالب أخبره . أن رسول الله - ﷺ - طرق عليا وفاطمة ليلة فقال : « ألا تصليان ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله .. فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا . فانصرف حين قلت ذلك ولم يرفع إلى بشىء ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : وكان الانسان أكثر شىء جدلا »[1] .

وفى التعبير عن الانسان فى هذه الجملة بأنه « شىء » وأنه « أكثر شىء جدلا » إشعار لهذا الإنسان بأن من الواجب عليه أن يقلل من غروره وكبريائه . وأن يشعر بأنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، وأن ينتفع بأمثال القرآن ومواعظه وهداياته .. لا أن يجادل فيها بالباطل .

ومنهم من يرى أن المراد بالانسان هنا : الكافر ، أو شخص معين ، قيل : هو النضر بن الحارث ، وقيل : أبى بن خلف .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٦٧ .

لكن الظاهر أن المراد به العموم - كما أشرنا - ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا .

ثم حكى - سبحانه - الأسباب التى منعت بعض الناس من الإيمان فقال : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم . إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلا ﴾ .

والمراد بالناس : كفار مكة ومن حذا حذوهم فى الشرك والضلال والمراد بسنة الأولين : ما أنزله - سبحانه - بالأمم السابقة من عذاب بسبب إصرارها على الكفر والجحود .

والمعنى : وما منع الكفار من الإيمان وقت أن جاءهم الهدى عن طريق نبيهم - ﷺ - ، ومن أن يستغفروا ربهم من ذنوبهم ، إلا ماسبق فى علمنا ، من أنهم لا يؤمنون ، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة الأولين ، أى : سنتنافى إهلاكهم بعذاب الاستئصال بسبب إصرارهم على كفرهم .

ويجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف ، و « أن » وما بعدها فى قوله ﴿ إلا أن تأتيهم ﴾ فى تأويل فاعل الفعل « منع » .

والمعنى : وما منع الناس من الايمان والاستغفار وقت مجىء الهدى إليهم ، إلا طلب إتيان سنة الأولين ، كأن يقولوا - كما حكى الله - تعالى - عن بعضهم : ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ .

فسنة الأولين أنهم طلبوا من أنبيائهم تعجيل العذاب ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وقوله : ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلا ﴾ بيان لعذاب آخر ينتظرونه .

وكلمة ﴿ قُبُلا ﴾ قرأها عاصم والكسائى وحمزة - بضم القاف والباء - على أنها جمع قبيل وهو النوع فيكون المعنى : أو يأتيهم العذاب على صنوف وأنواع مختلفة ، ومن جهات متعددة يتلو بعضها بعضا .

وقرأها الباقون : ﴿ قِبَلا ﴾ - بكسر القاف وفتح الباء - بمعنى عيانا ومواجهة .

والمعنى : أو يأتيهم العذاب عيانا وجهارا ، وأصله من المقابلة ، لأن المتقابلين يعاين ويشاهد كل منهما الآخر .

وهى على القراءتين منصوبة على الحالية من العذاب .

فحاصل معنى الآية الكريمة أن هؤلاء الجاحدين لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا حين نزول العذاب الدنيوى بهم وهو ما اقتضته سنة الله - تعالى - فى أمثالهم ، أو حين نزول أصناف العذاب بهم فى الآخرة .

ثم بين - تعالى - وظيفة الرسل فقال : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ .

أى : تلك هى وظيفة الرسل الكرام الذين ترسلهم لهداية الناس وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

فهم يبشرون المؤمنين بحسن العاقبة وجزيل الثواب ، وينذرون الفاسقين والكافرين بسوء العاقبة ، وشديد العقاب .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ بيان لموقف الكافرين من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - .

ويجادل من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة . ومفعوله محذوف .

والباطل : هو الشىء الزائل المضمحل الذى هو ضد الحق والعدل . والحق هو الشىء الثابت القويم الذى تؤيده شريعة الله - عز وجل - .

والدحض : الطين الذى لا تستقر عليه الأقدام . فمعنى يدحضوا : يزيلوا ويبطلوا تقول العرب : دحضت رجل فلان ، إذا زلت وزلقت .. ومنه قوله - تعالى - : ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ .

والمعنى : ويجادل الذين كفروا رسلهم بالجدال الباطل ، ليزيلوا به الحق الذى جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه ، والله - تعالى - متم نوره ولو كره الكافرون ، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال .

وقوله - تعالى - ﴿ واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾ معطوف على ما قبله لبيان رذيلة أخرى من رذائل هؤلاء الكافرين .

والمراد بآيات الله : تلك المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها رسله سواء أكانت قولا أم فعلا ، ويدخل فيها القرآن دخولا أوليا .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجدال رسلهم بالباطل ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التى جاء بها الرسل كدليل على صدقهم ، واتخذوا ما أنذروهم به من قوارع إذا ما استمروا على كفرهم . اتخذوا كل ذلك « هزوا » أى : اتخذوها محل سخريتهم ولعبهم ولهوهم واستخفافهم ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾ .

والاستفهام هنا للنفى والإنكار والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم . لقوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ أن يفقهوه ﴾ .

والمراد بالنسيان : الترك والإهمال وعدم التفكر والتدبر فى العواقب .

أى : ولا أحد أشد ظلما وبغيا . من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التى أنزلها على رسوله - ﷺ - فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها . بل نبذها وراء ظهره ، ونسى ما قدمت يداه من السيئات والمعاصى ، نسيان ترك وإهمال واستخفاف .

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ .

والأكنة : جمع كنان بمعنى غطاء والوقر الثقل والصمم . يقال فلان وقرت أذنه ، أى : ثقل سمعها وأصيبت بالصمم .

أى : إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق ، أغطية تمنع قلوبهم عن وصول النور إليها ، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - فى آذانهم صمما وثقلا عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .

﴿ وإن تدعهم ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿ إلى الهدى ﴾ والرشد فلن ، يستجيبوا لك ، ولن ﴿ يهتدوا إذا أبدا ﴾ إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، بسبب زيغ قلوبهم ، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها .

والضمير فى قوله ﴿ أن يفقهوه ﴾ يعود إلى الآيات ، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى ، إذ المراد منها القرآن الكريم .

وجاءت الضمائر فى أول الآية بالإفراد ، كما فى قوله ، ﴿ ذُكر ﴾ و ﴿ فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾ باعتبار لفظ « من » فى قوله « ومن أظلم » وجاءت بعد ذلك بالجمع كما فى قوله سبحانه - : ﴿ إنّا جعلنا على قلوبهم أكنة .. ﴾ باعتبار المعنى .

وهذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، قد أحسن الله له رزقا ﴾ .

فالضمير فى قوله : « يؤمن ويعمل ويدخله » جاء بصيغة الإفراد باعتبار لفظ « من » ، وفى قوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ جاء بصيغة الجمع باعتبار معنى « من » .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على سعة رحمته ، وعظيم فضله فقال : ﴿ وربك

الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾ .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - هو صاحب المغفرة الكثيرة ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شيء . لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب والمعاصى . لعجل لهم العذاب بسبب ما يرتكبونه من كفر وآثام ، ولكنه - سبحانه - لم يعجل لهم العذاب رحمة منه وحلما .

وجملة « بل لهم موعد .. » معطوفه على مقدر ، فكأنه - سبحانه - قال : لكنه - سبحانه - لم يؤاخذهم ، بل جعل وقتا معينا لعذابهم ، لن يجدوا من دون هذا العذاب موئلا .

أى ملجأ يلتجئون إليه ، أو مكانا يعتصمون به .

فالموئل : اسم مكان . يقال : وَأَلَ فلان إلى مكان كذا يَئِل وَأْلاً .. إذا لجأ إليه ليعتصم به من ضر متوقع .

فالآية الكريمة تبين أن الله - تعالى - بفضله وكرمه لا يعاجل الناس . بالعقاب ، ولكنه - عز وجل - ليس غافلا عن أعمالهم ، بل يؤخرهم إلى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، لكى يعاقبهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾[1] .

وقوله - تعالى - : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب ﴾[2] ثم بين - سبحانه - سننه فى الأمم الماضية فقال : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾ .

واسم الاشارة « تلك » تعود إلى القرى المهلكة بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها ، كقرى قوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام - .

والقرى : جمع قرية والمراد بها أهلها الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود .

أى : وتلك القرى الماضية التى أصر أهلها على الكفر والفسوق والعصيان أهلكناهم بعذاب الاستئصال فى الدنيا ، بسبب هذا الكفر والظلم ،وجعلنا لوقت هلاكهم موعدا لا يتأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٥ .
(٢) سورة الرعد الآية ٦ .

ولفظ « تلك » مبتدأ ، والقرى صفة له أو عطف بيان ، وجملة ﴿ أهلكناهم ﴾ هى الخبر .

وقوله ﴿ لما ظلموا ﴾ بيان للأسباب التى أدت بهم إلى الهلاك والدمار ، أى : أهلكناهم بسبب وقوع الظلم منهم واستمرارهم عليه .

وجىء باسم الاشارة « تلك » للإشعار بإن أهل مكة يمرون على تلك القرى الظالمة المهلكة ، ويعرفون أماكنهم معرفة واضحة عند أسفارهم من مكة إلى بلاد الشام . قال - تعالى - ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾ قرأ الجمهور ، لمهلكهم ، - بضم الميم وفتح اللام - على صيغة اسم المفعول ، وهو محتمل أن يكون مصدرا ميميا . أى : وجعلنا لإهلاكهم موعدا ويحتمل أن يكون اسم زمان ، أى : وجعلنا لزمان إهلاكهم موعدا .

وقرأ حفص عن عاصم « لمهلكهم » بفتح الميم وكسر اللام - فيكون اسم زمان ، وقرأ شعبة عن عاصم . لمهلكهم » - بفتح الميم واللام - فيكون مصدرا ميميا .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد وضحت أن القرآن الكريم قد نوع الله - تعالى - فيه الأمثال لقوم يعقلون ، كما بينت أن الإنسان مجبول على المجادلة والمخاصمة . وأن المشركين قد أصروا على شركهم بسبب انطماس بصائرهم . وزيغهم عن الحق ، وأن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وظيفتهم البلاغ والتبشير والإنذار ، وأن عاقبة الجاحدين الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم هى النار وبئس القرار ، وأن الله - تعالى - يمهل الظالمين ولا يهملهم ، فهو كما قال - سبحانه - ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[2] .

* * *

ثم ساق - سبحانه - قصة فيها ما فيها من الأحكام والعظات ، ألا وهى قصة موسى - عليه السلام - مع عبد من عباد الله الصالحين ، فقال - تعالى - :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا

---

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) سورة الحجر الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أن هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله - تعالى - فى هذه السورة ، وهى أن موسى - عليه السلام - ذهب إلى الخضر ليتعلم منه ، وهذا وإن كان كلاما مستقلا فى نفسه إلا أنه يعين على ماهو المقصود فى القصتين السابقتين : أما نفع هذه القصة فى الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين ، فهو أن موسى مع كثرة علمه وعمله .. ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له .

وأما نفع هذه القصة فى قصة أصحاب الكهف ، فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : « إن أخبركم محمد - ﷺ - عن هذه القصة فهو نبى وإلا فلا ؛ وهذا ليس بشىء . لأنه لا يلزم من كونه نبيا أن يكون عالما بجميع القصص كما أن كون موسى نبيا لم يمنعه من الذهاب ليتعلم منه »[1] .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وهو أحد أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى يعقوب - عليه السلام - .

وفتاه : هو يوشع بن نون ، وسمى بذلك لأنه كان ملازما لموسى - عليه السلام - ويأخذ عنه العلم .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٤٣ .

وقوله : ﴿ لا أبرح ﴾ أى : لا أزال سائرا . ومنه قوله - تعالى - ﴿ لن نبرح عليه عاكفين ﴾ . من برح الناقص .

قال الجمل : واسمها مستتر وجوبا ، وخبرها محذوف ، تقديره : لا أبرح سائرا ، وقوله ﴿ حتى أبلغ ﴾.. غاية لهذا المقدر . ويحتمل أنها تامة فلا تستدعى خبرا ، بمعنى : لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه حتى أبلغ .. »[١] .

﴿ ومجمع البحرين ﴾ : المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط .

قال الآلوسى : والمجمع : الملتقى ، وهو اسم مكان .. والبحران : بحر فارس والروم ، كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما وملتقاهما : مما يلى المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما .. وقيل البحران : بحر الأردن وبحر القلزم .. »[٢] .

وقال بعض العلماء : والأرجح - والله أعلم - أن مجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم .

أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر . ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وعلى أية حال فقد تركها القرآن مجملة فنكتفى بهذه الإشارة »[٣] .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك لكى يعتبروا ويتعظوا وقت أن قال أخوك موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون ، اصحبنى فى رحلتى هذه فإنى لا أزال سائرا حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين ، فأجد فيه بغيتى ومقصدى ، « أو أمضى » فى سيرى « حقبا » أى : زمنا طويلا ، إن لم أجد ما أبتغيه هناك .

والحقب - بضم الحاء والقاف - جمعه أحقاب ، وفى معناه : الحقبة - بكسر الحاء - وجمعها حقب - كسدرة وسدر - والحقبة - بضم الحاء - وجمعها : حقب كغرفة وغرف - قيل : مدتها ثمانون عاما . وقيل سبعون . وقيل : زمان من الدهر مبهم غير محدد .

والآية الكريمة تدل بأسلوبها البليغ ، على أن موسى - عليه السلام - كان مصمما على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة فى سبيل ذلك ، ومهما يكن الزمن الذى يقطعه فى سبيل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٣٢ .
(٢) تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٣١٢ .
(٣) فى ظلال القرآن جـ ١٥ ص ٢٢٨٧ للأستاذ سيد قطب .

الوصول إلى غايته ، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه عنه القرآن بقوله : « أو أمضى حقبا » .

وقد أشار الآلوسى - رحمه الله - إلى سبب تصميم موسى على هذه الرحلة فقال : وكأن منشأ عزيمة موسى - عليه السلام - على ما ذكره مارواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبى بن كعب ، أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن موسى - عليه السلام - قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعاتبه الله - تعالى - عليه ، إذ لم يرد العلم إليه - سبحانه - فأوحى الله - تعالى - إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك .

وفى رواية أخرى عنه عن أبى - أيضا - عن رسول الله - ﷺ - أن موسى - عليه السلام - سأل ربه فقال : أى رب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال له : « نعم فى عبادى من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له فى لقائه »[1] .

ثم تقص علينا السورة الكريمة ما حدث بعد ذلك فتقول : ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما . فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿ فلما بلغا ﴾ وفى قوله ﴿ فاتخذ سبيله .. ﴾ هى الفصيحة .

والسرب : النفق الذى يكون تحت الأرض . أو القناة التى يدخل منها الماء إلى البستان لسقى الزرع .

والمعنى : وبعد أن قال موسى لفتاه ما قال ، أخذا فى السير إلى مجمع البحرين ، فلما بلغا هذا المكان « نسيا حوتهما » أى : نسيا خبر حوتهما ونسيا تفقد أمره ، فحيى الحوت ، وسقط فى البحر ، واتخذ « سبيله » أى طريقه « فى البحر سربا » .

أى : واتخذ الحوت طريقه فى البحر ، فكان هذا الطريق مثل السرب أى النفق فى الأرض بحيث يسير الحوت فيه ، وأثره واضح .

قال الإمام ابن كثير : قوله ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح - أى مشوى - معه وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة - أى الرجل الصالح الذى هو أعلم منك يا موسى فى هذا المكان - فسارا حتى بلغا مجمع البحرين . وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فناما هناك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣١٣ .

فاضطرب ، وكان فى مكتل مع يوشع ، وطفر من المكتل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع ، وسقط الحوت فى البحر ، وجعل يسير فيه ، والماء له مثل الطاق - أى مثل البناء المقوس كالقنطرة - لا يلتئم بعده ، ولهذا قال : ﴿ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ﴾ أى : مثل السرب فى الأرض[١] .

وقال الإمام البيضاوى : قوله « نسيا حوتهما » أى : نسى موسى أن يطلبه ويتعرف حاله ، ونسى يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه فى البحر[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهما بعد ذلك فقال : ﴿ فلما جاوزا ﴾ أى : المكان الذى فيه مجمع البحرين .

« قال » موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون « آتنا غداءنا » أى : أحضر لنا ما نأكله من هذا الحوت المشوى الذى معنا : ثم علل موسى - عليه السلام - هذا الطلب بقوله : ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ أى : تعبا وإعياء .

واسم الإشارة « هذا » مشار به إلى سفرهما المتلبسان به .

قالوا : ولكن باعتبار بعض أجزائه ، فقد صح أنه - ﷺ - قال : « لم يجد موسى شيئا من التعب حتى جاوز المكان الذى أمر به »[٣] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ﴾ حكاية لما رد به يوشع على موسى - عليه السلام - عندما طلب منه الغداء .

والاستفهام فى قوله ﴿ أرأيت ﴾ للتعجب مما حدث أمامه من شأن الحوت حيث عادت إليه الحياة ، وقفز فى البحر ، ومع ذلك نسى يوشع أن يخبر موسى عن هذا الأمر العجيب .

أى : قال يوشع لموسى - عليه السلام - : تذكر وانتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الحوت ، أرأيت مادهانى فى وقت أن أوينا ولجأنا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين ، فإنى هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة ، فقد عادت إليه الحياة ، ثم قفز فى البحر .

وقال ﴿ إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ دون أن يذكر مجمع البحرين ، زيادة فى تحديد المكان

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧١ .
(٢) تفسير البيضاوى جـ ٢ ص ١٨ .
(٣) تفسير الآلوسى ، جـ ١٥ ص ٣١٧ .

وتعيينه . وأوقع النسيان على الحوت دون الغداء الذى طلبه منه موسى ، للإشعار بأن الغداء الذى طلبه موسى منه ، هو ذلك الحوت الذى فقداه .

وقوله ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ جملة معترضة جيء بها لبيان ما يجرى مجرى السبب فى وقوع النسيان منه .

وقوله ﴿ أن أذكره ﴾ بدل اشتمال من الهاء فى «أنسانيه » .

أى : وما أنسانى تذكيرك بما حدث من الحوت إلا الشيطان الذى يوسوس للانسان ، بوساوس متعددة ، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور الهامة .

وقوله ﴿ واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ معطوف على قوله ﴿ فإنى نسيت الحوت ﴾ .

أى : نسيت أن أخبرك بأن الحوت عندما أوينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة ، واتخذ طريقه فى البحر اتخاذا عجيبا ، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر فى الماء والماء من حوله كالقنطرة التى تنفذ منها الأشياء .

وعلى هذا تكون جملة ، « واتخذ سبيله فى البحر عجبا » ، من بقية كلام يوشع للتعجب مما حدث من الحوت ، حيث عادت إليه الحياة بقدرة الله - تعالى - ، واتخذ طريقه فى البحر بتلك الصورة العجيبة .

وقيل : إن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - لبيان طرف آخر من أمر هذا الحوت العجيب ، بعد بيان أمره قبل ذلك بأنه اتخذ سبيله فى البحر سربا .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأن سياق الآية يدل عليه ، لذا اكتفى به بعض المفسرين دون أن يشير إلى غيره .

قال الامام الرازى : قوله ﴿ واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ فيه وجوه :

الأول : أن قوله ﴿ عجبا ﴾ صفة لمصدر محذوف ، كأنه قيل : واتخذ سبيله فى البحر اتخاذا عجبا ، ووجه كونه عجبا ، انقلابه من المكتل وصيرورته حيا وإلقاء نفسه فى البحر .

الثانى : أن يكون المراد منه ما ذكرنا من أنه - تعالى - جعل الماء عليه كالطاق وكالسراب .

الثالث : قيل إنه تم الكلام عند قوله ﴿ واتخذ سبيله فى البحر ﴾ ثم قال بعده : ﴿ عجبا ﴾ والمقصود منه تعجب يوشع من تلك الحالة العجيبة التى رآها ، ثم من نسيانه لها ..[١] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٤٧ .

وهنا يحكى القرآن ما يدل على أن موسى - عليه السلام - قد أدرك أنه تجاوز المكان الذى حدده له ربه - تعالى - للقاء العبد الصالح فقال : ﴿ قال ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ .

أى قال موسى لفتاه : ذلك الذى ذكرته لى من أمر نسيانك لخبر الحوت هو الذى كنا نبغيه ونطلبه ، فإن العبد الصالح الذى نريد لقاءه موجود فى ذلك المكان الذى فقدنا فيه الحوت .

﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ أى : فرجعا من طريقهما الذى أتيا منه ، يتتبعان آثارهما لئلا يضلاعنه ، حتى انتهيا عائدين مرة أخرى إلى موضع الصخرة التى فقد الحوت عندها .

وقصصا : من القص بمعنى اتباع الأثر . يقال : قص فلان أثر فلان قصا وقصصا إذا تتبعه .

ثم حكى القرآن ما تم لهما بعد أن عادا إلى مكانهما الأول فقال : ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ .

أى : وبعد أن عادا إلى مكان الصخرة عند مجمع البحرين مرة أخرى وجدا « عبدا من عبادنا » الصالحين . والتنكير فى « عبدا » للتفخيم ، والإضافة فى « عبادنا » للتشريف والتكريم .

﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ أى : هذا العبد الصالح منحناه وأعطيناه رحمة عظيمة من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا : واختصصناه بها دون غيره .

وهذه الرحمة تشمل النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه - كنعمة الهداية والطاعة وغيرهما .

﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ أى : وعلمناه من عندنا لا من عند غيرنا علماً خاصاً ، لا يتيسر إلا لمن نريد تيسيره ومنحه له .

والمراد بهذا العبد : الخضر - عليه السلام - كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة .

ومن العلماء من يرى أنه كان نبيا ، ومنهم من يرى أنه كان عبدا صالحاً اختصه الله بلون معين من العلم اللدنى .

أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء »[1] .

ويرى المحققون من العلماء أنه قد مات كما يموت سائر الناس . وإلى ذلك ذهب الإمام

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣١٩ .

البخارى وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم وغيرهم .

ويرى آخرون أنه حى وسيموت فى آخر الزمان .

قال ابن القيم : إن الأحاديث التى يذكر فيها أنه حى كلها كذب ، ولا يصح فى ذلك حديث واحد . وهذه المسألة من المسائل التى فصل العلماء الحديث عنها . فارجع إلى أقوالهم فيها إن شئت[1] .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ، ما دار بين موسى والخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا فقال - تعالى - :

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

أى : قال موسى للخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا « هل أتبعك » أى : هل تأذن لى فى مصاحبتك واتباعك . بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك الله إياه : شيئا أسترشد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دينى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد راعى فى مخاطبته للخضر أسمى ألوان الأدب اللائق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث خاطبه بصيغة الاستفهام الدالة على التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم ، وحيث استأذنه فى أن يكون تابعا له ، ليتعلم منه الرشد والخير .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم ، وإن تفاوتت المراتب ،

---

(١) راجع ابن كثير جـ ٥ ص ١٧١ . والآلوسى جـ ١٥ ص ٣١٩ وأضواء البيان جـ ٤ ص ١٥٧ .

ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول ، إذا اختص الله - تعالى - أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى يتعلق بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر يتعلق ببعض الغيب ومعرفة البواطن ..»[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فقال : ﴿ قال إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معى صبرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : أى : أنك لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى ، لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله - تعالى - ما علمك إياه ، وأنت على علم من علم الله - تعالى - ما علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتى »[2] .

وقوله : ﴿ وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ﴾ تعليل لعدم استطاعة الصبر معه .

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور ستراها منى . هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه ؟

فالخبر بمعنى العلم . يقال : خبر فلان الأمر يخبره : أى : علمه . والاسم الخبر ، وهو العلم بالشىء ، ومنه الخبير ، أى : العالم .

وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إنى واثق من أنك لن تستطيع معى صبرا ، لأن ما سأفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى ، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك ، وهى تخفى عليك .

ولكن موسى - عليه السلام - الحريص على تعلم العلم النافع ، يصر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله - تعالى - : ﴿ ستجدنى - إن شاء الله - صابرا ، ولا أعصى لك أمرا ﴾ .

أى : قال موسى للخضر ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ﴾ معك ، غير معترض عليك ، ولا أعصى لك أمرا من الأمور التى تكلفنى بها .

---

(١) تفسير فتح البيان جـ ٥ ص ٤٧٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧٨ .

وقدم موسى - عليه السلام - المشيئة ، أدبا مع خالقه - عز وجل - واستعانة به - سبحانه - على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ما سبق أن قاله لموسى ، وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته ، فقال : ﴿ قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ .

أى : قال الخضر لموسى على سبيل التأكيد والتوثيق : يا موسى إن رافقتنى وصاحبتنى ، ورأيت منى أفعالا لا تعجبك ، لأن ظاهرها يتنافى مع الحق . فلا تعترض عليها ، ولا تناقشنى فيها ، بل اتركنى وشأنى ، حتى أبين لك فى الوقت المناسب السبب فى قيامى بتلك الأفعال ، وحتى أكون أنا الذى أفسره لك .

قالوا : « وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر - موسى - ودأب لرأى العجب[1] » .

ثم تحكى السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها ، بل اعترض وناقش ، أما الحادث الأول فقد بينه - سبحانه - بقوله :

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

وقوله : ﴿ فانطلقا ﴾ بيان لما حدث منهما بعد أن استمع كل واحد منهما إلى ما قاله صاحبه .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - على ساحل البحر ، ومعهما يوشع بن نون ، ولم يذكر فى الآية لأنه تابع لموسى .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١٨ .

ويرى بعضهم أن موسى - عليه السلام - صرف فتاه بعد أن التقى بالخضر .

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نَوْلٍ : أى أجر »[1] .

وقوله : ﴿ حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ﴾ بيان لما فعله الخضر بالسفينة .

أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من الخضر إلا أن خرقها . قيل : بأن قلع لوحا من ألواحها .

وهنا ما كان من موسى إلا أن قال له على سبيل الاستنكار والتعجب مما فعله : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها .. ﴾ . أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذه الصورة المؤلمة ؟

﴿ لقد جئت شيئاً إِمْرا ﴾ ، والإِمْر : الداهية . وأصله كل شيء شديد كبير ، ومنه قولهم : إن القوم قد أَمِرُوا . أى : كثُروا واشتد شأنهم . ويقال : هذا أَمْرٌ إِمْرٌ ، أى : منكر غريب .

أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا فى الشناعة . حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق .

وهنا أجابه الخضر بقوله : ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ أى : ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتى ، ولا قدرة لك على السكوت على تصرفاتى التى لا تعرف الحكمة من ورائها ؟

ولكن موسى - عليه السلام - رد معتذرا لما فرط منه وقال : ﴿ لا تؤاخذنى ﴾ أيها العبد الصالح ، بما نسيت ، أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ترك السؤال والاعتراض حتى يكون لى منك البيان . ﴿ ولا ترهقنى من أمرى عسرا ﴾ . أى : ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .

يقال : أرهق فلان فلانا . إذا أتعبه وأثقل عليه وحمله مالا يطيقه .

والمراد : التمس لى عذرا بسبب النسيان ، ولا تضيق على الأمر ، فإن فى هذا التضييق ما يحول بينى وبين الانتفاع بعلمك .

وكأن موسى - عليه السلام - الذى اعتزم الصبر وقدم المشيئة ، ورضى بشروط الخضر فى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٣٣٥ .

المصاحبة .. كأنه قد نسى كل ذلك أمام المشاهدة العملية ، وأمام التصرف الغريب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .

وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما ، يختلف عن الوقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .

فموسى - عليه السلام - وعد الخضر بأنه سيصبر ... إلا أنه بعد أن شاهد مالا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه القرآن فى قوله :

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

أى : فانطلق موسى والخضر للمرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى .

﴿ حتى إذا لقيا غلاما ﴾ فى طريقهما ، ما كان من الخضر إلا أن أخذه ﴿ فقتله ﴾ .

وهنا لم يستطع موسى - عليه السلام - أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : ﴿ أقتلت نفسا زكية ﴾ أى : طاهرة بريئة من الذنوب ﴿ بغير نفس ﴾ .

أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها . أى : أن قتلك لهذا الغلام كان بغير حق .

﴿ لقد جئت ﴾ أيها الرجل « شيئا نكرا » أى : منكرا عظيما . يقال . نكر الأمر ، أى : صعب واشتد . والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه . وبالوعد الذى قطعه على نفسه . فيقول له : ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ .

وفى هذه المرة لا يكتفى الخضر بقوله : ﴿ ألم أقل إنك .. ﴾ بل يضيف لفظ لك ، زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير .

أى : ألم أقل لك أنت يا موسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معى صبرا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

ويراجع موسى نفسه . فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بإخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيرة فيقول : ﴿ إن سألتك ﴾ أيها الصديق ﴿ عن شيء بعدها ﴾ أى : بعد هذه المرة الثانية ﴿ فلا تصاحبنى ﴾ أى : فلا تجعلنى صاحبا أو رفيقا لك ، فإنك ﴿ قد بلغت من لدنى عذرا ﴾ أى : فإنك قد بلغت الغاية التى تكون معذورا بعدها فى فراقى ، لأنى أكون قد خالفتك مراراً .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يدلك على اعتذاره الشديد للخضر ، وعلى شدة ندمه على ما فرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئه .

قال القرطبى : كان رسول الله - ﷺ - إذا دعا لأحد بدأ بنفسه فقال يوما : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، ولكنه قال : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى .. ﴾[1] .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والأخير فى تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فنقول :

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - يتابعان سيرهما . حتى إذا أتيا أهل قرية قيل هى « أنطاكيه » ، وقيل : هى قرية بأرض الروم .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٣ .

﴿ استطعما أهلها ﴾ والاستطعام : سؤال الطعام . والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر - عليهما السلام - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ يشهد له .

أى : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهما بخلا منهم وشحا .

وقوله - تعالى - ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾ معطوف على ﴿ أتيا ﴾

أى وبعد أن امتنع أهل القرية عن استضافتهما ، تجولا فيها ﴿ فوجدا فيها جدارا ﴾ أى : بناء مرتفعا ﴿ يريد أن ينقض ﴾ أى : ينهدم ويسقط ﴿ فأقامه ﴾ أى الخضر بأن سواه وأعاد إليه اعتداله ، أو بأن نقضه وأخذ فى بنائه من جديد .

وهنا لم يتمالك موسى - عليه السلام - مشاعره ، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون .. ورجل يتعب نفسه فى إقامة حائط مائل لهم .. هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهما جائعان لا يجدان مأوى لهما فى تلك القرية !

لذا بادر موسى - عليه السلام - ليقول للخضر : ﴿ لو شئت لا تخذت عليه أجراً ﴾ .

أى : هلا طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنتفع به . وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .

فالجملة الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما فى أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر - عليهما السلام - هو نهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ أى : هذا الذى قلته لى ، يجعلنا نفترق ، لأنك قد قلت لى قبل ذلك : ﴿ إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ﴾ وها أنت تسألنى وتحرضنى على أخذ الأجر .

ومع ذلك فانتظر : سأنبئك ، قبل مفارقتى لك ﴿ بتأويل ﴾ أى : بتفسير وبيان ما خفى عليك من الأمور الثلاثة التى لم تستطع عليها صبرا ، لأنك لم يكن عندك ما عندى من العلم بأسرارها الباطنة التى أطلعنى الله - تعالى - عليها .

ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى عليهما السلام - فى هذا الشأن فقال - تعالى -

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

أى قال الخضر لموسى : ﴿ أما السفينة ﴾ التى خرقتها ولم ترض عنه ، ﴿ فكانت لمساكين يعملون فى البحر ﴾ أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم ، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكان الناسّ يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذين ينتفعون به .

﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقتها فيه ، ولم أرد أن أغرق أهلها كما ظننت يا موسى ، والسبب فى ذلك : أنه ﴿ كان وراءهم ملك ﴾ ، ظالم ، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها اغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة . كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم ، وكان سببا فى بقائها فى أيدى أصحابها المساكين .

فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

ويرى بعضهم أن المراد بالوراء الأمام . ويرى آخرون أن المراد به الخلف . وقال الزجاج : وراء : يكون للخلف والأمام . ومعناه : ما توارى عنك واستتر .

وظاهر قوله - تعالى - : ﴿ يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ ، يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة ، ولكن هذا الظاهر غير مراد . وإنما المراد : يأخذ كل سفينة سليمة . بدليل : فأردت أن أعيبها ، أى : لكى لا يأخذها ، ومن هنا قالوا : إن لفظ « سفينة » هنا موصوف لصفة محذوفة . أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .

و « غصبا » ، منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ . والغصب - من باب ضرب - : أخذ الشىء ظلما وقهرا .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فى اعتراضه على الحادثة الثانية فقال - تعالى - :

وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾
فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

أى : ﴿ وأما الغلام ﴾ الذى سبق لى أن قتلته ، واعترضت على فى قتله يا موسى ﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾ ولم يكن هو كذلك فقد أعلمنى الله - تعالى - أنه طبع كافرا .

﴿ فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ ، والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه .

و « يرهقهما » من الإرهاق وهو أن يحمِّل الإنسان ما لايطيقه .

أى : فخشينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشدة محبتهما له ، وحرصهما على إرضائه .

﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه ﴾ والإبدال : رفع شىء . وإحلال آخر محله .

أى : « فأردنا » بقتله « أن يبدلهما ربهما » بدل هذا الغلام الكافر الطاغى ، ولدا آخر « خيرا منه » أى من هذا الغلام ، زكاة « أى » طهارة وصلاحا « وأقرب رحما » أى : وأقرب فى الرحمة بهما . والعطف عليهما ، والطاعة لهما .

ثم ختم - سبحانه - القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال - تعالى - :

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

أى : ﴿ وأما الجدار ﴾ الذى أتعبت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى .

﴿ فكان لغلامين يتيمين ﴾ مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقرية سابقا فى قوله : ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ .

قالوا : ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد مافيها من اليتيمين ، وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح »[1] .

وكان تحته أى تحت هذا الجدار ﴿ كنز لهما ﴾ أى : مال مدفون من ذهب وفضة .. ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما .

﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ أى : رجلا من أصحاب الصلاح والتقوى ، فكان ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ مالهما .

﴿ فأراد ربك ﴾ ومالك أمرك ؛ ومدير شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .

﴿ أن يبلغا أشدهما ﴾ أى : كمال رشدهما ، وتمام نموهما وقوتهما .

ويستخرجا كنزهما من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .

﴿ رحمة من ربك ﴾ أى : وما أراده ربك - ياموسى - بهذين الغلامين ، هو الرحمة التى ليس بعدها رحمة ، والحكمة التى ليس بعدها حكمة .

فقوله « رحمة » مفعول لأجله .

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول : ﴿ وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا ﴾ .

أى : وما فعلت ما فعلته عن اجتهاد منى ، أو عن رأيى الشخصى ، وإنما فعلت ما فعلت بأمر ربى ومالك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطق السكوت عليه ، لأنك لم يطلعك الله - تعالى - على خفايا تلك الأمور وبواطنها .. كما أطلعنى .

وحذفت التاء من ﴿ تسطع ﴾ تخفيفا . يقال : استطاع فلان هذا الشىء واسطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ١٢ .

وبذلك انكشف المستور لموسى عليه السلام - وظهر ما كان خافيا عليه .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لآيات تلك القصة جملة من الأحاديث ، منها ما رواه الشيخان ، ومنها ما رواه غيرهما ، ونكتفى هنا بذكر حديث واحد .

قال - رحمه الله - قال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال . قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبى بنى إسرائيل .

قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه : إن عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . فقال موسى : يارب ، وكيف لى به ؟

قال : تأخذ معك حوتا ، تجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم » .

فأخذ حوتا ، فجعله فى مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون . حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت .

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به .

قال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ . قال : فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .

فقال موسى : ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ .

قال : فرجعا يقصان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى - أى مغطى - بثوب ، - فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام .

قال : أنا موسى : قال : موسى نبى إسرائيل قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا .

قال : إنك لن تستطيع معى صبرا .

يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه .

قال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال الخضر فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا يمشيان ، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوه ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول - أى بغير أجر - فلما ركبا فى السفينة ، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح لسفينة بالقدوم .

فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ، لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئاً إمرا .

قال له الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

قال : وقال رسول الله - ﷺ - ، كانت الأولى من موسى نسيانا ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة . فنقر فى البحر نقرة . فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله - فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا ﴾ قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا .

قال : وهذه أشد من الأولى . قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى .

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لا تخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا ﴾ .

فقال رسول الله - ﷺ - : وددنا أن موسى كان قد صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما »[1] .

وقد أخذ العلماء من هذه القصة أحكاما وآدابا من أهمها ما يأتى :

١ - أن الإنسان مهما أوتى من العلم ، فعليه أن يطلب المزيد ، وأن لا يعجب بعلمه ، فالله - تعالى - يقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ وطلب من نبيه - ﷺ - أن يتضرع إليه بطلب الزيادة من العلم فقال : ﴿ وقل رب زدنى علما ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٧٢ طبعة دار الشعب .

٢ - أن الرحلة فى طلب العلم من صفات العقلاء . فموسى - عليه السلام - وهو من أولى العزم من الرسل ، تجشم المشاق والمتاعب لكى يلتقى بالرجل الصالح ؛ لينتفع بعلمه ، وصمم على ذلك مهما كانت العقبات بدليل قوله - تعالى - حكاية عنه : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ﴾ .

قال القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم ، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم . وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب العلم إلى الحظ الراجح : وحصلوا على السعى الناجح ، فرسخت لهم فى العلوم أقدام . وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .

قال البخارى : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى طلب حديث[١] .

٣ - جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى الطبيعة البشرية ، كالجوع والعطش والتعب والنسيان فقد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ ورد عليه فتاه بقوله : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره .. ﴾ .

وفى هذا الرد - أيضا - من الأدب ما فيه ، فقد نسب سبب النسيان إلى الشيطان ، وإن كان الكل بقضاء الله - تعالى - وقدره .

٤ - أن العلم على قسمين : علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله .. بعد عون الله تعالى - له . وعلم لدنى يهبه الله - سبحانه - لمن يشاء من عباده فقد قال - تعالى - فى شأن الخضر ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ أى : علما خاصا أطلعه الله عليه يشمل بعض الأمور الغيبية .

٥ - أن على المتعلم أن يخفض جناحه للمعلم ، وأن يخاطبه بأرق العبارات وألطفها ، حتى يحصل على ما عنده من علم بسرور وارتياح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وتأمل ما حكاه الله عن موسى فى قوله للخضر : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ﴾ فقد أخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة ، فكأنه يقول له : هل تأذن لى فى ذلك أولا ، مع إقراره بأنه يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ١١ .

الكبر ، الذى لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه ..[1] .

٦ - أنه لا بأس على العالم ،إذا اعتذر للمتعلم عن تعليمه ، لأن المتعلم لا يطيق ذلك ، لجهله بالأسباب التى حملت العالم على فعل تلك الأمور التى ظاهرها يخالف الحق والعدل والمنطق العقلى ، وأن معرفة الأسباب تعين على الصبر .

فقد قال الخضر لموسى : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ﴾ فقد جعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرا بالأمر .

٧ - إن من علامات الإيمان القوى ، أن يقدم الإنسان المشيئة عند الإقدام على الأعمال ، وأن العزم على فعل الشىء ليس بمنزلة فعله ، فقد قال موسى للخضر : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ﴾ ومع ذلك فعندما رأى منه أفعالا يخالف ظاهرها الحق والصلاح ، لم يصبر .

وأنه لا بأس على العالم أن يشترط على المتعلم أمورا معينة قبل أن يبدأ فى تعليمه .
فقد قال الخضر لموسى : ﴿ إن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ .

٨ - أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر ، فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصبا ، وإن قتل الغلام شر ، ولكنه أقل من الشر الذى سيترتب على بقائه . وهو إرهاقه لأبويه ، وحملهما على الكفر .

كما يجوز للإنسان أن يعمل عملا فى ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه مصلحة لذلك الغير كأن يرى حريقا فى دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه . ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه ، فقد خرق الخضر السفينة ، لكى تبقى لأصحابها المساكين .

٩ - أن التأنى فى الأحكام . والتثبت من الأمور ، ومحاولة معرفة العلل والأسباب ... كل ذلك يؤدى إلى صحة الحكم ، وإلى سلامة القول والعمل .

وصدق رسول الله - ﷺ - حيث يقول : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب » .

١٠ - أن من دأب العقلاء الصالحين . استعمال الأدب مع الله - تعالى - فى التعبير ، فالخضر قد أضاف خرقه للسفينة إلى نفسه فقال : « فأردت أن أعيبها .. » وأضاف الخير الذى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان جـ ٥ ص ٢٣ للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى .

فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال : ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾ :

وشبيه بهذا ما حكاه الله - تعالى - عن صالحى الجن فى قولهم : ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ .

١١ - قال القرطبى : قوله - تعالى - ﴿ يريد أن ينقض ﴾ أى : قرب أن يسقط . وهذا مجاز وتوسع .

وقد فسره فى الحديث بقوله « مائل » فكان فيه دليل على وجود المجاز فى القرآن ، وهو مذهب الجمهور .

وجميع الأفعال التى حقها أن تكون للحى الناطق إذا أسندت إلى جماد أو بهيمة ، فإنما هى استعارة .

أى : لو كان مكانها إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل ، وهذا فى كلام العرب وأشعارهم كثير ، كقول الأعشى :

أتنتهــون ولا يَـنْهَىَ ذوى شـــطَط كالطّعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُل

والشطط : الجور والظلم ، يقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن العميق الذى يغيب فيه الفتل - فأضاف النهى إلى الطعن .

وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن فإن كلام الله عز وجل - وكلام رسوله - ﷺ - حمله على الحقيقة أولى بذى الفضل والدين ، لأنه يقص الحق كما أخبر الله - تعالى - فى كتابه ..[1] .

وقد صرح صاحب أضواء البيان أنه لا مجاز فى القرآن فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - : ﴿ فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ﴾ .

هذه الآية من أكبر الأدلة التى يستدل بها القائلون : بأن المجاز فى القرآن ، زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة وإنما هى مجاز .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من أن تكون إرادة الجدار حقيقة ، لأن الله - تعالى - يعلم للجمادات إرادات وأفعالا وأقوالا لا يدركها الخلق ، كما صرح - تعالى - بأنه يعلم من ذلك مالا يعلمه خلقه فى قوله - سبحانه - ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم .. ﴾ .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٢٥ .

فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم ، وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها - سبحانه - ونحن لا نعلمها .

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى - ﷺ - قال : « إنى لأعرف حجرا كان يسلم على بمكة » . وما ثبت فى صحيح البخارى من حنين الجذع الذى كان يخطب عليه - ﷺ - حزنا لفراقه .

فتسليم ذلك الحجر ، وحنين ذلك الجزع ، كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه ..[1] .

١٢ - أن صلاح الأباء ينفع الأبناء . بدليل قوله - تعالى - : ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته وتشمل بركة عبادته ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم ، كما جاء فى القرآن ووردت السنة به .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

١٣ - أن على الصاحب أن لا يفارق صاحبه حتى يبين له الأسباب التى حملته على ذلك ، فأنت ترى أن الخضر قد قال لموسى : « هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا»[2] أى : قبل مفارقتى لك سأخبرك عن الأسباب التى حملتنى على فعل ما فعلت مما لم تستطع معه صبرا .

ويفهم من ذلك أن موافقة الصاحب لصاحبه - فى غير معصية الله - تعالى - على رأس الأسباب التى تعين على دوام الصحبة وتقويتها ، كما أن عدم الموافقة ، وكثرة المخالفة ، تؤدى إلى المقاطعة .

كما يفهم من ذلك - أيضاً - أن المناقشة والمحاورة متى كان الغرض منها الوصول إلى الحق ، وإلى المزيد من العلم ، وكانت بأسلوب مهذب ، وبنية طيبة ، لا تؤثر فى دوام المحبة والصداقة ، بل تزيدهما قوة وشدة .

نسأل الله - تعالى - أن يؤدبنا بأدبه ، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .

ثم ساق - سبحانه - قصة ذى القرنين ، وهى القصة الرابعة والأخيرة فى السورة فقد سبقتها قصة أصحاب الكهف . وقصة صاحب الجنتين وقصة موسى والخضر .

---

(١) راجع أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن جـ ٤ ص ١٧٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٨٣ .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا بأسلوبه البليغ المؤثر خبر ذي القرنين فيقول :

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

وقوله – سبحانه – : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين .. ﴾ معطوف على قصة موسى والخضر – عليهما السلام – عطف القصة على القصة .

قال البقاعى : كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم ، وكانت قصة ذى القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد فى سبيل الله ، ولما كان العلم أساس الجهاد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذى القرنين ..[1] .

والسائلون هم كفار قريش بتلقين من اليهود ، فقد سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لقصة أصحاب الكهف . أن اليهود قالوا لوفد قريش : سلوه – أى الرسول – ﷺ – عن ثلاث نأمركم بهن .. سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من أمرهم .. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها .. وسلوه عن الروح .

وجاء التعبير بصيغة المضارع – مع أن الآيات نزلت بعد سؤالهم – لاستحضار الصورة الماضية ، أو للدلالة على أنهم استمروا فى لجاجهم إلى أن نزلت الآيات التى ترد عليهم .

أما ذو القرنين ، فقد اختلفت فى شأنه أقوال المفسرين اختلافا كبيرا ، لعل أقربها إلى الصواب ما أشار إليه الآلوسى بقوله : وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتابه المسمى « بالآثار الباقية عن القرون الخالية » ، أن ذا القرنين هو أبو كريب الحميرى ، وهو الذى : افتخر به تبع اليمنى حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن ملوك اليمن كانوا يلقبون بكلمة ذى . كذى نواس ، وذى يزن . إلخ .[2] .

---

(١) نظم الدرر للبقاعى جـ ١٢ ص ١٢٨ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٢٧ .

ومن المقطوع به أن ذا القرنين هذا : ليس هو الإسكندر المقدوني الملقب بذى القرنين . تلميذ أرسطو ، فإن الإسكندر هذا كان وثنيا .. بخلاف ذى القرنين الذى تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله - تعالى - ومعتقدا بصحة البعث والحساب .

والرأى الراجح أنه كان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا .

ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى - عليه السلام - ، ويرى آخرون غير ذلك ومن المعروف أن القرآن الكريم يهتم فى قصصه ببيان العبر والعظات المستفادة من القصة ، لا ببيان الزمان أو المكان للأشخاص .

وسمى بذى القرنين - على الراجح - لبلوغه فى فتوحاته قرنى الشمس من أقصى المشرق والمغرب .

والمعنى : ويسألك قومك - يا محمد - عن خبر ذى القرنين وشأنه .

« قل » لهم - على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك . « سأتلو عليكم منه ذكرا » . والضمير فى « منه » يعود على ذى القرنين و « من » للتبعيض .

أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره - وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هذا القرآن الذى أوحاه الله إلى ما يفيدكم ويكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .

ثم بين - سبحانه - ما أعطاه الله لذى القرنين من نعم فقال : ﴿ إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا . فأتبع سببا ﴾ .

وقوله : « مكنا » من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التى جعلته صاحب نفوذ وسلطان فى أقطار الأرض المختلفة . والمفعول محذوف ، أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء . بأن أعطيناه سلطانا وطيد الدعائم ، وآتيناه من كل شىء أراده فى دنياه لتقوية ملكه « سببا » أى سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير ، وكثرة الجند ، ووسائل البناء والعمران .

وهذه الأسباب التى أعطاها الله إياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعلينا أن نؤمن بأن الله - تعالى - قد أعطاه وسائل عظيمة لتدعيم ، ملكه ، دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرائيليات لا قيمة لها .

والفاء فى قوله ﴿ فأتبع سببا ﴾ فصيحة . أى : فأراد أن يزيد فى تدعيم ملكه ، فسلك طريقا لكى يوصله إلى المكان الذى تغرب فيه الشمس .

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أى حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب .

﴿ وجدها تغرب فى عين حمئة ﴾ أى : رآها فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة ، وإن لم تكن هى فى الحقيقة كذلك .

وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذى يكون فى أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .

وحمئة : أى : ذات حمأة وهى الطين الأسود . يقال : حمأتِ البئر تَحمأُ حَمأً ، إذا صارت فيها الحمأة وهى الطينة السوداء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى : « وجدها نغرب فى عين حامية » أى : حارة . اسم فاعل من حَمِى يَحْمَى حَمْياً .

﴿ ووجد عندها قوما ﴾ أى : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما .

الظاهر أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر . فخيره الله - تعالى - فيهم فقال : ﴿ قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ .

أى : قال الله - تعالى - له عن طريق الالهام ، أو على لسان ملك أخبره بذلك : ياذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى الله - تعالى - عنه فى الجواب ما يدل على سلامة تفكيره ، فقال : ﴿ قال أما من ظلم .. ﴾ أى : قال ذو القرنين فى الرد على تخيير ربه له فى شأن هؤلاء القوم ، يارب : أما من ظلم نفسه بالإصرار على الكفر والفسوق والعصيان « فسوف نعذبه » فى هذه الدنيا بالقتل وما يشبهه . ثم يرد هذا الظالم نفسه إلى ربه - سبحانه - فيعذبه فى الآخرة عذابا « نكرا » أى : عذابا فظيعا عظيما منكرا وهو عذاب جهنم .

« وأما من آمن وعمل عملا صالحا » يقتضيه إيمانه « فله » فى الدارين « جزاء الحسنى » أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة .

« وسنقول له » أى لمن آمن وعمل صالحا « من أمرنا » أى مما نأمره به قولا « يسرا » لا صعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .

فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد اتبع فى حكمه الطريق القويم ، والأسلوب الحكيم ، الذى يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، وطهارة النفس .

إنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتص ، ويرهب النفوس المنحرفة ، حتى تعود إلى رشدها ، وتقف عند حدودها .

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وصلاحهم بصلاح واستقامتهم بالتكريم والقول الطيب ، والجزاء الحسن .

وهكذا الحاكم الصالح فى كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون .. يجدون منه كل شدة تردعهم وتزجرهم وتوقفهم عند حدودهم .

والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان واحترام وقول طيب .

وقوله : ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .

أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، ونال مقصده ، كر راجعا من جهة غروب الشمس إلى جهة شروقها .

﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ أى : حتى إذا كر راجعا وبلغ منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المشرق .

﴿ وجدها ﴾ أى الشمس ﴿ تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ﴾ أى : لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس ، فهم قوم عراة يسكنون الأسراب والكهوف فى نهاية المعمورة من جهة المشرق .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه الله من كل شىء سببا ، فبلغ ملك مشارق الأرض ومغاربها .

وقوله ﴿ وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴾ بيان لشمول علم الله - تعالى - بأحوال ذى القرنين الظاهرة والباطنة ولأحوال غيره .

أى : كذلك كان شأن ذى القرنين . وقد أحطنا إحاطة تامة وعلمنا علما لايعزب عنه شىء ، بما كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات ... وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ثم أتبع سببا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها .

أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها ... سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب ، آخذا فيه ﴿ حتى إذا بلغ ﴾ فى مسيره ذلك ﴿ بين السدين ﴾ أى : الجبلين ، وسمى الجبل سدا ، لأنه سد فجا من الأرض .

قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما فى نهاية أرض الترك مما يلى المشرق :

﴿ وجد من دونهما ﴾ أى : من دون السدين ومن ورائهما ﴿ قوما ﴾ أى : أمة من الناس لغتهم لا تكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال - سبحانه - .

﴿ لا يكادون يفقهون قولا ﴾ أى : لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقرءون ما يقوله الناس لهم ، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، ولايعرف الناس - أيضا - ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .

﴿ قالوا ﴾ أى : هؤلاء القوم لذى القرنين : ﴿ ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ﴾ .

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر : وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم . وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الديلم .

أى : قال هؤلاء القوم - الذين لا يكادون يفقهون قولا - لذى القرنين ، بعد أن توسموا فيه القوة والصلاح .. ياذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب .

وفى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش - رضى الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله - ﷺ - من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق - بين أصابعه - قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث» .

وقوله - تعالى - ﴿ فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ﴾ حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على ثقتهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أنهم يفوضون الأمر إليه .

والخَرْج : اسم لما يخرجه الإنسان من ماله لغيره . وقرأ حمزة والكسائى خراجا : وهما بمعنى واحد ، وقيل الخرجة : الجزية . والخراج : اسم لما يخرجه عن الأرض .

أى : فهل نجعل لك مقدارا كبيرا من أموالنا على سبيل الأجر ، لكى تقيم بيننا وبين قبيلة يأجوج ومأجوج سدا يمنعهم من الوصول إلينا . ويحول بيننا وبينهم ؟

وهنا يرد عليهم ذو القرنين - كما حكى القرآن عنه بما يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل . فيقول ﴿ قال ما مكنى فيه ربى خير ... ﴾ .

أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا : إن ما بسطه الله - تعالى - لى من الرزق والمال والقوة .. خير من خرجكم ومالكم الذى تريدون أن تجعلوه لى فى إقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفو إلى جانبى ﴿ فأعينونى ﴾ بسواعدكم وبآلات البناء ﴿ بقوة ﴾ أى : بكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد ، لكى ﴿ أجعل بينكم ﴾ وبين يأجوج ومأجوج « ردما » .

أى : حاجزاً حصينا . وجدارا متينا ، يحول بينكم وبينهم .

والردم : الشىء الذى يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق . يقال : ثوب مردم ، أى : فيه رقاع فوق رقاع . وسحاب مردم ، أى : متكاتف بعضه فوق بعض . ويقال : ردمت الحفرة ، إذا وضعت فيها من الحجارة والتراب وغيرهما ما يسويها بالأرض .

قال ابن عباس : الردم أشد الحجاب .

وجملة ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردما ﴾ جواب الأمر فى قوله : ﴿ فأعينونى بقوة ﴾ .

ثم شرع فى تنفيذ ما راموه منه من عون فقال لهم : ﴿ آتونى زبر الحديد .. ﴾ .

والزبرَ - كالغُرَف - جمع زُبرة - كغرفة - وهى القطعة الكبيرة من الحديد وأصل الزبر . الاجتماع ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . ويقال : زبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه .

أى : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ أى بين جانبى الجبلين . وسمى كل واحد من الجانبين صدفا . لكونه مصادفا ومقابلا ومحاذيا للآخر ، مأخوذ من قولهم صادفت الرجل : أى : قابلته ولا قيته ، ولذا لا يقال للمفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايفة كالشفع والزوج .

وقوله : ﴿ قال انفخوا ﴾ أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد الموضوع بين الصدفين .

وقوله : ﴿ حتى إذا جعله نارا ﴾ أى : حتى إذا صارت قطع الحديد الكبيرة كالنار فى احمرارها وشدة توهجها ﴿ قال آتونى أفرغ عليه قطرا ﴾ أى : نحاسا أو رصاصا مذابا ، وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما يقطر الماء .

أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ يبنى شيئا فشيئا

حتى إذا ساوى بين جانبى الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم : أوقدوا النار وانفخوا فيها بالكيران وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لكى أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومتانة وقوة .

وبذلك يكون ذو القرنين قد لبى دعوة أولئك القوم فى بناء السد . وبناه لهم بطريقة محكمة سليمة ، اهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمبانى فى العصر الحديث .

وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الحيلولة بين هؤلاء القوم ، وبين يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

ولقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهذا العمل جعل يأجوج ومأجوج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا ﴾ .

أى : فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ، أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه ، وما استطاعوا - أيضاً - أن يحدثوا فيه نقبا أو خرقا لصلابته ومتانته وثخانته .

ووقف ذو القرنين أمام هذا العمل العظيم ، مظهرا الشكر لله - تعالى - ، والعجز أمام قدرته - عز وجل - شأن الحكام الصادقين فى إيمانهم ، الشاكرين لخالقهم توفيقه إياهم لكل خير .

وقف ليقول بكل تواضع وخضوع لخالقه .. : ﴿ هذا رحمة من ربى ﴾ .

أى : هذا الذى فعلته من بناء السد وغيره ، أثر من آثار رحمة ربى التى وسعت كل شىء .

﴿ فإذا جاء وعد ربى ﴾ الذى حدده لفناء هذه الدنيا ونهايتها ، أو الذى حدده لخروجهم منه ﴿ جعله دكاء ﴾ أى : جعل هذا السد أرضا مستوية ، وصيره مدكوكا أى : بمساواة الأرض . ومنه قولهم : ناقة دكاء أى : لاسنام لها .

﴿ وكان وعد ربى حقا ﴾ أى : وكان كل ما وعد الله - تعالى - به عباده من ثواب وعقاب وغيرهما ، وعدا حقا لا يتخلف ولا يتبدل ، كما قال - سبحانه - : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وبذلك نرى فى قصة ذى القرنين ما نرى من الدروس والعبر والعظات ، التى من أبرزها . أن التمكين فى الأرض نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده . وأن السير فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل من صفات المؤمنين الصادقين ، وأن الحاكم العادل من صفاته : ردع الظالمين عن ظلمهم ، والإحسان إلى المستقيمين المقسطين ، والعمل على ما يجعلهم يزدادون استقامة

وفضلا ، وأن من معالم الخلق الكريم ، أن يعين الإنسان المحتاج إلى عونه ، وأن يقدم له ما يصونه عن الوقوع تحت وطأة الظالمين المفسدين ، وأن من الأفضل أن يحتسب ذلك عند الله - تعالى - . وان لا يطلب من المحتاج إلى عونه أكثر من طاقته .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين الصادقين : أنهم ينسبون كل فضل إلى الله - تعالى - وإلى قدرته النافذة ، وأنهم يزدادون شكرا وحمداً له - تعالى - كلما زادهم من فضله ، وما أجمل وأحكم أن تختتم قصة ذى القرنين بقوله - تعالى - : ﴿ قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا﴾ .

* * *

ثم تسوق السورة الكريمة بعد قصة ذى القرنين آيات تذكر الناس بأهوال يوم القيامة ، لعلهم يتوبون ويتذكرون .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور ذلك فتقول :

۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

وقوله : ﴿ وتركنا ﴾ بمعنى جعلنا وصيرنا ، والضمير المضاف فى قوله « بعضهم » يعود إلى يأجوج ومأجوج ، والمراد « بيومئذ » : يوم تمام بناء السد الذى بناه ذو القرنين .

وقوله - سبحانه - ﴿ يموج ﴾ من الموج بمعنى الاضطراب والاختلاط يقال : ماج البحر إذا اضطرب موجه وهاج واختلط . ويقال : ماج القوم إذا اختلط بعضهم ببعض وتزاحموا حائرين فزعين .

والمعنى وجعلنا وصيرنا بمقتضى حكمتنا وإرادتنا وقدرتنا ، قبائل يأجوج ومأجوج يموج

بعضهم فى بعض . أى : يتزاحمون ويضطربون من شدة الحيرة لأنهم بعد بناء السد ، صاروا لا يجدون مكانا ينفذون منه إلى ما يريدون النفاذ إليه ، فهم خلفه فى اضطراب وهرج .

ويجوز أن يكون المراد بيومئذ : يوم مجىء الوعد بخروجهم وانتشارهم فى الأرض ، وهذا الوعد قد صرحت به الآية السابقة فى قوله - تعالى - ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾ .

فيكون المعنى : وتركنا قبائل يأجوج ومأجوج ، يوم جاء وعد الله بجعل السد مدكوكا ومتساويا مع الأرض ، يموج بعضهم فى بعض ، بعد أن خرجوا منتشرين فى الأرض ، وقد تزاحموا وتكاثروا واختلط بعضهم ببعض .

قال الفخر الرازى : اعلم أن الضمير فى قوله « بعضهم » يعود إلى يأجوج ومأجوج . وقوله : (يومئذ) فيه وجوه :

الأول : أن يوم السد ماج بعضهم فى بعض خلفه لما منعوا من الخروج .

الثانى : أنه عند الخروج يموج بعضهم فى بعض . قيل : إنهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين فى البلاد .

الثالث : أن المراد من قوله (يومئذ) يوم القيامة .

وكل ذلك محتمل ، إلا أن الأقرب أن المراد به : الوقت الذى جعل الله فيه السد دكا فعنده ماج بعضهم ونفخ فى الصور ، وصار ذلك من آيات القيامة »[1] .

وقال القرطبى : قوله - تعالى - : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ﴾ الضمير فى ﴿ تركنا ﴾ لله - تعالى - أى : تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج « يومئذ » أى : يوم كمال السد يموج بعضهم فى بعض ، واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السدِّ يموجون فى الدنيا مختلطين لكثرتهم . فهذه أقوال ثلاثة : أظهرها أوسطها وأبعدها آخرها . وحسن الأول ، لأنه تقدم ذكر القيامة فى تأويل قوله - تعالى - ﴿ فإذا جاء وعد ربى ﴾[2] .

وقوله - سبحانه - ﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾ بيان لعلامة من علامات قيام الساعة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢١ ص ١٧٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٦٥ .

والنفخ لغة : إخراج النفس من الفم لإحداث صوت معين . والصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - نفخة الصعق والموت ، ونفخة البعث والنشور ، كما قال - تعالى - : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[١] .

والمعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم فى بعض . وأمرنا إسرافيل بالنفخ فى الصور ، فجمعناهم وجميع الخلائق جمعا تاما ، دون أن نترك أحدا من الخلائق بدون إعادة إلى الحياة ، بل الكل مجموعون ليوم عظيم هو يوم البعث والحساب .

والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التى يقوم الناس بعدها من قبورهم للحساب ، كما أشارت إلى ذلك آية سورة الزمر السابقة .

وفى التعبير بقوله : ﴿ فجمعناهم جمعا ﴾ . أى : جمعناهم جمعا تاما كاملا لا يشذ عنه أحد ، ولا يفلت منه مخلوق ، كما قال - سبحانه - : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون . إلى ميقات يوم معلوم ﴾ .

هذا ، وهنا مسألة تكلم عنها العلماء ، وهى وقت خروج يأجوج ومأجوج .

فمنهم من يرى أنه لا مانع من أن يكونوا قد خرجوا ، بدليل ما جاء فى الحديث الصحيح من أن الرسول - ﷺ - قال : ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق أى بين أصابعه .

ولأن الآيات الكريمة تقول : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء .. ﴾ ووعد الله لا مانع من أن يكون قد أتى .

قال الشيخ القاسمى : والغالب أن المراد بخروجهم هذا خروج المغول التتار . وهم من نسل يأجوج ومأجوج - وهو الغزو الذى حصل منهم للأمم فى القرن السابع الهجرى . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك فى الأرض من فساد .. »[٢] .

وقال الشيخ المراغى عند تفسير قوله - تعالى - : ﴿ وكان وعد ربى حقا ﴾ وقد جاء وعده - تعالى - بخروج جنكيز خان وسلائله فعاثوا فى الأرض فساداً .. وأزالوا معالم الخلافة من بغداد ..[٣] .

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .
(٢) تفسير القاسمى جـ ١١ ص ١٤١٤ .
(٣) تفسير المراغى جـ ١٦ ص ٢٠ .

وقال صاحب الظلال : « وبعد ، فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن ، وفى بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر فى هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾ .

وهذا النص لا يحدد زمانا ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانساحوا فى الأرض . ودمروا الممالك تدميرا .

وفى موضع آخر من سورة الأنبياء : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. واقترب الوعد الحق ﴾ .

وهذا النص - أيضاً - لا يحدد زمانا معينا لخروجهم ، فاقتراب الوعد الحق ، بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - ﷺ - فقد جاء فى القرآن : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ والزمان فى الحساب الإلهى غيره فى حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون .

وإذا فمن الجائز أن يكون السد قد فتح ما بين : « اقتربت الساعة » ، ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التى اجتاحت الشرق ، هى انسياح يأجوج ومأجوج .. وكل ما نقوله ترجيح لا يقين[1] .

هذه بعض حجج القائلين بأنه لا مانع من أن يكون يأجوج ومأجوج قد خرجوا .

وهناك فريق آخر من العلماء ، يرون أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد ، وأن خروجهم إنما يكون قرب قيام الساعة .

ومن العلماء الذين أيدوا ذلك صاحب أضواء البيان ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه :

اعلم أن هذه الآية : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ﴾ وآية الأنبياء : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ قد دلتا فى الجملة على أن السد الذى بناه ذو القرنين ، دون يأجوج ومأجوج ، إنما يجعله الله دكا عند مجىء الوقت الموعود بذلك فيه . وقد دلتا على أنه بقرب يوم

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٦ ص ٢٢٩٣ .

القيامة .. لأن المراد بيومئذ فى قوله ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض﴾ أنه يوم مجيء وعد ربى بخروجهم وانتشارهم فى الأرض .

وآية الأنبياء تدل فى الجملة على ما ذكرنا هنا . وذلك يدل على بطلان قول من قال : إنهم « روسيا » وأن السد فتح منذ زمن طويل .

والاقتراب الذى جاء فى قوله – تعالى – ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وفى الحديث : « ويل للعرب من شر قد اقترب » لا يستلزم اقترانه من دك السد ، بل يصح اقترابه مع مهلة .

وهذه الآيات لا يتم الاستدلال بها على أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد – إلا بضميمة الأحاديث النبوية لها .

ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه فى ذلك ، وفيه : خروج الدجال وبعث عيسى ، وقتله للدجال .. ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون .

فينحاز عيسى ومن معه من المؤمنين إلى الطور .. ثم يرسل الله على يأجوج ومأجوج النغف فى رقابهم فيموتون .

وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النبى – ﷺ – بأن ا لله يوحى إلى عيسى ابن مريم بخروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال فمن يدعى أنهم « روسيا » وأن السد قد اندك منذ زمان ، فهو مخالف لما أخبر به النبى – ﷺ – مخالفة صريحة لا وجه لها ، ولا شك أن كل خبر يخالف الصادق المصدوق – ﷺ – فهو باطل ، لأن نقيض الخبر الصادق . كاذب ضرورة كما هو معلوم .

ولم يثبت فى كتاب الله ولا فى سنة نبيه – ﷺ – شيء يعارض هذا الحديث الذى رأيت صحة سنده ، ووضوح دلالته على المقصود .. »[1] .

والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب أضواء البيان ، أقرب إلى الحق والصواب للأسباب التى ذكرها ، ولقرينة تذييل الآيات التى تحدثت عن يأجوج ومأجوج عن أهوال يوم القيامة .

ففى سورة الكهف يقول الله – تعالى – فى أعقاب الحديث عنهم ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾ .

وفى سورة الأنبياء يقول الله – تعالى – : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. واقترب الوعد الحق .. ﴾ .

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٤ ص ١٨١ وما بعدها للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

وفضلا عن كل ذلك فإن الحديث الذى رواه الإمام مسلم عنهم ، صريح فى أن خروجهم سيكون من علامات الساعة ، والله - تعالى - أعلم .

ثم بين - سبحانه - ما أعده للكافرين من عذاب يوم القيامة فقال : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ .

وقوله : ﴿ وعرضنا ﴾ .. أى : أظهرنا وأبرزنا يقال : عرض القائد جنده إذا أظهرهم ليشاهدهم الناس .

أى : جمعنا الخلائق يوم البعث والنشور جمعا تاما كاملا . وأبرزنا وأظهرنا جهنم فى هذا اليوم للكافرين إبرازا هائلا فظيعا ، حيث يرونها ويشاهدونها بدون لبس أو خفاء ، فيصيبهم ما يصيبهم من رعب وفزع عند مشاهدتها .

وتخصيص العرض بهم ، مع أن غيرهم - أيضا - يراها ، لأنها ما عرضت إلا من أجلهم ، ومن أجل أمثالهم ممن فسقوا عن أمر ربهم .

ويرى بعضهم أن اللام فى « للكافرين » بمعنى على ، لأن العرض يتعدى بها ، قال - تعالى - : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار .. ﴾ وقال - سبحانه - : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ... ﴾ .

ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على استحقاقهم دخول النار فقال : ﴿ الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ﴾ .

أى : أبرز جهنم فى هذا اليوم العصيب للكافرين الذين كانت أعينهم فى الدنيا فى « غطاء » كثيف وغشاوة غليظة ، « عن ذكرى » أى : عن الانتفاع بالآيات التى تذكرهم بالحق ، وتهديهم إلى الرشاد ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم .

وفى التعبير بقوله : ﴿ غطاء ﴾ إشعار بأن الحائل والساتر الذى حجب أعينهم عن الإبصار ، كان حائلا شديدا ، إذ الغطاء هو ما يغطى الشىء ويستره من جميع جوانبه .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم ، أو ما يشمله ويشمل كل مافى الكون من آيات يؤدى التفكر فيها إلى الإيمان بالله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ صفة أخرى من صفاتهم الذميمة ، أى : وكانوا فى الدنيا - أيضا - لا يستطيعون سمعا للحق أو الهدى ، بسبب إصرارهم على الباطل ، وإيغالهم فى الضلال والعناد ، بخلاف الأصم فإنه قد يستطيع السماع إذا صيح به .

قال الآلوسى : فالجملة الكريمة نفى لسماعهم على أتم وجه ، ولذا عدل عن : وكانوا صما مع أنه أخصر ، لأن المراد أنهم مع ذلك كفاقدى السمع بالكلية وهو مبالغة فى تصوير إعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ماينفعهم بعد تصوير تعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار ..[١] .

ثم يعقب - سبحانه - على هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالتهكم اللاذع لهم فيقول : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ﴾ .

فالاستفهام : للإنكار والتوبيخ . والحسبان : بمعنى الظن .

والمراد بعبادى هنا : الملائكة وعيسى وعزير ومن يشبههم من عباد الله الصالحين ، إذ مثل هذه الاضافة تكون غالبا للتشريف والتكريم .

وفى الآية الكريمة حذف دل عليه المقام .

والتقدير : أفحسب الذين كفروا بى أن يتخذوا عبادى الصالحين آلهة يستنصرون بهم من دونى ، أو يعبدونهم من دونى ، ثم لا أعذبهم - أى هؤلاء الكافرين بى - على هذا الاتخاذ الشديد الشناعة .

إن كان هؤلاء الكافرون بى يحسبون ذلك ، فقد ضلوا ضلالا بعيدا ، فإنى لابد أن أعذبهم على كفرهم وشركهم .

أو التقدير : أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، لكى يشفعوا لهم يوم القيامة ؟ كلا لن يشفعوا لهم بل سيتبرأون منهم ، كما قال - سبحانه - ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ .

ثم بين - سبحانه - ضلال هذا الحسبان الباطل فقال : ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴾ .

والنزل : ما يقدم للضيف عند نزوله ، والقادم عند قدومه ، على سبيل التكريم والترحيب .

أى : إنا أعتدنا جهنم لهؤلاء الكافرين بى ، المتخذين عبادى من دونى أولياء ، لتكون معدة لهم عند قدومهم تكريما لهم .

فالجملة الكريمة مسوقة على سبيل التهكم بهم ، والتقريع لهم ، لأن جهنم ليست نزل إكرام للقادم عليها ، بل هى عذاب مهين له .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٤٥ .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وقوله : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ .

ويجوز أن يكون النزل بمعنى المنزل ، أى : إنا هيأنا جهنم للكافرين لتكون مكانا وحيدا لنزولهم فيها ، إذ ليس لهم منزل سواها .

ثم يأمر الله - تعالى - نبيه - ﷺ - فى أواخر السورة الكريمة ، بأن يبين للناس من هم الأخسرون أعمالا ، ومن هم الأسوأ عاقبة فيقول :

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم ء لهؤلاء الكافرين الذين أعجبتهم أعمالهم وتصرفاتهم الباطلة .

قل لهم : ألا تريدون أن أخبركم خبرا هاما ، كله الصدق والحق ، وأعرفكم عن طريقه من هم الأخسرون أعمالا فى الدنيا والآخرة ؟

وجاء هذا الإخبار فى صورة الاستفهام لزيادة التهكم بهم ، وللفت أنظارهم إلى ما سيلقى عليهم .

والأخسرون : جمع أخسر ، صيغة تفضيل من الخسران ، وأصله نقص مال التاجر .

والمراد به هنا : خسران أعمالهم وضياعها بسبب إصرارهم على كفرهم .

وجمع الأعمال ، للإشعار بتنوعها ، وشمول الخسران لجميع أنواعها .

وقوله - سبحانه - ﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

جواب عن السؤال الذى اشتملت عليه الآية السابقة وهى : ﴿ قل هل ننبئكم .. ﴾ .
فكأنه قيل : نبئنا عن هؤلاء الأخسرين أعمالا ؟

فكان الجواب : هم ﴿ الذين ضل سعيهم ﴾ أى بطل وضاع بالكلية سعيهم وعملهم فى هذه الحياة الدنيا بسبب إصرارهم على كفرهم وشركهم ، فالجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف .

وقوله ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ أى : والحال أنهم يظنون أنهم يقدمون الأعمال الحسنة التى تنفعهم .

فالجملة الكريمة حال من فاعل ﴿ ضل ﴾ أى : ضل وبطل سعيهم ، والحال أنهم يظنون العكس . كما قال - تعالى - : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ .

وهذا هو الجهل المركب بعينه ، لأن الذى يعمل السوء ويعلم أنه سوء قد ترجى استقامته . أما الذى يعمل السوء ويظنه عملا حسنا فهذا هو الضلال المبين .

والتحقيق أن المراد بالأخسرين أعمالا هنا : ما يشمل المشركين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن يعتقدون أن كفرهم وضلالهم صواب وحق .

وقوله - سبحانه - : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾ .
كلام مستأنف لزيادة التعريف بهؤلاء الأخسرين أعمالا ، ولبيان سوء مصيرهم .
أى : أولئك الذين كفروا بآيات ربهم الدالة على وحدانيته وقدرته وكفروا بالبعث والحشر والحساب وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب ، فكانت نتيجة هذا الكفر أن ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ أى : فسدت وبطلت .

وأصل الحبوط : انتفاخ بطن الدابة بسبب امتلائها بالغذاء الفاسد الذى يؤدى إلى هلاكها .
والتعبير بالحبوط هنا فى أعلى درجات البلاغة ، لأن هؤلاء الكافرين ملأوا صحائف أعمالهم بالأقوال والأفعال القبيحة التى ظنوها حسنة ، فترتب على ذلك هلاكهم وسوء مصيرهم .
وقوله : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ تصريح بهوانهم والاستخفاف بهم ، واحتقار شأنهم .

أى : فلا نلتفت إليهم يوم القيامة ، ولا نعبأ بهم احتقارا لهم ، بل نزدريهم ولا نقيم لهم ولا لأعمالهم وزنا ، لأنهم لا توجد لهم أعمال صالحة توضع فى ميزانهم ، كما قال تعالى - : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « إنه ليأتى الرجل

العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » . وقال : اقرأوا إن شئتم قوله تعالى - : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان مآل أمرهم فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا . واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ .

فاسم الإشارة « ذلك » مشار به إلى عقابهم السابق المتمثل فى حبوط أعمالهم واحتقار شأنهم . وهو خبر لمبتدأ محذوف . أى : أمرهم وشأنهم ذلك الذى بيناه سابقا .

وقوله : ﴿ جزاؤهم جهنم ﴾ جملة مفسرة لاسم الإشارة لا محل لها من الإعراب أو هو جملة مستقلة برأسها مكونة من مبتدأ وخبر .

وقوله : ﴿ بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ بيان للأسباب التى جعلتهم وقودا لجهنم .

أى : أن مصيرهم إلى جهنم بسبب كفرهم بكل ما يجب الإيمان به ، وبسبب اتخاذهم آيات الله الدالة على وحدانيته ، وبسبب اتخاذهم رسله الذين أرسلهم لهدايتهم ، محل استهزاء وسخرية .

فهم لم يكتفوا بالكفر بل أضافوا إلى ذلك السخرية بآيات الله - تعالى - والاستهزاء بالرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالوعد الحسن للمؤمنين فقال - تعالى - :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

وجنات الفردوس : هى أفضل الجنات وأعلاها . ولفظ الفردوس : لفظ عربى ويجمع على فراديس ، ومنه قولهم صدر مفردس ، أى : واسع .

قال الآلوسى ما ملخصه : عن مجاهد أن الفردوس هو البستان بالرومية ، وعن عكرمة أن الفردوس هو الجنة بالحبشية .

ونص الفراء على أن هذا اللفظ عربى ومعناه البستان الذى فيه كرم .

وقال المبرد : هى - أى كلمة الفردوس - فيما سمعت من العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : إذا سألتم الله - تعالى - فأسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن . ومنه تفجر أنهار الجنة[1] .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحات بإخلاص واتباع لما جاء به الصادق المصدوق - ﷺ - كانت لهم عند الله - تعالى - جنات الفردوس ، التى هى أفضل الجنات وأرفعها درجة ﴿ نزلا ﴾ أى : هدية تقدم لهم منه يوم القيامة ، ومكانا ينزلون به تكريما وتشريفا لهم .

﴿ خالدين فيها ﴾ خلودا أبديا ، حالة كونهم ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ أى : لا يطلبون تحولا أو انتقالا منها إلى مكان آخر ، لكونها أطيب المنازل وأعلاها .

وفى قوله - تعالى - : ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ لفتة دقيقة عميقة للإجابة على ما يعترى النفس البشرية من حب للانتقال والتحول من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال .

فكأنه - سبحانه - يقول : إن ما جبلت عليه النفوس فى الدنيا من حب للتحول والتنقل . قد زال وانتهى بحلولها فى الآخرة فى الجنة ، فالنفس الإنسانية عندما تستقر فى الجنة - ولا سيما جنة الفردوس - لا تريد تحولا أو انتقالا عنها ، لأنها المكان الذى لا تشتاق النفوس إلى سواه ، لأنها تجد فيه ما تشتهيه وما تبتغيه ، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا جميعا جنات الفردوس .

وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته ، ختمها - أيضا - بالثناء والحمد ، فقد أثبت - عز وجل - أن علمه شامل لكل شىء . وأن قدرته نافذة على كل شىء ، وأنه - تعالى - هو المستحق للعبادة والطاعة ، فقال :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص ٥٠ .

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

والمراد بالبحر : جنسه ، والمداد فى الأصل : اسم لكل ما يُمَد به الشىء ، واختص فى العرف لما تمد به الدواة مَن الحبر .

والمراد بكلمات ربى : علمه وحكمته وكلماته التى يصرف بها هذا الكون .

وقوله : ﴿ لنفد البحر ﴾ : أى لفنى وفرغ وانتهى . يقال : نفد الشىء ينفد نفاداً ، إذا فنى وذهب ، ومنه قولهم : أنفد فلان الشىء واستنفده ، أى : أفناه .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : لو كان ماء البحر مداداً للأقلام التى تكتب بها كلمات ربى ومعلوماته وأحكامه .. لنفد ماء البحر ولم يبق منه شىء - مع سعته وغزارته - قبل أن تنفد كلمات ربى ، وذلك لأن ماء البحر ينقص وينتهى . أما كلمات الله - تعالى - فلا تنقص ولا تنتهى .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ زيادة فى المبالغة وفى التأكيد لما قبله من شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وعدم تناهيه .

أى : وبعد نفاد ماء البحر السابق ، لو جئنا بماء بحر آخر مثله فى السعة والغزارة ، وكتبنا به كلمات الله - تعالى - لنفد - أيضاً - ماء البحر الثانى دون أن تنفد كلمات ربى .

فالآية الكريمة تصور شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وعدم تناهى كلماته ، تصويراً بديعاً ، يقرب إلى العقل البشرى بصورة محسوسه كمال علم الله - تعالى - وعدم تناهيه .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ : هذا كلام من جهته - تعالى شأنه - غير داخل فى الكلام الملقن ، جىء به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله على أتم وجه . والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة ما ذكر عليها دلالة واضحة :

أى : لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته - تعالى - لو لم نجىء بمثله مدداً ، ولو جئنا بمثله مدداً - لنفد أيضاً -[١] .

وقال بعض العلماء : وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه الأشياء مخلوقة ، وجميع المخلوقات منقضية منتهية ، وأما كلام الله - تعالى - فهو من جملة صفاته ، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى ، فأى سعة وعظمة تصورتها القلوب ، فالله - تعالى - فوق ذلك ، وهكذا سائر صفات الله - سبحانه - كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته[٢] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ولو أن ما فى البحر من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾[٣] ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بأمر آخر منه - تعالى - لنبيه - ﷺ - فقال : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، مبيناً لهم حقيقة أمرك ، بعد أن بينت لهم عدم تناهى كلمات ربك .

قل لهم : إنما أنا بشر مثلكم أوجدنى الله - تعالى - بقدرته من أب وأم كما أوجدكم . وينتهى نسبى ونسبكم إلى آدم الذى خلقه الله - تعالى - من تراب .

ولكن الله - عز وجل - اختصنى بوحيه وبرسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم ورازقكم ومميتكم ، هو إله واحد لا شريك له لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته .

فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن تستجيبوا لما آمركم به ، ولما أنهاكم عنه ، فإنى مبلغ عنه ما كلفنى به .

فالآية الكريمة وإن كانت تثبت للرسول - ﷺ - صفة البشرية وتنفى عنه أن يكون ملكا أو غير بشر .. إلا أنها تثبت له - أيضا - أن الله - تعالى - قد فضله على غيره من البشر بالوحى إليه ، وبتكليفه بتبليغ ما أمره الله - تعالى - بتبليغه للعالمين . كما قال - سبحانه - ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وكما قال - عز وجل - : ﴿ قل لا أقول لكم عندى

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٦ ص ٥٢ .

(٢) تفسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المتان ، جـ ٥ ص ٤٣ للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى طبعة مؤسسة مكة للطباعة والإعلام .

(٣) سورة لقمان الاية ٢٧ .

خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى . ﴾[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الجملة الجامعة لكل خير فقال : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : إنما أنا واحد مثلكم فى البشرية إلا أن الله - تعالى - قد خصنى واصطفانى عليكم برسالته ووحيه ، وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم إله واحد . فمن كان منكم يرجو لقاء الله - تعالى - ويأمل فى ثوابه ورؤية وجهه الكريم ، والظفر بجنته ورضاه ، فليعمل عملا صالحا ، بأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله - تعالى - ومطابقاً لما جئت به من عنده - عز وجل - ولا يشرك بعبادة ربه أحدا من خلقه سواء أكان هذا المخلوق نبياً أم ملكا أم غير ذلك من خلقه - تعالى - .

وقد حمل بعض العلماء الشرك هنا على الرياء فى العمل ، فيكون المعنى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يرائى الناس فى عمله ، لأن العمل الذى يصاحبه الرياء هو نوع من أنواع الشرك بالله تعالى » .

والذى يبدو لنا أن حمل الشرك هنا على ظاهره أولى ، بحيث يشمل الإشراك الجلى كعبادة غير الله - تعالى - والإشراك الخفى كالرياء وما يشبهه .

أى : ولا يعبد ربه رياء وسمعة ، ولا يصرف شيئا من حقوق خالقه لأحد من خلقه ، لأنه - سبحانه - يقول : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾[2] .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لقوله - تعالى - ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .

ومن هذه الأحاديث ما رواه ابن أبى حاتم ، من حديث معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن طاووس قال : قال رجل يا رسول الله ، إنى أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه رسول الله - ﷺ - شيئا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٠ .
(٢) سورة النساء الآية ٤٨ .
(٣) راجع تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٠٠ طبعة دار الشعب .

أما بعد : فهذه سورة الكهف ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بالقرآن الكريم ، وأن يجعله ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وشفيعنا يوم نلقاه ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة : مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ
الموافق : ١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوى

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الحجر »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة النحل »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الإسراء »

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الكهف »